

حديث لِقَام

الكتاب السادس عشر

٢٠١٧/١٠/١٢

Twitter: @abdullah1994

الدكتور محمد رهب البيومي

الدكتور محمد رجب البيومي

حديث القلم

١٤١١/١/١ هـ
الموافق
١٩٩٠/٧/٢٣ م



كتاب
نادي الأدب الثقافي بجدة



المملكة العربية السعودية
الرئاسة العامة لرعاية الشباب

النادي الأدبي الثقافي بجدة

ص.ب: ٥٩١٩ - ت ٦٨٣٤٦٦٣



مقدمة

نشرت كثيرا من البحوث الأدبية في شتى صحف العالم العربي ومجلاته ، ورأيت بعض الأفاضل من قراء هذه البحوث يطلبون صورا لبعض هذه الدراسات ، مع تشئت مصادرها وعجزي عن الرد في بعض الأحوال .

لذلك رأيت أن أجمع ما يتيسر من هذه البحوث ، مقدما ما تحت يدي دون جهد في البحث ، ليكون الحصول على هذه الآثار مجموعةً أيسر منها متفرقة .

وهذه الدراسات قد كتبت على فترات متباعدة ، وكل دراسة تمثل الصدق الواقعي لاتجاهي إبان كتابتها ، فإذا لحظ الناقد أنني جئت برأيين مختلفين في بحثين متباعدين ، فذلك لأنني أزاول النقد الذاتي لبعض ما أكتب ، وفي هذا الاختلاف - إن وجد - ما يدل على أن التصحيح الدقيق لمختلف الآراء لا يقف عند حد ، لأن الكلمة الأخيرة في كل بحث لم تقل بعد ، وليس معنى الاختلاف في الحكم ، أن يكون أحد الرأيين خطأ لا صواب فيه ، بل معناه أن أحدهما أقرب إلى الصواب في منطق الباحث عند تسجيله الرأي الجديد ، ومن يدري فلعل الزمن يوحى بترجيح ما ثبت ضعفه في فترة ما ، وهذا ما نلمسه عند كثير من كبار الباحثين ، إذ تتعاقب أراؤهم المختلفة في المسألة

الواحدة ، ولا عليهم مادام الفكر المتحرر يؤدي دوره في الترجيح والتعديل ، ولن يكون الاختلاف في هذه المجموعة التي أقدمها في (حديث القلم) بل فيما كتبت من دراسات أخرى ، إذ حرصت أن تتصل الحلقات متواكبة متساوقة دون نشاز في هذا الكتاب ، لتتفق له وحدة فكرية منسجمة ، وشكرا للنادي الأدبي بجدة حين تشرق هذه السطور من أفقه المنير ،

د. محمد رجب البيومي

المازنى يتبرأ من شعره

نعرف أن كثيرا من الناس يدعون أنهم شعراء ، ويرون فيما ينظمونه من الكلام المتفق مع الوزن العروضي نمطا رائعا من الشعر يرتفعون به أمام أنفسهم وحدها ، فإذا سمعوا ناقدًا مهذبا يبدي رأيه الصادق فيما يقولون ضاقوا به ورموه بالهوى المغرض ، نعرف هؤلاء المدعين ، ولكننا لا نعرف غير الشاعر الكبير ابراهيم عبدالقادر المازني شاعرا جياش العاطفة ، صادق الوجدان ، جيد التصور والتصوير ، بارع الصياغة ثم هو مع ذلك كله ينكر أن يكون شاعرا له مقامه الأصيل ، والمازني - بعد - ناقد أدبي كبير يعرف معادن القول ، ومنازع الارتفاع ، ومواضع الانحدار في البلاغة الشعرية ، وله في النقد الأدبي فصول رائعة كانت إحدى اللبئات القوية التي علا بها الصرح النقدي المعاصر ، أفيجوز لمثله أن ينصف غيره محللا روائعه ، ومفسرا ميوله واتجاهاته في صدق صائب ؟ ثم يجور على نفسه هذا الجور ! وهل يجوز لنا معشر القراء أن نقرأ شعره الأصيل فنشيع عنه لأنه تبرأ منه ! لقد كان موقف المازني من نفسه غريبا في بابه ، وموضع تساؤل نحاول أن نجيب عنه ، وفي أصدقائه من تبرع بالإجابة وليس أقرب إليه من زميله في النضال الأدبي ، وصاحبه في أخرج

عواصف النضال الأستاذ عباس محمود العقاد ، حين يقول
بصد هذا الاتجاه في حفلة استقبال المازني بمجمع اللغة
العربية - ببعض التصرف : «لم أر أحدا يجور على المازني
كما يجور المازني على فضله وقدره ، وقد طاب له منذ
سنوات أن يدأب على الاستخفاف بعمله والاستخفاف
بجدواه ، فأنكر على نفسه الشاعرية ، وأنكر غناء ما يكتب
وينظم ، وقد غالطته أحيانا فقلت له إن هذه البدعة منه
ضرب من المكر الحسن ، الذي لا يستغرب ، كأنه أراد أن
ينزل عن مكانه ليجلسه الناس عليه ، وأن يجحد حقه
ليثبته له الناس .

والأرجح أنني غالطته حين استفزته بمثل هذه التهمة
البريئة ، وأن حقيقة الأمر في هذه الخصلة أن المازني
يستخف بعمله ، وبغير عمله أحيانا ، لأنه يستصغر حياة
الإنسان في جانب أمد الخلود ، ومصاير الأقدار ، ولأنه
ينظر إلى أعلى ، ولا ينظر إلى أدنى ، فيقيس ما عمل بما أراد
أن يعمل ، فإذا هو دون ما أراد ، وإن كان فوق ما أراده
عاملون آخرون» .

فالعقاد يعترف أنه يغالط المازني حين يستفزه بأنه
يتبرأ من شعره ، وينزل عن مكانه ليُجلسه الناس عليه فهو
إن صاحب حيلة مأكرة في هذا الاتجاه ، أما العلة
الصحيحة لدى العقاد فهي أنه يقيس ما قال بما كان يجب أن
يقول فيرى نفسه مقصرا ، وفي كلام المازني ما ينبىء عن

ذلك ، ولكن الأدباء جميعا - إلا من حطمه الغرور - يقيسون ما قالوه بجانب ما يتمنون أن يقولوه فيجدون الفرق بعيدا ، لأن الآمال واسعة ، والجهود محدودة مهما بلغت مبلغها من الاتساع ، فلماذا لم يتبرأوا مما يقولون كما تبرأ المازني من شعره في إصرار .

لقد وجد كلام العقاد صداه القوي في نفس الشاعر المبدع الأستاذ محمود عماد رحمه الله ، فكتب تقديم شعريا لديوان المازني الذي قام على مراجعته وضبطه وتفسيره بعد وفاة الشاعر بتكليف من المجلس الأعلى للفنون والآداب ، قال فيه :

نظم الشاعر هذا الشـ

عمر يومما وارتضاه
ويوم آخر أنكر
ه ثم نفسيماه !
قال إن الشعر فن
ماله عندي أداه
والذي سطرت منه
دون مما قلبي وعاه
وأوى لا ينظم الشـ
عمر إلى يوم الوفاء
قلت ما أنصف إبر
اهيم فيمما قد أتاه

أين من بالنظم يسوما
قد تقضى مبتغاه
إن للنفس كلاما
لا تؤديه الشفاه
خير شعر الشاعر السلس
التوافي ما عساه

فعماد يوافق العقاد في رايه أن المازني يرى أن ما سطر
دون ما وعى ! وهذا حق ، ولكنه ليس العلة المانعة ،
ولكنها ظروف تتابع ، وأزمات تلاحت ، فتركت سحبها
الغائمة في نفس صافية شفاقة ، فكدرت نظرتها ، وعكست
اتجاهها ، إذ رأت السلامة في البعد ، والراحة في السكوت .

أوليات المازني

اتجه المازني في مطلع حياته إلى الشعر ينظمه ويكتب
عنه ، وكان مع رفيقيه شكري والعقاد ينتحون وجهة
جديدة تعطي مفهوما طريفا للشعر غير متداول بين
الجمهرة العامة ، فالشعر كما يقول المازني : يحلق بالمرء
فوق الحياة ، ويرغمه أن يحس ما يرى وأن يرى ما يحس ،
ويجعل القبح جمالا ، ويزيد الجمال نضرة وجلالا ،
ويفجر في النفس ينابيع الألم والأمل والفزع والسرور ،
ويذهب مياه الموت المسمومة المتدفقة في عروق الحياة ، فلا

جرم كان الشاعر أحس الناس وأعمقهم حكمة ، وأجمعهم
لخلال الخير ، وخصال الفضل ، هذا هو الشعر كما عناه
المازني ، أما الشاعر فهو من يقول عنه أيضا :

يرى من ستور الغيب حتى كأنما
يطالع في سفر جليل المراقم
له خاطر يقظان ليس بنائم
يجيش بأصداف اللآلي الكرائم
ولحظ كأن البرق ريش سهامه
يضيء حواشي كل أغبر قاتم
وروح كأن الكون من فرط رحبها
بها قطرة ، من زاخر متلاطم
كأن رياضاً في مثاني حروفه
أرجن بأنفاس الثغور البواسم
وما الشعر إلا صرخة طال حبسها
يرن صدها في القلوب الكواتم
يرقرق أنداء العزاء على الأسى
ويضرم طورا خامدات العزائم

هذا هو الشعر وهذا هو الشاعر في رأي المازني ، وقد هيا
نفسه أن يكون منذ تخرج من مدرسة المعلمين العليا هذا
الشاعر المرموق ، وأخذ ينقد ما لا يراه متفقاً مع مذهبه من
أقوال الكبار من معاصريه ، جريئاً غير هباب ، وكانت
الوظيفة الحكومية حينئذ أثمن شيء يحرص عليه ذوو

الدرجات الرسمية من خريجي المدارس العليا ، ولكن المازني رأى أن حملته على الشاعر الكبير حافظ ابراهيم غيرت عليه نفوس رؤسائه في وزارة المعارف ، فكانت توضيحته الأولى من أجل حريته الشعرية أن يستقيل من التدريس بمدارس الوزارة ؟ وأن يلاقي مصاعب العيش في التدريس الحرب بالمدارس الأهلية التي لم تكن ذات أجر دائم أو مكافئ ، ولكن صاحب الرسالة الأدبية شاء أن يكون حراً في رأيه غير عابئ بغضب أحد ، وهي حرية أرهقت نفسه ، وأقلقت معاشه ، وكان هذا أول بلاء واجهه حين اعتنق مذهبه الشعري الجديد !

أما البلاء الثاني فمعادة الصديق الأثير ذي الميل المتفق ، والرأي المتشابه ، لقد كان المازني يتصور أن خصومه سيكونون من مخالفي اتجاهه الشعري ، وهو حينئذ لا يعبا بهم ، إذ أن لكل وجهة هو مولياها ، ولكن صديقه وأستاذه وزميله في آن واحد الشاعر الكبير عبدالرحمن شكري قد قرأ شعر المازني فوجد في الجزء الأول من ديوانه قصائد مترجمة عن الانجليزية لم تنسب إلى قائلها ، مع أنه نبه المازني إليها ، وأشار عليه ألا يضمها إلى ديوانه حين يهزم بطبعه ، فكتب نقدا صريحا لصديقه ، نشره في مقال ثم كرره في مقدمة الجزء الخامس من ديوانه ، والمازني لا يعبا بنقود خصوم مذهبه التجديدي من شعراء البعث ومن يؤيد منحاهم الشعري ، ولكن النقد حين يوجه

من شاعريؤمن به ، ويكتب المقالات النقدية في تقدير أدبه ، فهو حينئذ لافتة خطر ذات ضوء باهر تنذر بالسقوط ! وليس المازني رغم هدوئه الظاهري بالذي يسكت عن الأذى مصيبا كان أو مخطئا ، ولكنه إنسان يفرح ويألم ويغضب ويعتب ، ويمدح ويهجو ، وقد رأى أن يرد على نقدرات شكري فقال في مقدمة الجزء الثاني من ديوانه من كلام متصل .

«أما ما اتهمنا بسرقة مما ورد في الجزء الأول من ديواننا ، فقصيدة «فتى في سياق الموت» ، وهي ثمانية أبيات ولقد راجعنا قصيدة الشاعر (هود) فوجدنا في قصيدتنا أبياتا ليست له ، ونحن ننزل عن القصيدة كلها راضين ونبرا إلى الله من تعدد أخذها والإغارة عليها ، وقصيدة (قبر الشعر) وهي خمسة أبيات نكلها إلى حظ أختها ، ولقد راجعنا الجزء الأول قصيدة قصيدة لنميط عنه الأذى ، وراجعنا دواوين الشعراء التي عندنا فلم نعثر على شيء يجوز من أجله اتهامنا بالسرقة إلا أبيات في (رقية حسناء) وهي «لشلي» والجزء الأخير من قصيدة (أمانى وذكر) وهو (البرنز) وأول هذا الجزء «يأليت حبي وردة» ولو أن ما أخذ علينا وما نهنا القراء إليه من تلقاء أنفسنا حذف ، لما أنقص ذلك من قيمة شعرنا فإن في ديواننا الأول نحو ألف بيت ، وليس ما أخذ علينا خيرها ولئن كان هذا دليلا على شيء فهو دليل على سعة الاطلاع وسرعة النسيان وهو ما يعرفه عنا إخواننا جميعا» .

هذا اعتراف صريح اضطر إليه المازني ، دون أن يشفع له قوله «ولئن كان هذا دليلا على شيء فهو دليل على سرعة النسيان وسعة الاطلاع ، لأن التعللة بالنسيان تكون في تشابه معنى ، وتماثل فكرة ، أما أن تكون في قصيدة مكتملة فالتبرير بالنسيان لا يكفي .

خصومة أليمة

قد يقدم الإنسان على حرب لا مفر منها ، وهو في أعماقه يلعن ظروفها وأسبابها ، وهذا الشعور وحده يجعله كالنادم في كل إصابة يوقعها بغريمه ، وهكذا اضطر المازني إلى أن يشن الحرب النقدية على شكري ، وهي حرب شاقة عسيرة ، لأن شكري زميل الاتجاه الفكري ، ورفيق المذهب الشعري ، وإذا كان الهجوم على شوقي وحافظ له أسبابه الداعية من اختلاف وجهة النظر بين شعراء البعث وشعراء الديوان ، فكل ما يوجهه المازني إلى شكري هدم لما اشتركا معا في بنائه ! إن الرجل يسير على الشوك في هجومه على صاحبه ، ولن يستطيع السكوت إزاء رميه بالسرقة ، لاسيما أن شكري كرر الصيال في مجلة المقتطف مرة ثانية ، وهبت مقالات الشامتين تشنع بالمازني ، وكان عجيبا أن يصدر كتاب الديوان ، وبه مقال للمازني عن شكري تحت عنوان (صنم الألاعيب) وموضع العجب أن الهجوم على شكري تحطيم لكل ما تقدم به المازني والعقاد معا من آراء

عديدة في الحقل الشعري ، والمهمة كما قلت عسيرة ، ولكن الغضب يُورث الافتيات ، ومن هذا الافتيات الظالم قول المازني إن شكري قد تكلف لجهله مالا يحسن إذ أراد أن يكون شاعرا وكاتباً من الطراز الأول ، وظن أن الاجتهاد يغني عن الاستعداد فلا هو بلغ إلى درجة مما طمع فيه ولا هو قنع بميسور العيش ، ولا نقول إن شكري مجنون ، ولكننا نقول إنه متجه إلى هذا الجنون وأن فكرته مألئة لجو حياته ، والخوف منه منغص عليه كل لذاته ..

وهكذا دار هجوم المازني في أكثره حول شكري لا حول شعره ، وإذا كنا نعرف عن شكري شدة الانفعال وضيق الصدر فقد تأثر بهجوم المازني تأثراً دفعه إلى الاعتزال الأدبي حقبة طويلة ، ففُضِيَ أكثر من سبعة عشر عاماً في أوج مقدرته الذهنية ، وقوته العاطفية لا يكتب ولا ينظم ، وهو معروف بشدة مراقبته لنفسه ، وتحليله لمشاعره ، وقد أفصح عن هذه المشاعر في قصيدة رائعة عدها الاستاذ العقاد من أقوى ما قيل في الشعر العربي بعامه ، إذ أنحى شكري على نفسه باللائمة كما أنحى على صديقه ، واعترف بنوازه الشخصية التي لم يستطع أن يسلم منها حين كرر الهجوم على صاحبه ، ولم يرحم زُلَّته الأدبية حين أخذ كلامه سواه ، وجمال شكري الرائع في صدقه الخالص من كل شائبة ، لأن هذا الصدق الدقيق أتاح له أن يصور النفس الإنسانية في شتى اتجاهاتها تصويراً بارع الريشة محكم

الاداء ، كما يرسم الضعف الإنساني لدى البشر عامة حين
تتحكم العاطفة السريعة في موازين العقل فيشتعل الضرام
أتيا على أعواد ناضرة تحمل جمال الزهر ، وعبير الروض .
يقول الاستاذ عبدالرحمن شكري منصفا :

حنوت على الود الذي كان بيننا
وإن صد عنه ما جنينا على الود
ولا أكذب الناس قلبي كقلبه
له أنه ميل عن النصف والقصد
كلانا جنى شرا فعاد إخوانا
محالا حكي ذكرى الشباب على بعد
أيلتئم الصخران في اليم بعدما
تردد موج اليم بالصدع والهد
وكنا على ماكان من قرب أنفس
كنهرين في وادي النضارة والبورد
هو البغض مثل الحب لحظ فمنطق
فنازلها بين الأضالع كالوقد
فياليت أني قد غفرت جفائه
ونبوته حتى يصد عن الصد
أبعد بلائي العيش أبغى مبرأ
وكيف ونفسي لي كما الضد للضد !
والحق أن المازني منذ اعتزل شكري مجال الادب ، كرر

اعتذاره في مقالات شتى ، وأكد اعترافه بسبق شكري ،
وفضله في توجيهه الأدبي ، وقال فيما قال عنه : ومن طول ما
عرفته ، وفرط ما ملأت نفسي به صرت على البعد والقطيعة
أستطيع أن أستوحيه ، فكأننا ما تباعدنا ولا تجافينا ،
ولقد تنمرت له وغدرت به ، ولكني والله ما كرهته ولا
انطويت له في أحلك ساعات النعمة إلا على الود والإكبار .

وقد كان في مثل هذا التودد ما يجر إلى الصفاء بعد الجفاء
ولكن شكري استبعد أن يلتئم الصخران في البحر بعد أن
يصدعهما الموج بضرباته المتتالية فيحدث الانشقاق ،
وهكذا نظر المازني في أمره مع صديقه ، فعرف أن الشعور كان
سبب القطيعة ، فكان عاملا آخر من عوامل هجره ،
واتجاهه إلى فن سواه .

أعباء الحياة

يحتاج الشعر الرائع في نظمه إلى تودة واستقرار ، فإذا
كانت الانفعالات النفسية ، والخواطر الوجدانية مما
يتدفق في نفس الشاعر ، فإن صياغة هذه الخواطر الرائعة
لدى شاعر كبير كالمازني يحتفل بالبيان الرصين ،
والفصاحة السلسة الشفافة ، تتطلب هدوءاً واتئاداً ، وقد
كان المازني قبل أن ترحمه أعباء الأسرة الكبيرة يملك هذا
الهدوء ، فنظم ديوانين كبيرين نسبياً ، ولكنه مع زحمة

الحياة ، وضرورة الكسب أخذ يرهق نفسه بالكتابة في الصحف ليعيش ، فهو يكثر من المقالات والقصص في الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية ، ولا يكاد مع هذا الجهد الجاهد يبلغ كثيرا مما يريد ، يقول الدكتور أحمد أمين في معرض رثاء المازني : «لقد ظل يحمل مشعله ، ويؤدي رسالته زهاء أربعين عاما ، يغذي الفكر العربي ويرهف شعوره ، وهو في ذلك لا يمل ، ولا تكاد تفتح عينيك كل يوم من غير أن ترى مقالا ينشره أو كتابا ، ولذلك كان دائما مضطرا أن يكتب ليعيش وتعيش أسرته ، يعاني المرض والألم ويحس الحاجة القصوى إلى الراحة ، ولكن أنى له ، والعيشة لا ترحم ، والحكومة لا ترحم ، والأغنياء لا يرحمون ، تتدفق الأموال على الراقصة الخليعة ، والمغني المهرج ، ويعيش الأديب عيشة سوداء كحبر قلمه ، ومن مجرى ضيق كشق قلمه !» .

ومن كان في هذه الدوامة الهائلة فله العذر أن ينفذ يده من القصيدة .

على أن المازني كتب عدة مرات عن مهزلة الخلود الأدبي وكيف اعتقدها في بدء حياته الفكرية وسعى إليها جاهدا ، ثم مضت الأيام وخلود الذكر وَهُمْ يتراءى دون أن يكون حقيقة واقعة ، لأن ذاكرة التاريخ تطمس أكبر الجهود ، ومن تسمح بذكره وترداد آثاره لا يجاوز معشار من يغمرهم النسيان ، بل إن المأساة كل المأساة أن تسمح ذاكرة الزمن

أحيانا بذكر الخامل على حين تسحب ذيل العفاء على النابه
المطبوع من أساطين البيان فالخلود أسطورة - في رأي
المازني - حاكها الأدباء لأنفسهم ، وكثر ترديدها حتى كأنها
حقيقة ، أما المازني فقد عرف السر الخالص ، وتحدث عن
نفسه حين قال يرثى ذاته :

أراد خلود الذكر في الأرض ضلة
فأورده النيران شر الموارد
فلا تندبوه إنه ليس بالأسى
حقيقا ولا أهل الهموم العوائد
وخلوه للديدان تأكل لحمه
وذاك لعمرى خطب كل البوائد

هذه بعض العوامل التي دفعت المازني إلى أن ينكر
شاعريته معلنا ذلك لقرائه ! ولكن السؤال الذي يجب أن
نسأل المازني عنه هو : صحيح أنه يعتقد في أطوانه أنه
غير شاعر ؟ وهل يجوز له أن يصدر حكما تقوم الحثيات
القاطعة على نفيه القاطع ؟ وديوانه الرائع دليل هذه
الحيثيات !!

نبضات من قلب جوته

عاش الشاعر الألماني الكبير «جوته» حار العاطفة ، جياش القلب ، وقد امتد به العمر إلى ما بعد الثمانين ، وهو يتنقل من هوى إلى هوى دون أن تهدأ لواعجه الساخنة ، ولئن استشعر قلق المحب وألم المهجور في بعض فترات حياته ، فإن هذا الشعور الممض المبرح قد ألهمه أبداع روائعه الأدبية ، فلولا ما تدفق في وجدانه من أحاسيس الصبابة ، ماترك هذه الآثار العاطفية التي جاوزت وطنه إلى شتى ربوع العالم ، فترجمت إلى اللغات المختلفة شرقا وغربا ، ولو لم يتسمع الشاعر الكبير إلى نبضات قلبه في أحلك ليالي الألم ما استطاع أن يخلد ذكره هذا الخلود ، وأن تظل روائعه مهوى الأفتدة الجريحة في كل زمان ومكان ! أجل ، لولا ما تدفق في وجدان هذا العاشق الكبير من أحاسيس الصبابة ، لكانت آثاره العلمية وحدها ذات ذيوع محدود ، في زمن محدود ولتوارت بالحجاب حين يكتسحها ما يعقبها من فتوح تجعل السابق ذكرى عابرة تسنح قليلا كبرق سريع في غيم متكاتف ! ولكن الشاعر العاشق قد وجد في شرايين دمائه وهجا حارا ، أقلق نومه ، وشرذ أمنه ، فأخذ ينفس عن لواعجه بما ترك من فرائد وجدانية في عالمي القصة والشعر ، وقد سعد قراء العربية

بكثير من روائعه العاطفية حيث نقلها إلى لغة الضاد ، طائفة من كبار الأدباء ، وكان هذا من حظ القراء ، لأن القصة الممتازة تحتاج إلى مترجم ممتاز يحلق في أوج جوته ، ويعيش في أفقه العالي ، دون أن تخذله قوته فيهوى إلى مستوى يفقد معه روح الفنان وإيماضه ، وقوة دافقه ، وسطوة إيحائه ، كما نرى في بعض المترجمات التي أساءت إلى الأصل فأظهرته متضائلاً يتوارى في أحقر الأسماط .

عاشق متقلب

على أن أعجب ما في حياة جوته الوجدانية أنه لم يصبر على طعام واحد ، بل كان دائم التنقل من مائدة إلى مائدة ! وأكثر هؤلاء المتنقلين لا يحملون من جنوات الصبابة ما يوقد الشجى بين الضلوع فلا يصدرون في نتاجهم الأدبي عن صدق مؤثر ، ولكن جوته كان من القلة التي صدقت وأخلصت في كل طريق عبرته ، إذ كان الحب يغزوه في وقت ما ، فيتجه إليه بكليته ، إذ يملأ شعاف قلبه . ويسري تياره الدافق بين دمه ولحمه ، فيصبح قلقاً مضطرباً كطير وقع في قفص لا يتسنى له أن ينفلت من حديدته ، وهو ما بين الأغلال يرسل أغاريدته الحارة نابضة متوهجة ، فإذا فتح القفص بعد أمد طال أو قصر ، وانطلق الطائر لفضائه الفسيح ، فإن أغاريدته السابقة قد وجدت مكانها المطمئن في القلوب ، وإن سامعها ليلمس فيها من وهج الاخلاص ما

يجذبه إلى معاودتها في إكبار وولوع ، وهكذا كان الحب المتعدد فيضانا يكتسح روح الشاعر في مواسم متتالية لم ينقطع عنه في أمد دون أمد بل صحبه حتى بلغ به فترة الشيخوخة ! والناس يعجبون لعاشق شيخ يتأوه ، كما عجبوا لعاشق متعدد الطعوم متنقل الهوى ، حتى إذا قرأوا جذواته المشبوبة حمدوا الله أن وجدوا نفوسهم اللاهفة في تلافيف ما يقرأون ويسمعون ، ورجعوا إلى العاشق الكبير بالثناء والتقدير .

ففي السادسة عشرة من سنه ، دخل الغلام اليافع جامعة «ليبسك» ليدرس الحقوق ، ولم يستطع أن يفرغ لدراسته الجادة حيث شغل بهوى فتاة أسماها في شعره (أنيت) كانت ابنة لصاحب حانة يعتادها ، وقد شغفته ولوعا فكتب فيها أولى نبضات فؤاده ، وظل يلاحقها حتى استجابت إلى ندائه ، ثم طاف به طائف الملال فتركها ، ورأى من لوم أصدقائه ما أخرج موقفه ، فاضطر إلى الدفاع عن نفسه ، فألف قصة تحت عنوان (مزاح المحبين) ولم تصادف اعجاب من عرفوه ، لأن المؤلف نظر إلى عواطفه المتقلبة ، دون أن يقدر غدره بمن لهج بها وجعل يطاردها حتى وقعت في الشرك ، ثم أعلن الجفاء دون أسباب ، وكذلك كان شأنه في جامعة (استراسبورج) حيث اهتدى إلى شابة فاتنة كانت ابنة لقس من رجال الدين ، تدعى (فريدريكا بريون) فكلف بها كلفا شديدا ، ونظم في حبها قصائد

جديدة ، انتقلت به من دور الطفولة الفنية إلى دور اليقظة
الناهضة ، وناقذو الأدب الألماني يعدونها نمطا طريفا من
الإبداع الشعري ، وقد استجابت الفتاة إلى هواتفه حين
لمست تولفه الضارع ، وما كاد عام يمر ، حتى عزف عنها ،
واتجه إلى التأليف الروائي فأصدر (جوتس فون) التي
جذبت الأنظار إلى الفتى الناهض وجعلت حديثه يتردد بين
الأدباء .

أما الحب اللاهب ذو الدوي الرنان حقا ، فهو ما وقع له
بعد أن ترك الجامعة ، وتهيأ لمزاولة المحاماة في (فتزلار) إذ
أحب (شارلوت بوف) بطلة قصته الرائعة (الأم فرتز) وهي
قصة ترجمها الأديب البليغ الأستاذ أحمد حسن الزيات إلى
العربية ، وطبعت ثلاثين مرة ، ورحب بها الناقدون في
مصر ، فقال الدكتور طه حسين عنها (ماكان لهذا الشعب -
شعب مصر - أن يجهل كتابا كآلام فرتز عرفه الناس جميعا
في أوروبا فأحبوه وكلفوا به ، حتى إنك لا ترى فتى أو فتاة
في السادسة عشرة من العمر إلا قرأه وقرأه ، وحاول أن يفهم
معانيه ، ويتأسى بما فيه ، وخيل إليه أن هذا الكتاب لا
يصف ما جال في نفس خاصة من فكر ، وما ملكها من هوى ،
وما أثر فيها من عاطفة ، إنما هو يصف الحياة النفسية لكل
شاب وشابة على اختلاف الأزمنة والأمكنة ، وعلى تباين
الأحوال والظروف) .

وما قاله الدكتور طه حسين قاله نقدة الآداب العالمية إذ

انتشرت الالم فرتر بين الخاصة والعامة ، وذكر الناقد الانجليزي (ادوارد شانكس) أن الرواية استحدثت مدرسة جذبت مناهجها أتباعا لا حصر لهم ، بل إن آلاف الشباب في أوروبا كانوا في وقت ما يجهدون أن يرتدوا من الثياب مثل ما كان يرتدي فرتر ، وأن نابليون قراها سبع مرات ، واستصحبها طوال أيام إقامته في مصر ، ثم دعا الشاعر إلى لقائه فيما بعد ، وحدثه عنها طويلا ، وموجز القصة يدل على تعرف جوته بحبيبته (شارلوت بوف) في فتزلار ، حيث اختلط بأسرتها ، وبادلها الهوى عن صدق ، ولكنه ارتطم بخطيبها ألبرت ، إذ وقف عقبة دون اقترانهما ، وكان ألبرت سمحا فلم يضق بصديق حبيبته ، وحاول أن يكون أخا مخلصا له ، وهو وضع ليس من الطبيعي أن يستمر ، وكان لابد أن يختم باختيار أحد الشابين ، وقد أثرت شارلوت خطيبها ، وأدرك الشاعر حرج موقفه فانسحب على أشد حالات الكمد ، ليكتب قصة غرامه مسجلا وقائعها المشتركة عن صدق واندفاع ولكنه جعل الخاتمة مهولة مزعجة حيث دفع بفرتر إلى الانتحار !

طارت القصة في كل مكان حتى أخرجت شارلوت نفسها ، إذ ذكر عن عواطفها الدفينة ما جعلها موضع النقد في مجتمعها ، وجائز أن يكون جوته قد كتب ما توهمه صادقا دون أن يكذب ، لأن الهوى قد غطى على بصره فافهمه مالم يكن ، إذ لو كانت تتجه نحوه أكثر من سواء لآثرته في

النهاية ، كما كان جوته مشتطا حين قسا على «ألبرت» فقال عنه دون موارد ، ما ننقل بعضه من ترجمة الزيات : «إن جسمي لتستقله الرعدة إذا ما أدار البير - ألبرت - ذراعه حول قدها الرشيق ، وإن كلمة تتردد على شفتي ، فهل ينبغي أن أقولها ، إنها لو كانت معي لكانت أسعد نفسا ، وأرغد عيشا منها معه ، ليس البير بالرجل الذي يقضي حاجة هذه النفس ، ويحقق مراد هذا القلب ، لقد تعوزه الحساسية ، إن قلبه لا يخفق مع قلبينا ، إذا ما قرأنا فصلا من كتاب ممتع ، تجد قلبي وقلب شرلوت يتقابلان ويمتزجان ، وقلبه عما نحن فيه بمعزل ، ولطالما دار الحديث بيننا عن إنسان ، فنذكر ما نحس له من عاطفة ، ونشرح ما نرى في عمله من رأي ، فننتفق أنا وشرلوت إلا البير فيقف منا على النقيض ، لا جدال في أنه يحبها من صميم فؤاده ، وهل جزاء هذا الحب إلا السعادة !» .

ولا أدري لماذا لم يغير جوته اسمي صاحبيه ، لينأى بعض الشيء عن مؤاخذه لائميهِ ، يخيل إلي أنه أراد بهذه القصة أن تكون رسالة خاصة يضعها في يد شرلوت ، لتفصح لها عن وجدانه العميق ، فتدرك ما يلتطم بداخله من موج ! صراحة دون موارد ! وقد أخطأ فيما أراد ، لأن ذلك كان مما يتيسر أيضا ، لو طرح الأسماء ، إذ أن صاحبه ستفهم كل الفهم ما يعنيه ، ثم يفسح لها مجال العذر كي تقول إنها غير المقصودة بكل ما قال ، وإنما جمع

الشاعر شتى تجاربه ليصحبها في إناء واحد ! لقد سد جوته باب العذر فقبول بعاصفة من مجتمع (فتزلزل) وكانت شلوت أول من جابهته بالإنكار ! وحق لها .

عود على بدء

تطلع جوته إلى الجديد أيضا وهو دائم التطلع إليه لا يكاد يغمض عينيه ، فقد انتقل إلى فيمار ، وتعرف بأكبر رأس بها وهو الدوق كارل أوجست ، وهو ذو موهبة أدبية ، ووالدته أيضا من نوابغ الأدب لعهدا ، وكان في هذه البيئة المثقفة ما يرتفع بعواطف الشاعر إلى نمط أعلى في أفق الصبابة ، ولكنه انجذب إلى زوجة ضابط من ضباط القصر ، وقد أنجبت سبعة أولاد ، ولم تلها الأسرة الكبيرة عن الهيام بالأدب والشعر ، وكان ذلك مدخل جوته إلى عقلها وحده ، لأنها أوصدت قلبها دونه فالتهب متأججا ، وأخذ يرسلها مستعظفا ، وكأنني بها - وقد قرأت الام فرتروما سبقها من مذكراته العاطفة أدركت تعلقه ، وانتقاله من صبوة إلى صبوة ، وهي بعد تكبره سنا وتجربة ! فما زاده إغراضها غير الحنين والتلف ، وهي الوحيدة التي ظل يرسلها بعد رحيله اثنتي عشرة سنة ! وكان صدودها الحاسم دافعه السريع إلى النقاط من تقع على الطريق ، إذ اتصل بفتاة تدعى كريستين فولبيوس ، وتمنعت عليه حتى أخرجته ، فاضطر إلى الزواج منها ، على رغم اعتراض

عارفيه ، إذ قارنوا بينها وبين من كتب فيهم جوته روائعه فلم يجدوا وجها واحدا من وجوه الشبه ! إذ كيف يخبر الذائق الفنان ألوان الترف العاطفي من لدى غانيات مثقفات موهوبات ! ثم ينتهي به المطاف إلى زوجة أمية جاهلة تكون أم ولده ، ولعل الشاعر قد تعب من صدماته القاسية ، وعز عليه أن تتوالى الصدمات فأثر الراحة إلى حين ، وأقول إلى حين لأنه سيرتطم في خاتمة حياته بحب كبير يتوجه إلى ملاذه في شيخوخته بعد أن فقد أسلحته الماضية كما سنشير إليه عن قريب .

إن خيال جوته المجنح كان الدافع الأول لتقلبه العاطفي ، لأنه كان يرى حواء بوهمه قبل أن يلحظها بعينه ، كان يسبح في أجواز هذا الوهم ليتصور فانتته حورية أسطورية ، فإذا وصفها فإنما يصف ما قام بذهنه من تصور ملائكي لا حقيقة لوجوده ! وحين يتم اللقاء ، وتكرر مواقفه ، وتتعدد مناسباته ، تظهر حواء على حقيقتها مجردة من كل خيال ، فيدب السأم إلى نفسه ، ويجد من العوامل ما يبعث على الخلاف فالهجران ! وكأن جوته قد عبّر عن هذه الخيبة القاسية تعبيرا رمزيا حين قال :

«لدى حلولي هذا المكان كنت كلما أجلت النظر في هذا الوادي الجميل من أعلى الربوة أشعر أن نفسي نزاعة إلى كل جهة من جهاته ، أرى الغابة الصغيرة هناك فأشتهي أن

أنفيا ظلها الوارف ، والملح قمة الجبل البعيد فأتمنى لو
علوتها ، وأبصر الهضاب المتسلسلة والوديان المنعزلة ،
قأود لو أضل في شعابها ، وأجول في رباهها فإذا ما ذهبت
إليها طائرا عدت أدراجي غير واعد ما كنت أرجوه وأمله ،
وهكذا أمر الغد ، ظلام متكاثف أمام النفس ، يخوض في
أحشائه القلب ، ويضل فيه ضلال البصر في المنظر البعيد ،
ويذيقنا الشوق إلى الانتقال إليه لنحظى بالشعور الفرد ،
والسرور المحض ، والعيش الرفيع ، فنركب إلى الوصول
إليه كل صعب وذلول ، حتى إذا تمثل الغد ، وتحقق
المرجو ، واقترب البعيد وجدنا كل شيء على حاله الأولى ،
حياة سيئة ، ومعيشة ضنك ، ومستراد حرج ، ورأينا
أنفسنا الصادية تحن عبثا إلى الشراب البارد العذب الذي
فاتها ، ثم يعاودها الأمل فتأمل .

تأمل هذه الصورة واجعل حواء مشبها والطبيعة
مشبها به ، تدرك ما يعني الكاتب اللهيف .

زليخا وحاتم

عاد جوته إلى مسقط رأسه وقد جاوز الخامسة والستين
من عمره ، وتطلع إلى مرابع طفولته ومسارح صباه تطلعا
بعث به وقدةً من الحنين ، فتأكد أنه سيقع في حب جديد
سيكلفه كثيرا ، إذ فقد أسلحته الساحرة التي كان يتمتع بها
في شبابه ، فكيف يخوض المعركة أعزل في هذا الزمن المثبط !

توقع الشاعر أنه سيقع في الحب لا محالة لأنه يعرف أن
 حصون قلبه واهية تسلم أبوابها لأول طارق ، بل إنه يعتد
 ابتعاده عن الحب موتا حقيقيا لنفسه ! فبه يحيا ، ومن
 هوائه يتنفس ، وبنوره تهدي عيناه ! وقد وضع يده على
 رأسه متحسرا لما يكمله من الشيب الأبيض ، ثم نظر إلى
 الأفق فرأى خيوطا بيضاء تشق طريقها بين الغيوم ،
 وتؤلف بينها نطاقا أبيض كأنه وشاح على خصر حسناء !
 فتفاعل بينه وبين نفسه ، وقال مبتسما لقد حسن منظر
 اللون الأبيض في عيني ، فقد يحسن شيبني في عين حسناء ،
 وما لبث أن نزل ضيفا على كبير من رجال المال يدعى (فون
 فيلمر) وكانت له زوجة شابة تتذوق الفن وتعشق الموسيقى
 وتجيد الشعر ، وقد سمعت بالشاعر وقرأت روائعه قبل أن
 تراه ، وامتدت فرص اللقاء فكلف بها جوته كعهده ، ورأته
 بطلا من أبطال الأدب العالمي فجاوبته ، وقد أحست بلهيبه
 دون أن ينطق ، فابتدأت بمكاشفته ، وبعثت له ببعض
 الرسائل ، ولا تسلم عن فرحة الشيخ الكبير وقد سقطت في
 كفه أنضج فاكهة من أجمل دوحة ، ولكن تجارب الأيام قد
 علمته ألا يصرح بما في مكنونه كما فعل في رواية فتر حيث
 أسخط شرلوت ! فآثر أن يكفى دون أن يسفر عن خفاياه
 الدفينة كألمسه البعيد ! ولو استطاع السكوت لفعل ،
 ولكن عواطفه الجائشة تتطلب المفيض ، وكان لا يزال
 يؤلف ما عرف في مؤلفاته باسم «الديوان الشرقي» فكتب

مقطوعات رائعة تحت عنوان (زليخا وحاتم) وهو شيخ واهن يكذب واقعه ما يريد ، فاختار حاتما ، وأوقع نقاده في حيرة من اختياره فما كان حاتم بالصب العاشق ، ولكنه جواد ضرب به المثل ، أترى جوته قد تشبه بحاتم في كرمه إذ بذل قلبه سخيا دون جزاء ! هذا ما يقوله بعض الكاتبين ، ولا أراه يطمئن في موضعه الصحيح ! وننقل شيئا مما ترجمه الأستاذ عبد الرحمن صدقي عن كتاب (زليخا وحاتم) حيث قال جوته :

حاتم : يا للغدائر الخلابة التي تيمّني ، لقد أوقعني شباكك في أسر هذه الطلعة الأسيلة الجلاء ، وليس عندي أيتها الأفاعي السود المحببة ما يضارئك ، ليس إلا قلبي وهو كعهده يتملا ويتفتح كالزهرة اليانعة ، إنه تحت الثلج الأشهب ، والدجن المخيم ، بركان مسجور يجيش بحبك ، لقد علت وجهي منك حمرة ، كما اصطلغت من الفجر مراقي الجبال الوعرة ، وأنس حاتم في نفسه مرة أخرى نفحة الربيع ووقدة الصيف .

زليخا : والله لا أرضى لك التلف ، فإن الحب يذكي الحب ويؤكد ، فابق بصبابتك زينة لصباي وما أشدني زهوا بمحبتك كلما سمعت إطرأ الناس

لعبقريتك ، فإنما الحب الحياة وعبقريّة الذهن
حياة الحياة ... » .

شد ما تباعد جونه عن أمسه ، كان في آلام فرقر يقرن
شبابه وجماله ونضرته بشباب شرلوت وجمالها حتى
ليغدوان متماثلين ، وهو الآن يعاني البرحاء تحت الثلج
الأشهب ، والدجن المخيم ، ثم يعلل نفسه بعبقريّة الذهن
لأنها حياة الحياة ! وعبقريّة الذهن لا تفيد شيئاً مع الخطو
المرتعش ، والانحناء الواهن ، والنظر الكليل .. أليس
كذلك ؟

المنفلوطى :

بين طه حسين والمازنى

ازدهرت مؤلفات الكاتب الكبير مصطفى لطفى المنفلوطى فى الجبل الماضى ازدهارا رائعا حيث أرضت حاجات القراء فأكبوا عليها تذوقا ونهلا ، ورأوا عواطفهم الصادقة فيما ترقق فى معينها من بيان حي ، ترن موسيقاه فى النفوس رنين الأوتار المغردة ، وتميل معانيه بالأرواح ميلا مؤثرا يهبها أرق المشاعر ، ويرتفع إلى أفق ساحر الطلعة ، متعدد الألوان ، وقد حفلت الكتب المدرسية إذ ذاك بنصوص مختارة من أدب الكاتب ، كانت مهوى الطلاب فخفت على السنتهم ، ورسمت أمامهم نمطا من التعبير يستشرفون إليه مشوقين ، وكثيرا ما أكبوا على استظهار هذه النصوص مؤثرين إياها على ما يقدم اليهم من نماذج البلغاء فى القديم والحديث لأن روحها الشفافة قد خلصت إلى أعماق الأعماق من نفوسهم ، وإذا سألت عن انحدار الأسلوب فى بعض ما نطالع من آثار الكتاب فى هذه الأيام فلأن كثيرا منهم لم ينشأ بين رياض المنفلوطى فيقرأ مجدولين والشاعر وفى سبيل التاج والفضيلة كما قرأها السالفون من قبل ، لقد كانت هذه الروايات الرائعة فردوسا للناشئين يطالعهم بأبهج ثمار الأدب من عاطفة حية .

وتصوير أخاذ ، وتعبير صاف مسترسل ، ولا يعنينا أن تكون هذه القصص صورة دقيقة من أصلها الأوروبي ، فسواء أضاف الكاتب ما رآه مناسباً أم وقف عندما قال صاحب القصة ، فإن المنفلوطي لم يتبوأ مقعده الأدبي مترجماً ، ولكنه رزق نعمة البيان فعبر عن ذاته في كتاب النظرات بأجزائه الثلاثة ، وأجرى يراعه فيما نقل إليه من صحف الغرب ليقدّم أثارا إنسانية ملكت نفوس القراء ، وتعددت طبعاتها حتى بلغت الأربعين ، وجذبت أبناء العربية في كل مكان ينطق أهلوه بلغة القرآن ، وقد خسروا كثيراً حين حرمانا الناشئين من أدب المنفلوطي ، وتركناهم إلى قصص بعضها مرتفع ، وأكثرها منخفض ، وفي هذا الأكثر ما لا يتصل بالبيان بسبب ، ولفظة البيان هذه بغیضة ذميمة لدى أناس لا يرتقون إلى التعبير الأدبي الصحيح فيما يؤلفون من قصص ، وقد أحسوا بعجزهم الشائن عن مستوى أدباء الجيل الماضي ، وبدلاً من أن يعملوا على الارتقاء بأسلوبهم أخذوا يضائلون من نفاسة البيان الحي ، ويعدونّه صنعة ذهنية ، وموصلاً غير جيد ، وقد انتشرت مؤلفاتهم الركيكة بين الناشئين من قبل ، فانخفضت بمستواهم العام ، فإذا سمعت متكلماً كبيراً يتلجلج ، أو قرأت مقالة مفككاً لمسئول يبدى وجهة نظره ، فاعلم أن هذا الطراز لم يجد من وجهه في مدرسته إلى الأدب الصحيح فأصبح عامي العبارة ، مضطرب الفكرة ،

وأصرُّ على وصفه باضطراب الفكرة ، لأن البيان المؤثر سمة بارزة لفكر قوي متماسك ، فهو إناء نظيف لماء نقي شفاف !

اسلوب واسلوب

كان أكثر المقالات الصحفية في أوائل هذا القرن يعالج مسائل السياسة والاجتماع معالجة من يهتم بالمعاني المسرودة مبدىا وجهة نظره في حديث يجمع الحقائق ، ولا يعنيه أن يرتفع بالتعبير ، ولكن جريدة المؤيد ظهرت فجأة بنمط من البيان النثري له تأثير الشعر في استمالة النفوس ، لما يخاطب به العواطف الإنسانية من إلهامات تجد صداها المتغلغل في أعماق النفس ، وإذا كانت المعاني طيَّ هذا البيان لا تتغلغل دقة واستقصاء ، فإن قراء الأوس لا يهشون لمثل هذا التغلغل ولا يصبرون عليه ، إنما يبهج نفوسهم أن يلمسوا أحاسيسهم المكثومة مفردة على يراع كاتب مبدع ، ولعل الأستاذ أحمد حسن الزيات أجاد وصف الواقع الأدبي حين صور تأثير المنفلوطي الكبير في قرائه ، وهو بعدُ خليفته في منحاه البياني ، ومكمل رسالته الفنية متأثرا لا محالة باتجاهه ، وإن ظهرت بعض الفوارق الأدبية بين قلم وقلم ، لعل الأستاذ الزيات أجاد وصف الواقع الأدبي حين قال :

«أشرق أسلوب المنفلوطي على وجه المؤيد إشراق البشاشة ، وسطع في أفنية الأدب سطوع العبير ، ورن في

أسماع الأدباء رنين النغم ، فرأى القراء الأدباء في هذا الفن الجديد ، ما لم يروا في فقرات الجاحظ ، وسجعات البديع ، وما لا يرونه في غثاثة الصحافة ، وركاكة الترجمة ، فأقبلوا عليه اقبال الهيم على المورد العذب .

وكان هذا النّفر الأيفاع من المتأدبين يجلسون في أصائل أيامهم الغريرة أمام الرواق العباسي يتقارضون الأشعار ويلهون بأغفال الناس ، ويترقبون المؤيد ، ليقرأوا مقال المنفلوطي خماس وسداس وسباع ، وطه (يريد طه حسين) مرهف أذنيه ، ومحمود (يريد محمود الزناتي) مسبل عينيه ، وفلان (يريد نفسه) مأخوذ بروعة الأسلوب فلا ينبس ولا يطرف ، وكلهم يودون لو يعقدون أسبابهم بهذا المنفلوطي الذي اصطفاه الله لرسالة الأدب البكر ، وجعله الإمام المفتي تلميذه المختار .

وإذا كان مؤرخو الأدب المعاصر قد تحدثوا عن ريادة المنفلوطي بما يحدد مكانته الأدبية ، وتأثيره في استقلال البيان المعاصر ، وخلوصه من وَضَر الصنعة ، وغناء الركاكة ، فإن فريقاً من ناقدتي العصر قد أبدوا رأيهم في أسلوب المنفلوطي متأثرين بوجهات خاصة ، منها المعتدل ومنها المتحامل المشتط ، وفي إيضاح بعض هذه الوجهات ما يعين على تمحيص الرأي ، وجلاء الصواب .

طه حسين

نشأ الدكتور طه حسين ثائرا متحفزا ، لا يرى من وجه الحياة غير صفحة النقد ، ولا يرتاح لغير الصراع المحتدم مادام يترك خلفه الشهرة والضجيج ، وقد ذكر الاستاذ الزيات من قبل كما ذكر عن نفسه أنه كان يطرب لأدب المنفلوطي ويقبل على تشربه خماس وسداس وسباع ، ولكنه انقلب فجأة يهاجمه في ضراوة تصل إلى درجة السباب دون أن يقدم من الحثيثات ما يدل على أن الناقد يهتدي بمقياس حيادي منصف جعله ، ينتقل من ناحية التقريظ إلى وجهة التجريح ، ومن الانصاف للدكتور أن نذكر أنه لام نفسه أعنف اللوم على موقفه هذا ، ووصفه بالسخف وما هو أكثر من السخف ، ولن نكون أكثر منه حرصا حتى نتعاطف معه في موقف لا يجد الشفيع من نفسه ، وإنما وجد منه شجاعة قوية ، دفعته إلى أن يقول في الجزء الثالث من الأيام :

«وعلى الشيخ عبدالعزيز جاويز رحمه الله يقع نصيب غير قليل ، من ثقل هذه الفصول السمجة الطوال التي كتبها الفتى فشغل بها الأدباء والمثقفين حيناً ، ثم لم ينقطع استخذاؤه لها ، وضيقه بها ، وخجله منها كلما ذكرت له ، وكان موضوعها نقد نظرات المنفلوطي رحمه الله ، وكان عنوانها «نظرات في النظرات» .

وما أسرع ما انزلق الفتى من هذا النقد السخيف إلى طول اللسان وشيء من الشتم لم تكن بينه وبين النقد صلة ، ولم ينس الفتى مقالا دفعه ذات مساء إلى الشيخ عبدالعزيز جاويش فلم يكذب يقرأ أوله حتى طرب له ، وأبى إلا أن يقرأه بصوته العذب ، على من يحضر مجلسه ذاك ، وابتهج حين سمع الثناء وأحس الإعجاب ، ثم لم يذكر بعد ذلك أول المقال حتى طأطأ من رأسه ومن نفسه ، وسأل الله أن يتيح له التكفير من ذنبه ذاك العظيم ، وكان بعض تبعه هذا السخف يقع على الشيخ عبدالعزيز جاويش» .

وأنا لا أدري كيف يتباهى الدكتور فيما قبل هذه السطور من الفصول السابقة بكتاب الأيام باستقلاله الفكري ، ونشوزه كل النشوز على أساتذته الأزهرين ، ومجابهته إياهم في تناول ، ثم يحاول أن يطمس هذا الاستقلال حين يجعل نفسه تابعا للشيخ عبدالعزيز ، وحين يحاول أن يلقي بعض التبعة عليه ، أين هذا الطموح الشامخ المترفع من التبعية ، ولم لم يشذ عنها - لو كانت - كما شذ على غيره فيما حكاه ! لقد هاجم طه المنفلوطي بعد عودته من فرنسا ، وبعد استقلاله كل الاستقلال من أثر الشيخ عبدالعزيز ، هاجمه ظالما غير منصف ، وأعلن أنه لا يحبه ، فهل استغفر الله من ذلك أيضا ؟ وهل بحث عن جاويش ثانٍ يلقي عليه تبعة ما كان !! لقد اعترف طه بتأثير جاويش ونوجبيه الأدبي والعلمي لتفكيره ، ولكنه لم يشيعه بكلمة رثاء ، ولم

يكتب عنه عشر معشار ما كتبه عن أحمد لطفي السيد ، لأن
استاذ الجيل كان صاحب منزلة سياسية وجامعية فيجب
أن يذكر له مكانه ، أما عبدالعزيز فقد ودع الحياة غريبا
عنها بعد أن ذاق آلام الجوع والتشرد والمرض في ألمانيا
مجاهدا في سبيل وطنه ، ورجع ليعيش متواريا في عمل
أصغر من مواهبه ، فلماذا يحفل به التلميذ الطموح كما
حفل بلطفي السيد !!

لقد ذكر طه فيما ذكره من نقداً «النظرات» أن
المنفلوطي أبعد الناس عن الحقيقة وأحبهم لاصطناع
الخيال ، وهذا خطأ لأن المنفلوطي كغيره من أساطين البيان
يتخذ الخيال مرآة لتصوير الحقيقة ، فوظيفته قوية في
إيضاح ما يريد من المعاني ، حين يظهرها ساطعة واضحة
ذات نفاذ في النفوس .

كما ذكر أن المنفلوطي مولع بالسرقة ، وهو ما عجز عن
إثباته ، إذ لا يكفي في تحقيقها أن يكون اسم النظرات قد
ذكره الرافعي من قبل ، إذ كان على الناقد أن يعتمد إلى فصل
من فصول النظرات ، فيذكر معانيه المسروقة ، وأفكاره
المغتصبة ليكون المنفلوطي سارقا بالدليل المفحم ،
والبرهان الملجم ، أما أن نقول إنه سارق وكفى ، فهو اتهام
باطل لا يقف على قدم ، بل يتداعى كالهباء .

ثم أخذ عليه أنه ذو معان تكرر وتتردد ! وهو مأخذ غير
دقيق ، لأن المنفلوطي كاتب اجتماعي يعالج أمراض

العصر ، وقد يضطر إلى تكرار علة يجد أصولها تمتد إلى علل مماثلة فيكرر بعض ما قال ، ليصل الحاضر بالماضي ، وسبيل الداعية أن يلح على استئصال الداء وتشخيص الدواء ، فإذا تركنا الفصول الاجتماعية إلى غيرها من فصول النظرات فلا نجد أثرا للتكرار في المعاني ، أما إذا أراد طه حسين أن يشير إلى حرص المنفلوطي على استعمال بعض الألفاظ التي تكاد أن تكون خاصة به ، فهذا شأن الكاتبين جمعا ، والدكتور طه نفسه ذو ألفاظ تتكرر ، وأساليب تلتصق به وتعد لازمة من لوازمه ، ولم ير في ذلك ما يوجه إليه على سبيل المؤاخذة ، فلم يؤاخذ الكاتب الكبير على طبيعة أدبية تلزم أكثر الكاتبين ، وتلوح لدى الناقد نفسه في أسطع مرآة .

والعجيب أن المنفلوطي قد ساق عن الكاتب الكبير محمد المويلحي ثناء مستطابا ، وقال إنه تلقى من أخيه المويلحي كتابا أشار إلى مضمونه ، أفيدري القاريء ما موضع النقد لدى طه فيما قال صاحب النظرات ، إنه يقول : جعلت الرجل أخاك ، وما علمته من الرياء بحيث يدعوك أخاه الكريم ، ولم يرك إلا مرات ثلاثا» ولورجع طه إلى محفوظه من كتاب الله لعرف أن المؤمنين إخوة ، بل لورجع إلى ذاكرته الواعية لأسعفته بقول أبي تمام في صديقه علي بن الجهم :

أو لم يكن نسب يؤلف بيننا
أدب أقمناه مقام الوالد !

وإذا استكثر طه على المويلحي أن يكون أخا للمنفلوطي
زعيم البيان في عصره ، فإنه بلا شك سيستكثر على
المويلحي أن يكون أخاله هو أيضا ؟ وما أظنه يطيق صبرا
على ذلك في تعاليه !

دعا المنفلوطي إلى إصلاح اللغة ، ورأى من حق الكاتب
أن يمدّها بتوسعة وافية عن طريق الاشتقاق والتعريب ،
وتلك بدهية لا تقبل الجدل ، ولكن طه يلج في العناد حين
يذكر أن اللغة ليست في حاجة إلى ما يريد صاحب النظرات ،
فهي لم تضق عن حاجات العرب ، وإنما جهل المنفلوطي
فادعى !

هذا نمط من نقد طه ، أكبر هادم له هو طه نفسه حين
اعترف بسخفه وسماجته ، وحاول أن يلقي تبعته على رجل
مظلوم ، مع أنه رئيس تحرير يفسح جريدته للمؤيد
والمعارض معا ! ولو كتب طه في موضوع آخر لرحب به
عبد العزيز ، وكثيرا ما فعل ، وقد شجعه على نشر فصول
حيوية أخرى يفتخر بها طه ، أفيعود فضلها إلى جاويش !!
ثم هاجم الدكتور طه المنفلوطي مرة أخرى بعد عودته
من أوروبا ، وقد صار أستاذا بالجامعة ، هاجمه حين أصدر
رواية الشاعر ، فصادت ارتياح الكتاب ، وكتب الدكتور
منصور فهمي كلمة منصفة في تقديرها ، فذكر أن الكاتب
الكبير قد أدى صورة حية بلسان عربي مبين نقلها عن
البلاغة الفرنسية الفائقة ، ولكن منطلق الدكتور منصور

فهمني لم يعجب صاحبه فاندفع طه حسين يعلن أن له رأيا في المنفلوطي قديما لا يتحول عنه ، وأن ما قام به من تحويل التمثيل إلى قصة مَسْحُ لا يرضاه غير من لا يقدرّون الفن قدره ، ولم يسكت الدكتور منصور فهمي فكتب يقول إنه يرى من الخير أن تكون عندنا في اللغة العربية فكرة صغيرة من أدب جديد ، فذلك أفضل من أن يهمل هذا الأدب ، ولو لم يكن ذلك ، لما نقل الفرنجة كتاب الله ، ولما قرأنا بالعربية شعر هوميروس ، كما أن الدافع للنقل من لغة قد يكون في إجمال الموضوع وليس في تفصيله ، وقد يكون في المعاني وليس في ثوبها التعبيري ، وتلك وجهة نظر قابلها الدكتور طه بهجوم عاصف حين قال للدكتور منصور فهمي : أعيذك ألا تكون مقالاتك مشجعة للمفسدين على إفسادهم ، وللأدعياء في الأدب على أن يسرفوا في ادعائهم ، وإن أحسن أثر للفلسفة إنما هو تقدير الأشياء وإقرار الأمور في نصابها ، وذلك شطط قابله الدكتور منصور فهمي بقوله : إنك مهما تشددت في النقد فلا تجد ما يبرر ذكر المنفلوطي مع الأدعياء ، وإنني مهما تساهلت في الفن فلا أستكثر وصف الكاتب الأديب حين أذكر المنفلوطي ، وانك تقول إن قراءة الموضوع أسهل على الناس في تركيبه القصصي منه في تركيبه التمثيلي ، فهلا ترى أن المنفلوطي وقد حافظ على الأصل أدى خدمة للجمهور إذ سهل عليهم قراءة هذا الموضوع الجميل ، أم ترى تسهيل الأدب والفن والعلم على

العامّة إثماً ليس له في ساحة غفرانك نصيب ، فإذا كنت ترى بدعة تحويل الرواية إلى قصة فتلك بدعة صالحة لا يستهجنها الذوق السليم ، ويستحق المبتدع عليها كل حمد وثناء ، وإذا كان أسلوب المحاوراة والتمثيل ، يتمشى مع بهاء اليونانية والفرنسية فإن العربية يتمشى مع روائها أسلوب القصص ، ولم يكن المنفلوطي ليمسح الفن أو يشوهه كما تقول بل حرص عليه حين حوّله إلى فن عربي صميم !

هذا ملخص ضئيل يشير إلى أهمّ مدار بين الدكتورين الكبيرين ، ونجد طه غير منصف حين عدّ المنفلوطي من الأدعياء ! وإذا كان يرى في عمله تشويهاً ، فلماذا أباح لنفسه أن ينقل التمثيليات الفرنسية الطويلة ملخصة مبتورة في كتابي (صوت باريس) و(لحظات) ولو فعلها سواء لقال إن الفن الروائي عمل متكامل يشوه بالتلخيص ، وليس أفكاراً علمية توجز وتختصر ، لأن جمال الفن في طريقة التناول ، وتسلسل العرض ، وهذا ما يشوه العمل الأدبي ويمسحه ! لقد جاوز طه صنيع المنفلوطي حين لخص المسرحيات الفنية في صفحات مبتورة ، ورأى في ذلك نفعاً للقارئ العربي ، على حين وجد المسخ والتشويه لدى المنفلوطي ، حين أخرج صفحة رائعة من صحف البيان متشعباً بما قرأ من حوار تمثيلي صار على يده تحفة أدبية ذات نفاذ وتأثير .

المازني

كان المازني في شبابه غيره في كهولته ، فهو في شبابه نائر
مخاصم صوّال ، يستلذ الخصام الجارح ، ويجوف
الحصاة حتى ليحسبها الناظر جبلا وهي حصاة ! ولهذا
خاصم حافظ ابراهيم وعبدالرحمن شكري ، ومصطفى
لطفی المنفلوطي في ضراوة لا تعرف الهوادة ، ثم هدأت
ريحه فمال إلى المهادنة ، وصار حربا على أدبه هو ، يضائل
من أثره وهو كبير ، ويستقل فنه وهو كثير ! وقد لحظ
المازني هذا التحول فبدأ قصته (ابراهيم الثاني) بقوله ،
تحت عنوان ايضاح :

«ابراهيم الثاني ، هو ابراهيم الكاتب ، أو كأنه على
أصح القولين ، ثم تغير جدا ، بحيث لو أمكن أن يلتقي
الابراهيمان لاحتاجا إلى من يقوم بينهما بواجب التعريف ،
ثم ذكر من شعره قوله :

إني أراني قد خلْتُ وانتسخت
مع الصبا سورة من السور
وصرت غيري فليس يعرفني
إذا رأيَ . صباي ذو الطور

ولو بسدا لي لبت أنكره
كأنني لم أكنه في عمري
مات الفتى المازني ثم أتى
من مازن غيره على الأثر

وفي عهد (ابراهيم الكاتب) سطر ابراهيم عبدالقادر المازني نقده العنيف للمنفلوطي بالجزء الثاني من (الديوان) فبدأه بكلمة تحت عنوان (أدب الضعف) يعلن فيها أن الادعياء في الأدب كثيرون ، وهم يستولون على القراء لجهلهم وقصور مداركهم ، وهو بهذا يمهد لما تلاه من هجوم على صاحب النظرات ، وقد تحدث المنفلوطي عن نفسه بما يشبه ترجمة موجزة لفترة من حياته ، ذكر بها نسبه المنتمي للحسين ، وهو أمر حقيقي يكشف عن معان خاصة دفعت صاحبها إلى سلوك خاص ، ولكن الناقد يصيح به ، ما للقراء وأجدادك الذين لم تزدنا بهم علما فيشفع لك ما أفدت في سماجة ما كتبت ، لقد قرأنا لجيته شاعر الألمان الضخم كتابا في تاريخ حياته لم يذكر فيه اسم أبيه ، وجال الناقد في تكرار هذا المعنى ، ولعله في دور الكهولة لو ألم بما كتب لراجع نفسه ، إذ أن حديث الكاتب عن أجداده يلقي الضوء على اتجاهه ، وقد تحدث المازني عن بشار بن برد في كتابه ، قوقف متندا أمام أصله الأعجمي ، واستدل به على منازع سببت كثيرا من مواقفه الأدبية ، بل إن المازني تحدث عن والده الذي رحل وهو

صغير ، وعن والدته التي نهضت بتربيته حديثاً تكرر كثيراً كثيراً ، واستطابه القراء غير لائمين ، فكيف أباح لنفسه ما أنكر على سواه ؟

وجاء الباب التالي ، ليصف أدب المنفلوطي بالنعومة والأنوثة ، والقول بأن أدب المنفلوطي ذو أنوثة خَطْلُ بجانب الصواب ، ولم يستطع الناقد أن يقدم برهانا قويا يسند منحاها ، وقد استشهد عليه بقول المنفلوطي :

«الاشقياء في الدنيا كثير ، وليس في استطاعة بئس مثلي أن يمحوشيناً من بؤسهم وشقائهم فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم هذه العبرات ، علهم يجدون في بكائي تعزية وسلوى» .

فيالله ! أين الأنوثة في هذا التعبير ، وكيف قال المازني إن هذه المعاني تقتل الرجولة ! إن الأجدر بوصف هذا المنحى أن نقول إنه أدب الرحمة ، والرحمة قوة لا ضعف فالرحيم كما يقول العقاد رجل فسيح النفس ، يتسع مداه لتحمل المآسي ، أما الباطش الناقم فضيف مهما تجبر لأنه لم يجد من نفسه قوة تردعه عن الانتقام ! وإذا كان المنفلوطي متشائماً جعل الحياة سوداء في عيون الناس كما ذهب الناقد إلى ذلك مؤاخذاً ، فليس المنفلوطي وحده في هذا المضمار ، فأبو العلاء المعري رأس المتشائمين في الأدب العربي ، ولم يكن تشاؤمه مدعاة انحدار لأدبه في رأي المازني ، بل كان موضوعاً للتحليل النفسي والاجتماعي !

وكان في طوق المازني أن يكشف عن مصدر هذا التشاؤم لدى المنفلوطي ، وهو يعرف أنه يتحدث عن مواجع وطن محتل يرهقه الفقر والجهل والمرض فوق بلاء الاستعمار ، والسائل من لون الإناء .

ثم انتقل إلى قصة (اليتيم) في كتاب العبرات ، ليجعلها أنموذجاً لأدب المنفلوطي وقد تسنم مكانته الأدبية باعتباره كاتب مقال ، لا منشيء قصة ، فاختيار قصة من قصصه للحكم على أدبه بعامة تعتمد مقصود لتوهينه ، ونظراً قاصر لأدبه ، وأوجع ما انتقصه المازني في هذه الأقصوصة هو روح المأساة التي اكتنفت بطل القصة ، فقد صار المنفلوطي بكاء نذابة لأنه صور هول مصابه ! واستطرد المازني يقول : إن «جيتة» الألماني ألف قصته الحزينة (آلام فرتر) ثم مات وهو لا يندم على شيء كما ندم على وضع هذه الرواية ، ولا يخجل من شيء خجله لذبوعها حتى تمنى لو استطاع أن يجمع نُسخَهَا ويلقي بها في النار !

وفي هذا الكلام مغالطة صارخة لا أدري كيف استساغها ناقد هادف كالمازني ، إن جيتة العظيم لم يخجل من (آلام فرتر) لأنها صورت مأساة حزينة ، فجرت الدموع ، وصعدت بالآهات ! إنه خجل من الرواية لأنه تحدث عن وقائع عاطفية تسيء إلى حبيبته (شارلوت) أمام الناس بعامة ، وأمام زوجها (البرت) بخاصة ، وقد انتقص الزوج لا لشيء سوى أنه غريمه ، فهاج عليه النقد لأنه تحدث عن

أسرة سعيدة بما يبذر روح الشقاق في حياتها ، وكانت (شرلوت) أول من ثار على هذا الذي صورها أمام الناس باسمها وصفتها بما يزعزع وفاءها الخالص ! وقد أدرك الشاعر العاشق مهواة ما انحدر إليه ، ورأى من صرخات المنكرين ما أزعج هدوءه ، فود أن تمحى القصة من الوجود باعتبارها مصدر نقد صارخ لسلوكه النفسي ، وحين مضى جبل (جيتيه) أخذت القصة مكانتها الممتازة بين عيون الأدب الغربي ، فليس استشهاد المازني بها في موضعه ! وإذا جاز له أن ينكر الالم فترتل روحها المأسوية فلينكر الكثرة الكاثرة من قصص الانسانية في القديم والحديث ، وليضف إليها قصة (اليتيم) في العبرات .

وقد كان المازني غير جاد حين تحدث عن أسلوب المنفلوطي في هذه القصة ، فذكر أن الكاتب مولع بالمفعول المطلق ، وسجل له سبعة وعشرين نصا تحمل هذا المفعول ، وهو اتجاه غريب لو سلكه كل ناقد لوجدنا من يقول إن العقاد قد كتب في مقاله ثلاثين نصا تحمل (الحال) وأن المازني قد كتب في مقاله خمسين نصا تحمل (الفاعل) ، ولا يفوت المازني أن للمفعول المطلق أثره في توضيح المعاني ، وإلا ما وجد ، وإذا أكثر منه المنفلوطي فقد جاء به في موضعه ، وكتاب الله أبلغ كتاب في العربية ، وهو مليء بالمفعول المطلق عند التأكيد والتثبيت ، واللجاجة في هذا المنحى مدعاة هزل لا جد .

قلت : إن المازني قد كتب نقده للمنفلوطي في مرحلة (ابراهيم الكاتب) ويقيني الجازم أن (ابراهيم الثاني) يقف من سلفه موقف المعارض المؤاخذ لهذا الاتجاه الذاتي في الهجوم والتجريح ، وليس المنفلوطي بمنأى عن النقد ، فله مؤاخذاته الواضحة ، ولكن النقد شيء ، والتجريح شيء سواء وقد نعمده المازني وطه حسين معا لحاجة في نفسيهما .

على الجارم

«سفير مصر في محافل العروبة»

أواجد أنا من يصدقني حين أقول إن الشعر العربي قد بلغ أوج ازدهاره في النصف الأول من هذا القرن ثم أخذت شمسُه تنحدر نحو المغرب ؟

أواجد أنا من يصدقني حين أقول إن الذين وصموا هذا الشعر ظلما بالخطابية والتقريرية ، قد عجزوا عن أن يأتوا بما يسد الفراغ الموحش بعد حملتهم عليه ، فانصرف الجمهور عن الشعر والشعراء ، وأخذ الديوان الشعري في هذه الحقبة الحاضرة يتوارى في المنحنيات والسراديب !

أواجد أنا من يصدقني حين أقول إن قصائد شوقي وحافظ ومطران ومحرم كانت تتصدر الصحف الأولى من الجرائد اليومية فتجذب الأنظار أكثر مما تجذبها خطبة زعيم سياسي تنشر معها في عدد واحد ! ويظل الجمهور مشغولا بما أبدع الشعر ما بين نقد وتقريض ، حتى تأتي قصائد جديدة لتلقى كل احتفاء !

أواجد أنا من يصدقني حين أقول إن زيارتي شوقي لبيروت ودمشق ، كانتا عيدين سعيدين في ديار الشام ، فالحفلات تقام ، والندوات تعقد ، والتصفيق يدوي ،

وكذلك كانت زيارة حافظ ، وسفارات علي الجارم المتعددة في ربوع الضاد ! فهل تغير الشعور وتغير الناس ؟!

أوجد أنا من يصدقني حين أقول إن فريقاً من نقاد اليوم خافوا على أنفسهم أن يتهموا بالقصور فاندفعوا إلى تأييد من يقول الشعر الآن ، فيأتي بالرموز المفتعلة ، والخيالات المغتصبة من فترات الغرب ، والشذوذ المضطرب في نشاز التفعيلات ، ليصبحوا بعد هذا التأييد معاصرين مواكبين ، وشاركوا بما يصنعون في انصراف الجمهور عن كل قصيدة تقال ، وإذا احتفى فريق من هؤلاء بأنفسهم ، فهو احتفال المسجونين في حجرة ضيقة يتحدثون لأنفسهم دون أن ينتقل الصدى إلى سامع ذواق .

قد يقال إن القصة والمسرحية قد انتشرتا فأخذتا الانتباه ! ولكن انتشارهاتين ، لا يمنع أن يزدهر الشعر كما كان ، ولكل كوكب أفقه الفياح !

نترك هذه الخواطر لنحدث عن سفارة الجارم في ربوع العربية ، ولننتفج على مجد أدبي قد ازدهر فينا ثم عاجله الذبول !

أوليات الجارم

تقدم علي الجارم إلى الأمة العربية بعلمه قبل أن يتقدم بشعره ، فقد عرفته ربوع الضاد بمؤلفاته الرائعة ذات الأجزاء المتعددة في البلاغة والنحو ، لأن ما كتبه الجارم في

هذين العلمين كان فتحا جديدا جعل الصعب سهلا ،
والبعيد قريبا ، لذلك تعددت طبعات (النحو الواضح)
حتى بلغت الخمسين ، وقُرت أجزاءه في مدارس الشام
والعراق والأردن والسعودية حينما طويلا من الدهر ،
وليت هذا الكتاب الرائع في منهجه العلمي وأسلوبه
التربوي ظل مقرا للآن في مصر ، ولكن الذين خلفوا الجارم
في التوجيه الفني أرادوا أن يؤلفوا كما ألف ، فحجبوا
شمسه ، ولم يسدوا مسده ، وحين انتقل شوقي إلى دار
الخلود تألق الجارم شاعرا ، كما تألق عالما ، فصار ممثل
مصر في محافل العروبة ، والجارم قوي البيان ، مكتمل
الأداة ، بارع الإلقاء ! كان الجارم أحد الفرسان الصائلة في
ميادين الفصاحة الباهرة ، حين كانت البلاغة مهوى
النفوس ، وحين كان الجمهور ذواقاً يلّم بشذور من روائع
الأدب في القديم والحديث ، فلما مثل مصر بشاعريته
الحافزة ، وديباجته العربية الناصعة ، جذب الأسماع لما
يقول ، لقد كان الحفل الجهير يضم أفذاذ الشعر من كل وطن
عربي ، ولكل شاعر منزلته الرفيعة دون ريب ، ولكن الجارم
يقف في الطليعة بين شعراء كبار ، فتكون قصيدته مجال
التقدير والملاحظة ، ويعود إلى مصر وكأنه عاد من فتح
حربي بعد أن سجل بطولة الانتصار ، وإذا كان المصريون
قد تعودوا حينئذ سماع روائعه بالاذاعة المصرية إلقاء
وترجيعا ، فإن بغداد وبيروت والخرطوم عرفت الجارم

الشادي المغرد حين هتف في ربوعها كرة بعد كرة ، فأوقد
جذوات الحماسة ، وأشعل حمية العروبة وأعاد مجد
السابقين من فرسان البيان ! وكان صادقا حين افتخر
بوحيه الشعري فقال مخاطبا بلدته المصرية (رشيد) .

هذا وليدك جاء ينشد شعره
ما كل ماتحوي الخيوط نظام
أضغى له الوادي وغنت باسمه
بغداد ، واهتزت إليه الشام

والوادي يشمل مصر والسودان ، وبغداد عاصمة
العراق ، وبيرت إحدى حواضر الشام ، وكان الشاعر
مجلجلا بصوته في محافل هذه البلاد ، وإليك بعض ماكان
في بغداد فحسب ، إذ لا يفي مقال واحد بحديث لغير بغداد .

الجارم في بغداد

للقصيدة العربية موسيقى أسرة تهز من يصغي إليها
ويشعر بها كل سامع على قدر استعداده ، مهما كان غريبا
عن تعمق المعاني ، واستشفاف الخواطر ، فإذا كان من
ينشد القصيدة عالما بفن الالقاء ، وتجويد الكلام ، وكان ذا
صوت لأولوي الإيقاع فإنه يبلغ بتأثيره النفاذ ما لا بُغْدَ
وراءه من التأثير ، وكذلك كان الجارم ، وقد لُقّب
(بالصنّاجة) لموهبته الالقائية ، فإذا جمع إلى هذا التفريد

الساحر ، عذوبة البيان ، ووضوح الديباجة ، وملك
التعبير عن الخواطر المكظومة ، والهواجس الدفينة حتى
كانه ينطق عن أغوار الناس في موقفه الإلقائي ، فإنه يهز
الحفل هزاً ، والذين ينكرون ارتياح السامعين لما يبهرهم من
الشعر ، ويعدونه من قبيل الخطابيات ، ينكرون الشعر
العربي منذ وجد إلى عصرنا هذا ، وعليهم أن يقطعوا
الصلة بين الطريف والتليد حين يأتون بضباب حائر تبده
الريح .

لقد زار الجارم عاصمة الرشيد ثلاث مرات ، فكانت كل
زيارة له موسماً شعرياً لا ينقطع صدهاء عدة شهور ، زارها
ممثلاً للمجمع اللغوي في المؤتمر الطبي ببغداد سنة
١٩٣٨م فأنشد قصيدته الذائعة :

بغداد يا بلد الرشيد
ومنارة المجد التليد

وفيهما تحدث عن سجل المجد الخالد ، إذ كانت بغداد
مضرب المثل الشroud ، وأنصع سطر للعروبة خط في لوح
المجد ، ولا يُنبئك عن بغداد مثل الجارم حين أخذ يناديها
مقائلًا :

بغداد يا دار النهي
والفن يا بيت القصيد
نبت القريض على ضفا
فك بين أفنان الورود

سرق التـدليل من (عـنـان)
والتفنن من (وحيـد)
بغداد أين البحتري
وأين أين ابن السـوليـمـيـد؟
ومجـالس الشعراء في
بيت ابن يحيى والمـرشيـد؟
أين القيمان الضـاحـكا
ت يـمـنن في وشى البرود
الساهرات مع النجوم
الأنفـسات من الهجـود
يـخـطـرن حتى تعجب الأ
غصـبان من لين القـمـود
وإذا سـفـرن فـأين ضـوء
الشمس من شفق الخـود
يعبثن بسـالـيـام والأيا
مُ أعـبث من وليـد
خبأ الجمال لهن كنـزا
بين سـالـفـة وجيـد

ويترك الشاعر مظاهر الترف والنعيم إلى مواقف القوة
والسلطان فيتحدث عن الجيش الزاخر بالأساد ، والبهو
الفسيح الحافل بوفود الدول ، قالرُسل تـتـلو الرسل من
بيض صقـالـبة وسود ، والجو يسـطـع بالسـيـوف ، والأرض
تـزخر بالجنود .

حتى إذا رجعوا بـ
بجباهم أثـر السـجـود

أما عواطف الشاعر الذاتية فهي عواطف كل عربي
مثقف شاعر ، يقرأ التاريخ ، ويجمع بالخيال إلى أبعد
مراميه ، فيجوز القرون النائية ، ويفك أسرار العقود ،
ويهتاجه الطيف البعيد فيصبو إلى ظل الجاه والعزة في
زمان المجد الغابر ، وينادي أمة اليوم أن تعيد مجد
الأمس ، فالיום يوم السباق والعدو ، لا التقهقر
والنكوص ، والمجد يدعو ذويه للصعود فلانكول ، كل هذه
المعاني وجدت متنفسها العاطر في قول الجارم :

بغداد يا وطن الأديب
وأيكـة الشعـر الفـريـد
جـددت أحـلامـي وكنت ،
صـحـوت من عـهد عـهد
جـمـح الخـيـال فـما اطمأ
ن ولا اسـتقـر إلى خلـود
جـاز القـرون النـائـيـا
ت وفـك أسـرار العـقـود
ذـكـر العـهـود فـأن للذ
كـرى وحنّ إلى العـهـود
واهـتـاجـه الطـيـف البـعـيد
فـجـنّ للـطـيـف البـعـيد

يا أمة العرب اركضي
ملء العنان ولا تهدي
المجد أن تتوحي
وإذا وثبت فلا تحدي
وتحلقي فوق النجوم
بلا شبيهه أو نديد
وإذا شدا الكون المفا
خير كنت عنوان النشيد

أما أثر القصيدة في الحفل الحاشد بعلمائه وأدبائه
ومفكره ، فقد عبّر عنه الدكتور زكي مبارك ، ولم يكن
صديق الجارم إذ كانت بين الرجلين شوائب العمل
المشترك ، ولكن المبارك خلص للحق حين قال في كتابه (ليل
المريضة في العراق) مخاطبا الجارم .

أيها العدو المحبوب ، تذكر أنك كنت حقا وصدقا شاعر
مصر في المؤتمر الطبي العربي وستمر أجيال وأجيال ولا
ينساك أهل العراق .

هل تعرف مصر أنك رفعت رأسها في العراق ، وأنت كنت
خليفة شوقي في المعاني ، وخليفة حافظ في اللقاء ، إنني
أطلب المستحيل حين أطلب من مصر إنصافك ، وهل
أنصفتني مصر حتى تنصفك ؟

يرحمني الله ويرحمك ، فعنده وحده جزاء المجاهدين !
وكلام زكي مبارك اعتراف تقريره مجرد من الوصف

التصويري ، ولكن الأستاذ عبد المنعم خلاف وكان أحد شهود الحفل أجاد الوصف الدقيق الشامل حين قال : نقلا عن مجلة الرسالة .

«ثم وقف الجارم يُرسل قلبه في صوته المعهود ، الذي يُخِيلُ إلَيَّ أنه كله أهة عميقة من فرط الشجو وإثارة المعاني التي لا تظهر إلا إذا تلاها ساحر رقية ، أو عزف لها عازف برنة ، أو شدا لها شادٍ بحنه ، أو خيل لها مُخِيلٌ بريشة .

وقف - الجارم - بقلب وجهه في السماء والأرض والجهات الأربع ، في قلق وغيبوبة شاعر ، ويمسح على أبصار الجمع بحركاته ، ويرسل نشيده ، فيخيل إلَيَّ من سحره ، أن كلماته أجسام تسعى ، أو أمواج تطغى على قلوبنا فتملؤها بالذكرى الحادة ، ثم بالفخر النافخ ، ثم بالضحك المرسل ، ثم بالعزم الدافع ، ثم بالأمل القريب ، وكنت أرقب خلسة وجهي طبيبين أوروبيين ، أخذا مجلسهما بجانبني يستمعان في غير فهم إلى ما يقال ، ويريان صداد ، صفق كف بكف ، وتلاقى هتاف بهتاف فأعرف ما يقولان» .

زيارة تالية

اشتعلت الحرب بين قبائل شمّر والعبيد في بادية العراق ، ورأى شيخ العرب المصري ، والمجاهد السياسي المعروف حمد الباسل باشا أن ينهض بالصلح بين القبيلتين العربيتين ، وبذل من الجهود المباركة ما كُلِّل بالنجاح ،

فاحتفلت السفارة المصرية ببغداد بهذه المناسبة الرائعة ،
وتصدر حمد الباسل مجلسه بين شيوخ القبيلتين ، وأعيان
الدولة من الوزراء وذوي الشأن ، وكان الجارم حينئذ
ببغداد ، ينوب عن وزارة المعارف في حفلة تأبينية كبرى
لراحل عظيم ، وأُتيح له أن يشهد مع حمد الباسل الجلسات
الآخيرة للصلح ، حتى إذا أثمر المسعى ، وقامت السفارة
المصرية بحفلتها المهيّنة ، كان الجارم شاعر الحفل ، فدعا
للسلام ، وطاق بذهنه زهير بن أبي سلمى حين هذا العرب
مباهايا بالصلح السعيد بين عبس وذبيان ، فأشاد به
وتمنى أن يكون بين القوم ببغداد .

فليت زهيراً بيننا بعدما خبت
لظى الحرب وانجابت غيوم القساطل

على أن الجارم في قصيدته قد كان موهوباً ملهماً إذ
استهول أن يقتل الأخ أخاه ، وهو درعه الواقى في
النوائب ، وإذا مسه الخطب فداه ، دمه من دمه فيا ويل ما
صنعت يده إذ همت لترميمه ! ولعلنا في مآسي العرب
والمسلمين اليوم بلبنان وخيام الفلسطينيين ، وبالعراق
وإيران نردد ما قال الجارم ، إذ صاح :

أخي أنت درعي إن ألت ملهمة
وإن فدحتني عابسات النوازل

أخي أنت من نفسي ، دماؤك من دمي
«فإن كنت مأكولا فكن خير أكل»
أرمني أخي ياويل ما صنعت يدي
فياليتها كانت بغير أنامل !
إذا مسني خطب فأول راكب
يخوض لي الجلى ، وأسرع نازل
أكلت دما إن لم أزد عن حياضه
كريما ، وأدفع عنه كيد الغوائل
وأبسط كفي نحوه غير جافل
ويسط نحوي كفه غير جافل
إذا البید لم تثبت نباتا فحسبها
فقد أنبتت فينا كريم الشمائل
ألسنا الكرام الفر من آل يعرب
لدى الروع أو عند التفاف المحافل
وقد انتهى الحفل ، وخرج المجتمعون يرددون شعر
الجارم ، حتى الاميين الذين لا يقرأون ولا يكتبون من
شيوخ العرب في شمر والعبيد ، طربوا للشعر ، وطلبوا
عدة نسخ من القصيدة ليقرأها الأولاد في المدارس وماكان
لديهم من المدارس حينئذ إلا مدرستان ابتدائيتان تُعلمان
عددا محدودا من التلاميذ في بيئاتهم المترامية ، ولكن نفاذ
الشعرو قوة تأثيره مما لا يُرد !

أما حفلة التابين الكبرى لرأس العراق فقد جمعت
صفوة الشعراء في العالم العربي ، إذ أرسلت كل دولة من
يمثلها من كبار الشعراء ، كان الجارم وشبلي ملاطوبدوي
الجبيل ، وفؤاد الخطيب من فرسان المحفل ، ولكل شاعر
جناحه الصاعد وأفقه الفسيح ، وقد وصف الشاعر
المصري روابط الود بين النيل والفرات ، وقَوَّى أواصر
الإخاء حين عقدها على اللغة والإسلام ، وخاطب حمامة
الرافدين بأرق ما يقوله شاعر حزين ! قال :

حمامة وادي السرافدين ترفقي
بعثت الجوى ما كان منه وما جدًا
ففي النيل أرواح ترف خوافق
تقاسمك التاريخ والدين والودا
ظمماء إلى ماء بسدجلة سلسل
تود بنور العين لو رأت السوردا
إذا مست البأساء أكناف دجلة
قرأت الأسى في صفحة النيل والكمدا
وإن طُرفت عين ببغداد من قذى
رأيت بمصر أعينا ملئت سهما
إخاء على الفصحى تسوق عهده
وشدت على إيمان أطرافه شدا
لنا في صميم المجد خير أبوة
زهينا بها أصلا ، وتاهت بنا ولدا

وقد قوبلت القصيدة بوقار الخشوع ، وهزة الاعتبار ،
لأن جو الرثاء لا يخرج عن هذا النطاق .

في تأبين الزهاوى

ذهب الجارم أول ما ذهب إلى بغداد مشتركا في تأبين
الشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي ، وللزهاوي
منحى في الشعر يخالف منحى الجارم ، كما أن تهجمه في
بعض شعره على الغيبيات مما يرفضه شاعر محافظ متشدد
كالجارم ، وكأنني به وقد حار فيما يقول ، أو فيما ينبغي أن
يقول ، ليوفق بين اتجاهين يكادان يتعارضان ، لذلك كان
الجارم ذكيا غاية الذكاء حين رثى الشاعر بالمعنى العام لكل
سباح في أجواز القريض لا بالمعنى الخاص الذي ينحصر في
شخصية الزهاوي ، فقد بدأ القصيدة بما يقرب من ثلاثين
بيتا يتحدث فيها عن روض باسم غادره طائرته فأقفر ،
وارتمت مصوحة أزهاره ، فذوى نبتة بعد البشاشة
وانقطعت ترانيمه المشجية فوق الأغصان وكانت :

إذا أرسلت ألحانها في خميلة
توائب زهر الروض واهتز عاطره
وإن هتفت بالدوح مال كأنما
يسايرها في لحنها وتساييره

أملت بأسرار النفوس فترجمت
كما فسر الحلم المحجب عابره

هذا ما كانت ، أما بعد أن رحلت ، فقد مضى الغدير
العذب ، وجف الروض المزهر ، وأصبح قابضاً موحشاً :

تدور به جم البابل مطرقا
ولم تدر أن الدهر دارت دوائره
وتصفي فلا تجتاز سمعك نغمة
سوى أنه يلهي بها الحزن قاهره
وتدعو فلا تلقى مجيباً سوى النوى
تطرح مطوى الأسى وتحساوره
وقفت به ، والقلب يحبس وجده
فيطفى ودمع العين ينهل بادره
أرى ما أرى : إلا غباراً أثاره
خميس الليالي حينما ثار ثائره
مضى الطائر الصداح فالأفق موحش
حزين النواحي عابس الوجه بأسره

وكان الجارم مهذباً لبقاً حين أشار إلى حيرة الشاعر
وتردده بين الشك واليقين ، أشار إلى ذلك إشارة لبقة مهذبة
لأن مجال التأبين في قصيدة شعرية ، وفي حفل أعد للتأبين
لا يسمح بغير الإشارة المهذبة التي جاءت في قول الجارم :

حنانا له ، كيف استقرت به النوى
وكيف ثوى بعد التهلل حائره
وهل بعد ليل في الحياة مؤرق
كثير التظني أبصر الصبح ساهره

قال ذلك بعد أن وصفه بالجرأة مادحا ، وبعد أن ذم
المرائين المخادعين ، إذ يعيشون بنفوس شتى ، فترى
أحدهم مع النسك في خلواته ، وفي الحان قد أتى
بالموبات .

ثم انتقل الجارم إلى الأوج الفسيح حين ترك الزهاوي إلى
العراق وماضيه الزاهر ، ولا يبدع في هذا المجال غير شاعر
كالجارم مليء الصدر بتاريخ العراق سياسة وحضارة وأدبا
وعلماء وفنا وثقافة ، وإنه ليتحدث عن بعض ذلك فيقول :

سموت إلى بغداد والشوق نحوها
يساورني حيناً وحيناً أساوره
كلاننا نكأى عن أهله وعشيرته
ليلقاه فيها أهله وعشائره
حبيب إلى نفسي العراق وأهله
وسالفه الزاهي المجيد وحاضره
ديار بها اسلام أرسل ضوءه
فسار مسير الشمس في الأفق سائره
ومدت بها الآداب ظلا على الوري
تساوت به أصاله وهواجره

إذا شئت مجد العرب في عنفوانه
فهذي مغانيه . وهذي منائره

وقد كرمتم العراق شاعر مصر الكبير علي الجارم فمنحته
وسام الرافدين ، كما كرمه لبنان فمنحه وسام الأرز ، أما
مصر فقد منحته وسام النيل ثم أهدته الرتبة الثانية ، وذلك
بعض ما يستحق .

ديوان الجارم

ظهر أخيراً ديوان علي الجارم محتفلاً بطبعه وإخراجه في
أجمل مظهر ، وقد قام نجله الكريم بمجهود مشهود في جمع
ما تناثر ، وإذا شاء أن يتصل بي فسأرسل له عدة ملاحظات
نقدية على بعض الشروح المدونة للأبيات ، كما أرسل إليه
قصيدة ممتازة نسي أن يلحقها بالديوان كانت مدحة صادقة
لزعيم مصر الكبير مصطفى النحاس ومطلعها :

أبت أعلام مجدك أن تُسامى
وعزّت همّة لك أن ترامى

لتكون إلى جوار أختها التي صدرت بالديوان ص ٥١٥
وهي من عيون الشعر العربي الأصيل .

المدح في شعر علي الجارم

كان الشاعر الكبير الاستاذ علي الجارم رحمه الله مزاء
السمع والبصر في حياته ترن قصائده في العالم العربي

فتلقى من الاحتفاء والترحيب مالا يزيد عليه ، ولكن ستارا من النسيان بعد وفاته قد باعد ما بينه وبين الشبيبة من أبناء هذا الجيل ، وكنت أعجب كيف تعتمد كثير من الدارسين تجاهله عن قصد مريض ، وأتساءل متحيرا عن سر هذا التجاهل ، فأسمع من المبررات مالا يثبت على التحقيق ، لأن زملاء الذين نهجوا نهجه شكلا وموضوعا قد وجدوا من الدراسات التحليلية ما لم يُتَح لشعره الرصين ، وقد كتبت عنه عدة بحوث في الأديب اللبنانية والثقافة والهلال والتضامن الاسلامي ، وشاركني الحديث عنه نفر من تلاميذه ولكنها صيحات لم تجد التجاوب المنشود ، وحين تلقيت هذه الدعوة الكريمة للحديث عنه ، كان التفكير الدائب في أسباب تجاهله يسيطر على ذهني ، فتعمدت أن أختار موضوعا يذكر كثيرا في مجال الاعتراض عليه ، إذ يقول بعض من يشيخون عن أدبه إنه أكثر من المدائح ، وكأنه بذلك قد انفرد وحده باتهام يستحق عليه الإهمال ، فرأيت أن تكون كلمتي خاصة بهذا الاتجاه .

لقد كان الجارم عريق الثقافة ، واسع الاطلاع ، وقد سافر إلى انجلترا فاتصل بمعاهدها العلمية دارسا متمكنا ، وحذق لغتها وترجم عنها بعض الآثار العلمية ، فمثله لا يُرمى بضيق النظر واكتناز الأفق ، لأن الجارم قد حدد رسالته الأدبية عن عمد مقصود ، وهي الرجوع بالشعر العربي إلى أزهر عهوده الأولى في عصر بني العباس ،

والشاعر عالمٌ باحثٌ متمكنٌ درس التراث الأدبي دراسة الناقد البصير ، ورأى فيه مهوى فؤاده ومثار إعجابه ، فأيقن أن احتذائه مدٌّ متصل لتيار يجب أن يفيض ويזخر ، ما بقيت العربية تتردد على الأفواه ، ولا يغنى بالاحتذاء محاكاة شكلية تنقل عن الأصل دون إحساس صادق ، بل يعني تسطير عواطفه الذاتية في نهج عربي أصيل ، لأن الشعر في رأيه ميدان يتسابق فيه فرسان البيان ، ولكل فارس حليته الفسيحة وجواده السابق يوم الرهان .

وإذا كان الموهوبون من سابقي الشعراء قد أجادوا المديح ، فشأن الجارم شأنهم ، ولم يكن منفردا بهذا الغرض في عصره ، إذ أن الأفاذا من شعراء العصر كشوقي وحافظ وأحمد محرم ومحمد عبدالمطلب وأحمد الكاشف في مصر ، وبشارة الخوري وشبلي الملاط في لبنان والزهاوي والرصافي في العراق ، بل إن المجددين منهم كمطران والعقاد وإيليا أبي ماضي وعلي محمود طه وإبراهيم ناجي قد أبدعوا في المديح إبداعات سجله دواوينهم المشتهرة ، فكيف تكون مدائح الجارم وحدها موضع الاعتراض !

ولو اتفقنا مع من يقولون إن المديح قد أضعف الشعر العربي بعامة في القديم والحديث ، فذلك لم يكن شأن الجارم وحده ولكنه مفخر الشعراء جميعا إن عدَّ المديح مغمزا حين نعلم أن شاعر الأمس كان ككاتب الصحافة اليوم ، يذيع من مناقب العلبة ما تقوم به الجريدة اليومية

الآن ، والشاعر القديم معذور لأن المدح في أكثر أمره كان الباب الأوحد لذبوع فضله ، وثرأء كفه ، وقد مضى هذا العهد فامتنع التكسب بالشعر عن طريق المدائح ، إنما صارت الأمداح في أشعار المعاصرين تقديرًا خلقيا للمحامد ، ورسمًا مصورًا ما يجب أن يرتفع إليه الرؤساء من مُثُلٍ يقررها الشاعر الكبير ، فهو حين يمدح ، متبوع لا تابع ، وقائد لا مقود .

وحين نقرر أن من النقائص المزرية أن يُسخر الشاعر نفسه في صوغ معانٍ لا يعتقد وجودها لقاء كسب مادي ، فإننا نعلم أن الجارم لم يكن هذا الشاعر على الإطلاق ، فهو لم يتبوأ مناصبه الحكومية بمدائحه ولكن بكفاءته المشهوددة ، كما لم يظفر برتبة البكوية لقصيدة قالها في رئيس ، بل لمنصبه العلمي مفتشاً أول للغة العربية بوزارة المعارف ، كما ظهر بها السالفون والخالفون من المفتشين الأوائل أمثال حفني ناصف ومحمد شريف سليم ، ومحمد حسين الغمراوي وأحمد العوامري ، ومحمد أحمد جاد المولى ، والجارم في حقله التربوي لم يكن دونهم في شيء ، وربما أسهم أكثر من إسهام الواحد منهم في مجال التربية والتحقيق والتثقيف ، وقد حقق الله أمنيته العزيزة حين قال :

قد تمنيت كل شيء على الله
هـ ســـــوى أن أعيش من أوزاني

فالظن بأن مدائح الجارم وحدها قد عادت عليه بنفع مادي أو أدبي في حياته وهم لا حقيقة له ، إنما الحق كل الحق أنه كان في أمداحه كأبي العلاء المعري يمدح دون كسب ، لأن نفس المعري الزاهدة دفعتة إلى تقدير عارفه ، كما أن كبريائه الشعرية قد غامرت به في نظم اللزوميات ليؤكد تفوقه الفني على النظراء ، وزهد أبي العلاء المادي لا ينافي كبريائه الأدبية ، حين يحاول أن يفوق قرنائه في مدائحهم كما فاقهم بما قال في سِقْط الزند واللزوميات ، إذ جعل مِدْحَهُ الرائعة مبعث ارتقاء صاعد ، حين ينزه النفس البشرية عن الضعف البشري الذي ينضح به الحمائم المسنون لدى قوم ، وكذلك صنع الجارم حين جعل المدح باب الفضائل ، ومعراج الممدوح إلى أشرف المثل ، ونحن نقرأ أمداح أبي تمام والبحثري وابن الرومي والمتنبي فنجد الكثير منها يشرب إلى تخليد المثل الرفيعة ، وتسجيل وقائع البطولة ، كما نجد الممدوح قد لا يشغل من القصيدة قدر ما يشغلها حديث الشاعر عن نفسه ، إذ يصف شجونه متغزلا ، ويصور رأيه في الحياة والأحياء ناقدا مجربا محصا ، فهو إذن لا ينكمش بإزاء الممدوح ، وإذا وجد من تضاعل واستخذى فليس بالشاعر الكبير الذي نعنيه ، وقد عرف الجارم رسالة المدح في التوجيه الهادف . وفي بعث الهمم ، واستنهاض العزائم ، فكانت قصائده الطويلة ذات معان جهرية يضيئها التصوير البارع ،

ويجلوها البيان المشرق ، وهي بعد وليدة إحساس ناقد ،
ونظر غائص ، وقد يؤخذ عليه كما يؤخذ على سابقه تَنَقُّله
من غرض إلى غرض ، وتلك قضية لا نعالجها الآن ، ولكننا
نعرف مآتها لدى الشاعر حين نراه يخلص للنهج القديم ،
وإذا فاتته أن يلتزم بالوحدة العضوية فقد حافظ على الإطار
الشعري العام فجري مأؤه صافيا في نهر تحده
الشواطئ ، وتحرسه الضفاف .

وإذا قرأنا ديوان الجارم وجدنا مراثيه للرجال من ناحية
الكم العددي تقرب من مدائحه ، ومعنى ذلك أن الشاعر
الكبير مولع بالغائبين من الأعلام يكسوهم المدائح أحياء
ويبلل ثراهم بالدموع راحلين ، فأكبار البطولة في شتى
ميادينها العلمية والسياسية والاجتماعية خُلِقَ كريمٌ يرتفع
بصاحبه ، فإذا كان بين هؤلاء أصدقاؤه ونظراؤه فلك أن
تلمس وفاء القلب وسماحة النفس ، وروعة الإنصاف فيما
يصور الجارم من مشاهد التفوق ، وهو إذ أكثر من المدائح
يعرف اتجاهه الهادف ويعلم أن الإطراء لا يبلغ مبلغه
النفسي إلا إذا كان في موضعه الصحيح ، وقد صرح في
بعض قصائده بأنه حبس الثناء عمن لا يستحق الثناء ،
ومنعه كل مستقام يتطلع إليه دون أن يقدم من خلاله الباهرة
ما يدفع الشاعر إلى تقديره ، لأن العقود لا تزين الأجياد إلا
إذا كانت الأجياد نفسها مزدانة بالحسن ليلتقي الجمال
بالجمال ، يقول الجارم :

قد حبسنا المديح عن كل مدح
 تام وأجدر بشعرنا أن يسانا
 لا تـزيـن العقـود جيداً إذا لم
 يك بماحسن قبلها مزداننا
 رب در لاقى من الصـدر درا
 وجمان في النحر لاقى جمـاننا
 لو مدحنا من لا يحق له المدح
 ح لوى الشعر رأسه فهجاننا
 الرسول الكريم أنطق حسنا
 لنا ولـولـاه لم يكن حسـاننا
 وابن حمدان لقن المتنبي
 غرر المدح في بني حمداننا
 يصدق الشعر حينما يصدق النـا
 س فيشدو بمدحهم نشواننا
 وإذا عـسـرت المكـارم ولى
 مطرق الرأس واجما خزياننا

وهكذا ينظر الجارم إلى المكارم العالية والخلال الباهرة
 نظرة الحب الواق ، فيشيد بها مطيلا مسهبا ، لأن الجارم
 طويل النفس طلق العنان ، يجاري الفحول ممن ملكوا
 عليه لبه ، فيجري معهم في كل مضمار ، وهو يتعمد
 المعارضات الشعرية في أكثر قصائده لا لأنه يترسم مقلدا ،
 بل لأنه يرى في المعارضة مجال الموازنة لدى الدارس

وموضع الصدارة لدى القائل ، فإذا رايناه في مدائحه يسير مع المتنبى وشوقي والبحثري وأبي تمام فلما يراه في نفسه من مقدرة على المباراة ، وثقة الجارم في شعره أكبر من أن تحدّ ، يجدها الدارس بين السطور واضحة تنادي على نفسها بأعلى صوت ، كما يراها لدى نظرائه من النابغين في القديم والحديث ، ولن تكون هذه الثقة العاقلة لغير شاعر متمكن يعرف قدره بين النابغين .

لقد شَرَفَ الجارم كل الشرف بمدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قصيدتين رنانتين ، كما مدح الإمام محمد عبده والزعيمين الكبيرين سعد زغلول ومصطفى النحاس ومحمد عبدالكريم الخطابي وعلي ابراهيم وأحمد لطفي السيد وأحمد شوقي وعلى توفيق شوشة ، وغيرهم من أفاضل الشرق العربي ، والحق أن الجارم منذ التحق بالأزهر الشريف كان مفتوح العينين على أحداث عصره يراقبها في تطلع ويأمل أن يكون في غده بين من يسير لهم ذكر في الناس ، وقد أعجب الطالب الناشئ بإمام العصر محمد عبده رحمه الله .. ورأى فيه وهو ربيب البيئة الدينية في رشيد ونجل قاضي الشرع بالفيوم ، مثلاً أعلى للطلاب الأزهري ، والفتى في طور اليقظة ينسج الأحلام الوردية متطلعاً إلى غد منير ، وقد دفعه الإعجاب بالأستاذ الإمام إلى اطرائه فكانت مدحته إياه أول ما عُرف عنه في هذا المجال ، والإعجاب بالبطولة حربية وأدبية دافع قوي إلى ترسم

خطاها فكأن الجارم حين قرظ شمائل الإمام كان يحلم في
صباه بأن يتمتع بهذه الشمائل حين يتنفس به العمر ،
ويغدو رجلا ذا شأن ، ومهما تكاثف الظلام من حوله
ولاحت شبهات اليأس تجسد الصعاب ، فخيال الأستاذ
الإمام يراوح هذا المدلج الحائر ، ليمده بالأمل لأنه كما قال
الجارم عنه :

ذكرت عزمًا من الأستاذ فاتجهت
عزيمتي بين إقدام وتسديد
وسرت مثل قضاء الله ليس له
نقص ولا سهمه يوما بمردود
مولاي علمتي كيف الثبات إذا
لم يترك الرعب قلبا غير مزعزود
علوت فازددت بين الناس معرفة
والنجم يعلو فيغدو شبه مفقود
وأصبح الدين تياها بناصره
والضاد تزهى بتجميل وتجديد
دع الحسود أما يكفيك أن له
نفسا تفور ، وحظا غير مجدود

وإذا كان الجارم قد نسج هذه المدحة قبل أن يبلغ
العشرين من عمره ، فإننا نرى أن الغلام الناشيء قد حدد
أسلوبه الشعري بهذه الباكورة الناشئة ، لأن طابع القوة
البيانية ذات الرنين الأسر ، ظل ملازما للشاعر في شتى

مراحل حياته ، فإذا تنوع أسلوبه فكراً وتصويراً وتعبيراً فهو متنوع التنقيح والترشيح لا تنوع المغايرة والتبديل ، لمجرى الشاعر الدافق ، عُرف مأؤه عذوبة وصفاء ولونا ، بحيث لا يعجزك أن ترى كثيراً من التشابه بين المنبع والمصب ، وإذا صوّر ذلك اتجاهه المحافظ في إبداعه الشعري ، فهو اتجاه كان من الضروري أن يوجد في عصر النهضة الأدبية ، لأن هذه النهضة كانت في حاجة ماسة إلى الشاعر المجدد والشاعر المحافظ على نحو يمنع التضارب بين اتجاه واتجاه ، فإذا اشتط المجدد في سبقه كان المحافظ عامل انضباط واتزان ، كما أن المحافظ إذا اقتصر على القديم فإن المجدد يبصره بما يرفده من الطّارف الحديث ، فكلاهما ضروري لصاحبه ، والذين ينحون باللائمة على اتجاه دون اتجاه يحتاجون إلى أفق أوسع ، لأن التطور في شؤون الحياة لا يثبُ وثباً ودون تمهيد .

لقد كان الشعر في مطلع هذا القرن ترجمان الأحداث ، ولسان الوقائع الاجتماعية والسياسية ، فما ينشأ أمر ذو شأن في مصر حتى ترى الجرائد اليومية تفسح للشعر مكاناً مرموقاً ، بحيث تكون المقالة السياسية جوار القصيدة الأدبية في صفحة واحدة ، وبحيث ينتظر القارئ صيحة الشعر أكثر مما ينتظر تحليل النثر ، لذلك كان الشعراء أُولي صلة وثيقة بزعماء النهضة الاجتماعية والسياسية والدينية فمحمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول وعلي

يوسف يقدرّون نفثات الشعر ويعرفون مدى تأثيره ، ولهم بالشعراء صلات أخوية ووشائج فكرية تشبه قرابة الدم ، وأنت تبحث عن شعراء اليوم فلا تكاد ترى لهم صدى يُدوي مع الأحداث ، بل تجد الجريدة اليومية الآن تفرد لألعاب الكرة في العدد الواحد أربع صفحات ، وتضمن على الشعر بعمود واحد في الأسبوع ، وإذا كان أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وأحمد محرم وأحمد الكاشف قد ترجموا أحداث زمانهم ، فإن الجارم قد جرى معهم بعض الشوط في مطلع حياته الأدبية ، لأنه لم يكن متفرغا للشعر كما تفرغوا له ، بل كان له مجاله العلمي والتربوي تأليفا وتحقيقا وتوجيها ، ولكنه مع ذلك صاحب زعماء العصر ، ونابهي المتقدمين من رجاله ، وأدلى بدلوه مع الأحداث ، وعرف للفاضلين فضلهم فوقاًهم حقهم مديحا ورثاء ، ولعل سعد زغلول كان أقرب هؤلاء إلى قلب الشاعر فهو زعيم الأمة ، ولسانها الهاتف بالآلام والآمال ، مدحه الجارم بعدة قصائد في حياته ، ورثاه أيضا بعدة قصائد بعد مماته ، والشاعر لا يكرر القول مثنى وثلاث ورباع في زعيم ما ، إلا إذا وجد لديه هواتف وجدانه ، ونبضات قلبه ، فهو إذ يمدحه إنما يمدح رمزا مجسدا للآمال ، وحلما من أحلام السعادة ينهض للأمة بالبشارة والأمن والتفاؤل ، فالجارم في مرة أولى يلبي نداءه هاتفا :

لبيك يا ملء القلو
 ب وأثبت الأبطال قلبا
 ناديت قومك للحيا
 ة فأقبلوا عدوا ووثبا
 ورفعت صوتك والقلو
 ب خوافق وهلا ورعبا
 والسيف مسلول وسيد
 ل المخرجين يعب عبـا
 والأرض واجففة ومصـر
 ترقب القدر المختـا
 ووقفت فـانحنت السـرو
 س وكنت أعلى الناس كعبـا
 وخطبت بالصوت الجهير
 فمـا امـسـرو إلا ولبى
 وبرزت كالليث الهـصـور
 دعتـه أجـيـال فلبى
 يـسـعـد أنت لها إذا
 لهب الجـدال عـلا وشبـا
 يـسـعـد أنت لها إذا
 ما صرصر الأحداث هـبـا

وهو في مرة ثانية يرى فرحة الأمة المصرية بوزارة
 سعد ، ويلمس تدفق الحشود لتحية الزعيم الذي انتخبته

الامة مكبرة جهوده ، ويقرأ بشائر الفرحة في الوجوه
ويلمس دلائلها في القلوب فيترجم بعض ذلك في مثل قوله :

اليوم يومك مصر
لله حميد وشكر
فلن يروعك رق
ولن يمسك أسر
سعد يحيط بنييه
وهو الأعز الأبسر
دعته مصر فلبى
والوجه يعلوه بشير
في ساعة ليس فيها
من الفسار مفر
الموت يحصد حصدا
والسجن للحير قبر
والارض تهتز رعبا
فمما لها مستقر
يسري مع الليل هم
ويخفق الشمس ذعر
إذا نداء جهير
يهز مصر وزار
دعوت قومك حتى
أسمعت من فيه وقبر

وقمت فيهم خطيبا
 لله على القول أمر
 وقذبتهم نحو فخر
 لمصر يتلوه فخر
 روح من الله هبت
 من السماء ونصر
 سر بالسفينة هونا
 فليس ثمة صخر

وما زال الجارم يترجم عن عواطف قومه في مدائحه ، وقد
 علا مقامه الشعري بعد رحيل حافظ ابراهيم وأحمد شوقي
 إذ أصبح ممثل مصر في محافل العروبة ، وشاعرها الصداح
 في ندواتها المتتالية ، ولا أجد من الوقت ما يتسع لعرض
 نماذج رائعة من أمداحه الوطنية لأعلام مصر والعروبة ،
 ولكنني أشير إلى قصيدة رائعة قالها في أخريات أيامه حين
 عمت الفرحة أبناء مصر بوصول المجاهد الكبير عبد الكريم
 الخطابي فأرأى من محبسه السياسي ، ومحتما بكنانة الله في
 أرضه ، إذ لاقى أهل المغرب جميعا حين لاقى أهل مصر ،
 وكان تراحم الوفود حول مقامه بالقاهرة أحد مظاهر
 الترحيب الشعبي الجارف .

ولا يسع شاعرا كبيرا كالجارم إلا أن يترجم هذه الفرحة
 بمدحة رنانة بدأها بقوله :

حلق النسـر كما شاء وصاح
ورمى بالقيد في وجه الريح
وجلا عن ريشه العار كما
تنجلي الأصـداء عن بيض الصفاح
وأطـاح القفص المشنوم لا
تعرف الجن متى أو أين طـاح
ولكم حن إلى أوطـانـه
قلق الأضلاع خفاق الجناح
يشتكي لليل في وحشته
فإذا غاب تشكي للصباح
ذهب الماضي مجيدا حافلا
رحمة الله عليه ، أين راح ؟

وقد قامت قيادة الحكومة الفرنسية حين فر النسر
الحبيس إلى فضاء الكرامة في مصر ، فاحتجت لدى القاهرة
مُدعية أن الأمير المغربي خان العهد حين فر من الحبس بعد
عشرين عاما من الأسر ، وأن على مصر أن ترده من حيث
جاء ، وسكنت مصر استخفافا فلم ترد ، ولكن الجارم الكبير
قد رد عنها معبرا عن مشاعر أبنائها في صدقٍ أسرحين قال :

أي عهد يرتضيه بأسـل
عربي النبع ريفي الجمـاح
أي عهد ! هو أن أذبح من
غير سكين ، ولا أشكو الذبح

هو عهد الذنب يمليه على
شاته المخلب والناب الوقاح
وهو القوّة ما أجراها
إن مشت يوما إلى الحق الصراح
كم سلاح صال من غير يد
ويد تدفع من غير سلاح

وللقصيدة نظائر متكررة في ديوان الجارم ، تؤكد صدق
اللهجة وقوة العاطفة في الثناء ، كما أن الجارم لم يكتف
بمدح الشخصيات الإنسانية بل تعداها إلى الشخصيات
المعنوية ، فأعد أمداحا رائعة لمجمع اللغة العربية ، ودار
العلوم ووزارة المعارف والجامعة العربية واللغة
الفصحى ، فليت شعري أتكون هذه المدائح الصادقة
صدى نافها لمناسبات عابرة ، أم أنها تاريخ حي لحقبة
عامرة من حياة مصر كان الجارم فيها فارس البيان وبيت
القصيد .

بقي أن نتحدث عن المدائح الملكية التي احتلت حيزا
كبيرا في ديوان الشاعر ، وكانت أظهر ما يؤخذ على الجارم
عند قوم ينظرون إلى السطح القريب دون أن يتعمقوا الغور
البعيد ، إذ أن من المؤكد المشتهر لدينا جميعا أن الحاكم في
عهده لا يظهر من أعماله غير المرضي عنه ، ويعرف عنه أقل
مما يجهل ، فكم رأينا من رعوس لقيت ضروب الثناء المتنوع
في حياتها ، ثم كُشفت الحقائق المؤلمة عنها بعد رحيلها ،

فانصرف عن تأييدها من كانوا يلهجون بذكرها ، ويُعدّونها
مثالا حيا للوطنية الفريهة والاخلاص العميق ، ولم تخل
حياة هؤلاء من فضائل ذاعت واشتهرت ووجدت الأقدام
مجالا لاطرائها فكتبت الكثير ، وما كان علي الجارم إلا شاعرا
يحدو في مدائحه حدو سابقيه حين يشيدون بالفضائل
المشتهرة التي لا خلاف عليها عند أحد ، ويتسعون بالقول
إلى مطارح تتجاوز المديح إلى ما سواه من الوصف الرائع
لمناظر الطبيعة ، وشمائل الفروسية والأريحية والفتوة ،
حتى ليكون الشاعر في مدحته مصلحا أكثر منه مطريا ،
وواصفامدققا أبلغ منه مادحامثنيا ، ولدينا النماذج الدالة
على صحة ما نقول .

ففي مدحة الجارم الملكية التي مطلعها :

جمعت من فرع ذات الدل أوتاري

وصفت من بسمات الغيد أشعاري

نجد الشاعر يترك المديح بدءا إلى الحديث عن رسالة
الشعر ومدى تأثيره في النفوس ، فهو عاطفة تقتاد عاطفة ،
وفكرة تتجلى بين أفكار ، فإن لامس الأرواح ألهبها كما
يتقابل تيار بتيار ، وهو مصباح الهداية للسايرين ،
وأنشودة الفنان يرسلها إلى القلوب فتحيا بعد موت ، وهو
همس غصون الدوح ، ودمعة الطل في جفون الزهر .

الشعر للملك جيش لا يصاوله

جلاّد مرهفة أو فتك بتار

يفزرو وينصر لا أشلاء معركة
تري ولا وثبات حول أسوار
إذا تخطر في الأفواه تنشده
غض الجفون حياء كل خطر
وإن أغار تنادي كل ذي هلع
إلى الفرار وأودى كل مغوار
قد كان حسان جيشا في قصائده
أشد من كل زحاف وجرار
وكان ملك بني مروان في أطم
عال من الشعر يرمي الشهب بالنار
وهل زهت ببني العباس دولتهم
إلا بأمشال حمّاد وبشّار
فقل لمن راح للأهرام يرفعها
الخلد في الشعر لا في رصف أحجار
كم حكمة فيه لا تغنى بشاشتها
ومن حديث على الأيام سيار
كما هو في قصيدته الملكية التي مطلعها :

بين صحـو المنى وحلم الخيال
سبح الشعر في سماء الجمال

يرصد أحداث الدهر وهو طفل يحبو في المهـد ، حيث
الشمس طفلة ترسل الأضواء فوق الكهوف والغيران ،

وترى روائع الحضارة المصرية القديمة في مهرجان رائع
يصدق بالأهازيج ، وينثر الورود والرياحين .

ساطعات الشموس فيه مشاعـ
يلُ وأضواؤه بنات الهلال
زحم الأرض بالجيساد وغشى
صفحة الجو بالظبا والعوالي
وهفت راية على قبة النجم
ورفت فوق السحاب الثقال
موكب يجمع الشعوب وتمشي
تحت أعلامه العصور الأوالي
سار فيه الملوك من كل جيل
في احتفاء ضافي السنا واحتفال
ذاك مينا وذاك عمرو فتى العر
ب وهذا المعزز جم النوال
أما عن مدحته الرائعة التي مطلعها :

اقتبال الربيع في قسماته
نبه الكون بعد طول سباته
فهي من عيون الشعر حقا ، وقد بدأها الشاعر بأجمل
أوصاف الطبيعة المصرية في زمان الربيع ، ثم انتقل الجارم
إلى حديث الشباب وهو ربيع الحياة لدى كل نفس فقال
الجارم صادقا مؤثرا :

هات عهد الشاب إن غاص في الماء
ء وإن غاب في السماء فهاته
همسات الشباب في النفس أحلى
من حديث الهوى ومن همساته
ناره تصهر العزيمة سيفاً
توقى السيوف وقع شباته
ما أحلى وثوبه وهو ماض
يتحدى الزمان في فتكاته
نفحات الشباب أين تولت ؟
لهف نفسي على شذى نفحاته
قدح قد حلت أوائله رشفاً
وذقنا المسرين في أخرياتهِ
ما أراني من غيره غير ثوب
ضم أردانه على علالاتهِ
رب شيخ في عالم الطب حي
ويراه الزمان من أمواتهِ
الشباب الشباب نور من الله
وريج تهب من جناتهِ
ومضى الشاعر في مدحته مسهباً ، يخاطب شباب
الحمى ، وجنده الأحرار ، كي يُزاحموا في وليمة الدهر
أرسالا ، فالطموح الحياة ، وسبيل المجد مضاء واثب ،
وعزم باسل .

الذراع الأزل والساعد المفتو
ل دُخِر الشباب في أزماته
تسخر الريح بالضعيف من التبت
وتخشى القوي من باسقاته
ذهب النوم فالذي يغمض العي
نين ، ياتعسه ويا ويلاته
أمة الفوز همة تطحن الصخر
وتسمو للنجم في سبحاته

والقسيمة تقع في ثلاثة وخمسين بيتا ، منها أربعون
بيتا في هذه المعاني الرائعة ، ذات الحافز الدافع ،
والتصوير البليغ المؤثر ، ومن يسقط أمثال هذه الروائع
من مطولات الشاعر ويعدها أماديح مناسبات ، فقد خالف
الصواب ، وحاول أن يحرم الشباب من ملهم حافز ، ودافع
نهّاض .

لقد اخترت موضوع المديح عن عمد لأحفظ له مكانه
الطبيعي في تراثنا الشعري على مد العصور ، وإذا نشرت
عنه أسماع من لم يقرءوه عن دراسة وتحليل ، فالذين
درسوه من قبل قدروه حق قدره ، حين أدى رسالته في بعث
الهم واستنهاض العزائم وإذكاء الطموح وقد يكون من
الأوفق أن أختتم حديثي ببعض ما قاله الجارم في مديح
رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يناسب أن ندعوه به هذه

الايام وقد تألب المسلمون على أنفسهم وحارب بعضهم
بعضاً في خزي وهوان .

إليك رسول الله طار بنا الهوى
وحلو الأمانى والرجاء المحبب
أفضها علينا نفحة هاشمية
تلم شتات المسلمين وتبرأب
وتبعث فيهم مثل سعد وخالد
وترفع من راياتهم حين تنصب
سنصحو فقد مل الطريق وساده
وفي نورك القدسي نسعى وندأب

حين يكون الصديق مؤرخا بين جبران ونعيمة

كان الاستاذ عبدالعزيز البشري بحرر في (السياسة الأسبوعية) باب (المرأة) فيجلو بعض ما يعرف من ملامح الكبار في دنيا السياسة والأدب والعلم ، كما كان صديقا حميما لشاعر النيل حافظ ابراهيم ، وجاءت نوبة الصديق العزيز فبدأ البشري مقاله بقوله :

«وإذن فسأجلو حافظا في هذه المرأة ، وأرمي فيه بالقول ، وإني سأدخل في الورطة ، وتحق علي الكلمة في كل حال ، ويح نفسي من عنت أهل العنت من القراء ، فإنني إن قلت فيه خيرا ، قالوا : شهادة صديق لصديق فهي متهمة مهدورة ، وإن قلت شرا قالوا ما أنكره للود وما أكفره ، وإني لأعوذ من ألسن هؤلاء بالحق ، فالحق أجدي من مصانعة هؤلاء» .

وقد وقع ميخائيل نعيمة فيما وقع فيه عبدالعزيز البشري حين ألف كتابه عن صديقه (جبران خليل جبران) إذ قال فيه الخير والشر معا ، وكان على الناقدين أن يرتاحوا لإنصاف صديق أثر الحق على الباطل ، وأن يعدوها ماثرة نزيهة من مآثر الكاتب الكبير ، ولكن القيامة قامت على

الرجل في لبنان ومصر والمهجر ، ورفع الراية في المعركة نفر من ذوي اللسن والاستطالة ، وفيهم الناقد المر الأستاذ مارون عبود ، والخطيب المناظر الأستاذ فليكس فارس ، والأديب المهجري يوسف البعيني ، واتسعت الصحف والكتب لحوار مديد منذ نصف قرن ، ثم رحل ميخائيل نعيمة ، وقال الراثون عنه ما قالوا ، وبدأ لي أن أفيض في شيء من ذكره فأثرت الحديث عن موقفه من جبران .

بين الصديقين

اقترن اسم ميخائيل نعيمة باسم جبران كما اقترن اسم المازني باسم العقاد ، لصحبة أدبية عريقة جمعت بين الأديبين الكبيرين ، وقد رحل جبران مبكرا عن صاحبه ، إذ بقي بعده أكثر من نصف قرن يرفد وينير ويسخو ، وإذا كان جبران رهيف الاحساس ، قوي التصوير ، رائع الوثبة ، فإنه في تقديري الخاص لا يبلغ مبلغ نعيمة في النفاذ الموغل إلى أقصى شعاب النفس ، فأنت تقرأ جبران فتعجب بالوثبة الطائرة ، والريشة المصورة ، والحس الرهيف ، ولكنه بعد ذلك كله يدعك في مكانك حيث أنت ، أما نعيمة فيرجك رجًا ، ويرتفع بك إلى عالم أعلى وأضوأ ، فأنت تتابعه في انبهار ، وتشعر بعد قراءته أن شيئًا جديدًا طرأ عليك فنقلك من مكان إلى مكان ، وأورثك قلقًا روحيا يشغل

خاطرك ، وتظل طيلة يومك تفكر فيما اهتدى إليه نعيمة من بوارق تسطع في أحلك الغيوم ، وقد تخالفه في بعض منحاها ، أو في أكثر منحاها ، ولكنها مخالفة من يحذر المخالفة ، ويقيم لها ألف حساب ، لأنه لا يجد الأدلة الكافية على اليقين ، وإذا لم يترك نعيمة قارئه على صخرة ثابتة مما يقول ، فحسبه أن حرك خواطره ، وأيقظ كوامنه الهاجعة ، وأفاقه من نوم طويل .

لقد عرف الناس قوة الأصرة بين الصديقين الحميمين ، فهبوا بعد رحيل جبران يسألون الصديق عن مشاعر الصديق ، وكتب نعيمة كلمة الرثاء في الصحف ، وأبدى بعض ما يعتقد في إنصاف ومودة ، ثم رحل إلى لبنان عائداً من المهجر ، فرأى حديث الناس عن صاحبه يجعله أسطورة لا حقيقة ، وانتشرت كلمات الرثاء تستشهد ببعض ما قال ميخائيل نعيمة عن صاحبه بعد رحيله في مقالة عن جبران .. وفي كلمة (جبران الشاعر) التي افتتح بها حفلة التأبين في بروكلين في مجمع أقامته الرابطة القلمية هناك ، ووقع ميخائيل في حيرة ، لأنه يعتقد في أطوائه أن مقالته في مواقف التأبين يتسم بما يتطلب المجال من مجاملة كريمة تصبح زهرة رفاقة على قبر راحل ، وليس لصاحب المجاملة أن يكون باحثاً يتغلغل إلى الأعماق ، ويكتنه السرائر ، وما هو ذا

صار شاهداً على أدب، جبران ، فلا بد اذن من كتابة مؤلف يرسم انطباعه الحقيقي عن صاحبه ، ليريح نفسه من تبعه أدبية أوقرت صدره ، وليست هذه الراحة وحدها هي الدافع إلى تحرير سيرة جبران ، فإن مع ذلك كله ما يخشاه ميخائيل نعيمة حين يصبح جبران أسطورة تعجز ذوي القدوة من الناشئين ، إذ لو كان كذلك ، ما اشرأب أحد إلى منزلته الأدبية ، فيؤسس محبيه بدل أن يكون أملاً ينعش ، ودافعاً يحدو ، لابد اذن أن يظهر جبران للناس كما كان في عالم الأحياء ، ولن يستطيع أحد الحديث عن حقيقة جبران كما يستطيع ميخائيل ، ولابد أن نعيمة قد عانى حرباً نفسية قبل أن يعزم على الكتابة ، إذ تعاظمه حيناً أن يُظهر جبران كما كان ، ثم تعاظمه ثانية أن يسكت عن باطل قد ذاع ، وشارك هو في بعضه مجاملة وتكريماً ، هذا الصراع الناهض في نفس نعيمة قد انتهى بعد الدفع والجذب إلى وفاق صارم يتجاوز حقوق اللياقة ، منتقلاً إلى احترام الكلمة ، وإرضاء الضمير .

كتاب جبران

ألف ميخائيل نعيمة كتابه عن صديقه على نمط غير معهود ، إذ أن أمثال هذه الكتب تبدأ عادة بالحديث عن الأسرة والمنزل متدرجة إلى وصف البيئة والمناخ ثم تتابع المترجم مولوداً وطفلاً وناشئاً وكهلاً على نحو مترابط يسد

الفجوات ، ويربط النتائج بالأسباب ، وفي خلال ذلك يأتي التحليل الأدبي لروائعه ، ومدى توفيقه في مجاله الفني تعبيرا وتصويرا ، ولكن المؤلف بدأ بالنهاية ، فوصف لحظات الاحتضار وفاجأ القارئ بالأم لا يتوقع الابتداء بها ، ثم انقلب من النهاية إلى البداية فجأة فأرسل لخياله العنان في وصف لبنان وموطن جبران ببشرى ، وسمح لنفسه أن يتصور أحاديث متخيلة بين القابلة والأب مما لا يُعقل أن يلم به الطفل الوليد ليذكره فيما بعد ، ونقطة الضعف في هذه التخيلات أن القارئ يحس اختلاقها ، فينتقل من قراءة ترجمة حقيقية لإنسان مشتهر إلى مسرح قصة خيالية يتفنن أديب كبير في ابتكارها ، ويتساءل هل يعم هذا التخييل ما نسب إلى جبران من الوقائع فيما يلي هذه الابتكارات ، وبذلك يقف موقف الحذر فيما يرويه الصديق عن الصديق ، والذين يجتذون منحى نعيمة يذكرون أنه يرسم المسرح للأحداث بهذه التخيلات ، فهو يقيم الأعمدة التي تحمل المظلة ، وإذا جاز هذا في قصة ، فما أبعد عن الجواز في سيرة تاريخية ، نقول هذا ونحن نعلم أن الحواجز ليست من الصرامة بحيث تمنع الالتقاء السيرة والقصة في نطاق واحد ، ولكنها مع هذا الالتقاء تفرض على كاتب السيرة أن يكون واقعيًا ، وإذا لجأ إلى الخيال التصويري ، فإن وظيفة الخيال هنا أن يعين على وصف الحقيقة كما كانت لا كما يتخيلها أديب قاص ، فإذا تجاوزنا

هذا المأخذ ، وهو ما تؤيد من ألحوا على تسجيله من الناقدين ، فإننا نلتقي بمأخذ آخر ، هو موضع الجدل الحقيقي الذي اتصل منذ ظهر كتاب نعيمة إلى اليوم ، والذي أغضب نفرا من كبار الناقدين ، وأرضى فريقا آخر ، وإذا رجعنا إلى المقدمة الموجزة التي كتبها نعيمة فإنها تعلن أن في حياة كل إنسان أسراراً يكتُمها عن الناس ، وقد ولف الصديق على بعض هذه الأسرار وفاته الكثير ، وإنه يتساءل : أليق به أن يبوح ولو ببعض ما يعرف وإذا لجأ إلى الكتمان فما معنى الذي يكتبه ؟ أيخون القاريء ويخون جبران نفسه حين يخفي ما ليس بخاف في سجل الحياة ، وإن لم يكن مستورا عن أعين الناس ، أيصور نعيمة صورة لا وزن بين ظلالها وأنوارها ليرضي بعض من لا ذوق لهم في الفن ، ولا رأي لهم في الحياة ، وحينئذ يجور الكاتب على ذوقه وعلى أدبه فيواري الحقائق الصريحة ، ويغدو ضائق الصدر بمسلكه ، نهبا للصراع بين الحين والحين ! لقد صمم الكاتب على أن يقول بعض هذه الأسرار ، مهما كان موقعها ، والذين يظنون أن نعيمة كان سيء النية في هذا الاتجاه ، عليهم أن يفهموا أن الكاتب الكبير قد تحدث عن نفسه في كتاب (سبعون) فذكر من الأسرار الخاصة به ما كان يجب أن يستره لو اقتدى بمنطقهم الحريص ، لأن نعيمة يرى تعرية النفوس أقرب الوسائل لعلاجها ، وكان يجد لذة فنية في كشف ما استتر من الخوالج والمعاني أو من

الوقائع والأحداث ، لأن اللذة التي يلاقيها الإنسان - كما يقول نعيمة في كتابه سبعون - إذا هو تعرى أمام الناس تريح نفسه إذ يصير كيانه الداخلي واضحاً للعيان وكأن جسده قد استحال بيتاً من زجاج يشف عما فيه دون حجاب ، فهل نقول إن نعيمة قد حمل غلاً لنفسه ، حين كشف عن نزوات الضعف ، أو نقول إن مبدأ كشف الأسرار قد نزل منه منزلة الحق الصائب ، فالتزمه مع نفسه كما التزمه مع جبران !

بعض المآخذ

حين ظهر كتاب نعيمة عن جبران لم تشتعل الحومة حول آرائه الأدبية في صديقه ، ولم يتوجه النقد إلى هنات خاصة بالتأليف إذ لم يطرد على نسق واحد ، فإن ذلك كله لم يكن من الأهمية بحيث يدور حوله الأخذ والرد في صخب مرتفع ، بل مر النقد عليه في همس يتلمس التبرير ، ويحترم وجهة النظر المقابلة ، ولكن الضجيج الصارخ قد احتدم حول ما سرد نعيمة من وقائع خاصة بصواحب جبران ، حيث ذكر أسماءهن ، وفصل أدوارهن ، وكشف المخبأ عن واقع غير منتظر .

فالذين رفعوا جبران إلى مرتبة مبالغ فيها قد ساءهم أن يسجل على جبران ، ارتكاسه في حمأة الرذيلة مرات

متابعات مع نساء مختلفات ، ولن نجاري نعيمة في ذكر اسمائهن ، فذلك ما كان الأولى أن يكتم ، إذ لا فائدة من ذبوع الاسم لأن النعرية التي يقصدها نعيمة تتحقق دون تحديد الطرف الآخر .

هذا أوجز ما يمكن أن يختصر في هذا النطاق ، وقد صورته نعيمة بما يملك من إحياء وافتنان ، وكان ما كتبه مفاجأة لبعض قارئيه ، فهبوا لائمين .

رسالة المنبر

كان الاستاذ فليكس فارس أوسع من تعرضوا لنقد ميخائيل نعيمة ، إذ خصّه ببحث ضاف في كتابه (رسالة المنبر) جاوز السبعين من الصفحات ، وكاد يصبح كتابا مستقلا ، والاستاذ فارس خطيب عربي جهير المكان ، لذلك ظهرت روح الخطيب في دراسته ، فاعتمد على الانفعال السريع ، والحماسة الرنانة ، وقد اعترف أنه لم ينعم بصحبة جبران غير سبعة شهور ، وأنهما لم يتحدثا في غير الشئون الفكرية بعيدين عن السرائر والأسرار الذاتية ، وهذا مما يضعف تصديده لرواية صديق عاشر جبران خمسة عشر عاما في مصاحبة دقيقة تلمس موضع النجوى ، وتتوغل في أدق الشعاب المستترة في أطباق الدم واللحم ، ولا أدري لماذا ينكر على نعيمة أن يتحدث عن خوالج صديقه وكأنها شيء محرم ، وإذا أجاز فارس لنفسه

ألا ينتقل إلى منطقة يراها محظورة ، فليس لغيره أن ينحو منحاه في التحليل والتحریم ، وأنا معه في أن ميخائيل أسرف في التخیل إذ ألم بطفولة جبران ، ولكن هذا لا يعني أنه اخترع أحداثا ، ففرق بين التخیل الموهوم ، والواقع الصريح .

يشك فارس في الواقعة الخاصة بالحبيبة الأولى ذات الزوج البغيض ، ويراهما مما لا يصح أن تنقل ، وأنا معه في أنها قد لا تنقل في منطق من يتحرج ، ولكني لست معه في أنها متعذرة الوقوع ، إذ ليست غير التقاء رجل بامرأة في أمريكا ، وذلك مما يتكرر دائما !

أما الثانية فقد تعاضمه أن يقول نعيمة عنها على لسان جبران : لقد اقترنْتُ بها ، لقد جعلت من جسمي وجسمها هيكلا واحدا للحب الطاهر ، وحين تسأله متى تقترن برفيقتك أمام الناس ؟ يجيب جبران صاحبتَه قائلاً : ما أكثر ترابك وأقل تبرك ، تقولين : الناس الناس ، ما همّي بالناس ، وما يقولون ويفعلون ، هل جمعوا بين قلبين إلا ليفصلوهما ، أو ربطوا متناقضين إلا ليقتلوهما يرباطهم .

فتجيبه صاحبتَه : ولمن ترسم رسومك يا خليل ، ولمن تنظم قصائدك ؟ أليس للناس ، ومجد من تطلب يا خليل أليس مجد الناس !

فيرد جبران متضايقا : أنتِ منهم ، أنتِ كذلك ابنة الديدان والأكنان !

ويطرّد الحوار في هذا المنحى ، وإذا جازل لأستاذ فليكس فارس أن يشك فيه ، فأنا لا أشك قيد لحظة لأن جبران قد قال فحوى هذا الحوار في كتاب «الأجنحة المتكسرة» وسجله بقلمه في كتاب اذاعه بين الناس وتعددت طبعاته .

ثم خاطب الاستاذ فليكس نعيمة قائلا : «أيها المفكر الذي يجول في دمه شمم لبنان ، أفما كان الأجدر بك أن تستنير بما فيك من نور ، وبما فيك من كرامة ، وأنت تورد لنا هذه العيوب ، بل هذه الجرائم سواء أكانت الوقائع خيالية أم حقيقية ، إنك تسيء إلى الأدب العربي وإلى الناشئة العربية التي تتطلب من أرباب القلم أن يخلقوا لها المثل العليا لانتهاج سبيل العدل والكرامة والنخوة والمروءة في الحياة» وفارس هنا خطيب داعية ، وماكان ميخائيل خطيبا ذات يوم !

بيت القصيد

فرحت حين علمت أن الاستاذ ميخائيل نعيمة قد تحدث عن سيرته الذاتية في كتاب رائع هو «سبعون» إشارة إلى عمره الزمني حين أصدر هذا الكتاب ، وأنا أعلم منحنى الكاتب الكبير في تعرية النفوس ، والكشف عن الدقائق المستورة دون حرج ، ولا بد لمن قطع في بيداء العمر سبعين عاما أن تهب عليه أعاصير عاصفة ، تجبره على الاستسلام تارة ، وتدفعه إلى المقاومة تارة أخرى ، فالإنسان ضعيف

الحول مهما اصطنع القوة ، وله من غرائزه الأدمية سباع
 ضارية تثور عليه مسلحة بالأنياب والبرائن ، وقد هبت
 هذه الأعاصير على المحارب الباسل فانتصروا وهزم ، وسعد
 وشقى ، وفي حالة انتصاره لمعت البسمة في خاطره ، فسجل
 تأبّيه على الغريزة في موقفين ، أولهما في حفل موسيقي تيسر
 فيه السبيل للهو فاستعصم الأديب الشاب ،
 ولكنه لم يشأ أن يستسلم ، وميخائيل انسان ،
 فليس من الطبيعي أن يطول امتناعه بل من المتوقع أن
 يهوي في مازق متتابعة ، تحدث عنها بإفاضة ، مرة في
 روسيا ويجد القاريء حديثها في «سبعون» ص ١٣ ، وما
 بعدها ، ومرة في أمريكا ويجد القاريء حديثها في ص ٢٥٦
 وما بعدها ، وثالثة بنيويورك يجد القاريء حديثها في
 ص ٢٣١ ، وقد سرد الكاتب ملابسات هذه الجرائر وعين
 الأسماء كما عينها في حديثه عن مواقف جبران ، وليس من
 شأننا أن نفصل هذه النزوات ولكننا نشير إليها لنؤكد أن
 الميزان الذي وزن به صديقه وأثار عليه الثوائر هو نفسه
 الميزان الذي وزن به نفسه ، فإذا ظن أحد به خبث الطوية
 في كتابه عن جبران ، فقد تبدد هذا الظن بعد أن سجل الرجل
 على نفسه ما سجله على صاحبه ، إلا إذا غالى مكابر عنيد
 فزعم أن ميخائيل كان خبيث الطوية أيضا حين سرد عن
 نفسه ما لم يشأ أن يحجبه عن الناس ، ولا يسعنا حينئذ إلا
 أن نقول له ، لك أن تفهم ماتشاء ، ولكن ليس لك أن تفرض
 شططك على المتزنين .

جحا الساخر

بين العرب والفرس والترك

سماء الأستاذ عباس محمود العقاد جحا الضاحك ،
وكتب عنه مؤلفا ممتازا بهذا العنوان ، وفي رأبي أن جحا
مضحك ، وليس ضاحكا ، فلا يلزم أن يكون هذا الذي يفجر
الضحك من الأعماق ذا ضحكة رنانة ، فالرجل ساخر يرسل
في ابتسام شاحب فكاهته ، وقد يعاني من الألم النفسي
حينئذ مالا طاقة له باحتماله فيكون تطبيقا عمليا لقول
الأستاذ علي الجارم :

وأشد الآلام أن يرسل الثغر ابتساما والقلب رهن اكتتابه !
وما راجت نكات جحا وانتشرت على هذا النحو الشاسع
في رحاب الأرض إلا لما تحمله من السخر الهازي ءحين تصور
الوضع المنقلب ، والقزم الذي أصبح عملاقا ، والقمة التي
هوت إلى السفح ، وهي أمور تتكرر وتتوالى فيتكرر تبعالها
ما قال جحا ، ونحن نعرف أن جحا لم يكن مصرياً ، ولكنه
بطل شعبي في مصر ، تؤلف باسمه النوادر ، وتُعزى إليه
النكات ، فعندنا طرائف مصرية خالصة عن «ساقية جحا ،
وعن ثور جحا الذي هو أولى بلحمه ، وعن مسمار جحا ،
وعن بيت جحا ، وكلها ترمز إلى أوضاع عرفت في مصر ، ولم
يكن الرجل العربي الأموي في أكثر حياته ممن يتصلون في

تاريخهم البعيد بمصر بوشيجة من الوشائج ، بل لعل اسمها لم يجر على لسانه ، ولكنه بقوته الاسطورية قد شق الغيوب حتى تمكن من إحساسها النابض قرنا وراء قرن ، وحتى رأينا ساخرا كبيرا كالأستاذ عبدالعزيز البشري يخترع الدعابة الساخرة لنفر من أصدقائه فتنسبها مجالات الفكاهة حينئذ لجحا ، مع استحالة صدورها عن الرجل الأموي زمانا ومكانا ، لقد كان شيخ العروبة أحمد زكي باشا يخوض معركة أدبية مع الأستاذ محمد الهياوي في العشرينيات من هذا القرن ، فقال البشري لبعض مناديه : إن زكي باشا لو تحدث حديثا وديا مع الأستاذ الهياوي فلا بد من حضور البوليس ، أما إذا كان الحديث بينهما حديثا علميا فلا بد أن تتدخل أساطيل الدول الكبرى ، قال البشري هذه الطرفة ، فظهرت لتوها في صف الفكاهة - وما أذيعها حينئذ - منسوبة لجحا ، واتصل البشري بالصحيفة ليسأل ساخرا عن عنوان جحا كي يحظى بمعرفته !

جحا العربي

لم يكتب التاريخ العلمي عن جحا العربي شيئا ذا بال ، بل إن كتب الأدب العربي غير كتابين فقط لم تُعن بتسجيل شيء من نواذره فأنت تقرأ في صحف التراث الكثير من نواذر أشعب ، ومزيد وأبي دلالة وأبي نواس وأبي العيناء

وأشباههم ولكنك لا تقرأ من نوادر جحا في صحف الأدب
الرصين غير القليل مع أن اسمه من الشهرة بحيث يكتسح
هؤلاء جميعاً، فقد فرض نفسه فرضاً أكيدا على الألسنة في
الشرق والغرب ، ولكنها السنة المتكلمين في الأسواق
والتاجر والأندية ينتقل حديثها من عصر إلى عصر دون
عائق ، وفي كل زمن ينمو هذا الحديث ويتزايد ويمتد ،
وكانه جنة بربوة أصابها وابل فانت أكلها ضعفين ، فإذا
أراد المتطلع أن يعرف ما بقي من تاريخ جحا العربي موثقاً
منه ، فلا يجد إلا أن اسمه أبو الغُصن دُجين بن ثابت ،
وأنه نشأ بالكوفة ، ولم يبارحها إلا في زعم من روى عنه
نوادر تتعلق بحجّه ، وذهابه إلى مكة ، وهي نوادر تنسب
إلى غيره كما تنسب له ، فليس حديثها عن مكة ، بدليل
يرجح انتقاله إليها ، أما كيف شغل الرجل أهل الكوفة
بسخريته فذلك ثمرة نبوغه الناقد ، لأنه وقف منهم وقفات
المؤدب الواعظ ، الذي لا يرسل النقد في خطبة رنانة ، أو
قصيدة مؤثرة ، ولكن في موقف هزلي هو أشبه بالصور
الكاريكاتيرية .

لقد قامت الدولة العباسية بجهود أبي مسلم
الخراساني ، وانزعجت الكوفة لما يُروى عنه من الغرائب
المذهلة التي تضاف إلى سيرته ، وكانه جبار من جبابة
الجن ، يملك أن يطوي الأرض ، ويصل مابين الشرق
والغرب في لحظات ، وأبو الغصن يسمع الخوارق فيزئها

بميزان عقله فلا يصدق ، فإذا ناقش هذه الاساطير في هدوء احتشد حوله الغوغاء ليسفهاوا كلامه ، ثم رأى أن يستخف بهم في أمر يظهر سذاجتهم السطحية دون معاناة ، فأعلن أنه سيظهر من فوق المنذنة في عصر الجمعة القادم ، وذاع النبا في أنحاء الكوفة ، فتجمع الناس عصر الجمعة حول المنذنة ، يرتقبون طيران جحا ، وحضر الفنان الساخر ، وصعد إلى أعلى مكان بالمنذنة ، وأخذ يلوح بيديه ، كأنه يهيم بالطيران ، حتى إذا مل الحاضرون موقفه ، صاحوا به لِمَ لا تطير ؟ فقال جحا : وكم عددكم ؟ فقالوا فوق خمسمائة ! فقال : وكلكم عقلاء ، فقالوا نعم : فقال وقد صدقتم أنني سأطير ، كما صدقتم أن أبا مسلم جبار من الجن يطوي الأرض ، ويصل ما بين الشرق والغرب ، فانصرفوا دهشين .

وذهب رجل كوفي إلى أبي مسلم فأخبره بما صنع جحا ، وزعم أنه يعرف أبا الغصن ، فوجّه أبو مسلم بمن يدعوهم ، وأحس جحا بالخطر ، فمال إلى التّباله ، وادعى الجنون ، حين قدم على القائد الغضوب ، وأخذ يكلم الواشي كأنه أبو مسلم ، فقال أبو مسلم : أنت لا تعرف هذا ، فصاح معاذ الله أن أجهل القائد الخطير ، ونجا بالتّباله .

وكان بالكوفة وال لا يعرف العدل ، وأراد جحا أن يكشف مستوره على الملأ ، فدخل عليه هائجا وهو يقول : مولاي إن ثورك الأحمر قد نطح ثوري الأسود فشق بطنه .

فقال الوالي : وما شأني ؟ وأي تبعة تقع على الحيوان الأعجم !! ولكن جحاً بادره قائلاً : عفوا سيدي عفوا ، لقد تذكرت : إن الذي نطح هو ثوري الأسود ، وأن ثورك الأحمر هو المشقوق المخطوح ودمه يسيل !

فانزعج الوالي وقال : ويلك ! لقد تغيرت المسألة ، فتغير الحكم ، عليك بالعوض السريع ! والناس شهود ، والجمع حافل ، وهكذا أظهر جحاً بما لا يقبل الشك انحراف الوالي وفقاً ليرضيه .

وشاعت النوادر أن تجعل أبا الغصن قاضياً يحكم بين الناس ، ولكنه لم يكن بالقاضي الجائر ، بل كان الحكم المدرك البصير .

تقدم إليه مختصمان يدعي أحدهما ، أنه صاحب مطعم تفوح من رائحة الشواء ، وأن غريمه مرّاً على مطعمه ، ومعه قطعة من الخبز أكلها على رائحة الشواء دون أن يدفع الأجر .

فسأل جحاً : وكم ثمن ما شئتم من الشواء ؟ فقال المختصم : ربع دينار !

فاخرج جحاً ربع دينار من جيبه ، ورثه على الخشب ، فسمع له صوت واضح ، وصاح القاضي : انتهينا إذن ، لقد سمعت صوت الدينار كما شئتم رائحة الشواء ! فلاذهب ومعك حقك .

واتفق رجل مع حامل أحطاب أن يساعده في رفع صندوق

على كتفه ، فقال له الحطّاب ، وماذا تعطيني ؟ فقال الرجل :
لا شيء !

وظن الحطّاب أن لا شيء مال يدفع ، فطالب به ولم يجد
السداد ، ورفع الامر إلى قاضي الكوفة أبي الغصن .
واستمع جحا إلى الشكوى ثم سأل الحطّاب أتريد اللا
شيء الذي وعدك به ، فقال نعم .

قال القاضي : ارفع هذا الكتاب فما ترى تحته ؟ فرفعه
الحطّاب قائلاً : لا شيء .

فابتسم جحا وقال خذهُ إذن فهو ما تطلبه !
ولا يمكننا في هذه العجالة أن نتابع ما يُروى عن جحا
العربي ، ولكننا نذكر أن عشرات من أمثال هذه الطرف قد
خلدت ذكره ، بل إن مئات من أمثال هذه الطرف قد نُسبت
إليه وأصبحت من آثاره الخالصة دون أن يدري عنها
شيئاً ، كما نُسبت مقطوعات من شعر الغزل إلى قيس ولبلى
دون أن ينظمها وكما نسبت بعض النوادر المجانة لأبي
نواس دون أن يقولها ، إذ أن أمثال جحا وقيس وأبي نواس
لم يكونوا أعلام أشخاص فحسب ، بل أصبحوا أعلام
أجناس .

جحا الفارسي

ذكر جحا في الأدب الفارسي ، ورُويت نوادره الجديدة
موسومة بخصائص البيئة الفارسية ، ولم يشتهر شخص

فارسي معين باسم جحا ، كما اشتهر جحا العربي وجحا التركي ، ولكن كبار المؤلفين هناك قد نحلوه نواذر كثيرة ، وأذكر أن الدكتور عبدالوهاب عزام ذكر من هؤلاء عبید الزاکاني الشاعر المؤلف ، ومولانا جلال الدين الرومي في مثنوياته الفارسية ، وعبدالرحمن الجامي الشاعر الصوفي ، ولعل أقرب هؤلاء جميعا إلى شخصية جحا هو عبید الزاکاني إذ جمع بين الجد والهزل في مؤلفاته ونواذره جمعا يلحقه بجحا العربي ، وأهم فرق بين الجحويين العربي والفارسي ، أن أبا الغصن كان محدثا مسامرا فحسب ، يرمي بالطرفة الساخرة عفوا لساعته ، دون أن يجهد في تأليفها ، ودون أن يحرص على ذبوعها بعد أن تقال ، أما عبید فقد أصدر عدة كتب تجمع بين الهزل والجد ، وقد كان شقيا بحياته إذ ركب الدین ، ولازمه الفقر ، وذوو النباهة من الأدباء والمؤلفين أمثال الزاکاني يهولهم أن يقاسوا لواعج الحرمان روحا ومادة مع ما يتمتعون به كثيرا من مواهب أدبية راقية ، على حين ينظرون فيجدون من ذوي الجهالة من يتمتعون بالجاه والمال والصحة والسلطان دون موهبة ، وهنا تتدفق على السنتهم النواذر الناقدة في المجالس متحدثين ، وفي الكتب مؤلفين .

ذهب جحا الفارسي (عبید الزاکاني) للقاء أمير شیراز أبي إسحاق ، ليقدم له مؤلفا في (المعاني النفيسة) وكان يظن أن

الأمير سيسمح بلاقئه حين يعرف أنه مؤلفٌ أديب يحمل إليه ثماره الفكرية ، وهي من النفاسة في رأي المؤلف بمنزلة عالية ، ولكن الزاكاني قد حُجب عن اللقاء ، وقيل له إن (المسخرة) عند الأمير يُضحكه ولن يفرغ له في هذا الوقت ، والمسخرة بمجالس الأمراء في هذه الأزمان بهلوان يهرج بالطرائف والسخائف ليُضحك الأمير ، ويُرَفّه عن خواصه من الندماء ، فدهش الزاكاني وصاح : لقاء السلطان مُيسَّرٌ للمساخر كل حين ، والعلماء يُطردون ، وطاربت الكلمة إلى أبي اسحاق ، وأحضر الزاكاني ليناقضه الحساب فقال له : إن العبارة ليست من انشائه ولكنها تنسب إلى جحا !

ثم غربت شمس الأمير ، وحل مكانه سواه ، فأنشا الزاكاني رباعية شعرية تَرَجَمَتْهَا عن الفارسية كما يلي : «لا تكن مثلي عالما فاضلا ، لئلا تكون مثلي لدى الأمراء حقيرا ، إن تُرد أن تكون مقربا عند أهل الزمن فكن سُخرةً أو راقصا أو زامرا» ويذكر مؤلفو التاريخ الأدبي أن للزاكاني كتابا مضحكا تحت عنوان (ريش نامه) وهو حوار هزلي بينه وبين لحيقه ، كما أن له كتبا هزلية أخرى ، وأخرى تنسم بالجد ، ولن يكون الهزل في مؤلفاته إلا تنفيسا عن أوار حبيس ، ومما يُروى من طرائفه الجحوية ، أن رجلا من أهل قزوين خرج لغزو الأعداء في جيش كثيف ، وكان مع الرجل ترس كبير ، فلما قرب من حصن العدو أصاب رأسه حجر فأدماه وصرخ ، فسأله بعض أصحابه : ماذا دهاك ؟

فقال يا أخي : أأحارب قوما عُُمياً يرمون رأسي بالحجر ، ولا يرون هذا الترس .

ومن نوادره أن رجلاً شاهد إنساناً يجري وهو يؤذن للصلاة دون أن يقف في مكان واحد ، فسأله عن أمره ، فقال : لا تنتقد يا أخي ، لأن صوتي لا يكون حسناً إلا إذا سُمع من بعيد ، وهأنذا أبتعد ليحسن الصوت !

أما جلال الدين الرومي فيكتفي بذكر هذه الطرفة التي نسبها إلى جحا في الدفتر الثاني من المثنويات حيث قال والترجمة للدكتور عبد الوهاب عزام بتصرف :

«مشى صبيٌّ في جنازة والده يبكي ويضرب رأسه ويصيح ، يا أبت ، إلى أين تُحمل ؟ أتوضع تحت الثرى ! وتُحبس في دار ضيقة مقفرة ، ليس فيها سجادة ، ولا حصير ، ولا سراج بالليل ، ولا خبز بالنهار ، ولا سقف ولا باب ولا جار مؤنس ، وكان جحا يسير مع ابنه في المشيعين ، فقال لولده : يا بني أظن هذا الميت سيذهب إلى دارنا ، فالأوصاف مطابقة .

وللجامي نوادر عن جحا تذكر منها أنه كان مديناً لبعض الناس بمائة درهم ، فشكاه الدائن للقاضي ، حيث لا شاهد ، فطلب القاضي من جحا أن يحلف ، فقال له جحا : إمام المسجد عندنا مستعد أن يحلف مكاني فابعث إليه ، ليطمئن هذا المدعى !!

جحا التركي

كان نصر الدين خوجه احسن الثلاثة حظًا ، لأن أدباء الأتراك قد اهتموا بجمع كل شاردة تنسب إلى جحا شرقا وغربا ثم نسبوها إلى جحا التركي ، لذلك نجد دائرة المعارف الإسلامية ، تذكر صريحة أن ما عُزِيَ إلى نصر الدين خوجه التركي إنما هو ترجمة لنوادر عربية قديمة كانت منتشرة بين الناس وتدور حول شخص من قبيلة فزارة بالكوفة يُدعى جحا ، وورد بعضها في الميداني وفي فهرس ابن النديم ، ثم تُرجمت جميعها إلى التركية ونُسبت إلى شخص يشك في وجوده .

هذا ما جاء في دائرة المعارف ، والصحيح منه أن أكثر ما نُسب إلى جحا الكوفي قد نُسب إلى جحا التركي ، والخطأ الواضح منه هو الشك في وجود نصر الدين خوجه لأن تاريخه مسجل محفوظ ، وله قبر يزار في مدينة (آق شهر) . وقد تلقى علومه الدينية بتوسع ، ثم عُين إمام مسجد ، يعظ الناس ، فاشتهر بالتقوى وذلاقة اللسان ، وشغل منصب القضاء في ضواحي قونية حتى مات سنة ٦٨٣ هـ ، والناس يتبركون به ، ويزورون قبره ، وقد انتهز خادم الضريح عقب وفاته إقبال الناس على الزيارة المتكررة ، فكان يدخل القبر من مكان خفي ، ويحيي الزائرين والزائرات موهما القوم أن الولي الدفين صاحب كرامات ، وأنه حي يتحدث في قبره ، ويتبع ذلك كثرة الزائرين ،

ومعهم النذور الوفيرة ، وبها يثري خادم الضريح .
وإذا كان الشك في ولاية جحا العربي للقضاء أمرا
يتردد ، فإن ولاية نصر الدين خوجه لا تقبل الشك ،
ومؤهلاته العلمية والخلقية ترشحه لذلك ، وإذا اعتقد
الناس فيه الولاية والعلم في الحياة أفلا يكون من السهل
الهيئ أن ينصب قاضيا .

ومن طرائفه أن بعض التجار من ذوي الخطوة لدى
الحاكم أراد انتقاصه على رعوس الأشهاد ، فقال له : أنت
قاض وعالم وتخطيء في قراءة القرآن ، فقال جحا على
البديهة : لقد أخطأت مرة واحدة ياسيدي إذ قرأت قول الله
«وإن التجار لفى جحيم» ، والآية تقول : «وإن الفجار لفى
جحيم» ، فصفق الحاضرون ، وذاعت النادرة .

وفي المجموعة المنسوبة إلى جحا التركي نوادر طريفة
للرجل مع الطاغية الجبار تيمور لنك ، تزعم إحداها أنه
ذهب لزيارة الطاغية ، فوجده يجلس ماداً رجله لعاهة
بها ، فجلس جحا غير بعيد ، ومدّ رجله كما فعل تيمور لنك ،
فصاح به الطاغية أنت حمار ، وهنا تقول النادرة : إن جحا
أجاب بقوله ليس بيني وبين الحمار غير ذراعين ، وهما
المسافة بين تيمور لنك وجحا ، فتعجب تيمور لنك من سرعة
جوابه .

وتزعم رواية أخرى أن تيمور لنك ذهب إلى الحمام مع
نصر الدين ، واثتر كل منهما بإزار ، وأخذا يستحمقان ،
فقال له تيمور لنك : تعلم أنني فاتح عظيم فإذا عُرِضت للبيع

فبكم تشتريني ؟ فقال نصر الدين أشتريك بأربعين فلسا ،
فقال تيمور : إن إزاري وحده يباع بأربعين فلسا يارجل !
فقال نصر الدين أردت شراء الإزار ، وما أفعل بمغولي
مثلك !!

وثالثة أخرى من هذا الوادي ، وأنا لا أتردد في القول
باختلاق هذه الثلاث ، لأن تيمور جبار لا يرحم ، وقد قتل
مئات العلماء لهفوات يسيرة لا تتعلق بشخصه هو ،
أفصبر على من يطعنه في عظمته تارة ويصفه بالحمار
ثانية ، والمجلس حافل ، والقوم شهود ! إن فقيها كبيرا
طاحت رقبتة بأمر تيمور لنك لأنه لم يُعلن كفر
معاوية !! أفيستكت الجبار عن هذا الهجو الشنيع ، ثم
ماهي الصداقة العريقة التي تجعل فاتح البلاد غصبيا أذن
لقاض متواضع أن يدخل معه الحمام ، ليستحما معا ،
وأين الحاشية وكبار القواد والوزراء !

وإذا جاز لنا أن نشك فيما دار حول تيمور لنك من
طرائف ، فلن نشك في ما يُعقل أن ينسب إلى جحا من
المعقولات ، وليس الذنب ذنب نصر الدين فيما كتبوه عنه
بعد رحيله ، ولكن الذنب لدى من اختلق الغرائب
العجيبة ، واعتقد أنه يُسجل أحداث التاريخ ، وغرائب
تيمور لنك .

هذه الإمامة يسيرة بتاريخ جحا الساخر ، على تعدد
أشخاصه ، واختلاف مواطنه ، وتشابه غرائبه ، وفيها
مجال للتحليل النفسي ، والتشريح الاجتماعي ، والنظر
النقدي ، لمن يريد .

نجيب محفوظ ناقد مثقف

غدا الأستاذ نجيب محفوظ في إشراقه الأدبي مثالا نادرا للموهبة الأصيلة ذات الاطلاع الثقافي المثمر ، وقد اهتدى إلى طريقه الجاد في أول خطواته الفكرية ، فلم يتعثر في الشعاب المترامية مضطربا هنا أو هناك ، لا يتبين مشرق الضوء ، بل عمد إلى الهدف المنشود متد السير ، نشيط الأمل ، لأن صاحب الفكرة المحددة يشعر بثتى الحوافز الدافعة مهما قامت الصعاب ، وإذا أدركته عوامل الشك اليائس ، فهي لا تُثنيه عن مسيره ، لأن الشك في منحاه الفكري أمر طبيعي لابد أن يحدث ، ولكن ريثما يتغلب عليه اليقين ، لقد فاجأ القراء في مطلع شبابه بمقالاته الفلسفية في المجلة الجديدة ، وهي تنحو المنحى الفلسفي وفق تخصصه الجامعي ، ولكن قاريء هذه المقالات يلمس شخصية الفنان كما يلمس شخصية الباحث ، بل إن كثيرا من هذه المقالات كانت سراجا يضيء للفنان حين يهتدي بعمق الدارس ، وبُعد غوره ، وفي إحداها رسم جيد لخطّته المستكنة في عالم الغيب ، وكأنه بما نشره بالعدد الثامن من المجلة الجديدة (أغسطس سنة ١٩٣٦) تحت عنوان (الفن والثقافة) يحدد موقفه حين يتساءل : أينبغي للفنان أن تبقى أعماله خالصة لوجه الفن بريئة عن التغلغل

الفكري ، أم يجوز له أن يطرق الموضوعات العقلية
والافكار الفلسفية !! ثم يُجيب على هذا التساؤل بأن الفنان
إذا أراد باطلاعه الثقافي أن يزيد آفاقه وأن يهيئ لنفسه
شعورا بالتسامي الفكري مُعبرا عن خواطره الذاتية في
ضوء معرفته الهادية فإنه بذلك يخلص لفنه ، ويأتي في
عالم الإبداع بما يعجز عنه سواه ، أما إذا أراد الفنان
بالاطلاع الثقافي أن يشرح عن طريق فنه نظرياته العلمية
فقد ضل عن غايته وتنكّب طريقه ، لأن الفن هو التعبير عن
الشعور ، والشعور امتزاج للوجدان والفكر معا !

هذا لُبَابُ ما اهتدى إليه نجيب محفوظ في خطواته
الأولى ، وعلى ضوئه سار في إبداعه القصصي ، إذ كانت
إحاطته الفكرية بدروب الفلسفة في شتى اتجاهاتها منارا
يضيء له ظلمات النفس البشرية ، ويكشف له مسار التيار
الاجتماعي في عالمه ، فهو يرى الأحداث بمنظار مكبر يُشاهده
أدق الخفايا ، ويهديه تلقائيا إلى البواعث الكامنة دون
اعتساف ، لذلك كان الفنان الكبير ناقدا ممتازا ، وإذا كانت
آراؤه النقدية سياسةً واجتماعاً ودينا ، مما يتسع المجال
لتحليله في كتب مستقلة ، فإنني في هذا المقال سأخصّ آراءه
الأدبية الخالصة ، بعيدا عن جو الابداع القصصي ببعض
التعقيب ، لأن في هذه الآراء ما يساعد الناقد على الاحاطة
بفكر هذا الفنان المبدع ، وهو فكري منير .

زعماء الأدب

كان نجيب في دور التكوين يعني كل الوعي ما يحيط به من تيارات فكرية ، ويخص باهتمامه زعماء الأدب في مصر ، إذ هم أقرب المثل الناهضة أمامه في ميدان الإبداع ، وكان ممن تصدروا القيادة الأدبية عباس محمود العقاد وطه حسين وابراهيم عبدالقادر المازني ومصطفى صادق الرافعي وسلامة موسى ومحمد حسين هيكل وعبدالعزیز البشري ! وطبيعياً أن يقرأهم نجيب وأن يعرف اتجاهاتهم الإبداعية ، وقد اختار أن يتحدث عن ثلاثة بالذات هم عباس محمود العقاد وطه حسين وسلامة موسى حديث من نفذ إلى أدق الشعب في نتاج هؤلاء ، ومن المعقول أن يغفل نجيب الحديث عن الرافعي والبشري وهيكل ، ولكني عجبت كيف نسي المازني ، وهو رائد القصة حينئذ ، لأن الدكتور هيكل لم يصل الحبل بعد قصة (زينب) ، ونجيب قد يكون غير متفق مع اتجاه المازني التصويري في إبداعه الفني ، ولكن ذلك لا يعني عدم التأثير به في فن هو منه موضع الاحتفاء والاقبال ، أترأه خشي أن يقسو عليه بخلاف لا داعي لإثارته ، إن عهدنا بالمازني أن يحتضن مؤيديه ومعارضيه معا ! مهما يكن من شيء لقد تحدث نجيب عن العقاد وطه وسلامة حديثاً جمع إلى إيجازه ما يراه من السمات الدقيقة لهؤلاء ، وقد بدأ بالعقاد فذكر أنه رجل البداهة ، ويقصد بها الفطرة البصيرة ، أو الاحساس

الصادق ، أو الطبع السليم مما ينفذ به إلى صميم الحقائق ، وتلك درجة من الكمال يبلغها الصوفي باجتهاده ، ويحوزها الفنان بفطرته ! هكذا يقول نجيب ، ولا أدري لماذا لا يكون الصوفي ذا فطرة أيضا ، وتكون هذه الفطرة باعثة له على الاجتهاد الذي يصل به إلى مستواه ! والعقاد عند الناقد شاعر فنان قبل كل شيء ، فشعره ليس قشورا لفظية ، ولكنه معنى عميق نذوقه ونحسه ونعرف فيه روحا يكاد يتحرك ويتغير كلما قُرئ ، والتجديد لدى العقاد ليس ثورة على القديم ، ودعوة للجديد ، ولكنه تحرير للعقل والشعور معا ! اعقل بعقلك واشعر بشعورك ! ومثل هذا المبدأ يتناقض مع الدعوة إلى مذهب معين ، لأن الدعوة إلى هذا المذهب نوع من التقليد ! وهذا الفهم دقيق في بابه ، وصادق كل الصدق في انطباقه على العقاد ، ولكن أليس تحرير العقل والشعور معا ! مما يعتبر مذهباً خاصاً ينتحيه العقاد ، ويعمل على تطبيقه ما استطاع فهو إذن صاحب مذهب معين ! وقد يريد الناقد بنفي المذهبية عن صاحبه ، عدم تمسكه بمذهب غربي محدد يتابعه خطوة خطوة ويصبح من حواريه ! وذلك صحيح .

أما الدكتور طه حسين فهو رجل الذكاء في بساطته وسخريته ، ومن مظاهر هذه البساطة أنك تقرؤه فلا تعثر على كلمة شاذة أو فكرة غامضة أو جملة معقدة وإنما تفهم

ما يريد الكاتب وأنت مرتاح سعيد ، وليست هذه السهولة مما يدل على سهولة الموضوع أو على ابتذاله ولكنها أثر الذكاء الناقد ! وهذا حق في بعض مراميه ولكنه ليس كل الحق ، لأن الدكتور طه لا يُعالج من البحوث الدقيقة ما يعالجه العقاد ، بل يؤثر في أكثر اتجاهاته أن يكون أدبيا فحسب ! ولذلك جاءت هذه السهولة الممتعة حقا ! أما إذا تغلغل في الظلمات الداجية فهذا مالا يلتئم مع منحاه ، ولذلك بقي سهلا عذبا .

والسخرية واضحة لدى طه حسين ، وهي كما يرى نجيب محفوظ في ماهيتها جمعُ للمتناقضات عن طريق الإشارة الخفية واللمحة البعيدة ، وقوامها قوة الملاحظة ، والذكاء يؤدي إلى الشك ، والشك أساس البحث عند طه حسين ، وأقول : وعند سواء من قبل ومن بعد !

وسلامة موسى يمتاز عند الناقد بتفكير عملي ومن شأن هذا التفكير ألا يكثر كثيرا للنظريات ، وألا يركن إلى النظر المجرد ، والتأمل الفني ، لأن همّه منصب على الحياة وعلى الكمال في الحياة ، وأهم شاغل له هو الإصلاح الاجتماعي فله جولات كثيرة في سبيل التجديد المتنوع ، وتحرير المرأة ورفقي الفلاح والعامل !! وهذا مسلّم لاشك فيه ، ولكن القالب الذي يصب فيه الأستاذ سلامة موسى آراءه الإصلاحية ، ما سماته ؟ وما خصائص الأديب التي تُستنبط منه ؟ لقد سكت نجيب عن ذلك ، فبقي السؤال في حاجة إلى جواب .

العقاد والقصة

كان نجيب يتابع المعارك الأدبية بذهن ناقد ، ولحظ بصير ، وكان له رأيه الذي يحتفظ به لنفسه ، أو يدي به لجلسائه دون أن ينزل إلى الجلسة ناصرا بعض الاتجاهات ، لأنه التزم بفنه الروائي التزاما جعله المسرح الأوحـد لإيضاح آرائه ، وهو في اقتداره الفني يناقش أعقد الأمور وأدسمها في بساطة سهلة ، بساطة الحوار المتجاذب بين رفيقين يتسامران وفي أيديهما قدحا الشاي ! ولكنه اضطر إلى مواجهة العقاد مواجهة يقظة تحمل معنى التخطئة دون لبس ، حين وازن العقاد الكبير بين الشعر والقصة ، فأكد أنه لا يقرأ قصة حين يسعه أن يقرأ كتابا أو ديوان شعر ، لأنها ليست من خير ثمار العقول ، بناء على قضية جزم بها العقاد عن يقين ، وهي أنه كلما قلت الأداة وزاد المحصول ارتفعت طبقة الفن والأدب ، وكلما زادت الأداة وقل المحصول مل إلى النزول والإسفاف ، وما أقل المحصول وأكثر الأداة في القصص لأن خمسين صفحة من القصة لا تعطي المحصول الذي يعطيه بيت كهذا البيت :

وتلفتت عيني فمــذ خفيت
عني الطول تلفت القلب

وأمثلة أخرى من الشعر استشهد بها العقاد .
هذا رأي العقاد ، وقد عورض من أقلام كثيرة ، ولكن

أكثر المعارضين كانوا يستشعرون هيبة داخلية تجعلهم يتحدثون في همس مهذب فلا يكادون يهاجمون الرأي حتى يشفعوا القول بتحفظ هو أقرب إلى الاعتذار ، ولكن نجيب محفوظ صمم على النقد الصريح دون جُمُجة ، فبدأ نقده بتعريف للفن في شتى اتجاهاته ، مؤكدا أن الفنون جميعها تتفق في الغاية وتتساوى في السيادة إذ تعيش في وفاق تام لا يكرهه مكر ، ولكن العقاد عمد إلى دنيا الفنون المطمئنة ، فرمى بحيرتها الساكنة بحجر ثقيل كدرها تكديرا ، وهو في نظريته إلى القصة خصم لا حكم ، لأن القصة التي تتضاعل مكانتها في مكتبة العقاد تكون موضع الكراهية ، فالحكم إذن عن هوى .

أما اتخاذ الأداة والمحصل مقياسا للتفضيل ، فموضع المؤاخذة لدى نجيب لأنها شيء واحد في كل فن رفيع ، ففي الشعر الجيد كما في الأداة الجيدة تتحد الأداة والمحصل ، وقد يكون هذا المقياس صالحا للتمييز بين الجيد والرديء ، في فن واحد ! ولكنه لا يصلح للموازنة والتفضيل بين فنين كالقصة والشعر ، وكأن العقاد بذلك يعد التفاصيل في القصة زيادة في الأداة ، وهي في جوهرها لا ترمي لمغزى موجز ، ولكنها صورة للحياة وفي كل جزء منها ما يمثل ناحية منها حرفا وكلمة وجملة ، ونمو القصة نتج عن نمو العلم ، لأن العلم هو الذي وجه الانتباه إلى الأجزاء والتفاصيل ، بعد أن اهتمت الفلسفة بالكليات !

أما قول العقاد : إن قُرَاء الشعر أرقى طبقة من قراء
القصة ! فهو قول وجيه في الظاهر ، ولكنه لا ينتج شيئاً
هاماً ، لأن الموسيقى تنتشر في جميع الطبقات ، والنحت لا
ينتشر إلا لدى طبقة خاصة هي رواد المتاحف ، فهل يقال إن
فن النحت أرقى من فن الموسيقى الذي لا يتذوقه غير
القليلين .

هكذا استمر الأستاذ نجيب في دفاعه عن مكانة القصة ،
وهو دفاع مؤيد بالمنطق الجاد ، ويخيل إليّ أن الناقد الكبير
قد فهم أن العقاد يَهْوِي بالقصة مستهيناً برسالتها ، ولكن
الواقع أن العقاد يقدر رسالة القصة ، وقد كتبها في أرفع
مجالاتها التحليلية ذات العمق النفسي حين كتب قصة
(سارة) ، ولكنه يوازن بينها وبين الشعر ، ليجعلها دونه
فحسب ، لا ليجعلها تهوي إلى الحضيض ، والمسألة لديّ
ليست مسألة قصة وشعر ، ولكنها مسألة إبداع وافتتان ،
فالقصاص الممتاز أفضل من الشاعر المتوسط ، والشاعر
الممتاز أفضل من القصاص المتوسط ، فإذا اتفق الاثنان في
جوهر الموهبة ، فهما على حد سواء ، على أن العقاد قد رد
على كثير من معارضيه في هذه القضية ، ولم يشأ أن يُعقب
على نقد نجيب ! وكأنه رآه أعز لديه من أن يقارعه
الحجاج .

التصوير الفني للقرآن

تولى الشهيد الأستاذ سيد قطب تحرير باب النقد في مجلتي الرسالة والثقافة أمداً غير قصير ، وقد حظيت روايات الأستاذ نجيب محفوظ باهتمامه الجاد ، وقطب رحمه الله كان ضئيلاً بالثناء لا يجازف به دون استحقاق ، وهي سمة أخذها عن العقاد ، وكان لها الأثر القوي في ذبوع فصوله النقدية ، واهتمام المثقفين بها ، حتى الكبار ممن تسنموا الصدارة الأدبية كانوا يتابعون ملاحظات الشهيد في يقظة واهتمام ! وحين أصدر كتابه (التصوير الفني في القرآن) فاجأ القراء بنمط غير معهود من أنماط التحليل القرآني ، ونجيب محفوظ لم يغفل عن الجديد الطريف في كتاب التصوير ، فكتب مقالاً نقدياً عنه ، في صورة خطاب وجهه إلى المؤلف الناقد ، يُصرح فيه بأن كتاب التصوير كان تفسيراً لهذا الذي نحس به دون أن ندرك مآثاه حين رأيت أن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المجسمة المتخيلة ، عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، والحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة ، فإذاً المعنى الذهني هيئة

وحركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة ومشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية ، وبعد هذا التمهيد الجيد توجه نجيب بسؤالين دقيقين للمؤلف ، أولهما أنه تحدث عن التصوير والتخييل والتجسيم والتنسيق الفني ، وكل أولئك روح البيان ولبابه قبل كل شيء ، أفلم يخطر للمؤلف أن يحدد نوع البيان القرآني في ضوء هذا الاتجاه ؟ أما السؤال الثاني فعن الفصل الذي خصَّ الشهيد سيد قطب للنماذج الإنسانية حيث استشهد بآيات كريمة تدل على الطبائع البشرية لا النماذج البشرية ، لأن النموذج الإنساني بمعناه العلمي أشمل من هذا ، إذ يحوي الكثير من الطبائع كما يحوي غيرها ، والنماذج الإنسانية محدودة معروفة ، أما الطبائع فلا حصر لها ، لعل المؤلف أراد الطبائع لا النماذج .

ولقد عقب عليها الشهيد بقوله : إن اختيار كلمة نماذج أقرب إلى ما يفهم من طبيعة التعبير القرآني حين يقول مثلاً : ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة ، انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة﴾ ، وحين يقول : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويُشهد الله على ما في قلبه ، وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل﴾ ، فقوله : «من

الناس» يعني «وفريق من الناس أو صِنْفٌ من الناس ، أو نموذج من الناس» .

وفي رأيي أن القرآن جمع النماذج والطبائع معا ، فهو في اللقطات القصيرة الموجزة يشير إلى الطبائع ، وهو في المشاهد المكتملة يشير إلى النماذج ، فقصته ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ تدل على أنموذج شاخص وآية ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ تدل على طبيعة محددة ! والأمر قريب من قريب .

أصول الترجمة

نجيب محفوظ يتسم دائما بالهدوء في حوارهِ القصصي ، فقد يكون الموقف مما يتطلب الفرقة الصاخبة ، ولكن القصص ما يزال به تلطيفا وتهذئة حتى تخفّت بواعث الضجيج ، إلا إذا كان البطل شاذا لا حيلة للكاتب في تحويل مجراه ، فهنا تنبعث الضجة على لسان نجيب ، وكأنه في ذلك يسلم أمره لله ، أقول ذلك لأنني شاهدت لدى نجيب الناقد موقفا ارتفع فيه صوته أكثر مما كان ينتظر من مثله ، فقد قرأ ترجمة مختصرة لكتاب (الوسائل والغايات) لألدوس هكسلي ، ولم يكن مترجمه الأستاذ محمود محمود ملتزما بالنص الحرفي ، ولكنه حذف واختصر ولخص ، ونجيب ممن يحبون البحث الفلسفي ، ويزيد له حبا إذا كان كاتبه من طراز ألدوس هكسلي فما كاد يقرأ الترجمة المختصرة حتى انبعث على صفحات الرسالة ينحو باللائمة على الأستاذ المترجم ، ويقول إن روح الأمانة الدقيقة يجب أن تسود النص ، وبخاصة إذا كنا نستقبل نهضة علمية ذات تأثير ، والمترجم حريصا يختار من الكتب ، ولكنه إذا اختار فلا بد من أداء الأمانة على وجهها ، وإلا صار عمله افتياتا وتشويها ، ثم إنه حذف ثلاثة فصول ذكر أنها تتضمن مبادئ هدامة ، وهي أشد فصول الكتاب خطرا باعتبار المؤلف ألدوس هكسلي ! فكيف نحرّم القاريء مما قال ؟!

هذا لُبَابُ ما قاله الأستاذ نجيب محفوظ ، وقد رد عليه المترجم الفاضل ، فذكر أن الترجمة في شتى اللغات إما أن تكون حرفية أو تكون ملخصة ، وقد اختار الثانية وأعلن عنها في مقدمته دون خفاء ، وقد كان مضطرا للاختصار مراعاة للحجم الذي لا يتجاوزه الناشر ، وليس المترجم ببدع في منحاه ، فالمترجمون الانجليزيونقلون عن اليونانية بتصرف شديد ، ولم يقل أحد إنهم تجنبوا على الأصل . وأرى أن نجيبا كان مثاليا فيما نشد ، وكان الأستاذ محمود محمود واقعيا ، وقد حذف الفصول التي تثير القاريء العربي المسلم ، وهو احتياط له ما يبرره ، وإذا كان القاريء لم يلم بجميع أفكار الكاتب ، فقد ألمَّ بالكثير منها ، وأحب أن أضيف أن الترجمة في البحوث العلمية تحتل التلخيص ، ولكن الترجمة الشعرية والروائية لا تتحمل ، ومع ذلك فقد رأينا في الفرنسية والألمانية من لخص روايات شكسبير ، لأن شيئا أفضل من لا شيء .

مثل يحتذى

بعد هذه الشذرات الدالة ، نقرر أن نجيب العملاق أصبح مثالا يحتذى ، فهو بدراساته الفلسفية والعلمية قدم لروائيي اليوم مذهباً واجب الاحتذاء ، حيث امتلأت المكتبات بروايات لأسماء لامعة ، خاوية المغزى ، ركيكة العبارة ، ضيقة الخيال ، وقد راجت أكبر رواج ، وتعددت

طبعاتها حتى ظن أصحابها انهم على شيء ، ولم لا يظنون ،
والقصة - على نهافتها - تُطبع ، ويتكرر طبعها ، وتُعدّ
للسينما ، وتُحوّر للمسرح ، والجمهور يقرأ ويشهد ، ثم لا
تجد ناقدًا يعترض ، أو جرسًا يصلصل ، إن هؤلاء جميعًا في
حاجة إلى أن يأخذوا دروس الجدية الهادفة ، والكفاح
الجاد ، عن عملاق سبق هو الأستاذ نجيب محفوظ .

تولستوي وشعراء مصر

نال تولستوي أبعد حدود الحظ في ميادين الشهرة والثناء والأدب والإصلاح ، إذ نشأ فنانا موهوبا وورث المال والجاه عن أسرة نابهة ، وكتب القصص الرائعة ذات المرمى البعيد ، ونهل أفوايق السعادة زوجا ووالدا وعاشقا ، وكان المظنون بمن لقي حظوظه السعيدة أن تطرد حياته على نحو عذب هنيء ، ولكن الفنان الحالم قد امتزج بالمصلح الثائر في روحه امتزاجا أورثه الحيرة والقلق ثم قذف به إلى نار الألم حين أخذ يوازن بين حياته المترفة الناعمة ، وما يدعو إليه من إصلاح ديني واقتصادي ، إذ تعاضمه أن ينتشر البؤس القاتل في آلاف الأكواخ مسلطا أسلحته الفاتكة من فقر ومرض وجهل على السواد الأعظم بين الناس ، وأن يذوق هؤلاء غُصَص الحسرة القاتلة حتى يريحهم الموت ، على حين يخلد الكاتب الفنان إلى نعيم رافه يُغاديه بالسعادة ، ويرواحه باللذة والنشوة ، لقد وازن بين سعادته وشقاء من حوله فاعتصر الألم قلبه اعتصارا ، وصمم على أن يفرق أرضه وماله وقصوره على الجائعين العارين من ذوي الألم والمرضى والحرمان ، فقام في وجهه أقرب الناس إليه ، ونفرت منه الزوجة وضايقته بما أنغر جراحه ، وسودّ عيشه ، ولم

يجد بدا من الفرار الهائم على وجهه دون هدف ، وهو يحمل
أعباء الشيوخوخة الواهنة ، تتقاذفه الخرائب والسبل
حتى لفظ أنفاسه وحيدا في محطة قُروية لا يعلم أحد من
ساكنيها من هو المبت الفقيد ! وكانت خاتمة رائعة مفاجئة
لفتت الناس في كل مكان إلى تضحيته الهائلة ، وجعلت منه
مشعل طريق ، وقائد دعوة ، ولم تكن مصر العزيزة بمعزل
عن ركب الإنسانية المتطلعة إلى مشارق النور حين أسفت مع
الأسفين على رحيل الكاتب المصلح فقام شعراؤها وكتّابها
بتأبينه وتعداد مواقفه ، وواسى الشرق أخاه الغرب في
مأساة مصلح رائد حفظ حق القلم في الرعاية والتوجيه ،
وأعطى المثل الحسن في التجرد والتسامي والإيثار !

لم تكن مصر إذن بمعزل عن حركات الإصلاح العالمي كما
يزعم ظلما من يحاول أن يطمس لألاءها الساطع ، بل كان
النابهون من أبنائها يواكبون حركات الإصلاح ، ويقدرّون
للمجاهد كفاحه ، ويعرفون للظالم خِسْته وانحداره ،
كانت مصر تنعم بأمثال محمد عبده وعلي يوسف وقاسم
أمين وفتحي زغلول وأحمد شوقي وسعد زغلول من ذوي
البصائر النيرة ، والنهوض المتوثب إلى أرقى آفاق الحرية !
وكان محمد عبده رائد الإصلاح الإسلامي في مصر أول من
توجه منهم إلى تولستوي بالتحية في حياته ، إذ أعجب
كثيرا بموقفه من الإصلاح الاجتماعي ورأى فيما كتب
الكاتب الروسي عن المسيحية ما يعضد وجهته في الإصلاح

الديني ، فكتب إليه أن بني الإنسان ذوو رحم وأشجة مهما
تباعد المكان وأن ذوي الفكر من بني الإنسان طيور تصدح
على شجرة متعددة الأفنان .

من محمد عبده إلى تولستوي

كتب الأستاذ الإمام إلى تولستوي يقول :

«أيها الحكيم الجليل :-

لم نحظ بمعرفة شخصيتك ، ولكننا لم نحرم التعاون مع
روحك ، إذ سطع علينا نور من أفكارك ، وأشرقت في أفاقنا
شموس من آرائك ، ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك ، إذ
هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التي فطر الناس عليها ،
ووفقك إلى الغاية التي هدى البشر إليها ، فأدركت أن
الإنسان جاء إلى هذا الوجود ليُنْبِت بالعلم ، ويثمر
بالعمل ، ولأن تكون ثمرته تعباً تروحح إليه نفسه ، وسعياً
يبقى به ، ويرقي جنسه ، وشعرت بالشقاء الذي نزل
بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة ، ولما استعملوا
قواهم - التي لم يُمنحوها إلا ليسعدوا - فيما كدر راحتهم
وزعزع طمأنينتهم .

ونظرت إلى الدين فجرحت حجب التقاليد ، ووصلت إلى
حقيقة التوحيد ، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك
الله إليه ، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم إليه ،
فكما كنت بقولك هادياً للعقول ، كنت حاثاً للعزائم والهمم ،

وكما كانت أراؤك ضياء يهتدي به الضالون كان مثالك في العمل إماما يقتدى به المسترشدون .

شعراء مصر

وتحليل خطاب الأستاذ الإمام يتطلب مجالا آخر ، فقد أوجز مناحي الإصلاح لدى تولستوي إيجازا يحتاج إلى تفصيل ، وحين مات الفنان الروسي بعد عشرة أعوام من خطاب الأستاذ الإمام ، ضجت عليه صحافة مصر ، فظهرت أنهارها تندفق بمآثره ، وتجيش بفصول مؤثرة من كتاب حياته ، وقد ظهرت «الجريدة» بمقال افتتاحي كتبه محررها الأستاذ احمد لطفي السيد تحت عنوان (مات الرجل) فأحسن الإلماع إلى مواقف تولستوي في دقة ورصانة تُعهدان عنه ، وكان شوقي غير غائب عن فجيعة العصر في تولستوي ، فاندفع إلى رثائه اندفاع القادر البصير ، فجاءت مرثيته مع نبضها العاطفي وإيقاعها الوجداني ، وشجاها الدامع الحزين ، جاءت قصيدته مع هذا كله تحليلا بصيرا لألمع الخوافي في حياة الراحل ، وجاء بها من الومض الكاشف ، واللمح الساطع ماكشف النور عن شعاب رحيبة تعمر أفاق تولستوي ! وشوقي أروستقراطي بنشأته ومنصبه ، ولكن روح الإنسان الراجم تترقرق في شعره ، فأنت إذا طويت مدائحه الرسمية ، ونظرت إلى معدنه الفني رأيت روح الإنسان

المعذب بمصائب البشر تصرخ في أعماقه ! هذه الروح هي التي دفعته إلى رثاء تولستوي حين لمح دموع الباكين من البائسين تنهمر خلفه ، وحين رأى الفلاحين في الأكواخ يتأوهون على من أخذ بناصرهم حين فقدوا النصير ، ومن نطق بمآسيهم وعَمِلَ على محوها حين نادى بحقوقهم في الحياة السعيدة ، وهم في مجموعهم كما عناهم شوقي حين قال مخاطبا تولستوي :

ويندب فلاحون أنت منارهم
وأنت سراج غيموه منير
يعانون في الأكواخ ظلما وظلما
ولا يملكون البث وهو يسير

وقد كانت زوجة تولستوي بعض مآسيه ، ولكنها ندمت على ما أسلفت حين تلقت منعاه ، فبكته بكاء حارا عبر عنه شوقي حين قال :

ويكيك ألف فوق (ليلي) ندامة
غداة مشي (بالعامري) سرير

وهي إشارة مهذبة تدل على ذوق أمير الشعراء ، وقد غاب مغزاها عن انتقد شوقي فتساءل ؟ وما دخل ليلي وقيس هنا ؟ وكان عليه أن يتعلم قبل أن يتهمك ؟

ولم يفت أمير الشعراء اعتزازه بشعراء لغته ، إذ أحب أن يُقارن بين تولستوي وبين عظيم من ذوي الفكر

يُسَامِيهِ ، فَاخْتَارَ أَبَا الْعَلَاءِ الْمَعْرِي اخْتِيَارًا صَائِبًا ، فَكَلَّا
الْحَكِيمِينَ قَدْ عَرَكَ نَوَائِبُ الدَّهْرِ ، وَتَحْمَلُ مَصَائِبُ الْإِنْسَانِيَةِ
بِقَلْبِ بَاكٍ ، وَضَمِيرٍ نَائِرٍ ، وَقَدْ شَاءَ شَوْقِي أَنْ يَصِفَ زِيَارَةَ
تَوَلَّسْتُوِي لِحَكِيمِ الْمَعْرِةِ فِي عَالَمِ الذِّكْرِ ، وَأَنْ يَجْرِيَ عَلَى
لِسَانِ الْحَكِيمِ الرُّوسِيِّ اعْتِرَافًا بِقَدَمِهِ لِحَكِيمِ الْمَعْرِةِ قَائِلًا فِي
تَوَاضِعٍ :

إِلَيْكَ اعْتَرِفَانِي لَا لِقَسٍ وَكَاهَنٍ
وَنَجَوَايَ بَعْدَ اللَّهِ وَهُوَ غَفُورٌ
فَزَهْدُكَ لَمْ يَنْكَرْهُ فِي الْأَرْضِ عَارِفٌ
وَلَا مَتَعَالٍ فِي السَّمَاءِ كَبِيرٌ
سَلَكْتَ سَبِيلَ الْمُتَعَرِّفِينَ وَلِذَلِكَ
بَنُونَ وَمَالٌ وَالْحَيَاةُ غُرُورٌ
أَدَاةُ شَتَائِي الدَّفْعُ فِي ظِلِّ شَاهِقٍ
وَعُدَّةُ صَيْفِي جَنَّةٌ وَغَدِيرٌ
وَمُتَعَتٌ بِالدُّنْيَا ثَمَانِينَ حِجَّةً
وَنَضَمِرٌ أَيَّامِي غَنَى وَحُبُورٌ
تَسَائِلُنِي هَلْ غَيْرُ النَّاسِ مَا بِهِمْ
وَهَلْ حَدَّثْتَ بَعْدَ الْأُمُورِ أُمُورَ
أَنَاسٍ كَمَا تَدْرِي وَدُنْيَا بِحَالِهَا
وَدَهْرٌ رَخِي تَبَارَةٌ وَعَسِيرٌ
وَجِزْصٌ عَلَى الدُّنْيَا وَمِيلٌ مَعَ الْهَوَى
وَعَشٌّ وَافُكٌ فِي الْحَيَاةِ وَزُورٌ

لقد صار شوقي متشائما ! وكأن المعري قد أعداه بل كأن
مأساة تولستوي حين هجر الأنس والصفو ولاقى الموت في
مكان موحش قد أعدته بهذا التشاؤم ! وإلا فأمر الشعراء
في كثير من قصائده متفائل ذو ارتياح وهو الذي عاتب
المنفلوطي متسائلا في رثائه :

مَنْ شَوّه الدنّيا إليك فلم تجد
في الملك غير معذّبين جِيعاً
ما هكذا الدنّيا ولكن نقلة
دمع القرير ، وعبرة الملتاع
وأهون ما يقال عن شوقي في هذا المجال إنه ينطق بلسان
تولستوي لا بلسانه ، أو أنه كان في لحظات ضيق !

قصيدة حافظ إبراهيم

وما كادت قصيدة شوقي تتألق في الصحف حتى بارأها
حافظ بقصيدة قال في مطلعها مخاطبا تولستوي :

رثاك أمير الشعر في الشرق وإنبرى
لمدحك من كتاب مصر كبير
ولست أبالي حين أرثيك بعده
إذا قيل عني قد رثاه صغير
فقد كنت عوناً للضعيف وإنني
ضعيف ومالي في الحياة نصير

وقد انتقد الكاتب الكبير الأستاذ علي أدهم هذا المطلع ، فقال : إن شاعر النيل بهذه الأبيات التي تنم عن شيء من الضعف ، وعدم الثقة بالنفس قد ظلم نفسه ، ويُخِيلُ إليّ أن الأستاذ أدهم رحمه الله نسي أن حافظاً قال هذه المراثية قبل أن يُوظف بدار الكتب ، وكان وجه الحياة كالحا في عينه فصدق التعبير عن نفسه حين قال إنه ضعيف ، وماله في الحياة نصير ، وإذا صدق الشاعر في تصوير عاطفته فكيف يُلام ؟ على أن أدهم أصاب شاكلة الصواب حين انتقد قول حافظ :

ولست أبالي حين أرثيك للورى
حوثك جنان أم حواك سعيير

لأن ذكر السعير هنا مستبشع ! وإن كانت قسوة أدهم في نقد البيت تدل على انفعال حاد لانهده في نقده الصائبة ، وقد تابع شاعر النيل أمير الشعراء ، فأجرى لقاء بين تولستوي والمعري ، واندفع إلى جفاف ذوقٍ لم يقبله الأستاذ أدهم أيضاً حين قال حافظ مخاطباً تولستوي :

إذا زرت رهن المحبين بحفرة
بها الزهد ثاو والذكاء ستيير
فقف ثم سلم ، واحتشم إن شيخناً
مهيب على رغب الفناء وقور

فالأمر بالوقوف والسلام والاحتشام ! مما لا يجوز أن
يُملي على تولستوي ! وقد كان شوقي أدري بمقتضى الحال
حين قال مخاطباً تولستوي :

إذا أنت جاورت المعري في الثرى
وجاور (رضوى) في التراب (ثبير)

وأقبل جمع الخالدين عليكما
وغالى بمقدار النظير نظير

جماجم تحت الأرض عطرها شذى
جناهن مسك فوقها وعبير

ولكن حافظ قد تيقظ لنفسه بعد هذه العثرة ، وأجرى
على لسان المعري من دقائق الحكم ما يعدُّ وليد نبوغ متأصل
في فكر حافظ ، إذ شاء شاعر النيل أن يكون المعري واسع
النظرة ، رحيب الأفق ، صادق البصر في غور الحياة إذ
يراها حرباً دائمة لأن سنة العمران توجب التناحر ، فالشر
أصل أصيل في الحياة ولولا امتزاجه بالخير ما بعث الله
النبیین الهداة ، ولما انبعثت الهمم العالية إلى الإصلاح ،
ولما عشق العلياء حر ، وساد كريم ، ورجا الثراء فقير ، قُرْبُ
نقمة تجلب نعمة وكم في طريق الطيبات من شرور ! هذه
نظرات حكيمة وجهها المعري إلى تولستوي على لسان حافظ
ابراهيم إذ هتف :

حياة الوري حرب وأنت تريدها
 سلاما ، وأسباب الكفاح كثير
 أبت سنة العمران إلا تناحرا
 وكدحا ولو أن البقاء يسير
 تحاول رفع الشر والشر واقع
 وتطلب محض الخير وهو عسير
 ولولا امتزاج الشر بالخير لم يقم
 دليل على أن الله قدير
 ولم يبعث الله النبيين للهدي
 ولم يتطلع للسرير أمير
 ولم يعشق العلياء حر ولم يَسُد
 كريم ولم يبرج الثراء فقير
 ولو كان فينا خير محضا لما دعا
 إلى الله داع ، أو تبليج نور
 ولا قيل هذا فيلسوف موفق
 ولا قيل هذا عالم وخبير
 فكم في طريق الشر خير ونعمة
 وكم في طريق الطيبات شرور
 إذا هُدمت للظلم دور تشييدت
 له فوق أكتاف الكواكب دور!

وجريان الحديث على هذا النحو الرائع كان في حاجة إلى
 نعمة تؤكد ضرورة السعي في الإصلاح ، ولعل الذي دعا

شاعر النيل إلى إهمال هذه التتمة أنه يتحدث على لسان المعري ، وأبو العلاء متشائم يائس ، فلا يجوز أن يدعو إلى الخلاص من الشر في حياة يعتقد أنها بُنيت على الأكدار ! وللمخرج من هذا المأزق كان على حافظ أن يُصدر حكما تاليا على حوار أبي العلاء ، يفتح فيه باب الأمل أمام المصلحين ، ولكن حالته النفسية التي أشرنا إليها من قبل ، حالت دون هذا التفاؤل ، وقد قال عن القصصي الروسي ما أوجت به عاطفته الذاتية ، وحسبه هذا .

أحمد نسيم

كان للشعر في الثلث الأول من هذا القرن صولة ظافرة ،
فما يكاد شاعر من شعراء الصف الأول يبدع قصيدة في
غرض مؤثر حتى يجاوبه غيره من ذوي الإبداع الشعري ،
وهكذا بدأ شوقي وثنى حافظ ، ثم جاء أحمد نسيم ليحذو
حذوهما ، ونسيم أقرب في منحاه الأدبي إلى حافظ منه إلى
شوقي ، إذ كان يدور في فلك شاعر النيل ، وقد لقّب نفسه
بشاعر الوطن حين رأى الصحافة المصرية تنعت حافظا
بشاعر النيل ، كما كَبَا حظه حين مدح المستعمر في الفترة
الأولى من عهده بالشعر ، ثم أدركه المناب فاقلع عن خطئه ،
واتجه وجهة الوطنية الصحيحة مخلصا صادقا ،
والتاريخ لا يرحم إنسانا ، لأنه لسان الحق ، يحصي المثالب
ويعدد المحاسن ، وحين نشر الشاعران رثاءيهما في
تولستوي ، انطلقت شاعرية نسيم تردد ماجاش بصدر
صاحبها في هذا الموقف ، وقاريء نسيم يشعر أنه يحب
نحو حافظ حبوا دون أن يقترب منه اقتراب النظير للنظير ،
وكان نسيم يعلم ذلك من نفسه ، وكأنه قلّد حافظا حين قال في
مطلع مرثيته :

تُلتوي أبشر قد رثاك ثلاثة
صغيرهم في النابغين كبيير
ولولا النهى ماثار شوقي وحافظ
ولا كاتب جم البيسان قدير

وما بينهم يوم الفخار تفاوت
فكل بما يثني عليك فخور

واندفع أحمد نسيم يسجل خواطره نحو المصلح
الفنان ، وقد غضب لثورة خصومه ، وندد بمن قاوموا فكره
الديني ومذهبه الاجتماعي ، وأنذرهم بعذاب قاصم يخرل
بساحتهم بعد حين ، كما أعجبه ما حاوله تُلستوي من
تقسيم ثروته على الفقراء ، وميله إلى الزهد طمعا في مساواة
تشمل الناس جميعا ، وحديث نسيم عن الفيلسوف حديث
المثائر لا الدارس ، فليس له عمق شوقي ، ولا بُعد نظره ،
وقد وسَّع الشاعران جوانب الموضوع حين أدخلَا المعري
طرفا في قضية تولستوي ! وكان على نسيم أن يُبدع مثالا
جديدا يُضيف إلى تراثه الشعري بعض الجدة ، فإذا عرَّه
أن يجد الجديد ، فليتعمق حديث الشاعرين عن المعري ،
ليستهدي به في توليد أفكار لم تُتَّخَ إليهما ! ولكن الشاعر
اكتفى بعفو الخاطر حين قال :

تَلَسْتَوِي هَوْنٌ إِنْ رَبِّكَ عَادِلٌ
خَيْرٌ بِظَلَمِ الظَّالِمِينَ بِصِيرٍ
فَلَوْلَاكَ مَا حَنْتُ إِلَى الْعَدْلِ مَهْجَةً
وَلَا كَانَ لِلْقَوْمِ الضُّعَافِ شَعُورٌ
خَرَجْتُ إِلَى الدُّنْيَا فَعَلَّمْتُ أَهْلَهَا
إِذَا رَغِبْتَ فِي السَّلَامِ كَيْفَ تَسِيرُ

فعادوك لما رمت غير مرامهم
وقد أوغرت منهم عليك صدور
فمن نومة تهدأ الجوانح بعدها
فخير بيوت الزاهدين قبور

وكانت خواتم القصيدة أقوى من مطالعها حيث دعا
نسيم شوقي وحافظ إلى رثائه ، فهو في نظر نفسه دفين مقبور
لا حي يتنفس ، والشاعر صادق في إحساسه إذ كان إبان
قوله هذا تائها ضائعا يعيش في كنف الأديب الكبير محمد
ابراهيم هلال ، دون أن يجد بابا للرزق ، ثم واتاه الحظ بعد
ذلك فعُيِّنَ بدار الكتب ، لذلك أجاد التعبير عن نفسه حين
توجه إلى الشعاعين الكبيرين قائلا :

خليلى هل جمل الأسى فبكيتما
جهارا أم الخطب الملم عسير
ألا فإرثياني في الحياة فإنني
دفين ، وحولي منكرو ونكير
حطمت يراعي وابتليت بسواده
ولكنني رغم الخطوب صبور

لقد عاش تليستوي في أذهان الصفوة من شعراء مصر ،
كما عاش في ذهن شاعر مجيد لم يكتب عنه قصيدة ، ولكن
ألف عنه كتابا كان أجمل ما صدر في العربية عن هذا الرجل
العظيم ، ذلك هو الشاعر الكاتب المؤرخ الفقيده الأستاذ
محمود الخفيف !

زعماء مصر

بين العقاد وعبدالرحمن الرافعي

كتب الأستاذ عبدالرحمن الرافعي تاريخ مصر الحديثة في مجلدات حافلة ، وجدت طريقها إلى القراء في بسر وترحيب ، وقد ذكر المؤرخ الكبير أنه لقي عناء شديدا في تأليف هذه الموسوعة وفي طبعها ، أما من حيث التأليف فقد قدر عليه أن يكتب تاريخ الأسرة الحاكمة ، وهي لا تزال صاحبة الأمور والنهي وضميره العلمي لا يسمح له أن يتنازل عن تدوين الأخطاء ، فكان ذا شجاعة حاسمة في مواجهة الموقف الدقيق ، ولم يكن كغيره ممن ملئوا جيوبهم وخسروا نفوسهم ، وأما من حيث الطباعة فقد ظل المؤرخ أكثر من عشرة أعوام يقوم بالنفقات من ربحه المهني مضحيا محتسبا ، حتى أذن الله ، والتفتت مكتبة النهضة إلى مكافأته فأزاحت عن كاهله ما يرهقه ، وانتشرت الطباعات المتعددة لأجزائه المتتالية ، فكانت دليلا حاسما على مثوبة الجهاد ، وعاقبة الصبر ، ونحن نعلم أن الرافعي أراد باديء ذي بدء أن يكتب تاريخ الزعيم الوطني مصطفى كامل ، فبحث في الأصول الهامة لتاريخ صاحب اللواء فوجد حركته القومية تمتد بجذورها البعيدة إلى عهد الحملة الفرنسية ، التي تعد المحاولة الأوروبية الأولى

لاحتلال مصر ، فلا بد من متابعة هذه الجذور في نموها الطبيعي بدءاً من غزوة نابليون ومروراً بمحمد علي وخلفائه حتى يأتي زمان مصطفى كامل ، والرحلة شاقة عسيرة ، فلا بد من التضحية بالجهد والوقت والمال حتى يصل صاحبها إلى ما يبتغيه ، وقد انفرجت الساحة بعد مصطفى كامل إلى حيث توالى جهود محمد فريد وزعماء الثورة المصرية وما أعقبها حتى ثورة يوليو ، وكُنْتُ الرافعي ذائعة لامعة ، وليس من همنا الآن أن نتحدث عن منهجها العلمي ، ولكننا نمهد بما قدمناه ، لحديثنا عن وجهات النظر المختلفة أحياناً ، والمتفقة حيناً بين عبدالرحمن الرافعي وعباس محمود العقاد .

والحق أن الوقوف المتند أمام مؤرخ مصطفى كامل ومؤرخ سعد زغلول ، مما يفسح مجال النظر الشامل للجوانب المتعددة ذات الوجوه المختلفة ، وهو في الوقت نفسه يكشف عن طبيعة مستترة في خُلُقِ العقاد قد تخفى على بعض دارسيه ، فقد عُرف عن العقاد عنف المناظرة ، وسطوة الصيال ، حتى حُسِبَ هذا العنف خَلَّةً ذاتية لديه لا محيص عنها ، والحق أن العقاد لا يلجأ إلى العنف إلا حين يلمس من معارضه شططا والتواء ، فهو حينئذ يرمي بالقفاز في وجهه ليصارعه في ميدان النقاش صراع الأسد الجموح ، أما حين يأنس في معارضه نزاهة المقصد ، وخلوص السريرة ، واستقامة الرأي ، فهو حينئذ يبادله

الحجة في هدوء ، ويخالفه في سماحٍ رحب ، بل ربما التمس له من العذر ما يُقيم له وجه السداد فيما انتحاه ، ونحن نعلم مكانة سعد لدى العقاد ، ونعرف أن الرافعي قد نال من سعد بما لا يطيق أن يصبر عليه العقاد - كما سنلم بذلك عن قريب - وكان المظنون بالعقاد أن يرتفع صوته بالضجيج صاخبا ، ولكنه عرف خلوص النية لدى الرافعي ، فناقشه بالتّي هي أحسن ، وقرأ الرافعي ما كتبه صاحبه ، وأثر الصمت بعد أن كتب ردا طواه ، وحفظته أوراقه الخاصة في مكتبته ، ولعله عرف أن النشر من جانبه سيُعقب الرد السريع ، والعقاد هو العقاد ، فالصمت أولى ، وليس معنى هذا أنه توقع الشطط من مناظره ، فقد عرف عنه الاعتدال معه في النقاش ، ولكنه أخذ بالحزم دون العزم .

مصطفى كامل

ونبدأ بالحديث عن مصطفى كامل ، فنذكر أن الراجعي كتب عنه مؤلفا رائعا كان أنشودة حب ، ونفحة وفاء ، لأن عبدالرحمن طالب مدرسة الحقوق قد اتصل بالزعيم الشاب ، وظفر بتشجيعه ، وفسح له مكانا طيبا بجريدة اللواء ، ولن يعيب كتابه أن يصدق بمآثر مصطفى ، فلابد لمن يكتب الترجمة التاريخية أن يتغلغل إلى سرائر صاحبها ، كما أن تعاطفه معه أدعى إلى تفهم بواعثه ، واستشفاف مرامييه ، ولن يُصبح مصدر خطر على الحقائق إلا عند من تدفعهم العاطفة الجامحة إلى تناسي الحقائق ، وتلفيق الأوهام ، وما هكذا كان الراجعي .

وقد استقبل العقاد كتاب الراجعي عن مصطفى كامل استقبالا رصينا آمينا من وجهة نظره ، فبدأ حديثه بتقدير المؤلف الكبير فهو في رأيه جدير أن يسمى بحق مؤرخ النهضة القومية الحديثة إذ تابعها في أدوارها المتتالية ، ونهجه في كتابه عن الزعيم شبيه بنهجه في الكتب السابقة من حيث الطريقة والوجهة ، فهو يتتبع الحقائق ، ويستقصي ما احتاج إليه من الأسانيد وينصف في الحكم على الرجال والحوادث مع ميل يسير إلى تخفيف التبعات ، أو تجميل المحاسن في بعض الجوانب ، وسهولة في التعليل

والتعليق لا تتنقل على ذهن القاريء ، ولا تكتفي مع ذلك
 بالظواهر دون ما يلزمها من الأسباب والعواقب .
 وهذا الكلام من العقاد يدل على إنصاف معتدل ، فالناقد
 الكبير حين يقرر أن الرافعي متتبع مستقص منصف لا يترك
 منفذا للوم ، كما أنه حين قال إن الرافعي ذو سهولة في
 التعليل والتعليق لا تتنقل على ذهن القاريء ، ولا يكتفي مع
 ذلك بالظواهر دون البواعث قد صدم من حاولوا أن يجعلوا
 من كتب الرافعي مجرد أحداث جمعت من الصحف
 والوثائق ، لحاجة في نفوسهم لأن العقاد أدرى منهم
 بالحكم حين يرى غير ما لا يرون ، وهو يعرف مناخ كل مؤرخ
 وموضع ارتفاعه وانحداره ، وليس ذا تعسف مريض .
 ولكنه قرر في وضوح أن المؤرخ لم يتحدث عن موقف
 مصطفى كامل من الخلافة العثمانية إذ كان الزعيم الشاب -
 وقد وصفه العقاد بأنه زعيم الوطنية في عهده - من أنصار
 السيادة التركية ، مع الاستقلال الداخلي لمصر ، وقد كان
 الإنصاف التاريخي يقضي ببيان هذه الحقيقة ، ولا يمنع
 المؤرخ أن يفصل أعداء المعتصمين بالسيادة العثمانية في
 ذلك الحين ، بل يوجب عليه أن يذكر هذه الأعداء ، وأن
 يذكر معها صواب المخالفين ، ولكن الرافعي قد أغفل
 الموضوع كل الإغفال ، ولو تحدث عنه لأقر الحقائق في
 نصابها ، وأتاح للقاريء أن يلم بمعاني الحركة الوطنية
 من جميع نواحيها ، وأن يستخرج العبرة المقصودة

بالتاريخ من صواب أو خطأ لكل فريق ، وما من فريق واحد ، لديه كل الخطأ أو الصواب !

هذا ما قاله العقاد ، وحين نقرر أن حديثه عن موقف الزعيم من السيادة التركية حق لا شبهة فيه ، نقرر من ناحية ثانية أن مصطفى كامل كان يحارب انجلترا ، ويراها العدو الأول لمصر ، مستندا إلى معاهدة سنة ١٨٤٠ التي قررت حق الخديوي الممثل للسيادة المصرية في نطاق السيادة العثمانية ، وهو بذلك يريد أن يضمن تأييد الخلافة له في مواجهة بريطانيا ، لأن بريطانيا نفسها سعت إلى تأييد الخلافة لها في مجابهة الثورة العربية ، لتضمن ما تتوهمه من كسب عالمي وداخلي ، فإذا رأى مصطفى ألا يحارب في جبهتين مختلفتين في موقف واحد ، فله وجهة نظره ، كما أن تركيا حينئذ لم تكن ذات تدخل فعلي في شئون البلاد بل كان الأمر كله في يد المعتمد البريطاني ، كما كانت العلاقة الإسلامية بين مصر والخلافة الإسلامية ذات قوة ونفاذ ، فهي أولى أن تكون سلاحا حاسما في خصومة المحتلين ، هذه وجهة نظر مصطفى ، وأعرف أن العقاد يدركها تمام الإدراك ، ولكنه في مجال التاريخ لزعيم الوطنية في عهده يرى من الضروري أن يلم الرافعي بها ، وأن يذكر مبرراتها وعذر المعتصمين بتركيا ، ووجهة نظر المخالفين ، ليتم التاريخ الحقيقي للزعيم الشاب على وجهه الصحيح .

سعد زغلول

كان الرافعي أحد أقطاب الحزب الوطني ، وللحزب نظرتة السياسية لمن يخالفه في الاتجاه ، ولم يكن سعد زغلول في أكثر أحواله موضع الرضا من زعامة الحزب أيام مصطفى كامل ومحمد فريد ومن تلاهما ، وقد رحبت اللواء بسعد زغلول حين تولى وزارة المعارف ، ولكن سياسته المعتدلة كانت موضع نقد لدى المتشددین ، وفي مجال التاريخ السياسي لمصطفى كامل تعرض الرافعي لسعد ليُحصى عليه أشياء ، يراها العقاد بعيدة عن الصواب ، والرافعي ليس وحده صاحب هذه النقادات ، ولكن نفرا من خصوم سعد دأبوا على نقده قبل زعامته للثورة وبعدها ، وليس سعد العظيم فوق النقد فهو سياسي ماهر ، يخطيء ويصيب ، وإذا كانت عين الرضا عن كل نقد كليله فإن عين المراقبة ولا أقول عين السخط قد دفعت الرافعي إلى تسجيل وجهة نظره في سعد حين كان ناظرا للمعارف أيام مصطفى ، وحين تزعم الثورة المصرية في عهده الأخير .

ففي عهد نظارته للمعارف أخذ عليه الرافعي في كتابه عن مصطفى كامل أنه انسحب من رئاسة الجامعة المصرية تحقيقا لرغبة الاحتلال كي يحبط المشروع ، كما أنه دافع عن سياسة الاحتلال في التعليم حين أحل اللغة الانجليزية محل اللغة العربية في التدريس بالمدارس الأميرية .

وفي عهد زعامته للثورة المصرية ذكر الرافعي في تاريخها أن سعدا لم يكن الحافز الدافع لها ، وأنه لم يطلب الاستقلال التام في أول الأمر ، وهذه المأخذ لم تجد ارتياح العقاد فهبَّ لتفنيدها ، وقد تحدث أكثر من مرة عن خطأ الرافعي فيما حاوله من انتقاص سعد ، وكان مقاله الصادر بجريدة الأساس ١٢/٢٨/٥١ من أجمع مدار حول هذا النطاق ، وقد جاء بجريدة الجمهورية الصادرة في ١٣/٢/١٩٨٦ أن الرافعي رحمه الله كتب ردا على مقال العقاد ، وُجِدَ في مسودته ، وقد كتب عليه « لا داعي لنشره » ، وإذا لم يجد الداعي للنشر فلماذا كتبه إذن ؟ ! لعله حذر صيال العقاد ، وهو في هذه الناحية ذو منطق وبرهان .

يذكر العقاد بصدد النقد الأول أن ولاية سعد لوزارة المعارف لم تكن إجحافا بالجامعة بل كانت خدمة لها من الوجهة المادية والأدبية لأنه فتح لها في الميزانية اعتمادا بعشرة آلاف جنيه وهو مبلغ ذو قيمة آنذاك ، ولولا هذه الخدمة المادية ما استقام للجامعة وجود .

أما الخدمة الأدبية فهي اعتراف الحكومة بشهادات الجامعة الأهلية ، ولولا هذا لانصرف الطلاب عنها وأصبح شأنها شأن أندية المحاضرات ، وإذا كان سعد قد انتقد نظام الجامعة فهو انتقاد الغيرة عليها ، والحرص على كمالها ، إذ كان يريد لها معهدا للمتخصصين الذين يبتكرون ولا يقلدون .

أما أن سعدا قد اعترض التعليم باللغة العربية فهو زعم لا أصل له ، لأن سعدا هو الذي أوفد عشرات الطلاب إلى أوروبا ليعودوا إلى مدارس مصر فيعلموا التلاميذ باللغة العربية ، والذي يقول إن نقل التعليم من لغة إلى لغة لا يتم في يوم واحد لا يجارب لغة بلاده ولكنه ينتظر من يستطيع التأليف باللغة العربية والتدريس بها قبل تقرير التعليم باللغة العربية .. وما نظن خبيرا يمتري في ذلك !

أما النقد الخاص بموقف سعد من الثورة فقد عجب له العقاد ، لأن فضل سعد في ثورة ١٩١٩ لا ينكره أحد بدليل معقول ، لأن الأمة بغير زعيمها لا تعرف كيف تتحرك ، بل إنها تحار وتضطرب مالم تتفق على زعيم يملؤها بالثقة والرجاء ، وتشعر بقيادته شعور اليقين والإيمان ، وقد كان سعد هو الزعيم المنقذ ، وقد عرفت الأمة المصرية ذلك في أعماق وجدانها فكان اسم سعد على كل لسان ، وملء كل ضمير ، وعجيب أن تتفق الأمة على الإيمان برجل ، ثم يقال إن الرجل لم يعمل شيئا ، وإن ما عمل كان خليقا أن يتم على غير يده ، أما أن سعدا وإخوانه لم يطلبوا الاستقلال التام ، فهو أعجب ما يكتب في تاريخ الثورة لأن مقابلة سعد وزملائه للمندوب البريطاني قد تمت في الثالث عشر من نوفمبر بعد إعلان الهدنة بيوم واحد ، وقد رواها المؤلف وذكر أحاديثها ، وفيها إصرار على الاستقلال التام ! وكلام العقاد صائب سديد .

أحمد عرابي

كان مصطفى كامل قاسيا أشد القسوة حين هاجم أحمد عرابي ، ودمغه بالخيانة على صفحات اللواء ، ولم يكن من المنتظر أن يصدر هذا العنف الظالم من زعيم مخلص يعرف أقدار المجاهدين ، ولنفرض أن أحمد عرابي قد تورط في مدح الانجليز بعد رجوعه شيخا محطما مكدودا من منقاه ، وأن الزعيم الشاب قد استاء من هذا المدح ، أفما كان الأجدر به أن يتعمق البواعث النفسية التي دفعت الرجل الأعلز المضطهد إلى محاولة العيش في سلام بعد أن ذاق بلاء النفي والتشريد والمرض والشيخوخة ! وإذا كان عرابي خائنا في منطق مصطفى كامل أ يكون وطنيا في منطق الاحتلال ، مهما يكن من شيء فإن عبدالرحمن الرافعي لم يَخْلُص من تأثير مصطفى كامل حين تحدث عن الثورة العرابية ، فأخذ يبحث عن المساويء بحث المتتبع الحريص ، وقد تكون مساويء في رأيه فحسب ، وقاريء ما كتبه عن أحمد عرابي بالذات يلمس ما يشبه التناقض ، فالرافعي في حديثه عن مقدمات الثورة وأسبابها يقول عن زعيمها الباسل : إنه كان في مقدمة هذه الأسباب فهو الذي بث في نفوس الضباط روح التضامن والاتحاد للمطالبة بحقوقهم المهضومة ، وتقدم الصفوف لعرض مطالبهم جهارا على ولاة الأمور ، وكانت

هذه المطالب فاتحة الثورة ، فهذه الجراءة كان لها أثر كبير في ظهور الثورة ولو لم يظهر عرابي ، ولو لم تكن له تلك الشخصية التي اجتذبت إليه صفوف الضباط ، وبثت فيهم روح التضامن والإقدام لكان محتملا ألا تظهر الثورة العرابية أو لظهرت في زمان آخر .

فإذا انتقلنا إلى ما كتبه الرافعي تحت عنوان لماذا اخفقت الثورة العرابية فإننا نأجده يقول : ولو كان على رأس الثورة قائد كفء لتغير مصير الوقائع الحربية بها ، ولكنها مع الأسف لم توفق إلى قواد أكفاء ... ثم ينعي على الزعماء قلة البطولة والتضحية فعرابي ذاته لم يشترك في المواقع الحربية ثم سلم نفسه للانجيز ، وكان مع زملائه قدوة سيئة في الخضوع والاستسلام والضعف النفسي .. إلى آخر ما ينحو هذا المنحى .

وقد تحدث العقاد عن الثورة العرابية في كتابه (١١) يوليو وضرب الاسكندرية) فأ نصف عرابي وأنشاد ببطلته ، وقال : إن الجيش المصري لعده لم يوجد به من هو أقدر منه ولا أحق منه بعرض مطالبه والدفاع عنها ، وقد استمر يقاوم في ميدان الدفاع بما عنده من وسائل المقاومة إلى ما بعد ضرب الاسكندرية ، ولم يكن نجاحه في صد الجيش الانجليزي ميثوسا منه ، بل كان على نقيض ذلك أملا راجحا ، لولا الأوامر التي صدرت بمساعدة الجيش الانجليزي ، ولولا خيانة المأجورين على هداية ذلك

الجيش في دروب الصحراء ، ولولا إعلان السلطان عصيان عرابي بإلحاح من الانجليز ، فمن شاء أن يلوم عرابي فليلمه لأنه طلب الإصلاح وتعرض للانتقام ، أو فليلمه لأنه رفض الدسائس والذرائع المختلفة من الدول الأجنبية وليقم الدليل القاطع على أن الخير في ذلك الملام .

هذا قول العقاد في عرابي ! ولم يسقه في مجال الرد على الرافعي ، ولكنه في موضع آخر لم يغفل مواجهة الرافعي معارضا منحاه في الحديث عن الثورة العرابية حين ذكر في مقالة بجريدة الأساس أن المؤرخ الذي يعلم عواقب الحوادث بعد زمانها يجب أن يذكر أن المشتركين فيها لم يعلموها ، ولا يجوز لنا أن نطالبهم بعلم الغيب أو السيطرة على منافذ القضاء ، وليس للمؤرخ الذي يعيش في القرن العشرين فَضْلُ في علمه بما انتهى إليه الأمر في القرن التاسع عشر ، فإنه لو عاش مع أبناء القرن التاسع عشر لصنع كما صنعوا ، وتوقع الحوادث كما توقعوا .

ثم قال العقاد : «فالأستاذ الرافعي قد عَقِبَ على الثورة العرابية ، وما قبل الثورة العرابية ، فلام أناسا لأنهم عملوا ، ولام أناسا لأنهم لم يعملوا ، ولم يُدْخَل في حسابه قط أنهم يستطيعون أو لا يستطيعون» .

الحق أن العقاد كان قاضيا عادلا في حكمه السديد .

محمد فريد

جهاد الزعيم محمد فريد كان موضع الدهشة البالغة لدى كل دارس ، لأن المجاهد الشهيد قد ارتفع بفدائيته إلى مستوى القداسة ، وهنا نجد الرافعي والعقاد معا لا يختلفان في تقدير قداسته الرفيعة ، وإذا صار الرجل قديس الوطنية لديهما فإن كل ما يقال عنه يتضاعف في تسجيله إذا قيس بحقيقة واقعه ، وقد أصدر الرافعي مجلدا حافلا ينطق بأمجاد هذا الصابر المحتسب الفدائي المضحي بنفسه والجاه والمال والصحة ، والأسرة في سبيل مصر ، كما رثاه العقاد بقصيدتين أولاهما تعد من أعظم ماجاء في دواوين العقاد من شعر ، بل من أعظم ما نضج به فكر العقاد شعرا ونثرا ، وقد رحب العقاد بكتاب الرافعي عن محمد فريد ، وخصه بافتتاحية في صدر مجلة الرسالة قائلا إن الوطنية المصرية لم تعرف من زعمائها من هو أحق من فريد بلقب القديس الوطني ، لأن فدائه البالغ لا مجال للخلاف فيه ، فقد ترك الوظيفة الرفيعة والجاه العالي والمال الوفير ، واللقب اللامع ، واحتمل مكابد السلطان العثمان ، والخطيوي المصري ، والمعتمد الانجليزي في شجاعة ومقاومة ، وبلغ الذروة العليا من المفاداة حين واجه الموت البطيء أنفأ من أن يواجه التسليم ، فقد ثقل عليه الداء في أوروبا ، وضائقة العالم بعد الحرب محكمة ،

وليس أثقل من مرض وغربة وفاقة وشقاء بعد صحة ودعة
ويسار وقدرة على التنقل بين الأجواء ، فأثر التلف البطيء
الذي لا تخفى غائلته ، ولا تخفى عقباه ، على أن يشتري
السلامة بالخضوع والتسليم !

وهكذا اتفق الرافعي والعقاد كل الاتفاق في تقديرهما
لفريد ، واختلفا في تقدير غيره ، ولن تطلب الحقيقة من
كاتب واحد ، ولا من كتاب واحد ، ولكنها تطلب بعد
الاطلاع الشامل ، والموازنة البصيرة بين الآراء المتقابلة ،
والتنزه عن الهوى ، ثم لا مانع من الاختلاف بعد ذلك كله ،
فلو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون
مختلفين .

من أسرار العلائق بين شوقي وشعراء عصره

نصان مختلفان :

قال الأستاذ طاهر الطناحي في كتاب (حياة مطران) بصدد الحديث عنه وعن زميله شوقي وحافظ : «كان الأدب بين الشعراء الثلاثة أقوى في رابطة من النسب ، ولم نجد أهل صناعة واحدة ، أو فن واحد ، ارتبطوا برباط المودة والمحبة ، كما ارتبط شوقي وحافظ ومطران ، فلم نسمع يوما أنهم تنازعوا أو اختصموا أو انتقد بعضهم بعضا نقدا جارحا ، أو قال أحدهم في صاحبه ما يسيئه ، أو ما يضعف مودته على ما كان بينهم من اختلاف في التعبير والأسلوب» (١) .

قرأت هذا الكلام ، فوقفت عنده طويلا ، لأنني أعرف من قراءاتي الكثيرة ما يعارضه ، بل إنني قرأت للأستاذ طاهر الطناحي نفسه في كتاب (شوقي وحافظ) بعض ما يعارضه ، ثم مضيت في قراءة كتاب (حياة مطران) فرأيت الأستاذ الطناحي ينقل عن الأستاذ عباس محمود العقاد مقالا عن العلاقات بين الشعراء الثلاثة يقول فيه : (٢)

(١) حياة مطران للطناحي ص ٣١٥

(٢) حياة مطران للطناحي ص ٣٣٦

«تزامنوا مدى الحياة ، ولكنهم لم يتصادقوا جميعا في غير حدود المجاملة ، إذ حالت المنافسة بينهم دون اتصال الصداقة القلبية على اتمها واصفاها ، ولكنها كانت منافسة في غير الشعر ، وغير الشهرة الأدبية ، لأن ميدان الشعر العربي قد اتسع لهم ، وظل متسعا لهم ولمن بعدهم مدى الحياة إلى أن قال :

«وكثيرون من أبناء هذا الجيل لم يسمعوا بتلك الشفويات المتبادلة بين شاعر الأمير ، وشاعر النيل مما يُنقل ويُروى ، ولكنه لا يُطبع ولا ينشر ، وأصلحه للنشر من قبيل قول شوقي :

وأودعت إنسانا وكلبا وديعة
فضيعها الانسان والكلب حافظ

أو قول حافظ :

يقولون إن الشوق نار ولوعة
فما بال شوقي أصبح اليوم باردا

ومضى العقاد في نحو ذلك وقد رأيت أن أشير إلى أسرار من العلاقات بين شوقي وأنداده من كبار شعراء العصر ، تصلح مجالا للدراسة النفسية لدى من يهمهم أن يحيطوا بالحياة الشعرية في بعض نواحيها ، وأن يفسروا بعض ما يقرءون على وجهه الصحيح .

بين شوقي وحافظ

كان حافظ ضابطا بالجيش المصري في السودان ، وقد ضاق بمقامه البعيد ، ورأى من مضايقات الانجليز ما وثر أعصابه وأزعج مشاعره ، فكتب يستغيث بالأستاذ الإمام - رسالة مأثورة يعرفها أكثر الأدباء ، ثم جدّ من الأحداث ما أوجب فصله ، ورجوعه إلى القاهرة ، تسبقه شهرة بالشعر تجعله في طليعة شبابيه الناهضين من تلاميذ البارودي ، وكان حافظ معجبا بشوقي ، يراد شاعر الشباب المرموق ، وصاحب الخطوة لدى الأمير ، فأخذ يتقرب إليه منوها مباهيا ، وجعل ينشيء المدائح في عباس مشيدا بعبقريه شوقي ، ليجذب قلبه اليه ، فهو في مطلع قصيدة عباسية يقول مهنئا بعيد جلوس الخديوي ، ومجردا من نفسه شخصا يخاطبه :

ماذا ادخرت لهذا العيد من أدب؟
فقد عهدتك رب السبق والغلب
لم يُبق أحمد من قول أحاوله
في مدح ذاتك فاعذرني ولا تعب

ويقول في مطلع قصيدة ثانية مهنئا بعيد الفطر :

مطالع سعد أم مطالع أقمار
تجلّت بهذا العيد أم تلك أشعاري

الى سدة العباس وجهت مدحتي
بتهنئة شوقية النسخ معطار
ويقول في قصيدة ثالثة وقد رصدت جائزة شعرية للفائز
الأول من الشعراء :

قل لآلي جعلوا للشعر جائزة
فيم الخلاف ألم يرشدكم الله؟
إني فتحت لها صدرا تليق به
إن لم تحلوه فالرحمن حاله
لم أخش من أحد في الشعر يغلبني
إلا فتى مـالـسه في السبق إله
هذا الذي حكمت فينا براعته
وأكرم الله والعباس مثواه

وكان المظنون في منطق حافظ أنه بعد هذا التنويه
المكرر ، سيصبح صديقا حميما لشوقي ، وسيفتح له
القصر أبواب ترحيبه ، ولكن الجرائد أخذت تطلق على
حافظ شاعر النيل ، وأخذ شعره في مقاومة كرومر وأذنا به
يتردد على الأفواه ، بينما لا يستطيع شوقي أن يجاريه في
محاربة الاحتلال لصلته بالقصر ، وكل ذلك قد أزعج شوقي
حقيقة ، فجعل يحول دون توطيد العلائق بين حافظ وولي
الأمر ، واتخذ من صلاته بالأستاذ الإمام دليلا على انحرافه
عن عباس ، وأحس حافظ بما يقوم به غريمه ، وفي حافظ -

أيام شبابه - حميةً وانفعال ، فبرح به الغيظ ، وأعلن
هجاءه الصريح لشوقي في مدحة عباسية ، ذكر فيها أنه
صاحب اللآلئ الفريدة في الشعر ، وأن الحاسد الشانيء -
يريد شوقيا - قد هاج هائجه حسدا ، وأنه رام مكانة
حافظ ، فلم يظفر بشيء ! وهذا يناقض ما سلف أن أشاد به في
المدائح السالفة ، ولكن أوار الغيظ قد احتدم في نفسه ،
لا هبا ، فرأى أن ينقّس عنه بمثل قوله في عيد الجلوس :

ياعبيد ليت الذي أولاك نعمته
بقرب صاحب مصر كان أولاتي
صغت القريض فما غادرت لؤلؤة
في تاج كسرى ولا في عقد بوران
شكا عمان ، وضج الغانصون به
على اللآلي ، وهاج الحاسد الشاني
كم رام شأوي فلم يدرك سوى صدف
سامحت فيه لنظام ووزان

وإذن فقد برح الخفاء ، ولم يبق مجال للمواربة !
وطبيعي أن يظل حافظ مشغولا بصاحبه ، وأن يعاود
النقمة عليه شعرا ونثرا ، وقد ألمّ ببعض ذلك في كتابه ليالي
سطيح إذ ذكر أن شوقيا لم يغادر معنى من معاني الشرق
والغرب إلا سلخه ومسخه ، وأنه مهزول اللفظ ، غامض
المعنى ، يحتاج قارئه إلى تخوت الرمل ، وطوالع
التنجيم ،! وقل في الغضب ماشئت .

مضت الأيام في سيرها ، واضطر الشاعران المتنافسان إلى المهادنة ، وكانت كياسة شوقي ذات أثر في إلهاء حافظ . ولكنه نال في مرارة حين أقيمت له حفلة تكريم بمناسبة الإنعام الخديوي عليه ، ورأى المحتفلون أن تسند رأسه الحفلة إلى شوقي تأكيداً للمودة الظاهرة ، وانتظر حافظ أن يسمع من رئيس الحفلة قصيدة في تكريمه ، كالمعتاد في مثل هذه المواقف ، ولكن شوقياً لاذ بالصمت ولم يتكلم ! وكان في مقدوره أن يقول :

لقد تعرض الأستاذ أحمد محفوظ في كتابيه عن شوقي وحافظ إلى تسجيل بعض ما كان بين الشعارين ، وهو مما يطول تلخيصه فنكتفي بالإشارة إليه ، ولكننا لا نقدر أن نغفل رواية مزعجة ذكرها الأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف في كتابه (فلاسفة وصعاليك) إذ أن دلالتها - لو صحت - ذات مغزى اليم .

قال صديقي الأستاذ محمد فهمي (حدث في مرة أن فكر رجال الحاشية في الخلافة العثمانية في أن يجعلوا حافظاً شاعر الخليفة في مصر ، كما كان شوقي شاعر البلاط الخديوي ، وجاءت هذه الرغبة إلى رجال السراي ، فسأهم أن ينال حافظ هذا التقدير ، وهو المعروف بأنه من حزب الإمام محمد عبده الذي يناوي السراي ، وحرص شوقي وأعوانه على ألا تتحقق هذه الرغبة ، فاتصلوا بإبراهيم المويلحي لعله يلتبس لهم سبيلاً يصرف رجال البلاط في الخلافة العثمانية عن هذه الرغبة ، وما كان الأمر عسيراً على المويلحي في سعة حيلته وتدبيره

تصوير شعري :

كان الشاعر اللبناني الكبير الأمير أمين بك ناصر الدين
من زعماء الديباجة البيانية الرائعة الذين لم يأخذوا
حظهم من الدراسة التحليلية ، وقد شاء خياله البارغ أن
يرثي شوقيا على لسان حافظ ابراهيم ، حيث ألمّ بمشاعر
الرجلين إلما صادقا ، أحسن تصويره في مرثيته التي
بدأها -وهي على لسان حافظ -بشكر شوقي حين رثى شاعر
النيل بقصيدته الشهيرة :

قد كنت أوثر أن تقول رثائي

يا منصف المسوتي من الأحياء

فبدأ يفتخر بما قيل فيه ، ويعلن أنه قد نال ميّتا من
إطراء شوقي ، ما فاتته في حياته إذ كان يتوق إلى سماع شيء
من شعر شوقي يُقال عنه ، وأسهب ناصر الدين في إيضاح
هذه الخوارج إسهابا يجد بعضه القاريء في مثل قوله :

أشدت بذكرى حين قلت رثائيا

فيالي مرثيا ويالك رثيا

ولكن أبي عدل الردى أن يفوتني

من المجد ما قد فاتني في حياتيا

ولو رد تأبين على الميت روحه

إذن لراوني حول نعشك جاثيا

طلبت المنى حيا فعز نوالها

ومِت فأولاني رثاك الأمانيا

مددت يدا نحوي بما قد رثيتني
وما أنا ممن يجحدون الأياديا

ومن روائع القصائد في وصف شعر شوقي :

تجلى نقي المستشف سلسلا
كما سال فوق الفضة الماء جاريا
أمالت أفنانين الأراك فنونه
وأسكنت السحر العيون السواجيا
إذا ما الغواني استقبلت رونق الضحى
حسبن الضحا مما وصفت الغوانيا

وإنصافا لشوقي أذكر اني عثرت على مقطوعة صغيرة
مدح بها حافظا ، ولم ينشرها في الشوقيات ، إذ رواها
الأستاذ حسن الجداوي في هامش ص ٦٩ من كتاب «الآدب
الجديد» بعد مؤاخذه عنيفة بسلوك شوقي نحو أنداده ،
وفيها يقول شوقي مادحا حافظا ابراهيم :

قالوا حبيب أنت تطري شعره
من ذا الذي لم يُطر شعر (حبيب)
من كان في ريب فذا ديوانه
راح العقول ، وكأس كل أديب
كم فيه من مثل يسير وحكمة
تبقى على الدنيا بقاء عسيب
يا حافظ الآداب والبطل الذي
يُرجى ليوم في البلاد عسيب

لا تسألوا الأصداف ماذا أودعت
في هذه الأوراق كل عجب

بين مطران وشوقي

خليل مطران شاعر إنسان ، قضى عمره الأطول نبيلًا رقيقًا ، لا يؤذي ذبابة ولا يقتل فأرا ، وكانت علاقاته مع الشعارين والمتشاعرين جميعا في غاية بالغة من اللطف والتشجيع والاحتمال ، وقد مدح شوقيا وحافظا معا ، وبادله الثاني مديحا بمديح ، وصفاء بصفاء ، أما شوقي فقد مدحه في المحفل الرسمي لتكريمه إذ كان تحت رعاية الخديوي ، وتحت رئاسة الأمير محمد علي شقيق عباس ، مدحه بقصيدة موجزة لم يقل سواها شوقي مع تعدد ما قاله مطران عن شوقي نظما ونثرا !! إذ كان مطران موهوب القلم في الصناعتين ، وجل من كتبوا عن علاقة شوقي بمطران قد وقفوا عند السطح ، إذ نسوا طابع المجاملة الزائدة عند مطران ، ولكنني أنست فيما قرأت ما يدل على كظم متكتم يعتمل في صدر الخليل ، وأول ما قرأته في ذلك ما كتبه ابن عساكر بمجلة الرسالة^(١) عن رأي مطران في مسرحية مجنون ليلى لشوقي ، إذ حكى الناقد المسرحي عن مطران قوله عن الرواية إنها مجموعة أناشيد تختلف بالأوزان والقوافي وأن الحوار فيها هزيل سقيم ، وأن الباعث على

(١) العدد ٢٨٣ : ٥/١٢/١٩٣٨ (الرسالة) ص ١٩٩٨

تأليفها نزوة قامت برأس شوقي بك في أيامه الأخيرة لتأليف
الروايات الشعرية البعيدة عن بساطة الطبيعة ... وقد
يكون هذا رأيا أدبيا لا صلة له بشخصية شوقي ، ومن حق
الخليل أن يفصح عنه في مجال النقد الفني دون اعتراض !!
ولكن حادثا أخريشي بشيء كبير مما بين الرجلين ، فقد كان
شوقي يمدح عباسا وأولاده ، الأمراء أيام كان الخديوي
صاحب الأمر والنهي ، ثم أسدل الستار ، وتغير المسرح ،
ونُفي عباس وأفراد من أسرته إلى أوربا ، وتوفي ولده
الأصغر الأمير عبدالقادر ، وصمم والده على أن يُدفن
بالقاهرة ! وكان من المصادفات المؤسفة أن يصل الجثمان
يوم الاحتفال بعيد الجلوس الملكي لفؤاد ، وقد أقيمت
الزيّنات وارتفعت أقواس النصر ، وسار موكب الجنازة
تحت الأضواء الكهربائية المحتفلة بالعيد ، ومراً خاشعا
ساكنا صامتا تحت أقواس النصر النهضة !! وعز على
مطران أن يفد موكب الأمير المحزن دون احتفاء ، فنظم
قصيدة حارة في رثائه قال فيها^(١) :

أرثيك يا ولداه بالחס الذي
هو حس مصر وكل قلب شاعر
ولقد ترى وجه اعتذار للآلى
حبسوا الدموع فأنت أكرم عاذر

(١) نشر الاستاذ عادل الغضبان بمجلة الرسالة اللبنانية السنة الثالثة ايار ١٩٥٧ مقالا
تحت عنوان خليل مطران الحليم الغضوب كان مصرنا في هذا الموضوع .

الخلف أبعد ما نظرت مسافة
في الشرق بين أسيرة وسرائر
لـو مت في زمن مضى لعلمت كم
من ناظم فيهم وكم من نائر
تعدو البهارج ، كل زور تحتها
وتمر بالزينات مر الساهر

والبيت الأخير ذو شجاعة مفرطة ، وقد ثار لأجله الملك
فؤاد ثورة منتقمة ، إذ صمم على طرد الخليل ، لولا أن
رئيس تحرير الأهرام^(٢) قد شاء أن يحتاط هو الآخر لنفسه
فسعى إلى القصر ليعلن أن المراد بالزينات ليست زينة عيد
الجلوس ، ولكنها مظاهر الفرحة عند الأغرار ممن لا
ينظرون إلى عواقب الحياة ، وحاشا للأهرام أن تتورط في
نشر ما يُشتم منه أي انتقاص لصاحب الأمر في مصر ! أما قول
مطران :

لـو مت في زمن مضى لعلمت كم
من ناظم فيهم وكم من نائر

فهو طعنة صريحة لشوقي الذي لم يشارك في استقبال
نجل سيده ! فانتظر حتى عادت أم المحسنين والدّة عباس
من تركيا ونظم قصيدة في استقبالها ، وألّم بمعاني التعزية
في حفيدها ، وقال يرد على مطران في غيظ :

(٢) نشرت القصيدة بجريدة الأهرام ١٠/٢٢/١٩٢٣ وهي مالم ينشر بالديوان .

لا ترومي غير شعري موكبا
إن شعري درجات الخالدين
كل حمد لم أضغه زائل
خالد الحمد بما صفت رهين

وهو غرور نعرفه في شوقي ! فالحمد الصادق لا يخفى
على أحد ، وقد سبقه مطران فشجعه على النظم بعد أن
سكت ، والفضل للسابق لا للمحتذي على كل حال .

وثانية أقولها ، فإن لمطران أقوالا عن شوقي في حياته
تختلف في مغزاها عما قاله بعد وفاته ، واختلاف الرأي
النقدي للمقائل الواحد ، لا اعتراض عليه ، إذ قد يعن للناقد
ما يدفعه إلى تصحيح رأي أدلى به بعد أن ظهرت أدلة فنية
توجب التصحيح ، ومع هذا فإننا نجد من الضروري أن
نشير إلى رأيين مختلفين لمطران في شوقي ، قال في الأول^(١) .

يجيئه المعنى على مرامه أو على أبعد من مرامه ، ولا
ينضب عنده لأنه يستخلصه من عقل فوار الذكاء ومعارف
جامعة ، إلى أفانين الآداب في لغات الإفرنج والأعراب
وفلسفة الحقوق ، وغرائب السير ، وحقائق التاريخ التي
يحفظ منها غير يسير إلى مشاركات علمية ، وتنبيهات
استفادها من مطالعة في صفوف الكتب واتخذها عن
ملحوظاته ومسموعاته ، في جولاته بين الشرق والغرب ،

(١) خليل مطران - أروع ما كتب للدكتور محمد صبري ص ١١٦

وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول ، ترى فيه من نسج البحثري ومن صياغة أبي تمام ، ومن وثبات المتنبي ، ومن مفاجآت الشريف ومن مسلسلات مهيار ، وفي المجموع تجد صفة عامة للنظم ، هي أنه نظم شوقي ! ذلك نظم العبقريّة والتفوق ، وقال في الثاني إجابة عن سؤال وجهته مجلة المعرفة^(٢) إليه بعد رحيل شوقي وحافظ .

«وأنت لو حاولت تلمّس القصائد الطوال في المعنى الواحد ، والغرض الواحد ، في المناسبات السياسية ، فلن تظفر من ذلك بشيء يجدي ، وليس ذلك عيبهما [شوقي وحافظ] وحدهما ، وإنما هو عيب الشعب كله ، فقد كان يرضيه في نهضته السياسية البيت الواحد ، فيصفق له ويجعله أنشودة ، أما أغراض الشعر البعيدة المرمى ، السامية المغزى ، وأما استقراء التاريخ العام ، والتحليل للشخصيات البارزة تحليلا دقيقا ، وتناول أروع عواطف النفس بالتصوير والوصف ، وأما تصور المثل العليا ، ورسم الأوضاع الشعرية السامية ، فأشياء لم نعمل منها قليلا ولا كثيرا ، ومرد ذلك إلى أننا لم نتشبع بالروح العربي الخلاق ، ولا بالروح الغربي الحديث في التصوير والوصف وسوق الأفاصيل ونحوها» .

(٢) مجلة المعرفة عدد فبراير سنة ١٩٣٣م ج١ ص ١١٧٨

وفي قول مطران لم «نعمل» بنون الجماعة ما يدل على تواضعه إذ قرن نفسه بصاحبيه في هذا المجال ، وهو أرجح منهما تجديدا ، ولكن موضع الاعتبار في الرأيين هو ما جزم به في الأول من إمام شوقي الجامع بأفانين الآداب في لغة الأفرنج وفلسفة الحقوق ، وشمول المعارف ، وما جزم به في الرأي الثاني من البعد عن أغراضه السامية ، واستقراء التاريخ العام ، وتناول أروع العواطف والمثل العليا بالتصوير والوصف ! ولغيري أن يفهم ما يشاء إذا لم يتضح له وجه الخلاف .

شوقي والكاظمي

وفد الكاظمي على مصر ، فصادف ترحيبا من أعلامها ، لأن الأستاذ الإمام قدّر قريحته ، وأشاد به ، وكان الكاظمي جزل العبارة في عهد كانت فيه الصياغة الرصينة موضع المباهاة ، كما رزق طولا في النفس الشعري جعله يمتد بالقصيدة إلى مدى يدهش ، ولا عليه إذا تنقل من غرض إلى غرض ، لأن مجازاة الشعر العباسي هي السنن المحتذى حينئذ ، وإذا كانت أوليات الكاظمي أفضل من أخرياته الشعرية فمرجع ذلك إلى ما شغف به من الارتجال الشعري ، والافتخار بسرعة البديهة في الأندية والمحافل ، والمرتجل في أكثر أحواله ينظم ولا يشعر ، وكان على الكاظمي أن يعرف ذلك ، فيتتد في نظمه ليأتي بالمبتكر ، كما

قد يتسنى له في بعض مواقفه حين يطمئن ويتريث ، ومهما
 يكن الأمر فقد عُدَّ الكاظمي من شعراء الصف الأول عند
 قوم ، وأول شاعر في فريق الصف الأول عند آخرين وكان
 الأستاذ الإمام محمد عبده يراه بماله ، فلما ودَّع الحياة
 وجد نفسه في مهب الريح ، وأخذ يزفر زفرات حارة تمثل لها
 بقوله :

مات امام فلا حمى
 يمضي إليسه
 المحتمي
 مات امام فلا فم
 يعلو الخصوم بمفحم
 مات امام فلا يد
 تسدي النـوال لعبدم
 مات امام فقلت ما
 تت عصمة المستعصم
 مات امام فأني قلب
 بعده لم يضرم
 مات امام فأني أنف
 بعده لم يخزم
 من كان يلقيانا بقلب الخا
 ئف المتلثم
 قد عاد يرمقنا بطرف
 الهـازيء المتهم

أبكيه أم أبكي على أي الكتاب المحكم
يا للحشا من نازل

بين الضلوع مخيم
أصبحت بعدك يا

محمد بين شـدقي أرقم
أصبحت من دهري

ولا أدري بأي أحتمي

والقصيدة طويلة تبلغ مائة وثمانين بيتا ! وقد نقلت ما
يدل على شدة افتقار الشاعر إلى معين مُسعف ، وقد بذل
المسعى جاهدا ، حتى أقنع صاحب المؤيد أن يشفع له لدى
الخدوي كي يمنحه راتبا شهريا يستعين به ، فحال دون
ذلك كيد شوقي .

قال الأستاذ عبدالقادر المغربي عن مقال بالرسالة^(١)
أعيد نشره بالجزء الثاني من المجموعة الشعرية للكاظمي
مقدمة لها .

«وانتساب الشيخ الكاظمي إلى الإمام المفتي ، إن كان من
شأنه أن يحدث فتورا نحوه من نفس الخديوي فما كان قط
ليحدث مثل هذا الفتور في نفس الشيخ علي يوسف ، فكنا
ننزهه عن وصمة الفتور ثم ضاق الشيخ عبدالمحسن ذرعا
بالأمر فكلفني أن آخذ من الشيخ علي وعدا بانجاز المسألة

(١) مجلة الرسالة العدد الصابر في ١٩٣٥/٥/٢٠م

مع الخديوي إما سلباً يريح النفس أو إيجاباً يزيل العلة .
ثم قال المغربي راويا عن صاحب المؤيد قوله : ماذا
اصنع يا أستاذ ؟ أنهيت القضية أمس مع الخديوي ووعد
وعدا أكيدا بإصدار أمره بتعيين الراتب ، وقد شكرت له ،
وخرجت من عنده ، لكنني لم أكد أبرح الباب حتى دخل
عليه بعض الناس (ولم يسمه لي) فقال الخديوي : رأيت
فلانا خارجا من عندك فماذا يبغي ؟ قال : قررنا راتباً للشيخ
عبدالمحسن الكاظمي ، قال : أنسيت أنه شاعر المفتي ، وقد
قال فيه من الشعر كذا ! ، وعرض فيك بكذا وكذا ! قال
الشيخ علي : فما كان من الخديوي إلا الشح برفده والنكول
عن وعده ، فلما عدت للكاظمي وأخبرته تأثر جرد التأثر ،
وقال : أتعرف من هو بعض الناس ؟ إنه أحمد شوقي .

شوقي وعبدالحليم المصري

تشابهت حياة عبدالحليم المصري مع حياة حافظ في
بعض الوجوه ، فقد عمل مثله بالجيش في السودان ثم فصل
وعاد دون عمل ، ورأى أن يتقرب إلى شوقي شاعر القصر ،
ليكون وسيلته إلى عباس ، فاندفع في تقربه اندفاع دفعه إلى
ما يشبه التهور ، حين انقلب إلى مبالغات يمجها الذوق
ويأباها الدين ، فأخذ يقرن وحي الله في كتابه بوحي شوقي
في شعره ! ويغرق في الادعاء إذ يقول مخاطباً شوقي :

ذلت آية البلاغة فاغتدت
تمشي بطرسك مشية المتدلل

ثم والى مدائح متذلا متوسلا ، وكأنه يمدح الأمير ، لا
شاعر الأمير ، حتى إذا تدجت ظنونه لم يشأ أن يقطع
الأمل ، بل لجأ إلى العتاب الضارع في مثل قوله :

لقد أخلصت يا شوقي ودادي
إليك وأنت توسعني نفورا
فخذ بيدي ، واذكرني بخير
إذا ماجئت مولانا الأميرا

ولن يُفلح محتال جعل الضرغام بازا لصيده ، فقد أوصد
شوقي الباب في وجهه دون مأمل ، واندفع عبد الحليم ناقما
فنظم قصيدة ثائرة في هجاء الأمير والشاعر معا ، واحتال
بالتاريخ مزورا الأسماء ، ليخفي مراده على رئيس
التحرير ، فيجيز النشر ، إذ جعل عنوان القصيدة «جائزة
شاعر قدرها خمسون ألف دينار ، بين هرون الرشيد ومسلم
بن الوليد» ثم صدرها بمقدمة تعلن أن الخصيب والي مصر
في عهد الرشيد قد خصّ أبا نواس بكل إنعامه ، وأضاع
أموال المسلمين عليه ، فذهبت بددا بين والٍ مستهتر ،
وشاعر نمام ! وإذا كانت مصر حينئذ تتبع الخلافة

العثمانية من الوجهة الرسمية ، فالرمز واضح جلي ،
فالرشيد هو الخليفة ، ومسلم هو عبدالحليم الذي لم يحظ
بشيء ، والخصيب عباس ، وأبو نواس هو شوقي !
والقصيدة طويلة نجتزئ منها بمثل قوله :

ما للخصيب يُغالي بآبن هانئه
ما أعرف المين إلا في المغالاة
يد بعارفة الاحسان يصرفها
إليه كانت سيلا للغوايات
أشاعر النيل دون الخلق يشربه
بيننا يشق الصدى منا المرات
إلى الخصيب تركت النيل عن رغب
يسخر الناس في حمل الجنايات
نعم الأمين على مصر وساكنها
لو يؤمن الذنب في المرعى على الشاة
قل للخصيب إذا ماجئت سذته
عليك بالدين فالدنيا ليمقات
أضغرت أمر رجال أمرهم جلال
وبتّ تعمد أصنام الخرافات

وقد اعتقل الشاعر وقُدِّم للمحاكمة فصدر الحكم بحبسه
ثلاثة أشهر ، فاستأنف ، واستطاع إبراهيم الهلباوي

الداهية ببراعته أن ينقذه حين واجه المحكمة ، بأنها تريد
أن تدين صاحب البلاد بما في القصيدة ، لأن الشاعر نفى أن
يكون قد قصده ، فإذا جازمت بأنه قد قصده فمعنى ذلك أنها
تعترف بكل ما قال من هجاء وهذا شطط من المحكمة ، واتهام
للأمير ! ، واضطرب الموقف ، وزاد الحرج ، فلم تبق إلا
البراءة ! ولكن مع طرد عبد الحليم من وظيفته بديوان
الأوقاف ! إن موقف الهلباوي ليحتاج إلى مقال خاص
فمتى ؟

بين شوقي والكاشف

أحمد الكاشف شاعر حر الضمير ، جريء القلم ، أبي
النفس ، وكان ذا شجاعة أدبية تدل على همامة نفس ، إذ
رأى أن الأمير يوصد أذنه عن سوى شوقي من الشعراء
وهم أنداده فلم يتملق شوقيا كما فعل عبد الحليم ولكن
واجه الخديوي بالموقف في صراحة شجاعة ، وقال شاكيا في
بعض أعياد عباس مخاطبا إياه :

عيد وماذا سرّني فأنادي ؟
ذهب الرجاء من الحبس الصادي
مالي إذا لم ألق عندك موضعا
ولهذه الأعلام والأجناد ؟
قرّبت شاعرك الجليل فما اقتدى
بك واحد من أهل هذا الوادي

مازلت للأشعار تكرمه وما
لك غير ملتفت إلى الأنداد
لا يسألونك مرة إقطاعهم
أرضا وحسبهمو قليل حصاد
أ يكون وردك زاخرا متضربا
ويذاد عنه أظهر السوراد !

وطبيعي أن يتألم شوقي لهذه الصراحة الشجاعة ،
ولكن من غير الطبيعي أن يدس للكاشف ، منتها موقفه من
المنشاوي باشا ، إذ أن الكاشف قد هجاه لطغيانه في
قريته ، وما حولها من البلاد ، ونشر القصيدة دون توقيع ،
فهاج هائج المنشاوي ، وأخذ يبحث عن القائل متوهما أنه
حافظ إبراهيم ، أو إمام العبد ، فتبرع شوقي بإخبار الباشا
بان الكاشف ابن بلدته هو صاحب القصيدة^(١) ، فسخط
المنشاوي وهدد بالانتقام السريع ، وجاء الخبر إلى الاستاذ
الإمام فاستشفع وأرضى المنشاوي بعد مجاهدة ، والموقف
احظ من أن يلحق بتعليق .

وحين بُوع شوقي بالإمارة بعد أكثر من عشرين عاما ،
أقيم له احتفال بقرية القرشية وهي بلدة أحمد الكاشف ،
وتوقع شاعر القرية أن يدعى لاستقبال أمير الشعراء مع
المستقبلين ، ولكنه أغفل ، وعاتب من قاموا بالدعوة وهم

(١) أحمد الكاشف الشاعر السبلي ص ٨٧ للدكتور محمد إبراهيم الجبوشي

أهل الخطيب ، إذ كان الاحتفال بقصرهم ، على بعد خطوات
من منزل الكاشف ، فراعته أن يعرف أن رغبة شوقي هي التي
حتمت إهماله^(١) ، فاكتأب كثيرا وقال من قصيدة نشرها
متألما - وهي أهون مما كان يُنتظر -

سلام على اخوان حلوا بقريتي
وفودا بأوفى ذمة ويمين
فهل ذكروني عند شمل مؤلف
وهل سألوا عن علتي وشجونني
وكان شفائي أن أراهم مسلما
سلام التلاقي والوداع حين
فما افتقد الداعي ضحي اليوم جاره
ولا سأل المدعو أين قريني ؟
إذا ضاع قدري عند جاري وصاحبي
فهل أنا في هند أراه وصين ؟

ولله نفس الكاشف ، فقد كان كريما سمحا في عتابه ، ولو
شاء الملاحاة لوجد المجال ذا سعة ، على أنه رثى شوقيا
باكيا يوم وفاته وقال في مرارة :

مضى زمن لم أنتقل فيه مرة
إليك ، وبى من لاعج الشوق مايبا

(١) أحمد الكاشف الشاعر السيلسي ص ٩١ للدكتور محمد إبراهيم الجبوشي

مضيت فلم أنس بعثبك ساعة
ولم أتزود من رضاك ثوانياً
وأقولها بصراحة إذا كان شوقي أشعر ، فإن الكاشف
أشرف !!

بين شوقي والقياتي

السيد حسن القياتي شاعر دقيق الفكرة ، بليغ
العبارة ، يحتفل بالمعنى احتفالاً قرّبه إلى الخاصة ،
وباعده عن العامة ، وله شعر يرتفع به عن نظرائه ، حين
تقام الموازنات الدقيقة ، كما أنه ذو سموخ و صلف تيّاه ،
وقد أثره اسماعيل صبري بحبه ، وكان يوالي زيارة شيخ
الشعراء عن تقدير ، أما حافظ إبراهيم فقد حدثني أديب
الغيوم الأستاذ الشاعر محمد مصطفى البسيوني تلميذ
القياتي ونديمه ، أنه كان عميق الود ، وطيد الصلة
بالسيد ، وقد دعا القياتي ذات ظهيرة ليقدّم له طبق
« المحشي » ، فقال له «ياشيخ حسن المحشي ، حاجة ماهيش
في الأزهر ، كُل ، كُل» وضحكا معا ! ولما أنشد القياتي
قصيدته التي يقول فيها :

لو أن المساعي تُكسب المجد لم يلح
بأفق العسلا إلا أنا وأخي البدر

قال له حافظ : أبدعت يا أخانا ! يُورَى بأنه هو البدر !

هذا الشاعر الحبيب المعتز ، زار شوقي في كرمته ، فما وجد منه ما يدل على أنه يعرفه ، وكأن حافظاً أغراه بالزيارة عامدا ليكشف له روح شوقي ، فخرج القاياتي هائجا صاحبا ، وجعل ينشر في كوكب الشرق نقداً لغوية وفنية متصلة لشعر شوقي تحت عنوان (العثرات) وأذكر أنه شدد النكير على البيت الذائع (وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت) فقال : إن الأخلاق لا تطلق على الأخلاق الفاضلة وحدها ، بل على كل خلق ، وتحتاج إلى وصف يبين ! وظل القاياتي يتعقب شوقيا حتى بعد وفاته ، ومن أهم ما احتفظ به للقاياتي في هذا المجال مقاله الذي يقول فيه^(١) .

«هأنذا ، وهذا شوقي ، وتلك أشعاره ، وهذه أشعاري ، فإن كنتم ولا بد قاضين له علينا ، فلا أقل من موازنة عفيفة برة تلقونها على قصيدة لي ، وقصيدة له ، فإن تكشفتم المقايسة بيننا وبينه عن تبريزه ، كان لكم أن تحلّوه سماءه ، وتلبسوه تاج الإمارة يأتلق على مفرقه الوضاح ، هذا شوقي طالما جمعنا بينه وبين شاعر مغمور ، من عرض شعرائنا ، وبعثناهما فرسي رهان في ميدان ، فأبرّ عليه شاعرنا ، وجاء قبله ثانيا من عنانه نمسح منه وجه جواد سباق .

ومضى القاياتي يقرن أبياتا له بأبيات شوقي كمثال قول القاياتي في أعضاء البرلمان :

(١) كوكب الشرق ١٢/٢٣/١٩٣٤ تحت عنوان (إمارة الشعر)

كيف نال الكرسي للرأي ساه
خامد الحس يشبه الكرسي
وقول شوقي :

دار النسيابة قد صفت أرائكها
لا تجلسوا فوقها الأحجار والخشب
وأنا لا أوافق القاياتي على منحاه الجزئي قطعاً ، ولكني
أوضح كيف كانت المقابلة السيئة مقارنة بمقابلات
اسماعيل صبري ذات عمق أليم لدى شاعر يقول عن
نفسه :

إني لأضخم من في مصر قافية
لا تجحدوني هذا ، أيها العجم

بين حفني وشوقي

ليس عندي ما أقوله عن الرجلين ، ولكن الشاعر الكبير
محمود غنيم أفرد كتاباً في سلسلة أعلام العرب عن حفني
ناصر ، ذكر فيه أن روح الفتور كانت هي السائدة
بينهما^(١) ، بدليل أن شوقياً كان تلميذ حفني بمدرسة
الحقوق ، وكان من زملائه توفيق نسيم ومصطفى كامل
وعبد العزيز فهمي ولطفي السيد ، وكلهم ممن مدح حفني
نثراً أو شعراً سوى شوقي مع أنه أقرب الناس إلى هوايته ،
وقد كانت علاقة الود عريقة بين حافظ وحفني ، وشعر

حافظ في حفني مشتهر ، وقد قال حفني في تقرّيط ديوان
حافظ :

جعلت يا حافظ كيد الذي
يشنّاك في خسر وتضليل
كأن ديوانك في عينه
رسالة من عند عزريل
وكل بيت حجر قد هوّى
عليه من أحجار سجيل
ومن يكن ديوانه هكذا
يُدعى بحق شاعر النيل

يقول الأستاذ محمود غنيم : «ولنا أن نتساءل : مَنْ هذا
الذي يشنّ حافظاً ؟ فكأن ديوانه رسالة هبطت عليه من
عزرائيل ! وكان كل بيت فيه على رأسه حجر من سجيل ؟
أهو شوقي ؟ ربما ، فنحن نعلم أن شوقي كان يثيره أن
يطلق على حافظ لقب «شاعر النيل»^(١) !» .

وأضيف لما ذكر الأستاذ غنيم ، أن شوقيا لم يشترك في
حفلة تكريم حفني التي أنشد فيها حافظ ومطران قصيدتين
رائعتين ، كما لم يرث (باحثة البادية) - ومصابها قد رمى
والدها بالشلل مثلما رثاها حافظ ومطران ، وهي نابغة

(١) حفني ناصف للأستاذ محمود غنيم ص ١٨٦

العصر ، ووالدها في حاجة إلى العزاء ، وهو لا يعوز
شوقيا ، قريبا بمصر أو بعيدا عنها !

شعراء آخرون

صفت المودة بين شوقي ، وبين شعراء الشام من أمثال
شكيب أرسلان الذي يقول فيه شوقي من قصيدة :

صحت شكيبا صحبة لم يفز بها
سواي على أن الصحاب كثير

ومن أمثال عبدالحميد الرافعي الذي يقول فيه شوقي
من قصيدة طويلة :

أما يكفي أبـاك السبق حتى
أتى بك أطول الشعراء باعا

ومن أمثال شاعر الأرز أمين نخلة الذي يقول فيه شوقي
من قصيدة :

وانصبا الشعر عبـدي
وأنت عبـد لعبـدي

وقد شنع على هذا البيت الناقد اللبناني مارون عبود بما
فيه الكفاية .

وكذلك صفت المودة بين شوقي وشعراء الشباب الذين لا
يزاحمونه مثل رامي الذي يقول فيه قصيدة مطلعها :

ديوان رامي تحت حاشية الصبا
عذب عليه من الرواة زحام
ومثل الشاعر الحزين أحمد العاصي الذي يخاطبه
شوقي بقوله :

تشكو الشباب لنا فيالك يافعا
ضاقت بميعة صروف زمانه
ولتعلمن إذا السنسون تتابعن
أن التشكي كان قبل أوانه
ومثل محمود أبو الوفاء الذي يقول فيه شوقي - بعد
حادثة معروفة ناله فيها شوقي بما لا يستحق :

سباق غايات البيان جرى بلا
ساق فكيف إذا استقل الساقا
ولعل هناك آخرين .

أما بعد

فقد طلبت مني مجلة الثقافة أن أتحدث عن شوقي في
العدد الخاص بالذكرى ، فرأيت أن أجمع ما لدي من أوراق
متناثرة لا أظن أن مثلها قد جُمع في نطاق مكتمل ، ولست -
بعد - متعصبا لشوقي ولا عليه ، ولكن الرأي الآخر لا بد أن
يقال ، وقد يكون في بعض ما ذكرته ما لا يتفق والواقع ،
والتصحيح هنا واجب مفروض على من يملك التصحيح .

قصة عاطفية

منذ سنوات كنت أؤدي فريضة الحج فسعدت بمجلس ديني في ساحة (منى) يتصدره عالم كبير من أئمة علماء السودان ، رأس اكبر مناصب القضاء والافتاء حيننا من الزمن ، وكان يتحدث في أمور تتعلق بمناسك الحج وسط حلقة تضم صفوة من مواطنيه ، وقد عن لي أن أناقشه فيما تعرض له من تعليل رمي الجمار ، ولكنه ابتسم وتلاقول الله عز وجل ﴿ ولا جدال في الحج ﴾ فسكت متأدبا ، وما كان ينتهي المجلس حتى أسرع إلى مصافحتي وعانقني ، وقال : إن الخوض في مسائل الفقه ذو حرج ، فنتسامر هذه الليلة في قضايا الأدب ، وظل حديثنا يستطرد من موضوع إلى موضوع حتى جاء ذكر المجنون صاحب ليلي فقال الأستاذ الجليل : إن لدينا في السودان قصة عاطفية لها شهرة قصة المجنون ، وإن الناس يروونها بزيادات كثيرة منذ ثلاثة قرون ! والقصة في صميمها ذات اهداف خلقية تقترب من المثالية ! ثم قال : إن الأمير يوسف كمال قد لخص هذه القصة فيما كتبه عن رحلته إلى السودان حيث سمعها من مصادر كثيرة ، ورأى فيها من عناصر السموما جذبة إلى تسطيرها ، وأوصاني أن أبحث عن القصة في رحلة الأمير ، ولم ينس العالم الكبير أن يذكر أن شاعرا سودانيا غاب عنه اسمه قد وضعها في مسرحية شعرية احتذى فيها شوقي

فيما كتبه عن مجنون ليلي وعنتره ، فزادني الشيخ شوقا إلى معرفة هذه القصة ، وسألته عن عنوانها فقال : إنها قصة تاجوج ومحلّق ، وتاجوج هي ليلي والمحلّق هو قيس .

شاعر كبير

وقد جهدت أن أرى هذه المسرحية التي أشار إليها الشيخ الكبير فلم أوفق ، ولكنني طالعت ديوان الشاعر السوداني الشهير محمد سعيد العباسي فوجدت في صدره قصيدة مهداة إلى الدكتور زكي مبارك وفيها أبيات تتعلق بالقصة التي أبحث عنها ، والشاعر محمد سعيد العباسي شاعر كلاسيكي عريق تتلمذ على كبار أدباء مصر وعلمائها من أمثال الأساتذة محمد الخضري وعبد الوهاب النجار وعثمان زناتي حين كانوا أساتذة له في أم درمان ثم وفد إليها واستقر بها حيناً من الدهر فأفاد واستفاد ، وقد نظم في تمجيد مصر عدة قصائد جزلة تنحو منحى الشعر العباسي في عصوره الزاهرة فكان المصادفة شاءت أن يكون لقبه هو وصفه الفني ! أما قصيدته في الدكتور زكي مبارك فقد قال فيها :

فيا بن المبارك عش سالماً
وبورك في زندك الوارثة
تغنيت حيناً بليلى العراق
فأحلتها المرتبة السامية

فمد لنا فضل ذاك العنان
عنان براعتك الطاغية
والم بتاجوج واحفل بها
فتاجوج جوهرة البادية
وعلق على جيد تاريخها
درارى أبهرك الطامية

فالعباسي يدعو زكي مبارك إلى كتابة قصة تاجوج كما
كتب عن ليلي المريضة في العراق ، وقد قال : إن تاجوج
جوهرة البادية ، فالقصة إذن قصة بدوية ! لها شمائل
قصص العرب في البادية بما تتضمن من إخلاص وشوق
وعفاف ثم حرمان لا ارتواء فيه ولا غداء ! لقد شوقني
الشاعر العباسي مرة ثانية إلى الاطلاع على هذه القصة
فحرك ما سكن ، ودفعني إلى السؤال عن أي مصدر عنها ،
حتى عثرت بمجلة الرسالة على خلاصة وافية بأحداثها
الرئيسية ، فارتحت كثيرا لما قرأت ، واخذت أبحث -
ومازلت - عن المسرحية الشعرية التي كتبها الشاعر
السوداني ، ألا من يدلني ؟

قصة سينمائية

ومنذ أمد غير بعيد سمعت في بعض محطات الإذاعة
العربية حديثا تحليليا عن فيلم «تاجوج السوداني» فأشار
المتحدث عن مكانة القصة العاطفية ، وذيوعها بين

السودانيين ، وقارن بينها وبين قصة مجنون ليلى وروميو وجوليت ، ثم سرد وقائع شاحبة لا تثير عاطفة ، ولا تهيج حنينا أو اشفاقا ، فليس فيما ذكره من أحداث الفيلم ما يرتفع بإحساس ، أو ماثير أدنى مشاركة وجدانية بين المشاهد وبطلتي المأساة ! فقارنت بين ما سمعت وما أعلم مما قرأت عن القصة فوجدت البعد شاسعا أي شسوع ، وقلت في نفسي لعل صاحب الحديث الإذاعي لم يصب التوفيق فيما اختار من الأحداث ، ولعله طوى من الوقائع ما يشبه في مضمونه الوجداني ما قرأت عن القصة ! وعجبت أن يتصدر مثله لتحليل قصة ذات دوي رنان فيحيلها هيكلًا شائها باليا لادم فيه ولا حياة ! وتطلعت إلى مشاهدة الفيلم لأحكم عن عيان ولكن أين أراه ؟ ثم زادت دهشتي حين وقع في يدي العدد ١٣٥٨ من مجلة حواء الصادر بتاريخ ١٩٨٢/١٠/٢م فأجد به ملخصا للقصة السينمائية يتفق تماما مع ما ذكره المحلل الإذاعي ! وإذن فقد اتفق شاهدان على رواية معينة ، انتهى إليها خيال المؤلف والمخرج ! ولكي يقف القاريء على هزال الفيلم السينمائي فإني أنقل إليه ماجاء بمجلة حواء .

تاجوج

نشرت المجلة ص ١٣٥ تحت عنوان تاجوج ما يلي :

تاجوج فيلم سينمائي يحكي قصة مثل روميو وجوليت

حدثت من ٣٠٠ عام بالسودان لفتاة أحببت شابا وبادلها نفس الحب ، وصارعا من أجل أن يتزوجا ، ولكن حدث أن كان هناك شاب يحب تاجوج فادعى أنه على علاقة بها ، وطلب من زوجها أن يرى علامة ما في جسدها حتى يؤكد له هذه العلاقة ، وعلمت الزوجة بهذه القصة ، وعندما طلب منها زوجها أن تريه جسدها ، وافقت على شرط أن ينفذ لها طلبا تريده ، ووعدا بذلك ، وقد كان ، فلم ير علامة بجسدها ، وطلبت الطلاق حفظا لكرامتها !

هذه خلاصة الفيلم كما رواها المحلل الإذاعي ، وكما لخصتها مجلة حواء والقصة بهذه النهاية التافهة لا تقرن مع قصتي ليلي والمجنون أو روميو وجوليت في نطق ولا تستأهل أن تكون حديثا شعبيا يتردد على ألسنة السودانيين أكثر من ثلثمائة عام ! لا تستأهل أن يرويها الكتاب في رحلاتهم وأن يتحدث بها كبار العلماء في سمرهم ، وأن يقوم شاعر مسرحي فيبدع منها درامة نائحة !

القصة كما نشرتها الرسالة

أما القصة كما روتها مجلة الرسالة بالعدد ١٢ في ١٩٣٣/٧/١ بقلم الأستاذ محمد البنداري أحد مدرسي مدينة الخرطوم ، فتتجافى عن الظن السيء بالفتاة ، ولا تجعل لها حبيبا سابقا ، يعرف خبايا جسدها ويشي بها للزوج فيطلب أن يتحقق الأمر بنفسه إذ أن ذلك بعض

الخيال الذي شرد به واضع القصة ، ولو تم هذا لكان من حق تاجوج أن تعرض عن زوج لا يثق في ماضيها ويتطلب الدليل على براءته ! فهي أنثى ذات حمية ، ولها جمال تستعز به وتستطيل ، أما رواية الرسالة فتقول ببعض الإيجاز .

كانت تاجوج أحلى فتاة في البلاد إذ لم ير السودان أعظم جمالا منها ، وكان الناس يهرعون من اقاصي الوطن إلى حماها ليروا تلك التي استفاضت الأنباء عن روعتها الأسرة ، وكان أبوها شيخ القبيلة وله صيت وسلطان ، وقد زوجها من ابن عمها (محلق) بعد أن هام بها ، وفي يوم ما طلب اليها أن تتجرد من ثيابها وتسير أمامه عارية ليشاهد مفاتها ، فأبى عليها كبرياؤها أن تنزل على رأيه مكرهه ، فامتنعت ، وحين واصل اللاحاح قالت له : ماذا تفعل إذا حققت مأربك قال : أحقق لك كل ما تطلبين ، فرغبت أن يقسم بالله على ذلك ، وتجردت وسارت أمامه كما شاء حتى سألها أن تستريح ، ثم قال لها : ما رغبتك حتى أسرع في تنفيذها فسألته الطلاق ، فطار صوابه وأخذ يستعطفها دون جدوى ! وهذا موضع النزق من تاجوج ! وموضع الاثارة في القصة إذ عطفت القلوب إلى الزوج العاشق في مأساته ، هذا الذي نزل مكرها عن أعز من رأى وأحب من عشق ، فهام في الفلوات كما هام المجنون من قبله ثم لقي رداه .

أما تاجوج فقد تزوجت في حياة محلق ، وشاءت الظروف أن تعصف بها على نحو مستفزع مثير إذ غزا قبيلتها جيش من عرب (الهندوه) ف وقعت أسيرة في أيدي الغالبين ، واختلف الظافرون على الاستئثار بها اختلافا دعا إلى حرب أهلية بين الفريق الواحد ، فرأى شيخ الغزاة أن يحسم الأمر فنأى تاجوج وطعنها بالخنجر ليأس منها المتنازعون فلا يطول الشقاق ! وهنا تصبح الضحية مجال عطف كبير من الجمهور ، إذ لاقت حتفها الظالم دون جريرة ! ويعود إلى الأذهان مأساة محلق حبيبها الطريد ، فيقرن الناس بين الزوجين البائسين ، ويؤلّفان من مأساتهما قصة تهيج الشجن وتستدر الدموع .

مقارنة واضحة

ونحن لو قارنا ما جاء في أحداث الفيلم السينمائي بما دوّنه الكاتبون عن مأساة تاجوج ومحلق لوجدنا الفرق شاسعا لا ينتهي عند حد ، لأن تاجوج لن تكون موضع عطف من أحد ، لو انتهى الأمر بها إلى زوج آخر قضت معه أيام الحياة دون أن تتعرض إلى هذه النهاية الفاجعة ! ولا شك أن الذين رَووا قصتها على مدى ثلاثة قرون قد اتخذوا من خيوطها القريبة تكاة لخيال يمتد ، فيروي أحداثا عن حياتها الطبيعية في بيتها الأول وعن ألمها النفسي وشعورها بالندم في بيتها الثاني حين عرفت أنها جنت على

عاشق فارق الحياة من أجلها ! ثم كان لهم من أحداث الغزو المفاجيء ونهايته الأليمة ما ساعد الخيال على تهيئة درامة حية مؤثرة ! جعلت بطليها شهيدين ! والقصة بهاتين النهايتين الفاجعتين جذيرة بأن تتناقل على الألسنة مهما امتد الزمان ، كما أنها أيضا جذيرة بأن تقرن بقصة قيس وليلى ! لأن الواقع المجرد في قصة المجنون وليلاه واقع محدود باعتبار ما حصل فعلا على مسرح الحياة ولكنه بما أضيف إليه على مدى السنين المتلاحقة قد جعل من ليلي والمجنون بطلين لأدوار كثيرة أخذت تتلاحق وتمتد كما شاء الرواة المتعاقبون ! ولنرجع إلى أصل قصة ليلي والمجنون لنلخصها في أن قيسا كان ابن سيد الحي وقد عشق ليلي وهي فتاة من قومه ما كانت تطمع في مثله لو لم يشد بها في شعره وقد نشأ معا ورعيا الغنم صغيرين ، ثم احتجبت عنه حين يفعت فهام بها وجدا ، وقال في وصفها الشعر الرقيق ففزع والدها ورفض خطبته لها حين جاء مصاهرا ، وما زال يلم بحبها باكيا حتى ضجر أبوها ، وشكاه إلى السلطان فأهدر دمه ، ثم لم تنفعه شفاعة الأمير حين أخذ يسترضي أبها دون جدوى ، وقد عجل الوالد بزواج ابنته ليقضي على كل أمل لدى المجنون ، فجن واختلط وهام في القفار يصحب الظباء والوحوش حتى انتهت حياته شريدا في البداء ! هذه الأحداث المحدودة اليسيرة ألهمت قيسا بعض القصائد والأبيات العاطفية فتناقلها الرواة ونسجوا على

منوالها ، وجعلوا يضيفون إلى قيس أكثر ما يروون من شعر الغزل ، ويجعلون لكل قصيدة مناسبة ذات قصة ، وما جاء العصر العباسي حتى تضخمت الرواية وأصبحت ذات فصول ومناظر ومشاهد ! وأصبح قيس علم العاشقين .

تطور واستحياء

نعرف جيدا أن صدى قصة المجنون لم يقف عند الأدب العربي بل تخطاه إلى الآداب العالمية الأخرى ، فاستوحى كبار الشعراء هذه الأحداث اليسيرة فكانت نولا لنسيج جديد يختلف في أكثره عن نسيج الحادثة العربية ، فالشاعر الفارسي نظامي قد نظم قصة المجنون لا ليجعله عاشقا أرضيا يهيم بأنثى من بني جنسه بل ليتطور به إلى مرحلة أعلى فيجعله عاشقا ويلم بعلوم المتصوفة فيدرك أسباب الجذب والوصل والفناء ، ثم ارتقى مع صاحبتة إلى جنة ذات الزهر المتفتح والثمر المتهدل ، والطير الصادح ، أما الشاعر التركي حمدي فقد تابع نظامي الفارسي في سبحاته الصوفية ، حيث طوع الحادثة إلى رموز الوجد والفناء والشوق والجذب وقد أوتي قدرة نادرة في الوصف والتصوير بحيث أصبحت ريشته ذات ألواح رائعة ترسم مسارح الشروق والغروب ومنازه الرياض والبحار

والمروج بما لا يوفق إلى مثله غير فنان ملهم ، وتلاه الشاعر التركي فضولي فبز سابقه جميعا فيما اتجه إليه من سباحات صوفية ! وكان فضولي صوفيا حقيقيا فتحدث عن أذواقه ومواجيدته ، كما يحسها بتجربته الذاتية وجعل قياسا صورة منه ! ومن هنا كان اهتمامه به أكثر من اهتمامه بليلاه ! ولا نتحدث عن مسرحية شوقي فهي بين أيدي القراء ! وقد صيغت للحب البدوي الخالص بعيدة عن منازع الصوفية ، ولم تتقدم خطوة أخرى لتعالج معضلات ينضج بها عصر أمير الشعراء .

أمل وارتقاب

لعلنا بعد أن أُلحنا إلى موجات التطور في قصة المجنون نرى من أدباء السودان أو من أدباء العالم العربي من يقفز بقصة تاجوج ومطلق قفزة فنية صاعدة ، فيتخذ من أحداثها معارج صاعدة إلى تحليل عاطفي يشرح معاني الحمية والغيرة والقطيعة والانتقام والوحشية والأنانية وغيرها من الصفات التي تزخر بها القصة السودانية ! لأن سطور القصة كما أوجزناها من قبل تتسع إلى تحليل هذه المعاني بما ضمت من أحداث مفاجئة ! ونهاية فاجعة ! وبذلك ننقذ هذه القصة من الهوان الذي لحقها في الفيلم السينمائي ونجعلها قمينة بال العناية وجديرة بأن تقرر بقصتي روميو وجوليت وليلى والمجنون .

مي زيادة .. الخطيبة

سيتحدثون عن مي ، ويطيلون الحديث عن ندوتها الأدبية التي تالأت في سماءها نجوم الأدب والفكر في مصر ، إذ كانت مي هي البدر المتالق بين النجوم ، وما سطعت هذا السطوع بين أعلام الأدب إلا لسموها الفكري ، ونظرها الموضوعي ، وقيادة الحوار المتشعب إلى حيث لا يجد مجالا للاصطدام ، ولن تبلغ هذه المنزلة غير أديبة ممتازة تدسست إلى أهواء النفوس ، فرصدت الخلجات الدفينة ، واستنطقت الأحاسيس الصامتة ، وشهدت مسار العواطف الغامضة في نبضاتها البعيدة طي العروق ، وبهذه القدرة الفائقة صارت مي خطيبة الشرق الأولى ، لأن أول خصائص الخطيب المحلق ، أن يعرف أهواء سامعيه ، وأن يضرب على أوتار قلوبهم بما تتحرك له المشاعر النائمة فتذهب من رقدتها على صوت النذير ، هكذا كانت تقف مي الشابة الصغيرة في المحفل الجهير ، وقد تقدّمها أعلام النثر والشعر من الكهول الوعاة ، فتّنسي من تقدم ، وتسدل الستار على من تأخر ، ويخرج المستمعون ليتحدثوا عن مي وحدها ! لم تكن مي بدعا في جمالها الجسمي ، حتى يقال إن أريج حواء قد عطر الأفق بعبيرها ! فقد رأينا من تماثل مي في جمال الصورة ، ثم تتحدث في الجمع ، أو تكتب في

الصحيفة ، أو تؤلف الكتاب فلا تجد معشار ما تبلغه خطبة واحدة من خطب ميّ ، لأن شعاع الحسن الذي تلالاً في عينها ، وطافت هالته الوضيئة بمحياتها الأسمر الشفيف ، قد ماثل شعاعاً ثانياً في روحها المتألقة ذات الشفافية الرفافة ، وشعاعاً ثالثاً في عقلها المكتمل الذي يتعمق المعضلة المظلمة تعمقاً يحاصرها بالضوء الكاسح حتى تنجلي بيّنة ساطعة ، وبهذه المواهب المجتمعة كانت ميّ ساحرة البيان في عصر يزدهم بأمرء البيان ، ولو كان المجال خالياً قلنا إنها وحدها كانت فارسة الحلبة ، فكسبت الرهان ، ولكن الحلبة صاخبة ، والفرسان متزاحمون .

شهادة صريحة

وقد يتعاضم أبناء هذا الجيل ما نقرر من هذه الحقيقة ، فيظنون أن المبالغة قد عرفت سبيلها إلى هذا القلم ، ولكني أستشهد بسواي ، وإذا كان المستشهد به هو الدكتور طه حسين ، فقد بطلَ الظن ، لأن الناقد الكبير لا يغلو في الثناء ، وقد عرفناه شديد المحاسبة في مجال النقد ، فإذا أفصح عن كل ما أريده في وضوح ساطع ، وإذا جاء هذا الإفصاح بعد رحيل ميّ بعشر سنوات ، حين بدأ يكتب الجزء الثالث من الأيام في مقالات نشرت بمجلة آخر ساعة قبل أن تُجمع في كتاب ، إذا أفصح الدكتور طه عن تأثير ميّ الخطابى بما لا بيان بعده ، فكل ما يقال عن تفردِها الأدبي ، وسموها الخطابى حقٌّ صريح .

أخذت ميّ تنشر مقالاتها الرقيقة في صحيفة والدها ،
لنترك صدى محدودا في نفوس القارئین ، ولكن مناسبة
جهيرة فسحت لها الطريق إلى الذیوع الرنان ، حين قامت
الدولة بتكريم الشاعر الكبير خليل مطران في حفل رسمي
تحت رعاية الخديوي عباس ، إذ رأس الحفل شقيق
الخديوي نيابة عنه ، وحضر العلية من الوزراء ورجال
الأدب والصحافة والقضاء ، وفريق من وجهاء الشام
وشعرائه ، وقد بعث الكاتب المهجري جبران خليل جبران
بكلمة كان من حظّه الباسم أن تلقیها الأنسة ميّ ، وأن
تضيف إليها تعليقا خاصا بها ، يحمل تقديرها لمطران ،
ولثاني مرة ، بعد موقف باحثة البادية في المؤتمر الرسمي
بمصر - يرى الجمهور فتاة نابغة تنطق الفصحى في روعة
خالبة ، وتؤدي حق الإلقاء إيماء وإشارة ، وخفوتا
وجهرا ، وتمهلا وإسراعا وفق مقتضيات السياق ، مع
صباحة الوجه ، وموسيقى الصوت ، ورشاقة القائمة ، فإذا
انتهت كلمة جبران ، ومضت في إلقاء كلمتها فقد بادعت
السامعين بنموذج من التصوير الأدبي القاتن كاد أن يُخمل
حديث جبران ! وقد وقف طه حسين بإزائه موقف الحائر
الدهش ، وإنه ليصدق التعبير عن نفسه حين يقول :

«كان شقيق الخديوي الأمير محمد علي رئيسا للاحتفال ،
وقد أثر الفتى - أي طه حسين - شهود ذلك الحفل ، وفيه
سمع كثيرا من الشعر ، وكثيرا من الخطب ، فلم يحفل بشيء

مما سمع ، لم يعجبه حافظ في ذلك المقام ، ولم تعجبه قصيدة مطران .. لم يرض الفتى عن شيء مما سمع ، إلا صوتا واحدا ، سمعه فاضطرب اضطرابا شديدا ، وأرق له ليلته تلك ، كان الصوت نحيفا ضئيلا ، وكان عذبا رائقا ، وكان لا يبلغ السمع حتى ينفذ في خفة إلى القلب فيفعل به الأفاعيل ، ولم يفهم الفتى من حديث ذلك الصوت العذب شيئا ، شغله الصوت عما كان يحمل من الحديث ، كان صوت الأنسة مي التي تتحدث إلى جمهور من الناس للمرة الأولى ، ولم يستطع الفتى حين أصبح من ليلته أن يمتنع عن السعي إلى مدير الجريدة - أحمد لطفي السيد - وقد جلس إليه ، فقال له ، وسمع منه ، ثم ما يزال يدور بحديثه حتى انتهى إلى حفل مطران ، وحتى انتهى إلى ذكر الفتاة التي تحدثت فيه ، والتي لم يسمع الفتى عنها قبل يومه ذاك ، وقد سأل مدير الجريدة عما قالت الفتاة فلم يحسن ردا واثني الأستاذ على مي ووعد الفتى بأن يزورها معه ، وابتهج الفتى بهذا الوعد ، وإن لم يُعرب عن ابتهاجه ، وظل يرقب البرّبه ، ولكن الأستاذ نسيه واستحيا الفتى أن يذكره ، فحمل نفسه على المكروه ، وأعرض عن ذكر مي .

من كلمة مي في مطران

تحدث مي في محافلها الأدبية بلغة الشاعر المصور ، وهذا موضع الإبداع في حديثها ، إذ ألف الجمهور أن تكون

الخطبة تقريرية تلجأ إلى الإقناع بذكر الحقائق مع تَوْشِيَةٍ
بلاغية للفكرة تميل بها إلى الاستمتاع مع الإقناع ، أما أن
يكون الخطيب شاعرا عالي السبح ، بعيد الخيال ، رنان
الموسيقى ، فتلك ماثرة انفردت بها مِيَّ لعهدا ، وعرفها
الأدباء عنها ، فهم يترقبونها في المحافل شاعرة دون قافية
وبحر ، وهي تعرف مجال التأثير في نفوس أحببت الخطبة
الشاعرة ، وكرهت القصيدة الخطيبة ، وقد صدق طه
حسين حين قال : إنه لم يفهم عنها ، لأن طرافة منحائها قد
فاجأه بما لم يكن يتوقع ! كان يتوقع أن تتحدث مِيَّ
الخطيبة عن مجالي السبق في شعر مطران ، تعبيرا
وتصويرا وفكرة ولكنها علقت على كلمة جبران ، وهي أيضا
من منحى مِيَّ ، تعليق الناقد المصور ، قائلة إن حديثه
التصويري مازال يرن على أبواب فؤادها ، مُنبها في أعماقه
قوة اكتفت بالإصغاء أولا ثم بالهمس ثانيا ثم بالترنم ثالثا
ثم استحالَت إلى صوت إنسيّ ينقل إلى عالم السمع سرائر
التأثيرات الوجدانية ،

إن النبوغ شعلة ألْهية تضيء الظلمات ، غير أن تلك
القوة السامية تذبل وتجف ، وتموت إن لم تجد التأييد ،
وينعشها أرباب البلاد ، تنطفئ إن لم تلق نسيم
استحسان ، تتغذى من عنصره السري ، وتنمو بجوهره
النَّازي ، فإذا لم نتح لتلك الشعلة قوة ذاتية تُغذيها
وتنميها إلى حين فهي لا تلبث حتى تحرق نفسها بنفسها

مطفئة لهيبها بدموعها . مبيدة حياتها بيأسها ، وكانت
الشعوب هي الخاسرة .

أيها الشاعر العذب . كم من ليلة غادرت العالم الحسيّ
لأطير معك إلى تلك العوالم البعيدة ، المملوءة نورا وطربا ،
كم ليلة قضيتها منحنية على كلومك الشعرية أرقب دماء
أحزانك السائلة أنغاما ، وأستنشق رائحة دموعك ، وأحلل
ألوان أشجانك ، ولأشجانك ألوان بديعة ساحرة ، كألوان
الشروق والغروب ، ولدموعك أريج عطر مسكر كأرواح
الزنبق والفل والياسمين .

لقد فاجأت ميّ سامعيها بهذا الشعر المنثور سنة ١٩١٣
فرن وترديد لا يشابه أوتار الخطباء ، ومازال وترها يرن
في نمطه المنفرد رنيناً مشجياً دفع الشاعر الكبير أحمد محرم
أن يقول عنه متسائلاً :

من أيّ جنس أنت يا طير الربى
إن الطيور كثيرة الأجناس ؟
دنيا من الآداب لم تر مثلها
دنيا أمية أو بني العباس

خصائص خطابية

رغرت روح الخطابة التصويرية في أكثر إنتاج ميّ ،
رغرت في المقالة الأدبية ، والمقالة النقدية ، بل ظهرت في
بعض ما نشرت بالهلال والمقتطف من أقاصيص ، لأن

الشجرة الفارعة الياضعة التي أسقطت هذه الثمار نبتت في أرض واحدة ، وسُقيت بماء واحد ، وأنا حين أقرأ مقالاتها الأدبية أتصور أنها كانت تكتبها بصوت مسموع ، وكانت تعيد قراءة السطر بعد السطر ، كما يعيد الشاعر بيته ساعة النظم لتجعل من أذنيها الموسيقية ميزانا دقيق الإيقاع ، وهكذا جاء بيان مي ، عذب التلوين ، شجي الإيقاع ، هذا إلى توهج انفعاله البارز أحيانا ، والمستتر حيناً آخر ، بحيث لا يغيب عن وعي القارئ الفاحص ، مهما تكدس الرماد فوق اللهب .

لقد تحدث مؤرخو مي عن أسلوبها الخطابي ، وهو أسلوب تدرج تحته المحاضرات التي ألقته في شتى الأندية ، إذ أن الذاتية دائما تطفو على الموضوعية في أكثر ما تتعرض له من بحوث ، وقد يستنكر ذلك من يظن البحث الموضوعي حجارة يرصف بعضها فوق بعض حتى ينهض بناء يتصف بالمتانة ، وإن بَعُدت عنه معاني الجمال ، ولئن جاز ذلك في البحوث الخاصة بالعلوم البحتة ، فإن الدراسات الانسانية تجبر كاتبها الحساس على أن يُفصِّح عن ذات نفسه ، بحيث ينبع الكثير من آرائه متدفقا من تأمله الوجداني ، ومسائرا تأمله العقلي ، ومن هنا ينفرد الباحث بلون لا يتماثل ، وهو في هذا المجال باحث فنان ، وكذلك كانت مي ، أجل لقد تحدث مؤرخو مي عن أسلوبها الخطابي فأعطوه قسطه من الإيضاح ، فالدكتور منصور فهمي يقول عن مي :

«لا أعدو الحق إذا قلت إنها كانت خطيبة ومحاضرة من أرقى طراز ، ولعل أسبابا اصطلحت على تفوقها في ذلك الميدان ، فقد كان لها في عذوبة صوتها ، وحُسن أدائها ، وحلاوة إلقائها ، ووسامتها وحسن سماتها مُعينٌ على ذلك ، وكانت تميزها حين تقف للخطابة في حفل ، أو للمحاضرة في جمع ، ثقة في نفسها ، واعتداد بشخصيتها ، فما عرفت أنها تهيبُ منبرا ، أو خشيت موقفا ، أو غشيتها سحابة من جبن ، أو جللتها غمامة من خوف ، بل كانت دائما الواثقة بنفسها» .

وقد نقلت الأدبية الباحثة وداد سكاكيني كلام الدكتور منصور فهمي وزادت فقالت :

على أن استاذنا المرحوم الدكتور منصور لم يذكر من أسباب تفوقها براعتها في اختيار الموضوع الموافق لوعي المستمعين لها ، ولا ثقافتها الواسعة التي يحتويها موضوعها ، لقد كانت مَيَّ في خطابها تعرف كيف تتكلم ، وكيف تنتهي من كلامها ، فلا يمل سامعها ، بل يتطلب في سره المزيد ، أما صوتها الرخيم المنغوم ، في لهجتها المصرية العذبة ، فكان ذا سحر يجتذب الأسماع والقلوب ، وكم من خطيب أو محاضر ، أوتي خصائص الفكر والكلام ، ولكنه إذا تصدى للخطابة أو المحاضرة ، تسلسل الخدر إلى الأذهان ، ودب الضجر في النفوس .

ولعل الشاعر الكبير خليل مطران كان أسدَّ بيانا وأدق تحديدا حين قال عن أسلوب مَيَّ :

أين ذاك الصوت الذي يملك الأسما
 غ في كل موقف تقفينا ؟
 فهو أنا يث بثاً رقيقاً
 يملأ النفس رحمة وحنيناً
 وهو أنا يشور ثورة خمر
 عاصفا عصفه تدك الخصونا
 بكلام حوى السطريفين تنغيما
 كما يُستحب أو تلوننا
 قدرته لفظا ولحظا وإيماء
 بما ودّت المنى أن يكوننا !
 وكيف ننسى قول العقاد !

أين في المحفل مي يا صحاب
 عودتنا ها هنا فصل الخطاب
 عرشها المنبر مرفوع الجناح
 مستجيب حين يُدعى مستجاب

الموضوعات المطروقة

يضطر الكاتب في أحيان ما أن يتحدث في موضوع كُتِبَ
 فيه من قبل ، وليس لديه الجديد بشأنه ، فيعتمد إلى بعض
 التكرار ، وقد لا يستطيع الاعتذار لظروف تلجئه إلى
 الحديث ، بل قد يكون الأمر من الصعوبة بالغا حدة ، حين

يكون قارئه غير مختلف ، أو يكون الموضوع نفسه مما لا يتحمل الترداد ، لوضوح أغراضه ، وشيوع معانيه ، وهذا أمر معهود نلمسه في كل حين ، وهو في الوقت نفسه موضع البراعة لدى قلم متجدد ، تنفسح الأفاق أمامه ليترامى إلى أوج جديد ، وقد قُدر للأنسة مَيّ أن تخطب في الجمعيات الخيرية لتتحدث في موضوع واحد هو الإحسان ! ولا أظن حديثا كررته الألسنة ، ولا كتبه الأقلام ، كهذا الموضوع ، والخطيب المسئول يقع في حرج ، حين يطالع سامعيه في احتفال عام بكلام ساقه من قبل ، ولكن الأنسة مَيّ قد استطاعت أن تجعل من هذا الموضوع المنبري رافدا جديدا للنظر ، فلها خطب كثيرة سبقت هذا المساق ، إذ كانت تُسرّع لإجابة الداعي دون تلبث ، إذ أن جماعات البر في طنطا والقاهرة وسوريا أهابت بها أن تتكلم ، بل إن بعض هذه الجماعات أهابت بها أن تكرر الكلام في مناسبات متتالية ، وهنا يرى السامع عجبا أيّ عجب ، في استحداث الطريف الرائع ، في موضوع تليد !

فهي في خطبة أولى ترى الرحمة بالضعيف مجال التقدير الخلقي ، ومناط الارتقاء النفسي ، وترد في قوة على من يقولون إن الأشياء العظيمة تنحدر من الأعالي ، لأن في هذا القول تملقا للكبار ، وازدراء للصغار ، فهناك أشياء رائعة آتية من الأعماق لا من القمم ، وهل من محيط أدنى مستوى وأعمق قرارا من البحر ، والبحر مستودع السلائي

والعجائب ، وهو مرضع الينابيع والأنهار ثم هو ينبوع
أفيع تمتص منه الشمس ما تعقده في الجو غيوما ، لتهطله
على الأرض بركة وخيرا .

فبنت الفاقة ، وبنت الألم لن تكونا ضعيفتين لأنهما في
أسفل المحيط ، بل هما البحر الإنساني وفي أعماقهما
المجهولة كثير من الكنوز ، ولا بد أن نرعاهما ، ولئن ضاعت
دموع كثيرة تسكبها الإنسانية في الظلام تحت لواظ
الكواكب الصامته فلن تضيع دموع عرفتها نفوس خيرة
فهبت للإنقاذ .

وهي في خطبة ثانية تدعو إلى ترابط الأقلية مع
الأكثرية ، فلا بد لذوي الثراء أن يفيضوا بخيرهم على
الضعفاء ، ثم تلجأ إلى التصوير البارع فتسأل :

«ما هو النهر أيها السادة ، لن يكون النهر نهرا إذا انبثق
من مصدره ، وانصب في البحر دفعة واحدة ، إنما يتفجر
ينبوع النهر من أعالي الجبال ، فيهرول مقهقها على
الصخور ، ويتدفق وسط الشواجن الخضراء ، ويجري في
الصحاري لتعود رياض وجنات يُرضع الأشجار بتغلغله
في صدر الأرض الملهب ، ويغذي الأثمار بالنمير العذب ،
وكلما وزع من مياهه زاد اتساعا وحركة وهديرا ، فيتابع
السير إلى مداه في عطاء وكرم ، حتى إذا جلب النفع للكائنات
وملأ الديار خيرا وجمالا ، رأى البحر منبسطا لاحتضانه
فشهق شهقة الرضى ، وانصب في صدر البحر مهلا مكبرا ،

كذلك عاطفة الأخوة لا تكون حقيقية إلا إذا خرجت من حيز القول إلى العمل ، تتفجر عذوبتها على الذرى ، وتجري نهرا كريما بين طبقات المجتمع ، ترفع المسكين من بؤس الفاقة وتنشر ضياء الرجاء لعيون أظلمتها أحداث الليالي ، فكم من درة في أعماق البحر لم تسرّبها النواظر ، وكم من زهرة سطعت في القفر فضاغ عبرها جزافا في الخلاء .

وهي في خطبة ثالثة تدعو الأخذ بيد الضعيف فتقول في لهفة :

«لقد مرت ملايين الأعوام ، وألوف الدهور ، والطبيعة صماء ، لا تلين لصراخ الضعفاء ، وزفير المتوجعين ونبضات قلبها الكبير لا تضرب إلا على وفق نبضات القلوب المنتصرة ، وكأن أصواتها الكثيرة ، تهتف للصاعد في سلم الغلبة ، وتشجعه فيدوس أعناق المنحدرين متخذا من جماجمهم مراقبي يصل بها إلى القمة المنشودة ، هذا هو ناموس تنازع البقاء ، ناموس جائر إلا أنه قاهر ، ألا سَكِبَتْ عليك البركات يا قلوبا سمت بكرمها ، فأدركت أن فوق نظام الظلم نظام الرحمة ، وأسبغت عليك النعم ، يا أيدي الشفقة والإحسان ، لأنك تكوينين الحلقة الإنسانية الذهبية المتعالية في الطبيعة .

هذه شذرات من خطب ثلاث في موضوع واحد !! شذرات تنبع من عاطفة ثرة لا ينضب لها معين ، بل يظل ينبوعها

يجيش ويتدفق ويهدر ، لأنه يفيض من قلب نبيل ! ينبوع
له صفاء البدر ، ونفاسة اللؤلؤ ، ودفاء الشمس ، ونفح
العبر .

الشفق الغارب

وأعني بالشفق الغارب آخر محاضرة ألقيتها مي في جمع
حاشد من أعيان لبنان بالجامعة الأمريكية هناك ، بعد أن
قضت محنتها الدامية متهمة بالجنون ، وبعد أن شربت المرَّ
من كأس القريب ، وجفاء الصديق ، وحياد الزميل ، وإن
شنيعا كل الشناعة أن ترمي بالجنون فُدما متوحشا من
قطاع الطريق ، وهو عاقل واع ، فكيف ترمى به إنسانة
شاعرة بلغت أرق ما تبلغه النسمة العاطرة من لطف
شفاف ، لقد كان من نكبات العبقريّة أن تُحتجز مي في
مستشفى العصفورية وهي متقدة الشعور ، قوية
الإحساس ، متيقظة التفكير ، تظن إلى مدبّ الذرّ فوق
حذائها ، فكيف لا تقدحها الكارثة المزعومة وقد ألصقت
بعقلها المنير .

لقد شاعت أن تثبت للملأ فداحة ما اتُّهمت به فالقت
محاضرة ممتازة عن رسالة الأديب في الحياة ، العربية ،
واتسع لها المجال قرابة ساعتين لتتحدث في قوة دافقة ،
ومقدرة ساطية عن رسالة الأدب في الحياة ، فرسالة

الأديب في رأي المحاضرة النابغة تُعلمنا أن الحضارة الميكانيكية أدوات نستبعدُها ونستخدمها ، وأنه لا يكفي أن نضغط على الرزّ الكهربائي لننال سحري النتائج . ولا يكفي أن نمتطي الطائرة لنبلغ أبعد الأمد في ساعات ، لأن الحضارة الآلية التي ألفناها تحتاج إلى رسالة أدبية تدعمها ، تستند إلى الشعور الحي والوجدان المتيقظ ، وترعى تراث الآباء ، باحثين عن الكمال ، نازعين إلى الحس الأدبي ، والجمال الروحي مُناجين المتطور وغير المتطور لنجعل من حياتنا المتناثرة حياة متناسقة متماسكة !

خاطرة من مصطفى عبدالرازق

ظهرت مجلة السفور الأدبية أثناء الحرب العالمية الأولى ، وكان محمد حسين هيكل ومنصور فهمي وطه حسين ومصطفى عبدالرازق وأحمد حسن الزيات وعبد الحميد حمدي من صفوة كُتّابها ، وقد تحدثت عنها حينئذ الأنسة ميّ فقالت : أما السفور فجريدة حريّة بكل اهتمام ، ينشر فيها مقالات شائقة كاتبان هما من خيرة كتابنا ومن أدقهم فكرا وأعمقهم نفسا .

قالت ذلك ميّ ، فدفعت الأستاذ مصطفى عبدالرازق إلى أن يقول : كل من له صلة بالسفور قد اغتبط بشهادة الأنسة الفاضلة ، ولكن الذي تنازعوا فيه هو تلك الزهرات التي نثرتها يد الأنسة على رأسي كاتبين لم تُعينهما .

لقد خفت أن تقع الشحناء بين محرري السفور فيأخذ بعضهم بخناق بعض تسابقاً إلى ذلك الفضل العظيم ، فضل الثناء من أنسة مجلة المحروسة .

إن الثناء من الأنسة جدير أن يُرسل الخيلاء إلى أشد الناس تواضعاً ، وأكثرهم ورعاً ، وجدير بأن يتدافع إليه بالراح من لا يتزاحمون على جزاء من الناس !

تلك خاطرة صادقة تبرز قيمة ميّ لدى أعلام الفكر في الأدب المعاصر ، كما أبرز رحيلها العاجل حسرة أليمة لدى من يعرفون معدنها الأصيل .

كثير عزة بين الصدق والافتعال

إذا رأيت حديقة ناضرة الأفنان منسقة الأزهار تأخذ
مرائيها المتعددة من نفسك ما يأخذ الحسن المنضد من
نفوس ذوي الذوق الناقد ، والبصيرة الكاشفة ، فإنك
تجزم ببراعة غارسها ، وتحمد له هندسته الأنيقة ،
وبراعته الفائقة فهو بستانى قدير فى رأيك لا يزحزح مكانته
من تقديرك أن قادحا يثلمه ، وقد رأيت بعينك ما أبدع من
روض وشاد من جمال .

كذلك تقرأ ما أبقت الأيام من غزل كثير فتلمس قوة
العاطفة ، ولوعة الحيرة ، وتحس وهج الحرمان يلفحك
ويكربك ، فتعتقد أن الشاعر ينقل عن مهجة حرى ،
ويصدر عن إحساس صارخ ، فإذا قال لك قائل بعد ذلك أن
كثيرا ليس بالغزل الصادق ، أو العاشق الملتاع ، فإن ما
قرأت من آثاره الرائعة ، يعفى على كل ما يرجف به الكاتبون
فى أمر هذا الرجل ! حيث انه ابتلى فى القديم والحديث بمن
كذبوه فى إحساسه ، وانزلوه عن قدره حين أخرجوه من
زمرة الغزلين على غير بصيرة هادية ! وجاء بعض ناقدى
العصر الحديث فاكد ذلك تأكيد المتيقن غير المستريب
ولكنك تقرأ ما بقي من شعر الرجل ، فتصيح بهؤلاء
جميعا : لست معكم يا قوم ، فإن الوثيقة الصادقة الباقية
من ماثوره تنطق بغير ماندعون !

نحن نعلم حديث النسيب في صدور القصائد العربية من
قديمة ومولدة ! ونعرف أن كثيرا ممن استفتحوا القصائد
بالنسب قد صدروا عن غير تجربة فاحتذوا وقلدوا
ليسيروا على النهج المألوف في القول ، ونحن نقرأ أشعارهم
الغزلية مبتسمين عاذرين ، فالقوم يوجدون لكل مقال
كلامه ! وقد عالجوا الغزل دون عاطفة جائشة ! فأتوا بما
يستطيع الذهن أن يلفقه من كلام تسنده السليقة والدربة
والأناة أفكان كثير هؤلاء إذ قال عن غير وجدان ؟

إننا حين نحتكم إلى تاريخ أدبنا العربي نجد أن الشاعر
قد يكون زعيم شعراء عصره ، ثم لا تبلغه هذه الزعامة
المرموقة أن يحسن الغزل إذ كانت حياته الشخصية لم
تسمح لعاطفته أن تنتقد بالحب انتقادا ينضج باللوعة فتنهل
وراءه قوافي الغزل صادقة حية ! ثم هو مع ذلك يقول
النسب كثيرا مطيلا فلا يستطيع أن يعد من رجاله ، إذ
حاكى وتخليل دون أن يصدر عن صدق وأصالة ، ولديك
المتنبي في القديم وشوقي في الحديث فكلا الشاعرين زعيم
شعراء عصره ، وكلاهما قد ألم بحديث الحب في كثير مما
قال ، ولكنك تدرس غزل الشاعرين فلا تجد له من الخطوة في
نفسك مثل ما لغيره من الأغراض الأخرى ! وما كان كثير
البدوي في شاعريته بأقوى من المتنبي المطبوع ، وشوقي
الملهم ، ولكن غزله الجميل يرتفع إلى أحسن ما يروى
للعذريين من الغزل ! فكيف يكون في منطق ناقيده ، كاذب

الاحساس يصدر في نسيبه عن تزوير واختلاق ! أليس
قصاراه لو كان كذلك أن يأتي بمثل ما نظم المتنبي في القديم
وشوقي في الحديث في باب الغزل ؟ فإذا نطقت آثاره الباقية
بأصالته العميقة ، وتجاربه الرائعة ، فكيف تساق إليه
الاتهامات الظالمة من عهد ابن سلام الجمحي وأبي عبيدة
وأبي الفرج إلى عهد طه حسين دون أن ننظر بصدق
واخلاص إلى روائعه الجميلة !

لقد ابتلى كثير بمحبوبة خادعة ، لم تشأ أن تخلص له
الحب ، أو تقاسمه الصبوة ، ومن حقها الطبيعي أن
تعرض عمن لا تميل إليه ، وأن تتوجه بقلبها حيث تريد ،
ولكنها إلى جانب ذلك كانت حريصة كل الحرص على نباهة
الاسم وذيوع الصيت ، فهي ترى الأشعار الرقيقة ترن كل
رنين في أنحاء الجزيرة العربية بأسماء بثينة ولبنى وليلى ،
وتعلم أن الخيال يضيف على أمثال هؤلاء من الاعجاب
والتقدير ما يجعلهن مهوى الأفئدة ومتطلع العيون ، وها
هي ذي ترزق شاعرا بارع القصيد ، يشيد بمحاسنها
ويتدله في حبها ، ويردد اسمها بين الناس ، فلا بد من
مخادعته ببعض القول لتشتعل نيران صبوته ويظن نفسه
أمام ما يمتد لعينه من خيوط الأمل بطلا يخوض معركة
حارة لم تلبث أن يكتب له فيها النجاح بعد حين ، ولكن
نفورها النفسي منه كرجل - لا كشاعر - كان يميل بها إلى
الذبذبة والاضطراب في معاملتها إياه ، لذلك وقع الشاعر في

حيرة من أمره معها ، وأخذ يخلو إلى نفسه خلوات طويلة
ليتبين حقيقة موقفها منه في ضوء ما يبدو من تناقض البعد
والصد ، والود والبغض والاطراء والسب وأنه ليفصح
عن حيرته الحالكة حين يقول :

وددت وما تغني الودادة أنني
بما في ضمير الحساجية عالم
فإن كان خيرا سرنى وعلمته
وإن كان شرا فلتلني اللوام
وما ذكرتك النفس إلا تفرقت
فريقين منها عاذر لي ولانم
فريق أبى أن يقبل الضيم عنوة
وأخر منها قابل الضيم راغم

فأنت تراه يطالع من ضميرها حجابا مستورا لا يشف عن
معنى صريح ، والعاشق مهما اشتدت حوالك يأسه فهو
يتقرب الأمل من خلال اليأس كما ينتظر شعاع الفجر في
حندس الليل ، وذلك ما يلوح من قوله فإن كان خيرا سرنى
وعلمته ، أما لوعة الصراع المرير في انقسام نفسه إلى
فريقين مختلفين ، فريق بأبى الضيم وفريق يلعن
الاستسلام ، فقد كشفت عن حروب أهلية تدور رحاها بين
ضلوع الشاعر العاشق !، حرب لا تفقا تثور بين الحين
والحين ثم لا تنتهي عن غير أشلاء ممزقة ودماء منزوفة
ودموع سائلة ، فإذا هدأت قليلا بكلمة معسولة أو بسمة

زائفة فإنها تشتعل من جديد لما تبديه الخادعة من دلائل
الصدود وأفانين الاحتيال ، ولك أن تتصور خداعها البارع
بما هتف به كثير حين قال :

وأدنيتهني حتى إذا ما ملكتنى
بقول يحل العصم سهل الأباطح
تـنـاءيت عني حين لا لي حيلة
وغادرت ما غادرت بين الجوانح

والعاشق كما قلنا من قبل ، أقرب إلى الأمل منه إلى اليأس
فهو يفسر بشعوره الخاص كل تصرف يحتمل وجهين
مختلفين تفسيرا يميل به إلى التفاؤل ويظل وراء عاطفته
اللاهية متطلعا إلى مستقبل رغد يذوق فيه حلاوة اللقاء ،
وها هي ذي عزة تدنيه حتى تملكه بقول يحل العصم سهل
الأباطح فإذا ما انتشت نفسه بما هييء له من أمل وجد
القسوة الصارمة حين ليس له حيلة فيما طرأ من صدود .
إن كثيرا ليتعاضله أن ينقطع حديث الأمل فجأة ، ويظن أن
الوشاة قد وجدوا سبيلهم إلى قلب صاحبتة فحولوه
وبدلوه . وما درى أنه قلب مخادع لعبوب يعبت به عبث
النكباء بالرمال في يوم عاصف موج ، لذلك يكابد الرجل
مأساته حين يضيق به الوجه فيتوجه إلى بيت صاحبتة
دون أن يستطيع ولوجه ! وأنى وكيف ؟ وهو لا يملك أن
يكون صاحب المنزل يلجه كيف يشاء ! ثم هاهم أولاء رواة
الزور يتربصون به السوء في كل خطوة ليسودوا صحيفته

أو ليزيدوا سوادها في عين عزة فلا يسعه إلا أن يصد وبه
مثل الجنون بعد أن قاده الهوى واستعجلته بوادر
الدموع . وهو في مأساته المشتعلة يسأل عن بائع يشتري
منه بعض الصبر ليجد تثبيتاً لفؤاده في مهب الصراع وذلك
ما يفصح عنه حين يقول :

أمنقطع ياعز ماكان بيننا
وشاجرني ياعز فيك الشواجر
إذا قيل هذا بيت عزة قادني
إليه الهوى واستعجلتني البوادر
أصد وبى مثل الجنون لكي يرى
رواة الخنا أنى لبيتك هاجر
ألا ليت حظي منك ياعز أننى
إذا بنت باع الصبر لي عنك تاجر

وكان الرجل - وراء أمله الخادع - لا ينتنى أو لا يريد أن
ينتنى عن لقاء صاحبتة ، فالأنباء تأتيه أنه معرض للخطر
إن ألم بديار عزة ، ولكنه يقارن بين خطر اللقاء ، وخطر
البعاد ، فيجد المجازفة بالإمام أجدى السبل إلى تسكين
نوازعه وتهدة ثوائره ، فيدع عنه كل خوف يعترض
سبيله ويشل قدميه ويصيح صيحة المجازف غير المكترث
فيقول :

يقول العدا ياعز قد حال دونكم
شجاع على ظهر الطريق مصمم

وأقسم لو كانت أمامي دونكم
جهنم ما راعت فؤادي جهنم
وكيف يروع القلب ياعز رائع
ووجهك في الظلماء للسفر معلم
وما ظلمتك النفس ياعز في الهوى
فلا تنقمي حبي فما فيه منقم

وإذا كانت جهنم لا تروعه ، وهو يرحب باصطلاء
نيرانها طلبا للقاء حبيبته فإنه وراء هذه المخاطرة المتكررة
في تعقب عزة لا يفتأ ينتقل من مكان إلى مكان حين يعلم أن
ركبها ميمم هذا الطريق أو يقيّل في هذا المنعرج ، وأنه
لتساعل تساعل المتعجب كيف ألف هذه الأمكنة التي ترودها
صاحبته ولم تكن له بمألف أو كيف أحب أرضا لم يعهدها
من قبل ، ثم تغلبه دموعه فيفتضح أمره بين معاشره ،
ويميل إلى المداراة فيعلن أن عينه مريضة فهي تسيل لما بها
من القذى لا لشيء آخر يعتمل في أطوائه .. ولعله كابد من
نفسه هولا حين أجبر على هذا التبرير جبرا يفضحه
واقعه ، ويفهمه عارفوه ، ولكنه مع ذلك يصرح به صراحة
من لا يخشى المواجهة بالتكذيب حين يهتف .

وأنت التي حببت شعبي إلى بسدا
إلى وأوطاني بسلاذ سواهما
وحلت بهذا حلة ثم أصبحت
بأخرى قطاب الواديان كلاهما

إذا ذرفت عيناى أعتل بالقذى
وعزة لو يدري الطبيب قذاهما
فلو تذرفان الدمع منذ استهلتا
على إثر جازي نعمة لجزاهما

والبيت الأخير من الأعاجيب ، فالشاعر يعلن أنه لو
ذرف تلك الدموع على ذاهب من المحسنين لقام من مرقدہ
ليجزيه الوفاء ! ولكن عزة لا تبالي ما يريق من دمع صبيب !
وصدق الاحساس في كل ما ذكرته من شعر الرجل أوضح من
أن يتناول بتوهين ، فإن هذه المعاني الانسانية ما كانت
لتقد على خاطري فتعل ويلفق ، ولكنها جذوات مشتعلة يتقد
بها قلب مصهور ، ذلك القلب الذي يحس الاحساس
الفطري الهاديء حين يخدعه الابتسام الخلوب في بعض ما
يتخيله من أوقات الصفاء ، فيهدف بهذا السهل الممتنع
وكانه تحدر من أعماقه دون أن يجهد في صياغته بعض
الجهد !

وهو مع ذلك يعبر عن تجربة ملموسة يعرفها ذوو
القلوب معرفة لا تقبل الجحود ، وذلك حين يقول :

نظرت إليها نظرة ما يسرني
بها حمر أنعام البلاد وسودها
وكنت إذا مازرت سعدي بأرضها
أرى الأرض تطوي لي ويدنو بعيدها

من الخفريات البيض ود جليسهها
إذا ما انقضت أحداثه لو تعيدها
هل الخلد ما دامت لأهلك جارة
وهل دام في الدنيا لنفس خلودها
ولست وإن أوعدت فيها بمنته
وإن أوقدت نار وشب وقودها
إذا ذكرتها النفس جنت بذكرها
وريعت وحنّت ، واستخف جليدها
فكيف يسود القلب من لم توده
بلى قد تريد النفس من لا يريد لها
فأصبحت ذا نفسين نفس مريضة
من اليأس ما ينفك هم يعودها
ونفس إذا ما كنت وحدي تقطعت
كما انسل من ذات النظام فريدها
فلم تبد لي يأسا ففي اليأس راحة
ولم تبد لي جودا فينفع جودها

وقاريء هذه الأبيات يرى فيها تأكيدا آخر لما ذكرناه من
هبوب الصراع الهادم في نفس الرجل ، فالنفس التي تتحول
نفسين مختلفتين لن تعيش في هدوء ، بل إن اصطحابهما
المعتلج بين اليأس والأمل ، والرضا والتبرم ، والاقبال
والصدود ، مما يهدم عوامل الثبات ويدفع بالعاشق إلى

حيرة مضطربة كان باعثها الاصيل تناقض ما يشهد من
اعاجيب .

فلم تبد لي ياسا ففي اليأس راحة
ولم تبد لي جودا فينفع جودها

وقد ألمعت إلى سهولة السرد في هذه الأبيات وفي غيرها من
غزل كثير ، لأتحدث عن شيء هام يتعلق بالشاعر ، إذ أن
كثيرا قد يترك السهولة إلى الجزالة في بعض ما ينظم ، وقد
ظن الدكتور طه حسين أن ذلك مدعاة إفلاس عاطفي يعتصم
بقوة الديباجة وحدها وذلك حين قال في الجزء الأول من
حديث الأربعاء «واني أختتم هذا الحديث بهذه الأبيات
التي تكاد تكون وحدها كل ما بقي من غزل كثير ، وأنا أرى أن
فيها من جودة اللفظ ورصانة الأسلوب شيئا كثيرا ، ولكنها
خالية خلوا تماما من صدق اللهجة وحرارة العاطفة» ، ثم
استشهد الدكتور بأبيات من قصيدته الذائعة .

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا
قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت

وأنا لا أدري كيف يكون ما اختاره الدكتور من لامية كثير
هذه يكاد يكون كل ما بقي من غزله !

فأين إذن ما تردد عنه في كتب الأدب الكثيرة وما سجل في
ديوانه مما استشهدنا الآن ببعض نماذجه ، ثم لا أدري
كيف تكون جودة اللفظ ورصانة الأسلوب في القصيدة

حائلين دون صدق اللهجة ، وحرارة العاطفة وهما من
الوضوح بحيث لا يخفيان على ناقد متواضع فضلا عن ناقد
جهير كالكتورطه حسين ! قد تجد في هذه القصيدة الرائعة
بعض العواطف المشتركة في مثل قوله :

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا
قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت
وما كنت أدري قبل عزة ما البكا
ولا موجعات القلب حتى تولت
وكانت لقطع الجبل بيني وبينها
كناذرة نذرا وفت فأحلت
أباحث حمى لم يرعه الناس قبلها
وحلت قلاعاً لم تكن قبل حلت

ولكنك تجد طعم كثير الخاص وعاطفته المنفردة في
أمنيته اليسيرة حين تمنى أن يمكث لديها بعض الوقت ثم
ينهض ليركب راحلته فيجدها قد شردت ضالة فيضطر إلى
البقاء أياماً بحجة البحث عن الناقة الضائعة فهو يريد
الثواء لديها ، على حين يظن بها ملأ من مقامه ، وذلك ما
عناه في قوله :

فليت قلوصي عند عزة قيت
بحبل ضعيف غر منها فضلت
وغودر في الحي المقيمين رحلها
وكان لها باع سواي فليت

وكنـت كـذي رـجلين رـجل صـحيحة
ورجل رـمى فـيها الزـمان فـشلت
أريد الثـواء عـندها وأظنـها
إذا ما أطلنا عـندها المكـث مـلت
كأنـي أناـدي صـخرة حـين أعـرضت
من الصـمم لو تـمشي بـها العـصم زـلت
فواللـه ما قـاربـت إلـا تـباعـدت
بصـرم و لا أكـثـرت إلـا أقـلت
أسـيني بـنا أو أحـسـني لا مـلومـة
لـدينـا و لا مـقـليـة إـن تـقلت
يـكـلفـها الغـيران شـتمـي و ما بـها
هـواني و لكن للمـليـك اسـتـذلت
هـنـينا مـريئـا غـير داء مـخـامر
لعـزة من أعـراضـنا ما اسـتـحلت

فإن لم يكن صدق العاطفة وحرارة اللهجة مما تنضح به
هذه الأبيات فإننا نرجو أن نوفق إلى من يقنعنا برأي
الدكتور عن برهان ، على أنني لا أجد فيما استشهدت به الآن
من فخامة الأسلوب ما يقف حائلا دون الصدق ، وقد يكون
الأسلوب فخما رصينا كل الرصانة في مثل قوله :

واني وتهيامي بعزة بعد ما
تخلت عمما بيننسا وتخلت

لكالمرتجي ظل الغمامة كلما
تبوأ منها للمقييل اضمحلت
كأنى وإياها سحابة محل
رجاها فلما جاوزته استهلت
فإن سأل الواشون فيم هجرتها
فقل نفس حصر سليت فتسلت
تمنيها حتى إذا ما رأيتها
رأيت المنايا شرعا قد أظلت

ولكن فخامة الأسلوب ورصانته مما لا يحولان دون
صدق العاطفة وحرارتها وإخلاصها ، وكم من شعر سهل
يفتقد الحرارة والصدق ، ولم تكن الجزالة ضربة لازب على
المتكلفين وإنما هي إحدى صور النفوس في اتجاهاتها
التعبيرية ، وإذا كان كثير أجزل من رفاقه الغزليين فلكل
منحاه .

ولعلي الآن بحاجة إلى أن أشير إلى ما أعنيه من اشتراك
العاطفة في بعض غزل كثير ، وانفرادها في بعضه الآخر
فأقول : إن الشاعر الصادق مضطر أن يسجل عواطفه كما
تعمل في نفسه ، فهو أحيانا يتحدث عن أمور عامة يحسها
سواء ، وأحيانا ينفرد بإحساسات خاصة يتوحد
بمعاناتها ، وسبيله في الحالين أن يفصح في شعره عن
شخصية معلومة تنفرد بمذاقها الخاص ولونها الموسوم
ولا كذلك أدعياء النسيب فإنهم يفصحون عن العواطف

المشتركة وحدها دون أن يفرد واحد منهم بحس خاص فلا تهتز لايحائه ، وقد يطالعك بجودة مبناه وإحكام تركيبه ولكنك تتسائل عما وراء ذلك فتخرج صفر اليدين مما تقرأ ، فهل كان كثير كذلك في حديثه عن العواطف المشتركة أولا وفي حديثه عن العواطف الخاصة ثانيا ! أو أنه يسير في غير هذا الطريق ، لقد شاهد عزة ذات يوم تنهيا للرحيل ولم يستطع لبعض ملابساته أن يصافحها مصافحة الوداع ، بل اكتفى أن ينظر إلى العير المؤذنة بالرحيل على بعد ، وأخذ يحس لذع النار باكيا غير صابر فماذا قال عن هذه التجربة المألوفة تجربة حبيب يرحل دون توديع ! ، لنسمع منه

ندمت على ما فاتني يوم بتم
فواحسرتا ألا يرين غليلي
أقيمي فإن الغور ياعز بعدكم
إلى إذا ما بنت غير جميل
كفى حزنا للعين أن رد طرفها
لعزة عيس أذنت برحيل
وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا
فقلت البكا أشفى اذن لغليلي
تأوهت محزوننا وقلت لصاحبي
أقاتلتي ليلى بغير قتيل

فالندم على فوات الوداع ، ونزوع العيس طائرة بقلب العاشق إلى حيث لا يعلم ، والتخيير بين الصبر والبكاء ؟

وترقب الفناء القاتل بعد الرحيل .. كل ذلك من العواطف
المشتركة بين الناس جميعا في مثل هذا الموقف ، ولكن
التعبير على نحو ما قال كثير يتضمن لهفة تلمسها في اختيار
الكلمات وإيحاء المعاني ، وحرارة النبض حتى لكأنك
تسمع عاشقا يزفر لا شاعرا يتكلم ومثل ذلك لا يتاح لشاعر
كاذب الاحساس فإذا انتقلنا من العواطف المشتركة إلى
الاحساس الخاص في القصيدة نفسها ، فإنك تجد عاشقا ذا
ميل ذاتية وإحساس منفرد ، فالرجل يرى حبيبته تبخل
وتضن وهو مع ذلك موكل بكل بخيل ضنين وهو أيضا لا
يرضى لنفسه بالنائل القليل كما لا يرضى لحبيبته تلك القلة
في النوال ، ثم يرسم حدود الخليل الذي يرتضيه في
أعماقه ! ذلك الوصول غير الملول ! والحريص غير المتساهل
ولا ينسى بعد ذلك أن يصور تناقض ما بينه وبين لائمه حين
يصدرون في لومه عن عقل ما إليه من سبيل عنده ، فيقول :

فلا تعجلي يا ليل أن تفهمي
بنصح أتى الواشون أم بخبول
فإن طبت نفسا بالعطاء فأجزلي
وخير العطا يا ليل كل جزيل
وإن تبخلي يا ليل عني فإبني
مـوكلة نفسي بكل بخيل
ولست براض عن خليلي بنائل
قليل ولا راض لـه بقليل

وليس خليلي بالملول ولا الذي
إذا غبت عنه باعني بخليل
ولم أر من ليلي نوالا أعده
ألا ربما طالبت غير منيل
يلومك في ليلي وعقلك عندها
أناس ولم تذهب لهم بعقول

فتلك عواطف كابدها الشاعر ضائقا متبرما قبل أن
تقيدها الأبيات ، وقد يجول شيء منها في خاطر عاشق غيره ،
ولكنه ينتزعها باديء ذي بدء من صميم نفسه ، وكانت من
الوضوح بحيث تركها تنساب سهلة ميسرة في نظم لا
يحرص على براعة النسيج قدر ما يحرص على الصدق في
ترجمة الشعور ، وعلى الصراخ المتأوه لما يعاني من
أغلال .. ونسأل لماذا كان كثير موضع التهمة في صدقه
العاطفي ؟ ومجال السخرية من بعض المتحدثين ؟ إن
أمورا كثيرة تعاونت على الأرجاف بالشاعر المسكين أرجافا لا
حيلة له معه ، فقد كان على نصيب من الدمامة يشيح بالعين
عن تقديره الباده . ومن أبعد ما يكون تقدير الدميم في ميدان
الصباغة والغزل والعشق والتحبب إلى الحسان ، فالرجل
كان قصيرا إلى حد يوحى بالسخرية والتهكم ، يقول بعض
من رآه يطوف بالبيت : من حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار
فقد كذب ، وكان إذا دخل على عبدالعزيز بن مروان بادره
بقوله على سبيل التهكم : نقاصر لا يصب رأسك السقف كما

يروون أنه شاتم الحزين الكنانى فمال عليه ورفع به بيد واحدة من الأرض فكان في كفه كالكرة ! وإلى قصره كان قبيح الوجه بشع الدمامة وقد حدث بعض الرواة أنه كان أعور يرى بعين واحدة ، ولم يكن على حظ موفور من المال ، ولا بذى نسب في الفاضرين عريق ، فبأي عين ينظر الناس إلى قصير دمىم أعور فقير اليد ، ضعيف الحسب في بيئة تقدر الأصول والأنساب ! انهم يرون أن مثله لا يتهيأ لعاطفته أن تتوهج بالشوق ، فهو كاذب فيما يدعيه ، وأن لسانه لا يمكن أن يجري بالغزل الصادق ، ولو دققوا النظر بعض التدقيق لعلموا أن عيوبه الجسمية أدعى لذكاء عاطفته واتقاد شوقه وأوحى للسان به بالشعر الصادق ، فالعاشق الممتع برضا حبيبته لوسامة منظره ، وعراقة أصله وثناء يده يبيت في بعض أحواله على هدوء لا تعصف به الأعاصير كما كان عمر بن أبى ربعة مثلاً مع صويحباته . وإذا كان الاستشهاد بعمر المتقلب النزعات المتصنع الأهواء لا يقع موقعه من الاقناع في هذا المجال ، فإن الاستشهاد بجميل بن معمر أقرب وأنسب ، فقد كان صبيح الوجه ، طويل القامة زاهياً يروع من يراه ، وكان به نسب وحسب ، وقد كانت مأساته مع بئينة لأمر لا ترجع إلى شخصه وأسرته وماله ، بل ترجع إلى ما تعورف عليه من بعض التقاليد ، فإذا كان كثير عاشقاً كجميل ، وقدر عليهما معا أن يجاربا في غرامهما الصادق ، فأيهما - وفق المنطق - يكون أكثر لوعة وأوهج حرارة ؟ أذلك الذي يحظى بقبول العامة

والخاصة ويتأكد ابلغ التأكيد من حب صاحبتة بثينة ، ثم
تتيح لهما الايام أويقات للشكوى المتبادلة ، واللوعة
المتشابهة ، أم ذلك المزدري المجفو ، الذي لا يجد من فرص
اللقاء غير هنيهات غامضة لا ينجلي أفقها على وجه صريح ،
فهو تارة موضع المهادنة والقبول ، وتارات كثيرة موضع
التنقص والازدراء .. وممن ؟ لو كان ذلك - كما كان كائنا
فعلا - من الناس وحدهم لهان عليه ولكنه من ملهمته
ومالكة أمره وسالبة نهاه . أي الحالين أدعى للحرارة
المشتعلة ، والقلق الممتد ، والكبد المحترقة ؟ لاشك أن
مأساة كثير آدمى للقلب ، وأدعى للهباج والانتقاد ، ولسنا
بذلك نزعم أن جميلا كان هاديء اللوعة ولكننا نوازن بين
رجلين تجاريا في ميدان واحد ، وتحمل أحدهما أكثر مما
تحمل صاحبه من بواعث اللهفة والحسرة والأنين ، وقد
أحس كثير أتم الاحساس بمحنته الجسمية ، وأخذ يدافع
عن نفسه بمنطق إن أقنع ذوي الحكمة والتجربة من
الشيوخ فلن يرضي نواهد الغيد وفواتن الحسان حيث
يقول :

تري الرجل النحيف فتزدريه
وفي أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطير فتبتليه
فيخلف ظنك الرجل الطير
وقد عظم البعير بغير لب
فلم يستغن بالعظم البعير

يقوده الصبي بكل أرض
وينحدره على الترب الصغير
فما عظم الرجال لهم بزين
ولكن زينهم كرم وخير
او يقول :

فإن أك معروق العظام فاني
إذا وزن الاقوام بالقوم وازن
واني لما استودعتني من أمانة
إذا ضاعت الأسرار للسر دافن
وأحمل في ليلى لقوم ضغينة
وتحمل في ليلى على الضغائن !

ثم أنه إلى دمامته الكريهة ، قد أوتي بعض الحمق في
قوله وفعله ، ونحن نعترف أن حماقة النفس لا تنقص حظ
الشاعر من جودة القول ، لأن حماقة كالجنون أمر متقطع
لا يلبث أن تهدأ ثورته ، وإذ ذاك يفىء الشاعر إلى عقله
المتزن فينشئ القصيد الجميل ، وإذا كان جنون قيس بن
الملوح لم يمنعه أن يجيد الشعر في أكثر ما قال فإن حماقة
كثير لم تمنعه أن يجيد الشعر في كل ما قال بل يؤكد أن
حماقته تلك كانت وليدة تفوقه الشعري ، فقد نظر كثير إلى
قصائده فوجدها ترتفع إلى أعلى مستوى يراه الناس في
عصره ثم لا يكادون يظهرون له من التقدير والاعجاب ما

يكافيء طاقته البارعة ، فاضطر إلى الاشارة بنفسه إشادة لم تجد ما يعصمها من الشطط فأورثته حماقة رعناء .

يذكرون أنه كان يدخل على عمه له برزة فتكرمه وتطرح له وسادة يجلس عليها ، فقال لها يوما ، ما تعرفيني أبدا ولا تكرميني حق كرامتي ! فقالت بلى والله اني لأعرفك ، قال فمن أنا ، فقالت ابن فلان وابن فلانة وجعلت تمدح أباه وأمه ، فقال قد علمت أنك لا تعرفيني ، فقالت ومن أنت ؟ فقال أنا يونس ، وكان يتيه في مشيته ، ويظهر التكبر والخيلاء ، فتحدث بعض الخبثاء بمسمع منه أنه لتيهه لا يلتفت وراءه ولو نزع رداؤه ، فسر لذلك ثم قام يمشي الخيلاء فاندفع الخبيث ينزع رداءه عنه فلم يلتفت إليه وسار بقميصه وحده ! وقد يكون ذلك صحيحا ، وقد يكون مدسوسا عليه ، إذ أن ما يضاف إلى كل أحقق من القول والفعل أكثر مما يبدية . وقد حكى طلحة بن عبد الله فقال :

ما رأيت قط أحقق من كثير ، دخلت عليه في نفر من قريش ، وكنا كثيرا ما نهزأ به ، وكان يتشيع تشيعا قبيحا ، فقلت له : كيف تجدك يا أبا صخر ؟ فقال أجدني ذاهبا ، فقلت كلا ؟ فقال هل سمعتم الناس يقولون شيئا عني فقلت نعم : يتحدثون أنك الدجال قال : أما لنن قلت ذلك اني لأجد في عيني هذه ضعفا منذ أيام .

هذا بعض ما تنوقل عنه وقد يدحض هذه الرواية ما قيل

في وصف كثير أنه أعور إذ كونه يجد في عينه ضعفا منذ أيام
مما ينطق بسلامتها من قبل . ولعل الشاعر أراد أن يتبسط
مع صاحبه فجاءه تفكها لا حمقا . ومهما يكن من امر فنحن
لا ننكر ما أجمع عليه الرواة من حمقه ولكننا نشك في أنه كله
صحيح غير مفترى أو متزيد .

وإذا كان تكوينه الجسمي وحمقه العقلي قد ساعدا على
التندر به والتهوين من شعره الغزلي فقد أضيف اليهما
معتقده السياسي ، فقد كان يتشيع تشيعا غير معقول إذ
يقول بالرجعة وعودة الوصي ثم لا يمنعه اغراقه في التشيع
أن يتجه إلى قصور دمشق فيمدح خلفاء بني أمية مدحا
مفرقا ، وهم لحصافتهم السياسية يقبلون منه ما يقول ،
لأنه يعطيهم وثيقة قوية تثبت أن فريقا من المتشيعين
يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ، بل انهم يرون أن
اشادة خصومهم في الرأي بحكومتهم المتمكنة وسلطانهم
الممتد ، مما يزيد في قدرهم ، ويعلى من كلمتهم ، والحق ما
شهدت به الأعداء ، لذلك كان عبد الملك بن مروان يطرى
شعره ويقول انه يسبق السحر ، وهو على بينة من معتقده
الشيوعي فقد ذكر أبو الفرج ما خلاصته أن عبد الملك حين
خرج لحرب مصعب بن الزبير نظر فوجد كثيرا يسير مطرق
الرأس في ناحية من عسكره فدعا به وقال له انى لأعلم ما
أسكتك وألقى عليك بئك فان اخبرتك عنه تصدقنى قال والله
لأصدقنك ؟ قال تقول : رجالان من قریش يلقى أحدهما

صاحبه فيحاربه ، والقاتل والمقتول منهما في النار فما معنى
مسيرى مع أحدهما إلى الآخر لا أمن سهما عابرا لعله أن
يصيبني فيقتلني فأكون معهما ؟ فقال والله ما أخطأت ما
بنفسي قال فارجع من قريب وأمر له بجائزة !

وإذن فكثير قد أعان على نفسه بحمقه واغراقه في
مبالغات التشيع ، ولجؤته إلى خصوم مذهبه السياسي
يمدحهم بقول لا يعتقدده ! فوق ما أعانت عليه دمامة
الوجه . وضالة الجسم ضالة جعلته قرما شأنها بين كثير
من العماليق ! فكان لذلك في منطق البعض كاذب الاحساس
في النسب !

نعم ، إن الشاعر كان يجلس إلى غير عزة ويحادثها ، وقد
هام في بعض أيامه بأخرى : ولكن ذلك لم يمنع صدق
احساسه حين اتجه بعاطفته إلى عزة ، وإذا كان جميل في
منطق هؤلاء أصدق عاشق يفصح عن ضمير مخلص فانه
قال في بعض ما نظم :

وما استطرفت عيني حديثا لخلة
أسر به إلا حديثك أطرف

فلم يمنعه استطرافه لحديث شائق من خلة غير بثينة أن
يكون صادق العاطفة بازائها ، بل قد يكون اللجوء إلى غير
المعشوقة بابا للخلاص من كرب يأخذ بالخناق ومتنفسا
يحاول أن يجد فيه المجهود مجالا لبعض الفرج مما يغشاه
على نحو ما قال المجنون .

تسلى بلىلى غيرها فإذا التى
تسلى بها تغرى بلىلى ولا تسلى
وإن تيار العواطف لأبعد غورا وأعماق قاعا من أن يحكم
على باطنه بما يتراءى على السطح الظاهر من سمات وإذا
كنا نقرأ شعر كثير فنحس بلظى النار يشتعل متوهجا في كل
ما قال ، أفلا يكون ذلك أصدق دليل على عاطفة يلهبها
الحرمان ، ويذكىها الاخفاق مع دلالتة على أصالته
الشاعرية وامتلاك البيان !

المجلات الأدبية ورعاية الناشئين

أحسنّت مجلة الهلال حين أصدرت باب «أنت والهلال» لتقدم فيه بعض آثار المتطلعين إلى المجد الأدبي من شباب المدارس والجامعات ، ولتعقب على بعض ما يوجب التعقيب ، بالتصحيح الموجه ، والتشجيع الحافز ، وعهدي برئيس تحريرها الفاضل الأستاذ كمال النجمي ذا سبق أدبي كريم في هذا المنحى الحميد ، فقد تطوّع بضع سنوات لتسديد أقلام الناشئين في مجلة العالم العربي ، وثبت لعواصف شديدة هبّت عليه لاصراره على نمط بليغ من الشعر والنثر ، كما أذكر أن مجلة الهلال قد أصدرت في بعض سنواتها ملحقا أدبيا للناشئة أسمته بالزهور ولكنه اهتصر قبل أن يؤتي أكله ، وكذلك فعل أخي الدكتور عبدالعزيز الدسوقي حين أصدر نادي الثقافة في بعض صفحات المجلة ، ولكن ضيق بعض الكاتبين به قد عجل بطيه ، وبقيت الحاجة ماسة إلى توجيه الأقلام الصاعدة ، لأن السكوت المطبق عن أداء هذه الرسالة الحافزة يدفع باليأس إلى قلوب أمة ذات براعم غضة تتلمس طريقها إلى التفتح في روض الفن فلا تجد الندى المسعف أو الشعاع الدافئ ، وقد تصوح أسفا حين يذوي الغصن ، ويذبل الورق قبل أن يعبق الأريج ، لذلك كان الأخذ بأيدي الناشئة فرضا محتوما على من يملكون الإذاعة والتوجيه .

مجلة الأدب

وأذكر بالخير في هذا المجال مجلة الأدب ، التي قام على إصدارها المغفور له الأستاذ أمين الخولي عدة سنوات ألزم نفسه بقراءة كل ما يفد إليه ممن كان يسميهم الشباب الواعد ، ثم التعقيب على أكثر ما يصل إليه في صفحات تتوالى في سخاء لتظهر توجيه الكاتب الكبير وعطفه . ولكن الأستاذ الخولي صاحب مذهب أدبي يصر على الدعوة إليه في إلحاح ، ويزن ما يفد إليه بميزان مذهبه ، وقد يقسو في التعليق قسوة توهي العزائم المتطلعة ، إذ يرى القسوة باب الحزم الراشد ، ولو كنت مكانه لأغمضت عن الكثير رغبة في شحذ النفوس ، وبعثا للهمم ، ومهما يكن من تدقيقه فقد أدى ضريبة الاستاذية أحسن أداء ، ولا ننكر عليه وعلى من نهجوا نهجه أنهم ضحوا بكثير من الوقت الطيب مجاهدين لغيرهم لا لأنفسهم ، إذ كان من الهين عليهم أن يملئوا هذا الوقت بانتاج خاص يذكر لهم في مضمار التأليف ، ولكن واجب الإيثا رقد عصمهم من الأثرة المريضة التي نشاهدها لدى نفر من ذوي الرأي يدورون حول أنفسهم فلا يتجاوزون ، وهم بعد من قادة الفكر وأئمة البيان .

رافدان يجفان

وقد كان للناشئة رافدان حيويان ، يجدون فيهما متنفسا لما يضمرون من الخواطر ، ويكتون من الأحاسيس ، وهما

الجرائد الاقليمية ، والصحف المدرسية ، ولكن عوامل خاصة قد عطلت رسالتيهما الاصيله ، وانصرفت بهما إلى حيث يكونان بمثابة نشرات رسمية توهم أنها ملأت فراغا ، مع أن الفراغ لم يُشغَلْ مهما كثرت هذه النشرات ، فالصحف الاقليمية الآن أصبح همها الأول هو الإشادة بالرسميين في المحافظة ، ونشر الأحاديث لكبار المسؤولين مُحلاة بصورهم ، ومجارة الصحف اليومية في الكلام عن مشروعات لم تعرف خطوات التنفيذ على وجه سريع ! وقد كانت صحف الأقاليم من قبل ذات احتفاء بالمواهب الأدبية فجريدة البصر بالاسكندرية كانت تصدر صفحة «الحياة الأدبية» مليئة بالزاد الدسم ، وقل ما شئت في صحف اقليمية أخرى ذات تأثير قوي ، كالإنذار والشفق والمجتمع وأخبار دمياط والنادي وبحر يوسف والإصلاح ، بل إن مدينة صغيرة كبلقاس كانت تصدر ثلاث صحائف هي الوفاق والواجب والنهار ، وكان زعماء مصر إذ ذاك يمدّونها بأحاديثهم فتسارع صحف العاصمة إلى نقلها أو تلخيصها ! ونحن اليوم نرى صحف الأقاليم ذات اعتمادات قوية ، ولكن أكثر القائمين عليها موظفون لا مفكرون وفاقد الشيء لا يعطيه .

أما الصحف المدرسية فقد أصابها العدوى ، فأصبحت سجلا لنشاط واقعي أو موهوم دون أن تتسع لخواطر الناشئة ، وقد كانت صحف المدارس من قبل حقلا خصيبا

للتجارب العلمية والأدبية ، بل كان من هذه الصحف ما يعدّ مراجع علمية ! لقد أصدرت مدرسة ثانوية بالإسكندرية مجلتها في خمسمائة صفحة لتسجل تاريخ الاسكندرية على مدى العصور بأقلام الطلاب تحت رعاية أساتذتهم المدرسين ، وكذلك فعلت مدرسة المنصورة الثانوية في بعض سنيها الغابرة ، ووجدت هاتان المدرستان من ناشئة الطلاب من بحث وجمع واكتشف وحقق في ضوء التوجيه الراشد من رجال التعليم ! فهلّم الآن لنقرأ أكثر ما يصدر من صحف المدارس لنرى أخبار الرحلات وصور مدير الإدارة وناظر المدرسة ، ونتقا من مستهلكات الجرائد اليومية ! وإذا رأيت موضوعات ما فهي مفروضة على الطالب لا ليبحث عنها بل لينسخها من مجلة أو جريدة !! ولست أريد أن أبخس جهد العاملين ، فهم قلة إلى جوار المصنفين ، ولا بد أن نصف الداء لنصل إلى الدواء .

الثقافة والرسالة

تصدرت مجلتنا الثقافة والرسالة في دنيا الفكر والفن أمدا غير قصير ، وكان لهما من النفوذ الأدبي ما رفعهما في نفوس أبناء العروبة ، ولكن موقفهما من شباب الأدباء فضلا عن الناشئين من النبت الجديد كان مدعاة أخذ ورد في نقاش لم ينقطع لأن القائمين على تحريرهما من كبار الأدباء حقا ، ولهم زملاء من ذوي المكانة يأخذون موضع الحظوة

والاحتفاء ، فإذا حاول أدباء الصف الثاني أن يأخذوا مثل موضعهم المتقدم لمحوأ مالا يرضون من التراخي الماثل ، وقد ارتفعت الأصوات عاتبة حيناً والصيحات غاضبة حيناً آخر ، فوجدت من الرد الصريح ما أسفر عن بعض الحقائق ، أذكر أن أحد أدباء كتاب الشباب ، وهو الأستاذ محمود المنجوري كتب للاستاذ أحمد أمين خطاباً نشر بمجلة الثقافة العدد (٢١٧) قال فيه : (إن أدباء الطليعة يناشدون شيوخ الأدب أن يعاونوهم في أداء رسالتهم أداء صحيحاً ، وألا يحجبوهم عن المسرح ، وإلا شقوا لأنفسهم الطريق ، واشتجرت بين الشباب والشيوخ خصومة أدبية ليس ينبغي أن تقوم في حياتنا الأدبية ، أرجو أن يسع حلم أساتذتنا هذه الآمال وأن يرحبوا بها وأن يعملوا على إيجاد هذا الجو الطيب لإبراز أدباء جدد ، حتى لا تفقر الحياة الأدبية في مصر من الخلق والابتكار !) .

وقد أجاب الأستاذ أحمد أمين ، ورد عليه ناقد ، فأجاب على الرد ، وكان مما قال صاحب الثقافة (العدد ٢٢٠) «أريد الشباب أن تكون المجالات والجرائد كراسات إنشاء يتعلم فيها الشباب ما يكتب حتى يتم مدة تمرينه ، وقد يكون هذا اقتراحاً في محله لو أن القراء أفسحوا صدورهم وأقبلوا على قراءة موضوعات الانشاء من غير ملل ، ولم ينصرفوا عن المجلة سريعاً ، أو يريدون أن يكتبوا ما يشاعون ويمثلوا البلاد حُباً مائعاً وغزلاً ذاتباً وأدباً لاهياً ، فإذا قال لهم

الشيوخ جددوا بجانب لهوكم وراقبوا الأخلاق في أدبكم
قالوا : إن الشيوخ يحجبونهم عن المسرح .

وكلام الدكتور أحمد أمين محتاج إلى تعليق ليس هنا
موضعه ، ولكننا نأخذ منه ما يدل على ارتفاع صيحات
الأخذ والرد حول أدب الشباب وقيام الحوائل دونه .
وموقف الثقافة مماثل في ذلك لموقف الرسالة لأن الأصوات
حاصرت الأستاذ أحمد حسن الزيات في أكثر من مناسبة
حتى اضطر الكاتب البليغ أن يقول بالعدد (٦٤٠) من مجلة
الرسالة .

(إن الرسالة بشهادة الواقع مجلة الأدب العربي في
جميع أقطاره ، لا تؤثر قائلًا على قائل إلا لإجادته ولا تنشر
مقالًا دون مقال إلا لجودته ، لها مستوى لا تنزل عنه ،
ومقياس لا تتسامح فيه ، وهي لذلك لا تؤمن بتشجيع
الضعيف ، ولا تقول بمجاملة القوي وفي سبيل هذا المبدأ
السليم القويم تعرضت لمكاره الحق من جفاء الكريم وسفه
اللئيم وصلف المغتر) .

وهبوب هذا الغبار الثائر لا يمنع أن نقول بلسان الواقع
إن كثيرا من الأدب الجيد في ميداني الشعر والقصة كان
يصادف الإهمال من مجلة الرسالة ، لأن العدد الواحد لا
ينشر أكثر من قصة واحدة أو قصيدتين في الأكثر الغالب ،
وقد يأتي البريد مزدحما بعدة قصائد ، على حين يتقدم
شاعر من أسرة الرسالة كمحمود اسماعيل أو علي محمود

طه أو ابراهيم ناجي أو محمود غنيم بقصيدة يتسلمها
رئيس التحرير بيده فتعفيه من قراءة البريد الشعري
جملة ! وما يقال عن الشعر يقال عن القصة ، والرجل
معذور لأنه وحده هو الذي يقرأ ويختارون معين .

أذكر أن قوارص الاحتجاج قد وجهت للأستاذ الزيات
شعرا لعدم استيعاب الرسالة لما يفد إليها من القصائد
الجيدة ، كما أذكر أن أحد شعراء الشباب عاتب الأستاذ
محتدا فقال له في هدوء : عندك أبيات مكسورة ، فخرج
منفعلا ليرسل إليه قصيدة مطلعها :

أقصاندي مكسورة الأبيات

ياشد ما ألقى من الزيات

وشفعها بغيرها . ثم دفعه التبرم إلى الهجاء الصريح في
مثل قوله الصارخ عن شعره :

سلام عليه يوم جساءك باسم

فقابله من وجهك الجهم بأسره

أديان كبيران

وفي الناحية المقابلة للأستاذين أحمد أمين وأحمد حسن
الزيات أذكر أستاذين كبيرين كان لهما الفضل الكبير في
تعصيد الناشئين ، والأخذ بأيديهم ، والسهر على رعاية كل
نبذة غضة لينمو العود ، ويورق الغصن ، هما الأستاذ
انطون الجميل رئيس تحرير الأهرام والأستاذ محمد فريد

وجدي صاحب جريدة الدستور ومجلة الحياة ثم رأس
تحرير مجلة الأزهر لأكثر من عشرين عاما !

كان الأستاذ أنطون الجميل يخص نفرا من محرري
الأهرام بقراءة الوارد من أدب الناشئين شعرا ونثرا
لاختيار بعض ما يصلح للنشر تشجيعا للأقلام الصاعدة ،
وقد حرص على أن تصدر صحيفة الآداب والعلوم والفنون
يوميا لتقدم الجديد من أدب الشباب بالذات إذ أن اختيار
مقتطفات لشاب متطلع كفيل بأن يسير به إلى آخر الشوط
حين يرى الأهرام تحفل به وتختار من قوله ! وكان الجميل
يراجع ما يمكن نشره من الأدب الناضر ليفسح له المجال
للتنويه ، على حين يرجيء نشر كثير من قصائد
المشهورين ! سمعت هذا فلم أصدق ، ولكنني وجدت
الأستاذ أحمد الزين ينشر في ديوانه خطابا للأستاذ الجميل
قال فيه : إنه يذكره بقصيدة الابتسامة التي أرجأ الأستاذ
نشرها معتلا بأنها .. متى قدمت كانت أعتق وأحلى ، مما
اضطر الزين إلى قوله : «واحسب أن تلك القصيدة قد
بلغت عتقها إذا رأيتم ذلك» ! وقد راجعت قصيدة الابتسامة
في ديوان الزين فوجدتها من عيون الشعر العربي ومنها
قوله :

يا لورد تشع فيه الثنايا
بسنا يسحر القلوب ويسبي
لو ضمنت الشفاه ضنا علينا
نفذت بالسنا إلى كل لب

يائتيا كأنها في صفاء
بَرْد ساقطته أنداء سحب
فلجّت بينها منافسة الحسن
فكل بحظه منه ينبي
أبسمي للمقل يستصغر الكو
ن بما فيه من ثراء وكسب
أبسمي لي إذا سألت لقاء
بسمه منك لو تشائين حسبي !

ومقدمة الجميل لديوان شاعر البراري تعلن احتفاله
بأبيات الشاعر المتواضع حين عرفه من بريد الأهرام يقول
الجميل (وظل شاعر البراري يوافينا الفينة بعد الفينة
بأبيات تتراوح بين الخمسة والسته ، وقلما تتجاوز
السبعة أو الثمانية ، فتجد دائما لها مكانا للنشر على ضيق
المكان بين أخبار الحرب وأنباء السياسة ، فتبدو
كالابتسامة الوضاعة بين غيوم هذه وفواجع تلك ، لأن
موضوعها كان دائما مستمدا من عذوبة الطبيعة وجمال
مناظرها) .

محمد فريد وجدي

كنا ونحن طلاب بالمعاهد الدينية الثانوية نُصدر كتباً
صغيرة ، يضم كل كتيب طائفة من المنظوم والمنثور تصور
أحلام المراهقة ومطامح الصبا ، ونفقات طبع الكتيب

الواحد حينئذ لا يتجاوز خمسة جنيهاً يجمعها المؤلف من اشتراكات الزملاء حيث يسهم كل طالب بثلاثة قروش !
وصلة هذا الكلام بموضوعنا هو أن المؤلف الناشئ كان يرسل نسخاً للمجلات والجرائد ، فتسكت غالباً عن التنويه ، ولكن الأستاذ محمد فريد وجدي دأب على أن يفرد في مجلة الأزهر حيزاً كبيراً لتشجيع المؤلف فيبارك جهده ، وينقل من عباراته ، ويدفعه للأمام بعبارات ذات أمل واسع ، وتحار حين تجد الأستاذ الكبير يكتب سطوراً معدودة عن كتب المشهورين من الكبار ثم يفرد مقالاً لطالب ناشئ ! أذكر أنني حين كنت طالباً بالسنة الثالثة من المعهد الابتدائي بدمياط ! أرسلت لمجلة الأزهر مقالاً تاريخياً تحت عنوان «إسلام هرقل» لخصت فيه القصة المتداولة في كتب السيرة عن إسلامه ، وانتظرت أن يُنشر المقال ففوجئت بخطاب كبير يصلني ، وبه مقالي مع رد طويل كتبه الأستاذ فريد وجدي ليقول لي إن أكثر التفاصيل المشهورة تحتاج إلى دراسة توضح الزائف من الصحيح وجعل يرد على فقرات من مقالي ، ثم يقول في النهاية إنه لم يشأ أن يهمل الرد على الطالب الموهوب كيلا ييأس ، ولكنه يدفعه إلى مواصلة البحث ليكون من جنود الإسلام ! وليتني حفظت رد الأستاذ لأعزبه الآن ، إذ كنت في سني الصغيرة لا أعرف أنني أمام وثيقة أدبية وخلقية نادرة المثال !

وثانية أعرفها ، فقد جاءني أحد موظفي مكاتب البريد بالشرقية ، ومعه أكثر من خمس رسائل طويلة كتبها له

الأستاذ فريد وجدي في عدة صفحات ، لأن الموظف المسيحي كان قد اعترض على مقال له ، فبعث إلى مجلة الأزهر بموضوع غير متزن ، يتعرض إلى شئون المسيحية والاسلام ، فكتب له الأستاذ فريد ردًا خاصا ، وألح الموظف في اللجاج فراسل الكاتب الكبير فأخذ يرد عليه ! وقد شرفني الله بمعرفة الأستاذ فريد وجدي فيما بعد فسألته عن اهتمامه بهذا الموضوع ، فقال في هدوء ، إن المرسل أثار منازع ذات تعصب ، ونشرها يحدث البلبلة دون داع ، ثم السكوت عنه ليس من سمات من يتصدر للالقناع ، فرأيت خروجاً من المألوف أن أرد عليه في كتاب خاص ! وتابع التعليق فتابعته الرد ليرتاح ضميري ! ماذا أصنع ؟

إن الصحافة المصرية لم تعرف في تاريخها اشرف وأنبل من إنسانين هما أمين الرافعي ومحمد فريد وجدي .

مقترحات

ونحن بعد هذا الطواف السريع ندعو القائمين بالأمر إلى رعاية الناشئين ، إذ نرى من الضروري أولاً أن نخصص صحيفة أدبية في كل جريدة يومية تعنى بثمار الناشئين على أن يكون المشرف عليها أديباً ذا فكر وليس موظفاً كما نرى - ثانياً - أن تصدر وزارة الثقافة مجلة للشبيبة لا يكون من همها تلافي الخسارة ، بل تفترض الخسارة المادية في مجال يكون فيه الكسب الأدبي أوفى وأبلغ ، وندعو - ثالثاً - إلى

مواصلة إصدار (الكتاب الاول) الذي توقف فجأة بعد ان
بشر بخير مرتقب ، على أن يقدم كل كتاب يختار للنشر اديب
مشهود الرأي يوجّه في رفق ، وينقد في رعاية ، وإذا كان لي
أن أقترح على باب (أنت والهلل) شيئاً ، فإنني أرجو
القائمين عليه ألا يهتموا بمن لا يعرف قواعد النحو واللغة
والعروض ، بل يتعين الاهتمام بمن جاوز هذا الدور وبدأ
المعاناة الأدبية بذأً يوحى بموهبة ويدل على موضع خصب
للنماء والاثمار ، وفيما تحدثت به عن الصحف الاقليمية
والمجلات المدرسية ما يعين على تصحيح الخطأ وتقرير
الصواب .

البشري يتحدث عن حافظ

كان عبدالعزیز البشري وحافظ ابراهيم صديقين متلازمين ، تجمعهما مجالس الأدب والسمروأوقات النزهة والرحلة ، وكانت طبيعة الحياة في عصرهما تتيح لهما أن يسمر اليلالي الطوال في منازل العلية من الوجهاء ، إذ كانت مجالس السمر الليلية تتطلب النديم لمؤنس ، ولن يكون غير أديب خفيف الروح ، حلو الفكاهة حاضر البديهة ، وهي صفات راقية اجتمعت في الأدبيين الكبيرين على نحو متفق ، بحيث يحار المرء في تفضيل أحدهما على الآخر إذا عَمَرَت المجالس برواد السمر وطلاب الأفاكه ، بل كثيرا ما يكون التناذر على حسابهما ، إذ يعمد أحدهما إلى التندر بصاحبه ، فيُلَاقِي منه كفتا نديدا ، يصاوله في ميدانه أعنف مصاولة ثم تمضي الليلة وقد خرج الصديقان متصافيين ! كأن شيئا لم يكن ، ولا اذكر أنني قرأت لحافظ قصيدة أو مقالا عن البشري ، ولكن البشري قد كتب عن حافظ كثيرا ، لأن سبقه في الرحيل قد فسح لصاحبه مجال الحديث عنه ، وإن كان رواة الأفاكه وحفاظ النوادر قد ذكروا على لسان حافظ بعض النوادر المستطابة التي خصَّ بها صاحبه ، فوجدت من تعليقه ما أكمل بهجتها وسيرها على الأفواه ، كأن يذكروا أن حافظا زار حديقة الحيوان مع البشري وبعد أن تجولا بها قال حافظ لصاحبه وهما خارجان لدى الباب : حاسب

أحسن يُحوشُوك ! فقال البشري على الفور : وأنت مافيش
خوف عليك ، عشان منك كثير ! وقد نظر البشري في المرأة
ذات مرة فقال له حافظ وشك لا يُرى ولكن يُكنس ! فقال
البشري دون مهل ووشك يشوفه الناس يرمون له عضمه !!
مثل هاتين الحادثتين كثير !

المقال الأول

ولم يكتب البشري عن حافظ في حياته غير مقال واحد في
باب (المرأة) الذي كان يكتبه أسبوعيا في جريدة السياسة
الأسبوعية ، ولكنه كتب عن شوقي أكثر من مقال ، وكان
ينادي بتفضيله على شعراء العصر جميعا ، ومن بينهم
حافظ ، فيسكت شاعر النيل على ضيق ، ويقول بعض
خطاء البشري إنه كان إذا تعمد غيظ حافظ أسهب في
الحديث عن شوقي ، وبادر بزيارته ليروي لشاعر النيل ما
شاهد هذا في مجلس أمير الشعراء على مبالغة يعرف موقعها
المتبرم من صاحبه ، وفي مقال (المرأة) حديث متهم عن
منظر حافظ ابراهيم يقول فيه البشري «جهم الخلق جهم
الجسم كأنما قُذ من صخرة في فلاة موحشة ، أما ما يدعى
فمه فكأنما شق بعد الخلق شقا ، وأما عيناه فكأنما دُقَّتَا
بمسارين دَقًا ، وأما لون بشرته والعياذ بالله ، فكأنما عهد
بها إلى نقاش مبتديء تشابهت عليه الأصباغ والألوان ،

فداف أصفرها في أخضرها في أبيضها في بنفسجها ، فخرج مزجا من هذا كله لا يرتبط من واحد بسبب ، ولا يتصل بنسب ، وإنك لو نضوت عنه ثيابه ، وألبسته دُرّاعة من دونها سراويل ، وأفرغت عليه من فوقها جبّة ضافية ، وتوجته بعمامة عظيمة متخالفة الطيات ، لخلته من فورك دِهقانا من دهاقين الفرس الأقدمين ! فإذا جردته كله وأطلقت في البر حَسْبته فيلا ، أو أرسلته في البحر ظننته درفيلا ، ولكن اكشف بعد هذا عن نفسه التي يحتويها كل ذلك ، فلا والله ما النور بعد الظلام ، ولا العافية بعد السقام ، ولا الغنى بعد البؤس ، ولا إدراك المنى بعد طول اليأس ، بأشهى إليك ولا أدخل للسُرور عليك من هذا ، حافظ ابراهيم !

حديثان مختلفان

قد كتب البشري مقالا عن حافظ ابراهيم غبّ رحيله في يوليو سنة ١٩٣٢ ، ومقالا آخر عنه بعد ست سنوات في سنة ١٩٣٨ وبقراءة ما كتب أولا وثانيا نجد وجهها للموازنة التي تنفرج عن اختلاف في وجهة النظر ، فالمقال الأول كان تأبيناً حاراً ينضح باللوعة ويفيض بالحسرة حتى ليظن قارئه أن الكاتب يرثي أعز إنسان في الحياة ، لم يأخذ عليه أدنى شائبة في عمر صداقته التي امتدت إلى أكثر من ربع قرن ! والمقال الثاني يتساعل فيه البشري عن حافظ أكان صديقا أم عدوا ، ويذكر من مبررات الصداقة والعداوة معا

ما يجعله شاكًا مترددا لا يحزم برأي في أمر صاحبه ! وقد يكون صوت العاطفة في المقال الأول ذا سيطرة على الكاتب ، لأن فجأة الرحيل جعلته يُغضي عن مواقف صاحبه فلا يذكر منها إلا الجميل ، أما صوت العقل فقد وجد طريقه إلى قلم البشري في مقاله الثاني ، حيث وقف موقف القاضي الذي يرصد الحسنات والسيئات معا ! ونحن نعرف أن كل صديق لا يخلو من هنات وقديما قال الشاعر :

ومن ذا الذي تُرضى سجاياه كلها
كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

نعرف جيدا أن لكل صديق مرتفعات راقية ، ومنحدرات هاوية ، ولكن جانب المسرة أوفى وأشمل بحيث يتضائل بجوار جانب المساءة ! وإلا ما كان صديقا يُشتاق إليه ويُتَحَسَّرُ على فقدّه ، فإذا بدرت بعض البوادر السيئة من صديق فإنها تضيع وتنماع في تيار من الحسنات المتلاحقة ! ولكن المقال الثاني جعل الحسنات معادلة للسيئات ! وكان الكفتين متعادلتان ، ولا أظن أن رجلا تتعادل سيئاته وحسناته يكون صديقا يُضرب بمودته المثل ، ويصرخ عليه صاحبه حتى ليكاد يشق ثيابه في مقاله الأول : يُخيل إليّ أن البشري في مقاله الثاني أراد أن يرسم صورة لامتزاج الأحاسيس ، وتنقل العواطف من النقيض إلى النقيض ، وهذا ما نراه كثيرا على مسرح الحياة ، ثم طُلب إليه أن يتحدث عن صديقه حافظ فتذكر من هفواته القليلة ما حُبب

إليه أن يرسمه في مشهدين مختلفين ! والكاتب في أحوال كثيرة يجري وراء القلم كما أراد ، فليس بسيد للقلم في كل موقف ! بدليل أن الانسان قد يكتب مقالا هياً عناصره في ذهنه ، وأعد أهدافه محددة تامة ، ثم يرى قلمه أثناء الكتابة يخرج عما حدد من عناصر ، ويتجه إلى خواطر لم تكن له في ذهن قبل أن يبدأ الحديث ! هذا ما يحدث كثيرا ، وقد ينكره بعض من يدّعي السيطرة العقلية على يراعه ، ولكنه في رأيي واقع ملموس .

المقال الأول

تَظْهَرُ اللوعة الكاوية فيما كتبه البشري عند رحيل حافظ ، وللموت صدمة تذهل العدو فكيف بالصديق ؟ لقد استشعر البشري أعنف لوااعج الأسى في اعماق فؤاده فانبرى يسكب دموعه على القرطاس حارة لاهبة ، وقد قال الدكتور محمد حسين هيكل في مقدمة المقال بالسياسة الاسبوعية (الحننا على صديقنا البشري أن يكتب كلمة عن حافظ ، وكان بينهما من الصداقة أكثر مما بين أخوين فاعتذر مخافة أن يحول اضطراب نفسه دون أداء غرضه ، ولكننا أصررنا ، فأجاب رجاءنا ، فكان هذا الوله الذي يحسّه القاريء مصوغا في عبارته القوية البليغة) .

بدأ البشري يتساءل عن بُعد حافظ وكيف طاب له المقام دون أصدقائه على ظهر الحياة ، غافلا عما يكابدونه من

شجن ، ومضى يتحدث عن نفسه فيقول (هذه شُعبَةٌ من قلبي قد انخلعت لموتك ، ولعلها دُفنت معك ، وما لها لا تفعل ، وقد كنت بعضي ، وكنت بعضك ، فاعجب لمن جمع بين الموت والحياة ومن تقسّمت هذه الأرض شطريه ، فهذا يدبّ على متنها وهذا مدرج في بطنها ! كيف أصنع في سبع وعشرين سنة هي في مساحة العمر ملاعب الصبا ، وهي بين أشواك الحياة زهر الربى ها أنت ذا تُدعى فلا تجيب ! وقد كنت الطلاع في كل مهمة ، النذب عند كل ملمة ، الشادي كلما تفتّح لأمل هذا البلد زهره ، النائح كلما كرّثه أمره ، وتغيّره دهره ! لقد سافرت قبل أن تتزود لهذا الذي يُدعى بالموت ، وقبل أن أتزود لهذا الذي يُدعى بالحياة بعدك . فهلا جلسنا معا جلسة نتذاكر فيها العيش في تلك الأيام ! أتذكر إذ كان المترفون يقلبون أعطافهم في ألوان المناعم ، وما اصطلاح الناس على أنه من ألوان المناعم ، إذ أنا وأنت لا نغبط أحدا على عيشه ، ولا ننفس على امرئ ما وصله الله به من مال وجاه ، مالنّا نفعل ، ونحن بحمد الله سريّان حق سريّين بما رزقنا كلانا من محبة وصدق ووفاء ! أتندر عليك ماشاء الله أن أتندر لا أرى عليك برماً ولا تعاضما لهذا الذي أصنع بشاعر النيل ، وتتندرنني فلا والله ما أحسست قط نعمة في الدنيا تقوم بإزاء هذا الذي أنا فيه ، فما حاجتنا بعد إلى ما يتكاثر الناس به من جاه أو مال .

لقد كان البشري شاعرا في نثره فهو يندسس إلى خوافي نفسه ليبرز مكنونها في وشى ساحر من البيان ! وهو ينسج

من ذكرياته ثوباً رائع الوشى جيد التصوير ليعرض صفحة رائعة من صفحات الصداقة في كتاب الحياة ! وقد أسعفه محفوظه الشعري فاستشهد بروائع من البيان العربي تنفس عن موجدة ، وتعب عن ذكرى كقول تميم بن نويرة :

وكنا كندمانى جذيمة حقة

من الدهر حتى قيل لن نتصدعا

فلما تفرقنا كأي ومالكا

لطول افتراق لم نبت ليلة معا

والبشري علم من أعلام الاستشهاد الشعري في مقالاته ! وقد قلَّ هذا الاستشهاد فيما نقرأ من مقالات اليوم ، ولا أدري أكان ذلك إفلاسا للذاكرة أو ترفعا عن الانتماء إلى روائع البيان ! مع أن المستشهد لا يذكر إلا أحسن ما يحفظ ، وفي تداول المأثور من القصيد بعث وحث وحية .

المقال الثانى

أما المقال الثانى فقد بدأه البشري متسائلا عن حافظ : « أكان لي أصدق الأصدقاء أم كنت له أعدى الأعداء ، هل كان يحبني أشد الحب ، ويضمر لي أخلص الود أو كان يكرهني أشد الكره ، ولا ينطوي لي إلا على أبلغ المقت ، وأنا لا أدري إذا كنت أحبه أشد الحب أو أكرهه أعنف الكره ! أكان يكبرني ويجلّ موضعي وكنت أكبره وأجل محله ؟ أم كان

يزدريني وأزدرية ويرى أن لا فضل لي وأرى أن لا خير فيه» .
ويستطرد في مثل هذا المعنى استطرادا يوقع القاريء في
حيرة ! لأن مودة الرجلين لم تكن موضع خلاف بينهما !
ولكن البشري يريد أن يعرض صفتين متقابلتين من
صفحات حافظ ، حين كان يعابثه ببعض المحرجات التي
تتأزم فيها الأمور ولا تكاد تلتئم ، وحين كان حافظ يفعل ذلك
أيضا معه ! وهذا شيء طبيعي بين أديبين ساخرين رُزقا
موهبة التندر ، ورضيا حياة اللهو والاستطراف ! وعلماء
النفس يؤكدون أنه لا يوجد في الدنيا حبٌّ خالص أو بغض
خالص ، فإولى المحبين يستشعر في أعماقه بعض
المؤاخذات ولكن طوفان حبه يغمرها بتسامحه ، وأبغض
المبغضين قد يخلو إلى نفسه فيدرك بعض مزايا خصمه
ولكن لَدَدَ الخصومة يستر هذه المزايا بنقاب كثيف ! وقديما
قال القائل :

وأحب إذا أحببت حبا مقاربا
فإنك لا تدري متى أنت نازع

فروح السخرية والاستطراف هي التي توجد بعض
الحرص بين الصديقين ، بل هي التي تبعث على البحث عن
هذا الحرج إذا بعدت أسبابه ، وهذا ما كان ينبغي أن يذكره
البشري كيلا يغم عليه الموقف فيتساعل أهما صديقان أم
هما لدودان ؟!

يقول البشري حين يعرض صفحة حافظ السيئة « لا أذكر أنه ضمّني به مجلسٌ قطع بعض من نتحشّم ونعلي قدره إلا تحدث لهذا الجالس عن مداخلٍ وبين له أكره مكارهي ، فإذا أعوزته المكاره خلقها خلقا ، وارتنجها ارتجالا ، وقد يوغل في الكيد فيشرك نفسه فيما يرميني به من ألوان التهم ، ولو صحّت لأفضت بنا معا إلى محكمة الجنايات ! وقد يتوافق رأيي معه في رجل فنذكره بما نحسب فيه من شدة البخل أو الكذب أو الزهو وعرض الدعوى أو غير ذلك مما يكره الناس ، فيلقاه في سرّمني ويقول له إنني أرميه بكذا وكذا من الصفات ، وتعال فاسمع بأذنك ، ويؤاريه في غرفة مجاورة أو يدسّه تحت سرير أو خلف ستار ، ثم يقبل عليّ فيستدرجني إلى حديثه وما عسى أن أقوله فيه فإذا بلغ ما أراد سلّ صاحبنا من مكمّنه فطلع عليّ غاضبا مهتاجا !

لقد كان يعلم مني كراحتي لركوب السيارات ، فيستدرجني إلى نزهة يزعم أن سائق سيارتها بطيء متزن ، وما أركب حتى يغريه بالسرعة المفرطة فيمرق في سرعة الكوكب الهاوي أو البرق الخاطف ما يبالي زحمة الطريق ، ولا يطمئن منه أن يرقى قلعة أو يمشي على حافة نهر حتى امتلي غيظا !

هذا بعض ما ذكره من سيئاته ، أما ما ذكره من دلائل مودته فمن حديثه أن حافظا لا يكاد يصبر على فراقه فهو لا يستطيب طعاما شهيا إلا كانت يده مع يده ، ولا يطيب

لكليهما نزهة إذا افترقا ، ولا يتم أنس بمجلس سمر إلا إذا
اجتمعا ، لا يحقن أحدهما عن الآخر سراً ، ولا يكتمه من
مداخل صدره أمراً إلى ما يدور حول ذلك من معان ، ثم
يعترف أنه ما كان يجزي حافظاً في المساءة إلا شراً بشراً
وغيظاً بغيظ ، ومع ذلك لا يدري أهو يحبه أشد الحب أم
يبغضه أشد الغضب !

على أن الاستاذ عبد العزيز البشري في سؤاله عن حقيقة
صاحبه كمالك الحزين يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه ،
فإنني أذكر أنه كتب بالجزء الأول من المختار مقالاً تحت
عنوان «عدو حميم أم ولي صميم» ، ذكر فيه عن بعض
معارفه كتاباً وجهه إليه متسائلاً عن صديق يسلك مسلك
حافظ معه ! وكدت أميل إلى أن البشري يذكر أحواله عن
حافظ متستراً في افتعال كتاب جاء إليه ! لولا أن بعض
صفات هذا صاحب لا تنطبق على حافظ ! وبعد أن أسهب
البشري في عرض المفارقات الغريبة ممن لا يدري أهو ولي
حميم أو عدو خصيم شفع ذلك برد موجز يقول فيه : «يُخِيلُ
إِلَيَّ أَنْ صَاحِبَكَ لَيْسَ بِالرَّجُلِ الْمَقْطُورِ عَلَى الشَّرِّ ، وَلَا بِالَّذِي
يَبْتَغِي لَكَ الْأَذَى وَلَكِنْ تَشْتَدُّ شَهْوَتُهُ إِلَى مَدَاعِبَتِكَ
وَالشَّهَوَاتِ فَتَوْنُ ، وَإِنِّي لَأَقْطَعُ بِأَنَّهُ يَحُبُّكَ وَيُؤْثِرُكَ .

فإذا كان البشري يقطع بثبوت الحب في أمر سائله ،
فلماذا يتردد فيما بينه وبين حافظ ! والموقفان متماثلان .

مقال ثالث

كل ما ألعنا إليه من حديث البشري يتجه إلى حافظ الإنسان والصدیق ، ولا یمسُ حافظا الأديب الشاعر في شيء ! وقد قرأت في العدد الخاص بحافظ من مجلة أبولو مقالا للبشري عن حافظ الأديب ، ذكر فيه أن حافظا قد رُزق إلى قوة الطبع وإدراك الملكة خِلالا ثلاثا لا تستوي لكثير هي سلامة الذوق ، ورهافة الحس والثانية قوة الحافظة والثالثة نطاقة اللسان ، ومضى يستدل على كل صفة بما يعلم مؤكدا أن حافظا يبهره حسن الصياغة ، ويأخذه جمال التعبير فما يسقط في قراءته في فنون الشعر والنثر على لفظ شريف أو صيغة ناصحة مشرقة ، إلا تهافتت نفسه عليها ، أما قوة حافظته فقد يستشهد عليها بخوارق مما شاهد وعاین ، وفي حديثه عن نطاقة اللسان ذكر أنه كان يُؤلف ويألف إذ يطلب مجلسه المتأدبون متعلمين ، كما كان عظيم التفقد لمجالس الأسمار ، كثير الاطلاع عليها فلا تراه إلا جياشاً بلسانه في المجلس يتنقل في خفة وظرف بين جد القول وهزله ، وهو في أثناء هذا وهذا ينبوع يفيض بالأدب فيضا ، ويأبى إلا أن يدفع في حديثه بأحلى ما وقع له من روائع الصيغ .

على أنني أعجب للبشري كيف قصر مقاله في عدد أبولو على أدب حافظ وحده ، ثم لم يفسح المجال إلى تحليل بعض شعره ، والاستشهاد بروائع يؤثرها ! لقد تحدث البشري

عن شوقي في أكثر من مجال فأتسع نطاق القول أمامه لتحليل فنونه الشعرية من وصف وحكمة وغزل ورثاء وسياسة ، وقد قال حافظ في أكثر ما قال شوقي من أغراض ، فلماذا لم يخصصه في مجال الحديث عن أدبه بتحليل علمي كاشف ! أيجوز أن يتحدث أديب عن أدب حافظ ، وقوة لفظه ، وحرصه على التعبير الرصين ثم لا يستشهد ببيت واحد في مقاله ! قد يكون من حق الإنصاف الأدبي على البشري أن يؤثر شوقياً عليه وأن يعتده أمير الشعر غير مدافع ! ولكن أليس من حق حافظ أن يستشهد صديقه ببعض ما قال ليُقدم الدليل على صحة ما يتجه إليه من أحكام ! على أن البشري حين جمع المختار في جزئين قد أغفل حديثه الأدبي عن حافظ فلم يجمع في مختاره مقالة أبولو ! أفيكون غير راض عنها ؟ ونفترض جدلاً أنها لم تحز قبوله فلم لم يُعد الكرة في بحث ممتد ليؤدي حق الصديق !

لقد كان حافظ والبشري معلمين من معالم الأنس والسم في هذا العصر ، وقد سبق حافظ صاحبه فأتاح له أن يبسط حديث الذكريات في أكثر من مقال ، وأتاح لنا أن نراجع ما قال لنذكر القراء بنابعين عظيمين كان لهما دورهما البارز في ميدان الأدب الحديث .

شهرزاد في الأدب المعاصر

لشهرزاد شهرة مستفيضة بين الناس ، فقد كانت المرأة الجريئة التي تقدّمت لإنقاذ المئات من بنات جنسها ، وهي لا تتأكد من عاقبة أمرها طاغية جبار ، صمم على أن يسفك كل ليلة دم فتاة بريئة ، لا ذنب لها إلا أنها وقعت تحت يده .

لم تكن شهرزاد في صورتها الأولى فتاة كسائر الفتيات من زميلاتهما ، ولكن صورتها في كتاب ألف ليلة وليلة صورة المرأة المثقفة الممتازة التي وعت أحداث العصر ، وقرأت صحائف التاريخ ودرست أجناس البشر ، وطوائف المجتمع ، فهي تطوف بشهريار في كل ليلة طوافا سحريا ، إذ تحدثه بأسلوبها الفاتن عن شتى ممالك الكون ، تمضي معه إلى الشام والعراق والصين والهند ، وتقطع معه الفيافي والجبال تارة ، ويستريحان معا في الحدائق والقصور وعلى شطوط الأنهار تارة أخرى ، وهي بعد ابنة وزير خطير ذي شأن في الدولة قام على تربيتها الأصبيلة قيام الوالد المثقف المستنير ، فملا عقلها نورا ، وأرھف إحساسها رقة ، ودفعها إلى المثل الأعلى ، حتى صممت على الاستشهاد في سبيله ، وشاء الحظ لها أن تملك عصا ساحرة تستطيع بها أن تقتل الوحش الضاري في نفس شهريار وأن تجعله إنسانا يشفق ويحب ، ويعرف تقلبات الأيام ، ورجفات السنين ، وكانت ذات خيال بارع جعلها تطيل

القصص في عذوبة واستهواء ، ليظل سامعها مبهورا بما تحكيه ، عن شتى طوائف الناس ، ومختلف البلاد والربوع ، حتى إذا أسلم لها قيادهُ صارت شريكة حكمه ، وأم أولاده ، وصاحبة الجلالة الملكية في قصره .

إنها لصورة رائعة للمرأة المثالية صاحبة المطمح البعيد ، والعقل الثاقب ، والإحساس الشفيف ، وقد فتنت صورتها الناس في مختلف الأزمان ، وصار لها في أدبنا المعاصر ذكر سيار ، إذ وقف كبار الأدباء أمام سيرتها ، ليصنعوا لها صورة تأخذ بألباب المعاصرين ، كما فتنت الغابرين ، ونطيل القول لو راعينا ناحية الاستقصاء ، ولكننا نسلك سبيل الإشارة والتلويح .

مع العقاد

لم يؤلف الأستاذ عباس محمود العقاد رواية عن شهرزاد ولكنها كانت عروسا في بعض قصائده إذ كان أول من التفت إليها من أدباء العصر ، وقد تأمل سيرتها ليصفها كما كانت لا ليجعلها فتاة أخرى ترمز إلى طبيعة خاصة ، فشهريار عند العقاد هُوَ هُوَ في صحف الأولين طاغية حقود يضمن الشر لكل امرأة مُذ وجد امرأة تخونه ، وتستهين بمكانة الزوجة الملكة ذات الصيت البعيد ، والجاه المؤثر ، فحق عليه أن ينتقم من بنات جنسها جميعهن ، وهو انتقام جبار باطش يدل على استخفاف بكل أنثى على وجه الأرض ،

ولم يفكر شهريار في أن بين هؤلاء اللاتي يبغضهن أمّة وأخته وعمته وخالته ، فلو صدقت نظرته في النساء جميعا ، لكان هو نفسه زنيما من سفاح ! إن حقه على الزوجة الخائنة جعله يسلط المنجل على كل زهرة ناضرة ، بعد أن يشم عبيرها وينهل رحيقها ! وكان في حاجة إلى من يرجع له عقله الذاهب ، وقد عجز الرجال جميعا أن يُغيروا من نظرته السوداء حتى عرفت طبّ دائه شهرزاد ، فألأنته بالمقال ، وحدثته عن محن الدنيا ، ومآسي الناس ، فلم يرَ نفسه وحيدا في مصابه ، وجنح إلى التوبة والغفران، يقول العقاد عن شهريار :

أضمر الشر للنساء حقودا
وابن الحقد أن يكون رشيدا
حقرت عهده فتاة فآلى
لا يصونن للنساء عهودا
فله طلعة بها أجل الغيد
رهين يستنجز الموعودا
زهرات يشمها ثم يمري
شبها السيف غصنها الأملودا
انفأ أن يمض غير شبها السيف
نحوها يلهو بها وقودا
عرفت طبّ دائه شهرزاد
فدعته وهو الشقي سعيدا

كان فظا فواده مغلق النفس
كظيما لا يستلان عيدا
فالانتبه بالمقال فأصغى
ومن القول ما يلين الحديدا
وأرتبه أحاطي الناس من قبل
نحوسا مقسومة وسعودا
فرأى قلبه وكان فريدا
لم يغذ في القلوب قلبا فريدا

توفيق الحكيم

آلف توفيق الحكيم قصة شهرزاد بعد أن أحدثت قصته
عن أهل الكهف دويا رنانا ، وقد اشتهر حينئذ بين القراء
بعداوة المرأة ، وراق له أن تتأكد هذه العداوة ، فهو لم
يتزوج بعد ، ولم يتذوق إذ ذاك حنان الأسرة ، وشفقة
الوالد ، وكان عليه أن يرى ذلك بخياله ، فهو فنان أديب
متعمق ، ولكن الولوع بالتحليل النفسي ، والتجريد
الذهني ، وإدارة المعارك العقلية في تعاطي الحوار ، قد
دفعه إلى أن يجعل من شهرزاد امرأة غير التي يعرفها
القراء ! وإذا كانت صاحبة ألف ليلة وليلة طاهرة عفيفة
ذات أولاد ومنزل ، وذات حرص على الكرامة الإنسانية فإن
صاحبة توفيق الحكيم لم تكن الصورة المشرفة للمرأة ، فقد
جعلها المؤلف تهوى عبدا أسود قبيح الصورة قوي

العضلات ، وتتغفل الحراس كل ليلة لتذهب إليه حاملة عارها ! و شاء المؤلف أن يكون قمر الدين وزير شهربار مغرما بشهرزاد ، وأن تعرف عنه الملكة هذا الغرام فتشجعه عليه ، والرجل عذريّ مثالي يهوى العفة والشرف ويحرص على كرامته الإنسانية ، وهو يؤثر أن يتحرق شوقا كل ساعة ، إذ بلغ به الشوق أعنف ما يبلغ ، ثم لا يبدي غير الأدب المحتشم ، وتناقشه شهرزاد في مسلكه كالمتهكمة ولكنه يحرص على شرفه ، وتدركه الرقة في مجلسها فيرتبك ويرتعش ، ثم تكون نهايته أن يقتل نفسه منتحرا حين يتأكد أن شهرزاد تُدنس نفسها مع العبد الأسود ! وإن كانت نهاية الوزير التي اختارها توفيق الحكيم غريبة في بابها ، فإن نهاية شهربار أغرب وأعجب ، فقد وقف على خيانة زوجته ، وشاهد موقفها الدنيء من العبد ، فلم يفعل شيئا !! لم يقتل العبد ، ولم يغضب على شهرزاد ! لقد صارت القصة شيئا آخر لدى توفيق الحكيم ! وما أظن طبائع الأشياء تبعث رجلا عاديا على السكوت عن هذه الزلة ! فما ظنك بشهربار الذي فقد ثقته في التجربة الأولى فثار ، وأخذ يقتل امرأة كل ليلة ، حتى جاءت شهرزاد فأنحرفت به إلى المجرى الطبيعي في الكفّ عن الطيش والبطش ورفعته إلى مستوى المسؤولية الأخلاقية ! أترُل هي أمام عينيه وهي أستاذته ومرشدته ثم يقابل الزلة بالامتناع عن أي إجراء حتى مع العبد !!

لقد دارت مناقشات كثيرة حول النهاية التي اختارها الحكيم لأبطاله ، ونَقَدَ الناقدون فأطالوا ، وذهب المؤولون إلى أن القصة رمزية ، وأن الحكيم يشير إلى طبيعة الحياة التي لا تتعفف عن السقوط ، وإذا كانت الحياة طافحة بالشُرور ، فلا عيب على الحكيم إذ صَوَّرَ مظاهر الشر في قصة بطلتها شهرزاد ، ونحن لا ننكر أن الحياة لا تتعفف عن السقوط ، وأنها حافلة بالشُرور ، ولكننا نؤثر أن يختار المؤلف لتمثيل هذه الشرور إنساناً عُرف بالسقوط والانحدار فيكون تصوير الرذيلة مناسباً لما اشتهر عنه ، وهنا يكون المؤلف قد عبَّرَ عن الحياة أصدق تعبير ، ولكن الذي نعترض عليه أن تُلصَقَ الشرور بإنسان مثالي - واقعي أو سجلته الأسطورة - فنعكس صورته المثالية إلى غير ما هو مرسوم عنها في الأذهان ! وهذا ما تعمده الحكيم حين اختار ملكة مهذبة عاقلة مثقفة فدائية لجعلها خائنة ساقطة ترتمي كل ليلة في أحضان عبد .

طه حسين

اهتم طه حسين بشهرزاد ، وقرأ قصة توفيق عنها ، فأدرك أن الملكة الطاهرة ناقمة على ماكان من المؤلف حين انحدر بها إلى هذا المستنقع الوبيء ، فألف مع الأستاذ توفيق الحكيم قصة (القصر المسحور) ليعرض القضية في حوار تمثيلي تحضره شهرزاد ، وتشترك فيه ، فتبدي

استيائها الناظم لما صارت إليه ، ويشرح توفيق وجهة نظره في محكمة الزمن ، ثم يصدر الحكم النهائي بأن من حق الأديب أن يُبدع أشخاصه كما يُريد لا كما يريد الناس ، ومن حق الأديب أن يتلقى أشخاصه كما يريد لهم فنه ، إنما مهمته الأولى أن يعمل على ترقية فنه وتجديده واصطناع الأناة والدقة والإتقان في التصوير والتعبير ، وقَبْلَ المتهم - توفيق الحكيم - ما أعلنته المحكمة فعَقَّبَ على الحكم بأنه سيسعى ويطيل السعي لا ليبلغ الكمال ، بل ليدنو منه .

هذا الحكم الذي انتهت إليه قصة القصر المسحور ، لم يصادف ارتياح نفر من الناقدين ، فقد هالهم أن يقرر الدكتور طه أن الأديب حر في أن يجعل الصالح طالحا والظاهر دنسا ، وأن السعي إلى الكمال الفني يسهل على كل من شاء أن ينفذ منه إلى الخروج عن قواعد الأدب الصحيح ، هالهم أن يقرر الدكتور طه حسين ذلك فانبهرى الأستاذ محمد فريد أبو حديد ليرد على ذلك في مقال طويل قال فيه : (ولكننا لا نستطيع أن نقبل نظرية طه حسين في أن يسلبنا حق مؤاخذه الأديب ، ويجردنا من كل سلطان عليه ، بحجة أنه يقصد إلى الكمال ، فليقصد الأديب إلى الكمال الفني ، وليحتفظ بكل حرية في تفكيره وأسلوبه ، ولكننا نحن القراء ، لسنا حجارة أو حديد ، بل نحن جمهور الإنسانية ، لنا ما نعتر به من مُثُلٍ عليا ، وما نحيا من أجله من معانٍ في الحياة ، ولنا حق في الحرية لا يقل عن

أن نجهر بالإعجاب إذا أعجبنا ، وما صوت الزمان إلا صوتنا إذا تجردنا من الغايات السخيفة في أحكامنا على الأدباء .

وقد ظل الدكتور طه حسين متعلقا بشهرزاد ، حتى قامت الحرب العالمية الثانية وفاجأت الناس بأهوالها المدمرة ، وفضائعتها الصاعقة ، فكتب الأديب الكبير قصة (أحلام شهرزاد) لتكون متنفسا لأفكاره الناقمة على جبابرة الحروب وشرططين الطغيان من أعداء الانسانية ، لم يعتمد المؤلف إلى هدفه عمدا مباشرا ، وإنما كان التسلسل المشوق في قصصه السهل العذب يشف عن أرائه في تدفق وسطوع وعذوبة نغم ، وأسلوب الدكتور طه حسين في كتاب الأيام وفي كتاب على هامش السيرة هو أسلوبه في أحلام شهرزاد ، وقد ركب جناح الخيال فوصف ملك الجن ، صور ما يجري في دولته من أحداث ، وما يصطرع في ملئه من صراع ، ووصل إلى هدفه حين قرر أن الحرب الدائرة في هذا العالم لا تعني الرعاية في شيء وإنما هي شهوة جامحة دفعت بالحكام والرؤساء إلى الكيد والبطش ، وما ينبغي أن يغامر الملوك والرؤساء مغامرة تعصف بأمن الناس ، على من يغامر من هؤلاء وأولئك أن يُغامر بنفسه لا أن يشن حروبا طاحنة يكون وقودها الأبرياء ! ومن الواجب أن يلقي من يشعلون الحروب جزاءهم الرادع ، وأن يعترفوا بأن النزوات الشخصية هي الدافعة إلى هذا الدمار ، وليس للإنسانية

نفعَ فيما يتأجج من لهيب ، أما صورة شهرزاد لدى طه حسين فهي الملكة الهادية الرشيدة ، ذات العفة والترف ، وهي صاحبة العقل المشرق والنظر البعيد ! لقد وضع الدكتور صورة معارضة لصورة الحكيم ، وكأنه بعد أن أصدر حكمه في قصة (القصر المسحور) شاء أن يُنصف شهرزاد ، حين تأخذ مكانها اللائق في فنه الطريف .

وقد تعتمد الدكتور أن يقتبس بعض عبارات الحكيم في شهرزاد ، وكان ذلك مدعاة تحليل نقدي لدى بعض الكاتبين فذهب فريق إلى اتهام الدكتور بالسرقه ، ورأى فريق آخر أن الدكتور كان يجامل توفيق الحكيم حين اختار فقرات من قوله الذائع ، فهو بذلك يعترف بسبقه ، ويُريه كيف خطا بشهرزاد خطوة جديدة تضعها موضعها الكريم .

عزيز أباطة

اشترك الأستاذ عزيز أباطة مع الأستاذ عبدالله البشير في تأليف مسرحية عن شهرزاد ، فكتب الأستاذ البشير المسرحية بالشعر الانجليزي وتقدم بها إلى عزيز أباطة ليجعلها مسرحية شعرية تأخذ مكانها في الأدب العربي ، وروح عزيز أباطة الشعرية تتجلى في كل بيت من سطورها ، وقد قال في المقدمة إنه انتهج في عرضها نهجاً رمزياً واقعياً ، فشخصها ترتدي أثواباً مألوفة ، وتحدث بأنماط من الحديث ليست غريبة عن وضعنا المعاصر حتى أصبح في

ميسور القاريء أو المشاهد أن يُطلق أسماء معاصرة على أسماء الرواية ، وتتجلى في المسرحية صراعات الإنسان في عراكه الأبدي على وجه الحياة ، ولشهريار في المسرحية صورتان ، تصور الأولى بطشه ونقمته وطغيانه ، وتصور الثانية تدرجه في سبيل الصلاح خطوة خطوة ليصعد إلى مدارج الرقي في سلم التجارب الإنسانية ، حتى يكف عن بطشه ويركن إلى الإيمان الصادق معتزلاً جاء الحكم ، ولأنذا بالزهد العازف ! هذا التطور من وضع بالغ السوء إلى وضع بالغ التوبة والندم ، كانت شهرزاد الذكية المخلصة الصابرة الطاهرة صاحبة الفضل فيه ، وقد لقيت أقصى مظاهر التهديد ، وأنذرتُ بشر العواقب ، وترصدتها دسائس الحقدة ، ومكايد الأعداء فما رجعت عن خطتها التي رسمتها لتنقذ الوطن بمن فيه ومافيه من كيد شهريار ، وقد عبّرت عن خطتها النبيلة حين قالت لأختها دُنْيا زاد :

أختاه قد جئت لأجلو له

في ليله الحالك قصد السبيل
حسبي إذا أحسنت تذليله

أن يظفر الملك بملك نبيل
وتتقي الأمة تقتيله

أبكارها في حقد طاغ صول

ويهول والدها نور الدين وزير الملك ماهي مقدمة عليه
من خطر محقق ، فيتوسل إليها أن ترجع عن خطتها التي لن

تنتهي بغير هلاكها السريع ، ويحاورها باذلا قصارى جهده
كي تُبصر الحقائق ، ولا تتعلق بالوهم ، فشهر يار طاغية
جبار لا سبيل إلى إصلاحه ولكن شهرزاد تصمم على
رسالتها ، وتؤمن بأنها ستنجح حين تنقذ الملك من شروره
وتقف دون إراقة الدماء ، تقول شهرزاد لأبيها :

إن أشياء في سويداء نفسي
مُرهِصات بياسقات الأمور
منبئات بأن للملك برءا
في وشيك من الزمان قصير
إن حربا شعواء بين زحوف
الخير والشر والهدى والفجور
تتلظى في نفسه وكأنني
أبصر النصر كالصباح المنير

وتستطيع المرأة الذكية ذات الإرادة الجبارة أن تبلغ
مرماها بما تسرده من قصص تدعو إلى الاخوة والرحمة
والمساواة ، وتجنبه الرياء والنفاق وممالة الطغاة حتى
تجعل شهر يار يقول لشهرزاد :

خُذي بيدي يا شهرزاد وحطمي
كُنُوي فإني كالأسير أسير
مللت حياتي إنها كف أبق
مُعنى ، وقبر . لو علمت . كبير

ويتم النجاح فيغدو الشيطان ملاكا !

كتاب آخرون

ويطول بنا الحديث لو تتبعنا شهرزاد في أدبنا المعاصر فقد خَصَّها الأستاذ علي أحمد باكثير بقصة ممتازة تعبر عن واقع العصر أصدق تعبير ، كما سَلَّسَ الأستاذ طاهر أبو فاشا حلقات إذاعية في سنوات عدة تصور مشكلات مصر والعالم العربي على لسان شهرزاد ، ولو جُمِعت هذه الحلقات لاستطاع النقاد أن يحفظوا لها مكانها الفني ، ولا يزال الأستاذ أحمد بهجت يبدع صورة جديدة في حلقات تليفزيونية شاهدنا بعضها في ليالي رمضان ! كما علمت أن الأستاذ أحمد سويلم أصدر ملحمة عنها ، وكل هذه الأعمال تحتاج إلى دراسة نقدية متأنية تظهر فيها شهرزاد في مواقفها المختلفة كما شاء لها خيال القصّاص ، وفن الأديب .

حسين شفيق المصري

هو أستاذ لا تلميذ له ، إذ كان أستاذ الشعر المطعم (الحلمنتيشي) ملأ الدنيا به فكاهة وطربا ومرحا ، وساعد على رواج الشعر الفصيح في ملأ لا يرقى إلى أوجه ، بما قرّبه من أسلوب سهل يدخل اللفظ العامي مع اللفظ العربي في نظم مطرد فيشجع غير المتعلم على قراءة التراث الشعري ، ويحس في نفسه من السمو ما يدفعه إلى تصفح دواوين الكبار من المشهورين ، كان الأستاذ يملأ الدنيا بأغاريده المطربة ثم ودّع الحياة فسكت الطائر ، وأقفر الدوح ، وسطا الخريف ، ولم يوجد بعده من يحمل الراية من المريدين ويسير على الدرب :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكانها وكأنهم أحلام

كلمة الرافعي

لأنجد وصفا أدق من قول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في الحديث عن حسين شفيق المصري إذ كان يصدر مجلة (الناس) حاملة نوادر الفكاهة ، وروائع المطربات من نكات مرحة ، ونقدات ساخرة ، في مقامات أدبية ، وقصائد

شعرية ، ومواويل زجلية ، قال فقيده البيان العربي
الأستاذ مصطفى صادق الرافعي :

«الأستاذ حسين شفيق المصري الذي يمتع الأمة بهذه
الصحيفة (جريدة الناس) ماجن ظريف ، لو تقدم به الزمن
لتهاداه الملوك والأمراء ، فقام على بساط منشدا ، وجلس
على آخر نديما ، وتقلب على ثالث مضحكا ، وعربد على
رابع ، وجلد على خامس ، ولعل الله أخره إلى دهرنا رحمة
به أن يأمر أحد الملوك فيملئوا فمه دُرّاً بعد أن يفرغ من
انشاده المعجب المطرب ، ويشره هو إلى الثروة والغنى
فيفتح فمه إلى أقصى الحلق ، فتدخل اللآليء وتخرج
الحياة .

إن البلاغة الظرفية الماضية التي بعضها من وخر
الإبر ، وبعضها من سياسة الظهر والعصا ، قلما
تستجيب ! إلا للعقول المبتكرة ، التي خلقت متسلطة على
النفوس من أقرب جهاتها ، وهذه العقول لا تُسرف القوة
الأزلية في خلقها ، بل ترحم الناس بها ، فتجعلها نادرة لتجد
منها أهنا الضحك الذي ينفجر من القلب ، ولكنه إن طال
انفجر القلب» .

لقد رزق حسين شفيق المصري هذه البلاغة الظرفية ،
لأنه مع موهبته النادرة قد أعان ذوقه الأدبي بالتنقيف
الواسع والإطلاع الدائب ، فارتفع إلى مستواه بجهد جاهد
قد يخفي على غير المتأمل المتعمق ، فيظن أن الرجل يتكل على

خفة روحه ، وعذوبة نفسه فحسب ، ولكنه يُغفل شيئاً هاماً ، هو أن هذا الرجل الفكه صاحب الروح الخفيفة ، قد أرق روحه الليالي الطويلة باحثاً منقبا يستظهر روائع الشعر ، ويقرأ أمهات الكتب ، ويدرس تاريخ الظرفاء والثقلاء حتى أصبح شيئاً ذا بال ، ويجد المتتبع .. لهؤلاء السآخرين الكبار ، أنهم يريقون مواهبهم في مجالس السمر ليمتعوا الناس بخفة أواحمهم ، ثم يرجعون إلى منازلهم ، وليس لديهم من الجهد ما يبعثهم على القول المتند ، والفكر الجاد ، لذلك يقل إنتاجهم بالنسبة إلى من يذخرون كل طاقتهم إلى الجدّ وحده ، لذلك تجد آثار حافظ إبراهيم وعبد العزيز البشري وحسين شفيق المصري قليلة بالنسبة إلى طاقاتهم الأدبية ، لأن المجالس قد استهلكت أكثر جهودهم ، وقد كنّا في حاجة إلى عدة أجزاء من كتاب (في المرأة) للبشري مثلاً ، وهو على الإبداع قدير ، ولكن مجالس السمر ، ورحلات الأنس ، وسهرات المنادمة قد طوت الكثير .

أقول ذلك لأقرر إن ثقافة حسين شفيق المصري كانت ذات سعة وشمول ، ولم تكن كما يتوهم بعض القراء ثقافة مجلات هزلية ومطارحات إخوانية ، بدليل لا يقبل الشك هو ما تركه المصري من شعر رائع رصين ، إذ كان من شعراء الفصحى يزاحم في المحافل الأدبية شوقي وحافظ ومطران ، وينشد من القصائد ما يقف جوار روائع ذوي الصدارة الأدبية ، فقد أقيم موسم الشعر في سنة ١٩٣٥ ليجمع أكبر

شعراء مصر في هذا الزمن ، وكان المصري يأخذ مكانه
المستريح المطمئن في صفوة شعراء الموسم ، وقد ألقى
قصيدة في بكاء الشباب ، كانت أسرع إلى القلوب وأعلق
بالأذهان من سواها ، لأن حسين شفيق المصري خدع
السامعين بسهولة العذبة ، على حين ضمنها من صادق
اللوعة ، وحرارة الانفعال ما أسرع بها إلى مكان الأهواء
من طيات النفوس ! لقد أبدع المصري حين قال وكأنه يرثي
صباه :

تذكر بعد أن شاب الشباب
وَأَنَّ ، وقد دعاه فما أجابا
وعاوده هـواه ، فكاد لولا
وقار الشيب يوسع عتابا
ومن ظن الشباب صبيغ شعر
فإن الصقر قد أمسى غرابا
ومن يكتم حساب سنيه يوما
فصفحة وجهه تبدي الحسابا
ففي ثياب الأهواء نفسي
خرجت من الحياة فلا مآبا
بقاء الشيخ في الدنيا فناء
ولو ملك النواصي والرقابا
إذا تمتعت نفسي قيل شيخ
يضلّ ومزقوا جلدي سبابا

وإن دافعتها غزلوا شكوكا
تُحالك والبسونيها ثيابا
وقالوا لم يتب ورعا وزهدا
ولكن لم ينل أربا فتبابا
فمن ظن المهابة في انزوائي
فليس السجن إلا أن أهابا
تخذت بياض رأسي لي حدادا
على عمر الشباب ، فوا شبابا !

هذه الزفرة الحارة لها مثيلات في آثار المصري ، كلها
تبكي الشباب بأحر الدموع ، والحق أن صاحبنا قد أسرف
على نفسه في شبابه فكان يعاقر الراح مصبحا ممسبا ،
فأسرعت بقواه إلى الضعف ، وتطلب بعد الخمسين ما
يجب فعز عليه أن تتوارثه الأدوية ، وحين ضعف جسمه لم
تضعف رغبته فظلت أحاسيسه متوهجة تطلب الارتواء
دون قدرة عليه ، وجعل ندماءه يعيرونه ، وأخذ يهون على
نفسه بمداراتهم فيعلن زهده العازف ، ولكن شيطانه
يغلبه ، فيصور ما يحتدم في نفسه من صراع ، ويعلن
صراحة في غير موارد أنه يزهد مضطرا ، كما يمتنع الغراب
عن الكرم خيفة الحراس ، وأن الشيخ من أمثاله يتحمل
سخر الغانيات به صابرا ، ويقدم ماله دون أن يجد
استجابة ، فيعتزل الذات في ثوب راهب وينهض للمحراب
مصليا ، وفي نفسه أن يدعو ربه عند السجود كي يسهل له

حق الأديب في حريته ، فلنا أن نُعلن إنكارنا إذا أنكرنا ولنا
طريق الصبوة فلا هو دين ولا هو بعازف ! تلك انطباعات
أمنية سجلها الشاعر صادقا حين قال :

أرى الشيخ من بعد الغواية زاهدا
كما خاف حراس الكروم غراب
تشوب له الغادات بالسخر وذهبا
ويسخو على جلاسه ويعباب
ويعتزل اللذات في ثوب راهب
ومن تحته للمخزيات ثياب
فينهض للمحارب يسأل ربه
ثوابا ، وما للمفسدين ثواب
وفي نفسه عند السجود لو أنه
يتاح له في الموبقات وثاب
وقد يتمنى لو يغيب وبينه
وبين فنون المغريات جذاب
فلا هو للدينا ، ولا هو دين
وقد مات ، لولا جينة وذهاب
ألم ترني أبصرت بعد غوايتي
وما زال مغشيا على حجاب
كشأن رفاق عاصروني مع الصبا
فشبت على دين المجون وشابوا

الشعر الحلمنتيشى

لم يكن هذا الضرب من الفن الأدبي كل نصيب المصري من الإبداع ، فقد ابتكر في دنيا النثر فنونا كثيرة ، منها (دائرة المعارف الوفدية) في الكشكول ، وكان زعيم مصر سعد زغلول حريصا على تتبعها ، وقد استدعى صاحبها وناقشه في بعض مضمونها ، مع أنها كانت تخاصم الوفد ، ولكن زعيم مصر كان يقدر الفن الأدبي ، ويحرص على مودة رجاله ، كما أن شخصية الشاويش (شعلان عبدالموجود) التي ابتكرها حسين شفيق قد صوّرت شريحة من المجتمع تصويرًا يجسّم الأخطاء ليتداركها رجال الأمن في مرفق من أقوى مرافق الحياة ، وهي لا تقل عن شخصية (البربري) التي شغل بها علي الكسار جمهوره حينما من الدهر ، وقد تنوعت فنون الشعر المطعم لدى حسين شفيق فشملت السياسة والدين واللغة والاقتصاد ، ونكتفي اليوم بأن نمثل لجانب واحد من هذه الفنون المتنوعة وهو الناحية الاجتماعية إذ كانت عين الشاعر يقظة حريصة على أن تجسّم العيوب الاجتماعية في نمط فكاهي هادف ، وقد سارت أشعاره في الشعب سيرورة ذائعة لأن جميع الطبقات على اختلاف مداركها قد هامت بها ، ورأت فيها تعبيرًا صادقًا عما تكن الصدور ، وتضمّر النفوس ، فليدرك مثلاً المغلاة في أجور الأطباء وأسعار الدواء ، حين تفاقمت الأزمة الاقتصادية في عهد اسماعيل

صدقي ، وأصبح المصري لا يدري أيعتصر المال اعتصاراً
لينفقه على رغيـف العيش أم يستدين ليملاً خزائن الأطباء ،
وهي مأساة أحسها الشاعر شخصياً لأن الشراب قد أنلف
معدته وأصبح يتردد على الطبيب أسبوعياً ، وليس معه
ما يفي بحاجة العيش والطب معا ! فتذكر قصيدة أبي
فراس الحمداني أراك عصي الدمع شيمتك الصبر ، وأخذ
ينسج على منوالها فقال :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر
أما للهوى نهى عليك ولا أمر
نعم أنا بزدان وعندي كحة
ولكن مثلي لا يطيب له صدر
وقال التمرجي هل معاك فزّة
تخش بها ، أو ما معك شي فتنجر
وقال أصيحابي الدخول أو الردى
فقلت هما أمران أحلاهما مرّ
ألم تعلموا أني فقير وأنّه
إذا شافني ، خمسون قرشا له أجر
بنصف جنيه نظرة فابتسامه
فقصقوصة من دفتر ، فوقها حبر
ولكن إذا حم القضاء على امريء
فليس له برّ يقيه ولا بحر !

وخمسون قرشا يوم ذاك كانت تنهض بأعباء المنزل
خمسـة أيام !! وكان مرتب الصحافي من التواضع بحيث
يكون هذا المبلغ موضع الاهتمام من جيبه الفقير .

تابع شفيق المصري نقداًته الاجتماعية ، واختص المرأة
بمداعبات لا تدخل تحت حصر ، اختص المرأة جاهلة
ومتعلمة وزوجة وأنسة ، وفقيرة وثرية وسافرة
ومحجبة ، بكل ما نضح به ذهنه المتألق من معان ، وكان
أكثر ما يبدع به حين يتحدث عن التي أرادت أن تتفرنج ،
وأن تُسرف ، فرغبت في شراء السمن والقطائف واللحم في
رمضان ، ثم ارتقت فصمتت على أن تلبس الفستان القصير
وتذهب الى التياترو ، فإذا رفض الزوج فالمشاجرة وارتفاع
الأصوات ، وتدخل الجيران وزلزال البيت من جميع
نواحيه .

لقد صور المصري هذا الجانب محتذياً قصيدة لأبي
العنـاهية فقال :

ألا مالسيدتي مالها
أدلا فأحمل إدلالها
أظن الولية زعلانة
وماكنت أقصد إزعـالها
أتى رمضان فقالت هاتولي
زكينة نقل فجننا لها
ومن قمر الدين جبت ثلاث
لفسانف تتعب شيـالها

وجبت صفيحة سمن وجبت
 حوائج ما غيرها طالها
 فقل لي على إيه بنت الذين
 بتشكي إلى أهلها حالها
 أتسدرون ماذا أثار الخناق
 فزلزلت الأرض زلزالها
 تريد الذهاب معي للتياترو
 وتطلب مني إدخالها
 وكيف أروح معها التياترو
 إزائي أقبل إرسالها
 يرون عليها ثيابا قصارا
 تدوخ إذا شفت أشكالها
 ورب فإما بلاش التياترو
 وإما تطول أذيالها !!

وداء الواسطة ! مازال للآن يستشري ويشند ! حتى
 أهدرت الكفاءات ، وضاعت قيم الجوائز العلمية العالية
 إذا لم تجد شافعا مسموع الكلمة يمهد لأصحابها ، ورب
 صعلوك هتاف لا يملك من المواهب شروى نقير ، ولكن
 وساطته تتقدم به الصفوف ، وقد يكون له أخ أو صهر أو
 خال أو عم يدفع به ليأخذون استحقاق حق صاحب كفاءة
 لا يجد النصير ، وهي حال تفرق كل مصلح ، ولا بد أن
 تلتفت إليها عين لاقطة مثل عين الشاعر المصور حسين

شفيق المصري ، وقد عبّر عن خواطر الناس حين تحدث عن
هذه الآفة القاتلة محتذيا قصيدة شهيرة للشاعر العراقي
عبدالمحسن الكاظمي مطلعها :

إلى كم تجيل الطّرف والدار بلقع
أما شغلّت عينيك بالجرع أدمع
فقال حسين شفيق المصري :

أفتش في الديوان عن واحد له
نفوذ لتوظيفي وفكري موزّع
يقولون لي هل من وسيط تجيبه
شفاعته عند الحكومة تنفع
وهل كانت اللسانس حين أخذتها
شهادة تطعيم بها أتسكع
وغيري عشان محسوبكم متوظف
أراه عليكم دائما يتدلّع
ولو لم يكن محسوبكم كان حقه
يكون حماراً أزرقا يتبردع

والحق أن تاريخ المجتمع المصري لا يكتمل على أتم
صوره إلا حين نرجع لدواوين الشعراء من الذين خالطوا
الشعب ، وأدركوا مأساه ، واكتووا بنيران الظلم
والاضطهاد ، وعرفوا ألوان النفاق والتزلف والمحابة وهم
كثير ! لأن الشعر ديمقراطي ينزل الى السفوح كثيرا ، وقد
يرتفع الى القمم على استثناء .

ساعة الهراوي

كان الأستاذ محمد الهراوي قد أهدى الأستاذ محمد
الاسمر ساعة مضطربة لا تضبط الوقت ، فانتهاز شعراء
الحلمية الفرصة ليقولوا في الساعة وصاحبها ما يتندرون
به ، حتى ضج الهراوي فنظم قصيدة قال فيها :

وساعة أهديتها
إلى صديقي الاسمر
حسبتها في مخبر
كمالهها في مظهر
حتى احتوانا مجلس
يزخر بالتندر
فقائل حق نشو
ق لفقيه أزهري
وقائل محبرة
من اختراع بسركر
وقائل قوموا بنا
نسأل عنهما السمكري

والذي قال ذلك كله بلسان الفكاهة حسين شفيق ، إذ
جعل يسأل الهراوي أهى حق نشوق ؟ ويسأل الاسمر : ألم
تذهب بها للسمكري ويزيد فيقول : ساعة دايرة على كيفها !
معقبة بتلدغ ! الساعاتي لو شافها قلبه يدق ! قلبها

فاضي ! هي الساعة التي هي أدهى وأمر ، حتى استجار
الهرابي به أن يسكت ومن دلائل بديهته أنه سمع قول إيليا
أبي ماضي :

أفهم الناس للحياة أناس
حللوهما فأحسنوا التحليلا
فقال مرتجلا :

أوكل الناس للخيار أناس
خللوه فأحسنوا التخليلا

واقعة حال

كان حسين المصري محررا بمجلة الجوائب التي
يصدرها خليل مطران ، وقد أعطاه في شهر ماريا لا واحدا ،
فقال له حسين المصري يا خليل بك : الريال لا يرنّ على
البلاط ، الريال برّاني ، فضحك مطران وقال بكرة يرن .
ومضى عشرون عاما ، وتحدث المصري لصديقه محمد
الهيّاوي عن ريال مطران ، وكانا ينظمان معا الشعر
الحلمنتيشي دون توقيع ، فكتب الهيّاوي قصيدة في
معاناة مطران قال فيها :

وخليل مطران تعلّم منّا
نظم القريض فطّظ في مطران
شعري يرنّ على البلاط وشعره
ما هوش يرن لأنه برّاني

وقرأ المصري كلام الههياوي وهو بدون توقيع فاعتقد
أن مطران سينسب الشعر الهاجي إليه ، فاتصل به
متنصلا ، وقال له احلف لك يا بيه ما قلت حاجة فقال
مطران لا تحلف يا حسين لأصدقك ومطران مظلوم من
الههياوي فشعره شعر الدقة والعمق ، وهو كما قال شاعر
العراق في شأنه :

يتحدّى السّرب في شاهقة
ويعاف السهل للناس مجالا

مع مطران

كنت وأنا طالب بكلية اللغة العربية نظمت مقطوعة
قلت فيها :

ما إن أقارف لبنة
إلا ويصحبها الأثم
فإذا انتهيت وجددتني
أضلى تباريح الندم
فأقول ليت حوائلا
نهضت تقسموا مني فلم

ولقيت أستاذي الشيخ أحمد شفيع السيد أستاذ الأدب
بالكلية فقال لي : يا أخي ، بتسرق شعر حسين شفيق ليه !
فقلت وماذا قال ؟ قال :

عجبا للنفس تنهى عن هوى
وهي تدعوني إلى أن أتبعه
فإذا ما جنته لم أدر هل
أصبحت مرتاحة أو موجعة
لا أرى اللذة إلا المصا
كلما ألقاه ألقاها معه
قلت يا سيدي أبيات المصري في القمة ، وأنا لم أقرأها
من قبل .

ومن روائع حسين شفيق قوله الباكي :
أباعدتمونا ما أقل وفاءكم
فليس على ألا نفاقركم ندم
ولكن عهدا كان ، ياليت لم يكن
تمر له ذكرى ويعقبها ألم
وهما بتان بديوان .

غير أنا معشر
ليس يرضى ذلك
وهي جمهورية !
لا تـرى محله !

إمارة ثانية

ثم مات شوقي ، ولم يكذ يرتاح معارضوه من المجددين والمقلدين معا ، حتى ارتفع صوت الدكتور طه حسين بمبايعة العقاد أميرا للشعر ، وقد دأب الدكتور طه في سنواته الاخيرة على انكار هذه المبايعة ، ولكنها حقيقة ثابتة ، سجلتها الجرائد اليومية في خطبة رنانة جهر بها الدكتور الكبير في حفلة تكريمية ، أقيمت للعقاد بعد خروجه من السجن ، وقد قيل في أسباب هذه المبايعة ان العقاد في تلك الايام كان كاتب الوفد الأول . وقد انضم الدكتور طه الى الوفد حديثا فآثر أن يظفر بصداقة الكاتب الجبار محاذرا أن يصطدم معه ، وهو صاحب الصوت الجهير ، منذ نشأ حزب الوفد من أيام سعد ، وبين يدي الآن جريدة « الجهاد » الصادرة في ٢٩/٤/١٩٣٤ تحمل خطبة الدكتور طه حسين ، في صفحتين كبيرتين تابعيان العقاد ، مبايعة صريحة لا تحتل اللبس ، فإذا أراد القاريء أن يقف على بعض ما قاله الخطيب الكبير فليسمع ، نقلا عن الجهاد :

من خطبة الدكتور طه حسين

« ان العقاد هو الصورة الناطقة ، واللسان الخالد ، والمرأة الصافية المجلوة ، التي حفظت صورة مصر الناهضة وأبقتها للأجيال القادمة ... أنا سعيد جدا في أن أعلن رأيي في صراحة وأن أقول أنني لا أؤمن في هذا العصر بشاعر عربي كما أؤمن بالعقاد ، أنا أعرف حق المعرفة ، وأقدر كما ينبغي نتيجة هذه المقالة التي أعلنها سعيدا مغتبطا ، أعلم هذا حق العلم وأعلنه متحملا تبعاته .

اني أؤمن به وحده ، لأنني أجد عند العقاد ما لا أجد عند غيره من الشعراء ، وأكبر العقاد وأؤمن به وحده دون غيره من الشعراء في هذا العصر ، لأنه يصور لي المثل الأعلى في الشعر ، هذا المثل الأعلى يجمع بين جمال الشعر العربي القديم وبين أمل المصري الحديث .

الى أن قال الدكتور طه حسين : ضعوا لواء الشعر في يد العقاد ، وقولوا للأدباء الشعراء اسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه . »

هتاف واستجابة

وقد ذكرت الجهاد أن الجمهور أخذ يردد الهتاف بحياة العقاد أميرا للشعراء ، عقب كلمة طه وفي أثنائها وكانت الجهاد حينئذ تضم تلاميذ العقاد ، إذ يملأون كل يوم صفحاتها الأدبية مشيدين بأبداعه ، فكانت كلمة الدكتور

طه فاتحة لمقالات رنانة تباع العقاد ، وانصافا للعقاد نذكر
 انه فوجيء بخطبة طه ، كما لم يكن دافعا لأحد من تلاميذه
 كي يبايعوه ، ولكن اعترافهم بريادته التجديدية قد وجد
 المناسبة الحافزة ، فانطلقوا محبذين ، وقد انتقل الصدى
 الرنان الى نادي الحلمية ، وطبيعي أن يحدث تأثيره
 المضاد ، لأن الذين عارضوا امارة شوقي ، وهم يسرون
 معه في طريق فني واحد ، لابد أن يعارضوا امارة العقاد ،
 وهم أبعد الناس عن منحاه الشعري : ولكن كيف
 يعارضون ؟ وللامير الجديد أوسه وخزرجه ، وأدباء
 الشباب جميعا يلوذون به ، ومعهم أقلامهم الجريئة
 المتنمرة ! وإذا كان شعر شوقي قد أثخن جراحا دامية
 بنقداتهم اللاذعة أفيستعصى عليهم أن ينقدوا أشعار
 الهراوي والكاشف والقياتي والأسمر وحسين شفيق
 المصري وكامل كيلاني ؟ لا مناص إذن من أن يتركوا
 التصريح الى التلميح ، وأن ينفسوا عن أرواحهم بمبايعة
 هزلية مضادة ، يقال فيها الشعر ، وتشتغل بها الصحف ،
 وتتناقل حديثها الأندية ، لأن اختيار أمير جديد مما يوحى
 بمناوأة الأمير القائم ، ولكن من يكون هذا الجديد ؟

البرنس حسين

لعل من نكد الشعر أن يكون مثل (ليلي) التي قال عنها
 الشاعر :

وكل يدعى صلة بليلى
وليلى لا تقرر له بذاكا

وهكذا كان البرنس حسين محمد من عشاق ليلى عن ادعاء لا عن أصالة ، وقد وصفه الشاعر احمد رامى حين قال انه كان منتفخ البطن قصير القامة يلبس الجبة والقفطان والطربوش ، ويتردد على الأضرحة بين السيدة زينب والامام الحسين والشافعي ، وسمى بالبرنس لأن والده كان يعلم الحروف الهجائية ، لأحد الكبار من الامراء ، وهو طفل صغير ، وكان الوالد يصطحب نجله معه الى القصر الكبير . فأخذ يطلق عليه لقب البرنس كما يطلق على تلاميذه الامراء ، حتى اشتهر به ، ومضت الأيام فشب البرنس والتحق نساخا بدار الكتب المصرية وهي يومئذ موطن الشعراء ، ومجمع حافظ وأحمد نسيم وأحمد رامى ومحمد الهراوي وأحمد الزين وأحمد محفوظ ، وكلهم شاعر ذائع ، ينشد الشعر ويعرضه على زملائه قبل النشر ، فرأى البرنس أن يكون هو الآخر شاعرا ، وراح يردد البيت أو نصف البيت كما يردان على خاطره ، ثم جعل يتصدر للحكم على قصيدة يسمعها من أعيان دار الكتب ، وكثيرا ما كان يجابه حافظ ونسيم ورامى فيصبرون على نقده متفكهين ، وما كان يثور عليه غير الشاعر أحمد الزين إذ كان ضيق الصدر مع رؤسائه في دار الكتب ، لا يصبر على هفوة ، وقد تعرض للفصل لولا شفاعته شوقي فكيف يصبر

على دعي كالبرنس ، وكان رامي أوسع الشعراء صدرا فكان
يعرض على البرنس قصائده ، متفكها لينعم بتصويباته
المضحكة ، وانخدع البرنس برامي فأخذ يعلن أنه ينظم
لرامي أكثر ما يقول ، ولولاه لما استوى شعره ، وقد يطول
لسانه في غير تحفظ فيتعرض الى سباب الشعراء ، فيبكي ثم
يجبرون خاطره فيدفعون له الشلن « وهو غاية ما يأمل ،
وقد اشتهر له بيت من الشعر كان يردده دائما على من يطلب
رفده ، وهو

شَلْنٌ بِـبرنـسك انـه
أضحى فقيراً في الـورى

وَشَلْنٌ فعلٌ أمرٌ عند البرنس حسين بمعنى اعط الشلن !
هذا البرنس الأعجوبة كان هدف الشعراء الغاضبين ،
حين اختاروا من يبايعونه بالامارة ، ردا على امارة العقاد ،
وقد نال تقديرهم جميعا فلم يعارض شاعر في اختياره ،
واقاموا له احتفالا كبيرا في احدى ليالي رمضان الصيفية ،
فأجلسوه على كرسي عالي وجعلوا يتقدمون الى حضرته
الواحد بعد الآخر مبايعين ، ثم نظموا له ما قاله ردا على
هذه المبايعة ، وكان في طليعة هؤلاء المبايعين أحمد
الكاشف ومحمد الأسمر ، وحسن القاياتي ومحمد الهراوي
وعبد الجواد رمضان ، وكامل كيلاني وحسين شفيق
المصري ، وستلم هنا ببعض ما قيل .

من قصيدة الكاشف

لم يستطع الكاشف أن يخفي مشاعره الغاضبة نحو قضية (الامارة) حين سيقّت الى العقاد ، اذ افتتح مبايعته بما يدل على أن امارة البرنس مكيدة لسواه ، وكان من حق البرنس عليه وقد جلس في حفلة التتويج ألا يجابه بما يدل على انه اختير لمهزلة مضحكة ، لا لمنزلة عالية يعترف بها المبايعون ومن لطف الله بالأمير البرنس أنه لم يفتن الى ذلك مع وضوحه الصارخ ، فقد أدركته النشوة السعيدة حين سمع أحمد الكاشف يقول :

امارة الشعر خذها يا حسين فقد
أتى يبايعك الاخوان والصحب
وأدرك اللقب المضني سواك به
ليطمئن الى غالي اسمك اللقب
لم يبق من سبب للأدعياء الى
ما حاولوه وما ودوا وما حسبوا
وكان فيما توليت القضاء على
ما لفقوه وأملاه الهوى الكذب
من لي بسدتك العليا أقبلها
ودون سدتك الأستار والحجب
هذا نصيبي من الفوضى ظفرت به
من بعد ما خانني في غيرها الأرب

لم يغني الجـد في قول وفي عمل
وقـد لعبت عـسى أن ينفع اللعب

(من قصيدة حسين شفيق المصري)

وكان حسين شفيق أراف المحتفلين بأميزه ، لأنه لم
يواجهه بتعريض مؤلم ، بل انسابت روحه المرحية في كلام
موزون وكأنه نثر مسترسل ، ولا يخلو جد حسين شفيق من
دعابة في أعقل الظروف ، فكيف به في مجال الفكاهة
الضاحكة ، لئن بان للناقدين معنى الهزل في أبياته ، فان
البرنس حسين كان سعيدا كل السعادة بما يسمع من
المديح الجاد ، وقد هـش لحسين شفيق المصري حين قال :

يا حمـاة القريـض حول البرنس
أصبح الشعر دولة ذات كرسي
وهـلـل الحكم والامـارة الا
لبـرنس يضحى برأي ويمسي
يقرض الشعر مثلما يقرض الفأ
رحبا لا قد فتلت من دمقس
كان من قبله القريـض بجلباب
فأضحى بينـطـلون وجـرس
أيها الشاعـر الكبير رضىنا
ك أميرا ، فكنه ، تفديك نفسي

(من قصيدة الأسمر)

وقد وفق الأسمر في دعابته حين اعترف لأمير الشعر
الجديد أن امرأ القيس بعض الأمناء في حاشيته ، والمتنبي
بعض وزرائه ، وأن أبا نواس والرشيد نديما (يخل إلى
أن اسم الرشيد هنا مقحم) وأن المعري يحب في سده !
وان شاعرا له هذا السلطان لابد أن يباشر مسئوليته عن
جدارة . فليطرد الثقلاء ، وليرحم الشعراء من القول
الهراء ، وليغرد بالشعر وليهتف به من يشاء ولو اقتصر
الأسمر على ذلك لبلغ من سامعيه ما يريد من الاعجاب ،
ولكن ختام قصيدته قد انقلب هجوا للبرنس حين ذكر
مادحه أنه ينشد الشعر حيث لا يسمعه أحد في الأرض
ولا في السماء ، وحين دعا الله أن يثبت عرشه وقد قام على
الهواء !

قال الأسمر فيما قال :

يسـا أمـير الشعـراء
أنت أولى بالـلواء
امـسـرؤ القيس على با
بك بعض الأمناء
وأبـسـو السـطـيب في الدو
لـة بعض الـوزراء
والنـواسي وهـارون
معا في النـدماء

دولة ليس بها الا
كبار الكبراء



سيدي لا يبق في الدولة
غير الظرفاء
سيدي وليشمّل الطرد
جميع الثقلاء
سيدي ولتسرحم الشعير
من القول الهراء
فيه اليوم ثغاء
ورغواء وعواء
سيدي رجع لنا شعر
ك واهتف مما تشاء
حيث لا تسمعك الأثر
ض ولا تصفى السماء
ثبت الله لك العرش
وان كان هواء !

(من قصيدة عبد الجواد رمضان)

وأستاذنا عبد الجواد رمضان شاعر عازف ينطوي على
نفسه في رحاب الأزهر وحده ، وله رصانة وسبك عرف بهما
عند طلابه إذ كان حظ الديباجة لديه أوفر من حظ المعنى ،

وقد تجلت خصائصه الفنية في مقطوعته القصيرة ، وما كان لنا أن نطالبه بالإكثار ، وإذ كنا نعرف صراحته التي تنقلب الى هجوم مباشر في كثير من أحاديثه فإنه رحمه الله لم يتخل عنها حين هاجم من سماهم أدعياء القوافي ، ورماهم بالتجارة والانتهازية حين قال مخاطباً سمو الأمير :

دعتك وقد توافر طالبوها
وهل يحوي العلا ابنوها
أمير الشعر أنت وإن تغالي
وأسرف في الدعاية مدعوها
جوع تاجروا باسم القوافي
وقد ربحوا الحياة وأخسروها
فقل لأولئك الحمقى رويداً
تلون الفرقدين ولن تلوها
سأحمي عرضها وأذود عنها
زعانف للرذيلة سخروها
وهل خلقت جلالتها لغيري
فشعري أمها وأنا أبوها

(من قصيدة كامل كيلاني)

أما كامل كيلاني فجعل مدحته قضية ، حيث استعجم العرب فيما يبدعون من الشعر حين حاكوا الفرنجة ، وحيث عاب المجترئون تقليد القدماء من العرب وانطلقوا

يقلدون سواهم حيناً ، ويسفون فيما يبتكرون حيناً آخر ،
واذا انتشرت الرطانة ، وتغلّبت العامية ، وساد الجنون
فلا بد أن يكون مثل البرنس أمير !!! وهنا يجب أن نقول ان
الكيلاني لم يراع مقتضى الحال الذي يعده البلاغيون أكبر
أسباب القوة في الأسلوب ، فالمجال مجال تكريم ، وكان في
التلميح ما يسع كل نقد ، أما أن يختار البرنس اميرا لأن
الشعراء جهلاء أدعياء فلا بد أن يكون أميرهم كذلك فهذا
هجاء سافر بضائل من روح المرح التي سادت حفلة
المبايعة ، يقول الكيلاني مخاطبا أميره :

كنت البرنس فأصبحت الأمير فما
زادوك شيئا سوى التعريب مرتجلا
استعجم العرب حتى صار قائلهم
مستبهم الطبع صنو البهم مكتملا
قد جدد العصر في وزن وفي لغة
فلست تعرف شعرا قال أم زجلا
رطانة لست تدري حين تسمعها
أقال محتفلا أم قال مرتجلا
فكن أميرا لهذا العصر مضطعا
بثقله ، واحتمل أعباءه رجلا
فأنت تفهم شعر القوم مقتدرا
وتسدرك السر والأسباب والعللا
وتوالى القائلون فأنشد الأساتذة سيد ابراهيم ، وعزيز

بشاي ومحمد الهراوي والسيد حسن القاياتي الذي قال
لصاحبه :

سد كما ساد صرير شهما
أمر الأقالام في وادي الزئير

وهو ثلب صريح لا أدري كيف رمى به البرنس ، وهو
بعد صنيعه القاياتي ، ونديم مجلسه بالسكرية ، وموضع
بره الجزيل أما الأمير المختار فقد أنشد مقطوعتين ، تغني
إحداهما عن الأخرى وقد تواضع حين قال :

على الشعراء قد صرت الأميرا
وإن كنت الخبثثة الصغيرا
واني للرئيس بكمل نساد
أحاكي الشمس في الدنيا ظهورا

وقد تطوعت الجرائد اليومية ، فنشرت قصائد الحفل ،
وأخذت صور البرنس مع رعيته ، وتشاغل الناس بهذا
الهزل الجاد حينما من الدهر ضاحكين متندرين .

مقاهي القاهرة

منابر سياسية ومدارس أدب

قرأت التحليل الرائع لكتاب (القهوة والمقهى في الشرق) الذي كتبه الأستاذ مصطفى نبيل بعدد أكتوبر سنة ١٩٨٦ من مجلة الهلال ، وقد ختمه الكاتب الفاضل راجيا أن يحين الوقت لأن يكتب باحث عربي تاريخ المقاهي ، فتذكرت بالأسى اللافت صديقي الفقيد العزيز الأستاذ محمد فهمي عبداللطيف ، فهو الباحث الذي امتلأ صدره بتاريخ المقاهي في مصر ، وقد كان مجلسنا بالفيشاوي معه ، سجلا لتاريخ حافل يرويه الراحل الكريم عن مقاهي القاهرة ، وكأنه يقرأ من كتاب ، وقد دونَ بعض هذا التاريخ في مجلة الرسالة وجريدة المصري وكتاب فلاسفة وصعاليك ، ولكن ما دون معشار ما ترك ، وليتني الآن أستطيع تذكر ما قال ، وإذا فاتني الكثير ، فسأستعاض ببعض ما لدي من الأسفار ، ليرى قاريء الهلال كيف كانت مقاهي القاهرة مدارس أدب ، ومنابر سياسة ، وكيف حددت تاريخ مصر في بعض فتراتنا ، وماذا تظن بمجالس تجمع الصفوة من كبار المفكرين ، وفي كل صدر خواطر ، ولكل جالس من هؤلاء لسان ينطق وعين ترى ، وعقل يحلل وضمير يستنكر ، والأحداث تتوالى ، والفجاءات تتتالي ، وإذا تحدثت عنها العامل والتاجر

والصانع فهل يسكت الزعيمُ الموجّه ، والكاتبُ المحلّل ،
والصحافي النابه ، والشاعرُ المغرّد ، وهؤلاء هم صفوة
الجالسين ، وخيرة المنتدين !

ولن يسمح مقال متواضع في الهلال أن يتسع للحديث
عن مقاهي القاهرة حديثاً مستوعبا ، فالمقاهي بها لا تعدّ ،
والمرتادون من الصفوة كثيرون كثيرون ، وما نُقل عنهم أقل
مما أهمل ، وسبيلُنا أن نكتفي بالمثال ، فقد يكون باعثاً
لدراسة مستوعبة يقومُ بها دارس متئد ، في مجال فسيح .

مدرسة الأفغاني الكبرى

حين ورد الى القاهرة حكيم الشرق وباعث نهضته
المصلح الفيلسوف الثائر جمال الدين الأفغاني ، كان
صدره يغلي بأفكاره ، فتتطلب متنفساً ينتقلُ بها من الضيق
الى السعة ، وكان لسانه الحكيم موهبته التي لا تفارقه قيّد
خُطوة ، فهو يتحدث في المنزل والطريق والمسجد مع من
اجتباهم من تلاميذه ، وهم صفوة طلاب الأزهر ، من أمثال
محمد عبده وعبدالكريم سليمان وابراهيم اللقاني
وابراهيم الهلباوي وشيئاً فشيئاً ذاع فضل الرجل ،
وانتمى إليه سليم تقلا وأديب اسحق وابراهيم المويلحي
وعبدالله النديم ، ومحمود سامي البارودي ، وزادت
الحلقة اتساعاً فخرجت من المنزل الى قهوة البُوسنة
المعروفة بقهوة أنطون ، وهو على لُكنته الأعجمية ، جياش

الخاطر متدفق الحديث ، لأن رسالته الإصلاحية ذات
 جيشان يهدر ويصطخب بين ضلوعه ، وله وَجْهٌ فصيحُ
 الملامح ، وعَيْنٌ وهَّاجَةٌ البريق ، وغَوْصٌ على الأعماق
 المستكنَّة ، وخبرةٌ بكوارث الاستعمار ، ونفاقِ
 المستوزرين ، وغفلة النائمين ، فإذا عبَّر عن كلِّ ذلك فقد
 نقلَ الناسَ من حالٍ إلى حال ، حين يرشدُهم إلى الهوةِ
 العميقة التي توشكُ أن تتسع لتبتلع ما فوق الأرض من
 كوائن ، وفي قهوة البوستان تآلف الحزب الوطني الحر ،
 وهو أولُ حزب عرفته مصر على يد الأفغاني كما وضعت
 مبادئ الثورة لإصلاحِ يعمُّ العالم الإسلامي مبتدئاً
 بمصر ، إذ زار الأفغاني ربوع الشرق ، وفكَّر وقدر ، فرأى
 أنَّ مصر قلب العالم الإسلامي ، وإذا نهضتْ فقد قادتْ
 سواها ، وحقُّ ما قدر ، وطبيعيُّ أن يلتهب السامعون
 حفيظةً حين يكشفُ لهم الأفغاني دور الاستعمار في
 الاستبداد السياسي ، والنهب المالي ، والتدخل في صميم
 الأمور بحجة الحفاظ على سداد الدين الأجنبي ، وقد جاسر
 بمعادة الخديوي اسماعيل وإقالة مَنْ يصطنعهم من أمثال
 نوبار ، ودعا إلى إنشاء صحافةٍ حرةٍ تُوقظ النائمين ،
 وتتحدى معضلات السياسة ، وأحابيل الاستعمار ، إذ
 لا يكفي أن يتحدث على القهوة في مجتمعٍ محدود ، فلا بُدَّ أن
 تنتشر الآراء بين الناس ، وبتشجيع الأفغاني أصدر
 الكاتب الشاب أديبُ إسحق جريدة مصر وكان محمد عبده

وابراهيم اللقاني وعبدالكريم سليمان من كتابها ، بل كان الأفغاني على رأس هؤلاء إذ صدرت مقالاته بتوقيع (مظهر بن وضاح) ولأول مرة في تاريخ الأدب الحديث ظهرت المقالة السياسية ، واتسع المجال للحديث عن معاضل الاجتماع ومساويء التعليم ، وأدواء الجهل والفقر والمرض ! كما عرّف المصريون أن لهم الشأن في إدارة بلادهم وأن الحاكم يجب أن يصدر عن أمرهم ، وليس له أن يستبدّ بالأردون رجوع إلى مجلس نيابي يبحث ويقرر ، قال الدكتور أحمد أمين « كان الأدب قبل الأفغاني غزلاً في حبيب أو رسالة إلى صديق ، أو مدحاً لأمير أو استعظافاً له ، أو وصفاً لسفينة ، أو شكرًا على هدية ! أما مصر وحالة شعبها وبؤس قومها ، وظلم حكامها وحقوق الناس فلا شيء ، فلما جاء جمال الدين قلب هذا الوضع) وكانت قهوة البوستة ، هي مدرسة الأفغاني التي غيرت مهب الريح .

المضحكخانة الكبرى

في الوقت الذي كان فيه الأفغاني يشعل نار الثورة في مجالسه بقهوة البوستة ، كان هناك مجلس آخر في قهوة أخرى بحي الخليفة بالقرب من مسجد السيدة سكينة رضي الله عنها ، وإن اتجه مجلس الأفغاني إلى الجد الصارم فقد اتجه رؤاد مقهى الخليفة إلى الهزل المازح ، والضحك

المباح ، وكان رئيس المجلس هو الفكاهي المشهور الشيخ حسن الآلاتي ، وله كتاب في ثلاثة أجزاء أسماء (ترويح النفوس ومضحك العبوس) والشيخ حسن الآلاتي نادرة عصره في النكتة الطريفة ، والبديهة الحاضرة ، أهدى إليه في مجلسه بالقهوة أحد الكبار من الرؤساء جذاء جديدا فلمسه الشيخ بيده ، إذ كف بصره في عهده الأخير ، وقال للمُهدى على البديهة : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال : (يُحشر المؤمن في ظل صدقته) وهو تعليق يدل على منبع الفكاهة في نفس الشيخ ، وقد اشتهر مجلسه اشتهارا كبيرا فوفد إليه المتعلمون في الأزهر ، وكان الوزراء وكبار الأعيان يذهبون إليه في المقهى متنكرين في غير أزيائهم الرسمية ليُجهل مكانهم فلا يحتشمهم الحاضرون ، ويأخذون في التندر كما يشاءون ، غير أن عبدالله باشا فكري وزير المعارف وهو أديب بطبعه لم يشأ أن يتنكر ، فكان يحضر إلى المقهى ليأخذ في السمر على طبيعته مع رواده الأدباء والعلماء من أمثال عبدالهادي الإبياري وعلي الليثي وأبي النصر المنفلوطي ، وعثمان مدّوخ ، وما منهم إلا شاعر أو خطيب أو عالم ، وأذكر أن علي مبارك قد اشتاق لمقهى الخليفة ، وحالت صعوبات يراها أمامه دون أن يتمتع بندوة الآلاتي ، فطلب من عبدالله فكري أن ينقل الجمع إلى داره ، حيث كانت له ندوة أسبوعية أهلة ، حضرها عبدالعزيز فهمي في صباه الأول ، وتحدث عنها في

بعض ما كتب ، ولكن حسن الآلاتي لم يرغب في ترك المقهى مع جصاعته ، وظلّ علي مبارك يتسمع أخبار المجتمعين عن طريق بعض رُواده ، وقد طارت شهرة كتاب (مضحك العبوس) حين صدوره ، لأن جامعته الذكي قد انتقاه ليؤدّي رسالته في الترويح والتسرية ، وحسبك أن يكون مضحك العبوس !! ومن المعروف أن جمعية المعارف حينئذ قد نشرت طائفة من كتب التراث مثل الأغاني والعقد الفريد والمستظرف ، وبها الرائع من النوادر ، فعكف الآلاتي على قراءتها ، وأضاف إليها من حلاوة رُوحه ، وخفّة تندرته ما جعلها حلوة الموقع حين تُروى ، وحين يحتذيها بطرائف كثيرة من بنات صدره ، تصادف الارتياح والإيناس ، يقول الدكتور أحمد أمين «وأظهر ما في الكتاب من فنون المضحكات ، فن المفارقات ، فقد ارتقى على يد الشيخ حسن الآلاتي واستخدمه استخداما كبيرا ، فهو يقول في مطلع خطاب له «الى السيد المهاب ، والضبع الوثاب ، الصادق الكذاب ، عالم العصر ، ومصلى الظهر وتارك العصر ، الذي بنى على ظهره مائة قصر ، أعز الإخوان ، من تهابه الخرفان ، الضارب بالنقرزان ، قاهر ابن خلكان ، مولانا الشيخ رمضان» .

وقد يكون هذا القول هيئّ الوقع حين يُسرّد في كتاب ، ولكنه حين يُروى مع أمثاله في مجلس الخليفة ، ويدور حوله التعليق تنكيتا وتبكيता ، وموافقة ومخالفة فإنه

يكسب المجلس ظرافة وبهجة ، في وقتٍ لم يكن فيه من أسباب الترويح غير الحديث الساخر ، والسمر اللذيذ .

مذكرات شائقة

أصدر العلامة السوري الأستاذ محمد كرد علي مذكرات شائقة عن حياته في عدة أجزاء ، وبين صفحاتها حديث عن ندوات الأدب في مصر ، إذ شاهد في مقهين شهيرين اجتماعات أدبية لأعيان الفكر في عصره ، ففي (متاتيا) تجاه حديقة الأزبكية ، كان يطيب له أن يجلس مع من سماهم جماعة دار العلوم كل مساء ، حيث يسمر أحمد السكندري ومحمد الخضري وعبدالعزیز شاويش وحفني ناصف ، وسلطان محمد وأحمد إبراهيم ومحمود دياب وحسن منصور ومحمد المهدي ومحمد عبدالمطلب ، وجميع هؤلاء كما يعرف المثقفون من ذوي الرّصانة والتوقر ، فإذا دار الحديث فعن عيون المسائل في الدراسات الأدبية واللغوية والتاريخية ، وإن مقهى يحفلُ بهؤلاء ، أو بأكثرهم كل مساء لهو جامعة أهلة ، وقد تجمع الجامعة المتوسط والجيد ، أما جامعة دار العلوم هذه فقد جمعت نخبة ممتازة لكل عضو منها دوره البارز في فنه أدباً أو فقهاً أو تربيةً أو تاريخاً ، ولو أن بعض تلاميذهم وفق إلى تسجيل ما يدور من الحوار ليلاً في صفحات متتابعة لأدهش وأعجب ! وليس ذلك بغريب عن تراث العربية ، فقد ألف

أبو حيان التوحيدى أعظم كتبه (الإمتاع والمؤانسة) مقتبسا من مجالس السمر في دار الوزير ابن سعدان ، حين احتفل الوزير بقضايا الفكر وحرص على مسامرة ذويه ، في ليالٍ عدة ، شهدها أبو حيان وسجل خلاصاتها بأسلوبه البارع ! ولعمري كم فقد الأدب المعاصر حين حرم تسجيل هذه الأمسيات ، وقد كان مما يفسح لها في النفوس أنها سبقت مساق السمر المتنقل من موضوع إلى موضوع ، ولم تُوصم بالجفاف المتزمت ، وقد أسف الأستاذ كرد علي لرحيله عن القاهرة ، وغيابه عن منهل المقهى المستطاب .

أما المقهى الثاني الذي تحدث عنه الأستاذ كرد علي فهو مقهى السلام في شارع إبراهيم باشا ، وكان يحفل كل مساء بأعضاء البعكوة الأدبية ، وهي جماعة من إخوان الوفاء يرأسها اللغوي الشهير وحيد بك الأيوبي ، ويقوم المحامي الكبير إدوارد قصيري بك ب尼亚بة الرئاسة عند غياب الرئيس ، وتتألف جماعة المقهى كما يقول الأستاذ كرد علي من محامين وأطباء وأعضاء بمجلس النواب ورؤساء دواوين ، وصحافيين ولا يقل المواظبون على الاجتماع الليلي الدائم عن ثلاثين رجلا ، ما فيهم إلا الممتاز بأدبه وفضله ، وكانت اجتماعاتهم للمرح والتنادر ، وتناقل الأخبار ، وناهيك بجمعية يحضرها الدكتور محجوب ثابت ذو الروح الخفيفة ، والآمال الشاسعة في السياسة والطب ، وإذا وقفت جماعة دار العلوم بمقهى متاتيا عند

الجدّ الرصين ، فإن جماعة مقهى السلام تجاوزت الجدّ إلى المرح الضاحك ، ولعل الأستاذ وحيد الأيوبي كان أحد بواعث هذا الضحك . إذ جعل من دأبه أن يكتب في أمور اللغة دون عمق وأن يشارك فيها في عجلة ، وربما اخترع ألفاظاً جديدة لأشياء مستحدثة يكثر حولها التعليق ، لقد تحدث وزير بريطاني في أيام ثورة سنة ١٩١٩ فذكر أن الانجليز يُرابطون بجيشهم في مصر لحماية الاستقلال ، ولم يسكت الأستاذ وحيد على هذا التصريح الهازل ، فكتب في الأهرام تعقيبا يقول فيه : إذن عندنا إحتلالٌ إنجليزيٌّ واستقلالٌ مصري ، فماذا نُسمي الإحتلال والاستقلال في أن واحد ؟! لابد أن ننحت من الكلمتين كلمة واحدة ، هي (الإحتلال) إذ نأخذ من الإحتلال حرفين ومن الاستقلال ثلاثة ! وكان اهتداء رئيس الجماعة إلى هذا اللفظ مجال تندر في الصحف والمجالس دام أسابيع ! ولابد أن ندوة مقهى السلام قد سعدت بنقاش ذوي الدربة من أعضائها ، وأن الأستاذ وحيد هاجم وهوجم ، ورضى وغضب ، وهاج واستقر ، ومن وراء ذلك أنس السمر ، ولطافة الحديث .

ندوة الحلمية

في شارع محمد علي الصاعد إلى قلعة صلاح الدين ، وأمام مسجد قوصون كانت قهوة الحلمية ناديا أدبيا سياسيا معا إذ كان حافظ إبراهيم ومحمد عبدالمطلب

وحسين شفيق المصري وأحمد نسيم ممن يرتادونه
فينشدون الشعر ، ويروون الطرائف ثم هبت ثورة سنة
١٩١٩ وصارت السياسة شغل الناس جميعا ، واضطر
القائمون بإشعال اللهب إلى كتابة المنشورات السياسية
المتوالية في مكان بعيد عن شارع الأزهر ، فكان نادي
الحلمية ماوى مصطفى القاياتي ومحمود أبي العيون ،
ودراز وعلي سرور الزانكلوني ، ومن يلتف حولهم من
الشباب الثائر كعبد الرحمن الجديلي وابراهيم
عبد الهادي ، وطبيعياً أن ترتفع الأصوات بالحوار ، وأن
تدبر الخطط لمهاجمة الاحتلال ، ثم تكون النتيجة أن يلتفت
المستعمر إلى مكنم الخطر ، فيطلق عليه النار ، ويأمر
بإغلاق المقهى لعهد طويل ، وقد اشار الشاعر محمد
الهرابي في رثائه لأبي الفتح الفقهي (وكانا معاً من مؤسسي
نادي الحلمية ومن أشهر مرتاديه) أشار الهرابي إلى
مجالس (الحلميين) الحلمية القديمة والحلمية الجديدة
فقال :

سـل الحـلميتين ومـا قـضينا
هـنالك مـن لـيـالينا العـذاب
وكنـا فـي دجـاهـا أو ضحـاهـا
كـزهر الأفق أو زهر الروابي
يضم شتاتنا نادٍ فنحيي
عليه عكاظ في سوق عجاب

تمر الثورة الكبرى علينا
فتغشاها مع الأسد الغضاب
ولا نخشى السهام ولا العسوالي
ولا الجند المدجج بالحرب
فنقضي حق مصر وقد دعتنا
ونرجع للحديث المستطاب
فسائل نأدى الآداب عما
تضمنه من الأدب اللباب
قضينا ربع قرن في حماه
نهبنا صفوه أي انتهاب

ثم مات صاحب المقهى ، وبُدِّل مكان بمكان ، فانتقلت
الندوة إلى مقهى آخر بالحلمية نفسها ، إذ تقدمت في الطريق
إلى القلعة عدة أمتار ، وأصبح النادي الجديد مقهى
متواضعا أسرع إليه من ذكرنا من الأدباء والشعراء ، بل
أخذوا يتزايدون فكان منهم حسن القاياتي ومحمد الأسمر
وزكي مبارك وأحمد شفيع السيد وأحمد الزين ، وجلَّهم
شعراء يمثلون لونا خاصا من ألوان الشعر ، فهم أنصار
الديباجة البيانية ، وعشاق الجزالة الأسرة أنا ، والرقعة
السلسة أنا آخر ، وحين تحدث الناس عن مبايعة شوقي
بالإمارة انقسم المنتدون بالحلمية شطرين ، شطر أيد
المبايعة ويتزعمه محمد عبدالمطلب وشرط عارضها
ويتزعمه محمد الهراوي ، وقد سارت له مقطوعة قال فيها :

إن شوقي شاعر

أجله كلنا

غير أنا معشر

ليس يرضى ذلّه

وهي جمهـورية

لا تسرى محله

ثم ظهرت جماعة أبولو وناوات أنصار القديم ، أو بتعبير أدق ، ناواها أدباء الحلمية وشعراؤها فناواتهم وامتدت الخصومة ، وكثر الأخذ والرد ، وقيل الشعر المهاجم ، والشعر المدافع ، ودوت الصحف بكثير مما قيل ، ثم مات الهراوي ، فانقرط العقد ، وتشاغل بعض عن بعض ، وأصبحت الندوة تاريخاً يروى .

مقهى الفيشاوى

كان من الأجدر أن أبدأ الحديث بمقهى الفيشاوى ، ولكن خفت أن تتزاحم الطرائف عنه فيبتلع سواه ، لأن مقهى الفيشاوى كان إلى عهد قريب معلماً من معالم مصر ، يفتد إليه السائح شرقياً أو غربياً كما يفتد إلى أبي الهول والهرم والنيل ، وقد تجمعت عوامل شتى منذ تأسيسه سنة ١٨٦٣ في عهد الخديوي إسماعيل على إحاطته بإطار سحري يعبق بأريج التاريخ ، فالقاهرة الفاطمية تتمثل في حي الأزهر والحسين ، والسراديب المتداخلة بين البيوت

العالية ذات الشرفات المتعانقة عن يمين وشمال تجعل السائح يدور في مثل بيت جحا ، وخان الخليلي بعاجه وأبنوسه وسجاده وأوانيه الأثرية يرسم صورة الأمد البعيد ، وينتقل من مصر الفاطمية إلى مصر المملوكية حين كانت هذه التحف أنفُس ما يوضع في منازل الكبار من الرؤساء ، أما المقهى نفسه فيروع بتداخل حجراته ، واختلاف ممراته ، وغرائب مَنْ فيه ، لأن جوّ الحي الحسيني يقذف إلى المقهى بطرائف لاتقف عند حد ، فحامل البخور يمر صائحا مسبحا لله ، ومجاذيب الباب الأخضر يفدون بهياكلهم الأثرية ، وأرديتهم الواسعة ذات الألوان البراقة ، والعمم السوداء التي تحيط بالوجوه ، فتكون إطارا للعيون المتوهجة ، والأسنان البارزة ، وصوت المجذوب بصيح : الله الله : فيلفت الغريب والقريب إلى شيء غير طبيعي ، على تكراره اليومي ، لأن تأثيره يتجدد بتجدد الصباح ، والقطط الأليفة تقفز على الرُكْب والأيدي في تودد لا يخيف ، وفي السائحات والسائحين من يُحضرُ لها السمك واللحم واللبن للصغار ! ويأخذ المقهى أبهى حله الزاهية في سهرات رمضان ، حين يجتمع القاهريون من أقصى الضواحي للسهر في المقهى ، وإحساسهم بقربه من الحسين والأزهر يحيط السهرات بروح ديني يكسبها معاني الرحمة والثواب والغفران ، وبخاصة إذا كان الشاي الأخضر أو الأحمر هو المشروب الدائم ، وله طابع

خاص لاتجده في غير مقهى الفيشاوي ، فالبراد البنفسجي ، والصينية الصفراء ، والأكواب الرشيقة الصغيرة ، تحمل قليلا من الماء البارد ليُصبَّ عليها الشاي الساخن ، وقطع السكر ذات الحجم الضئيل تُترك ليأخذ منها الشارب أو ليدع حسب هواه ، كل ذلك يظهر في مظهر الشيء الجديد بالمقهى ، حتى النرجيلة ذات طابع خاص منظرًا وصوتًا وطعما ، يجذب الالتفات ، ثم يمر بائع الكتب يحمل عبئه الثقيل في رضى وقنوع ، وبائع الفول السوداني واللبن أسمر وأبيض والحمص في قراطيس صغيرة ، فترحب بكل هؤلاء ، أما الذي يُغضب فماسح الأحذية ، حين يلح عليك ، وهو يعلم أن زميله قد سبقه إلى أداء مهمته بدقائق ، وجدة الصبغة السوداء أو الحمراء أو البيضاء لا تزال شاهدة ناطقة ، ومع ذلك يلح ، ولا ينصرف دون أن يُمنح ، والسياسيون والفنانون والأدباء جميعا من رواد المقهى في سهرات رمضان ، ففكري أباطة ، وحفني محمود وتوفيق دياب وصبري أبو علم ، وزكريا أحمد وبيرم التونسي والسيد بدير ، كل هؤلاء قد عُرفت وجوههم هنا في سهرات رمضان ! أما عبدالحميد الديب ومصطفى حمام وطاهر أبو فاشا ومحمود غنيم ونجيب محفوظ فلهم ذكريات عن المقهى لا تنقطع ، وقد كتب الأستاذ أحمد بهجت فصلا بديعا بجريدة الأهرام عن مقهى الفيشاوي تحدث فيه عن نشأته وحياة صاحبه ، وصوره بصورة له

فوق حصانه الأشهب ، ومما ذكره الأستاذ أحمد بهجت أن
الفنانة نجوى سالم شاعت أن تسخر من بائع الفول
السوداني بالمقهى ، فظهرت حبها له حتى اقتنع ، وأخذ
يُطالبها بتعجيل الزفاف ، ثم أوجت إلى سائق سيارتها أن
يُهاجم البائع المسكين ، ويدّعى أنه أخوها ، وأنه يرفض
هذا الزواج ، ثم يرضي البائع ببعض عبارات العزاء ! وقد
تضاءلت مكانة المقهى هذه الأيام ولكننا نغد إليه لنذكر
الماضي ونوازن بين عهدين !!

مقاه مماثلة

في كتاب (خبايا القاهرة) للأستاذ أحمد محفوظ حديث
طريف عن مقاهي العاصمة وفي مقدمتها مقهى نوبار الذي
كان يجذب الجمهور طمعا في رؤية عبده الحمولي وسماع
صوته ، ومقهى دار الكتب وزعيم رواده حافظ إبراهيم ،
ومقهى الإنجلو وزعيمه الدكتور علي باشا إبراهيم ، وبار
«صولت» وقد كان شوقي يلازمه ولا يكاد يبرحه ، إلى
عشرات من هذه الأمثلة التي يضيق المجال عن استيفائها ،
وفي عواصم المحافظات مقاه مماثلة ، يعرفها الجمهور
بروادها الأدباء ، فللزيّات مقهى بالمنصورة ، وللرافعي
مقهى بطنطا ، ولأحمد محرم مقهى بدمنهور ، فأين من
يتتبع هذه الأماكن لينقل بعض ما دار ، إذ لا يزال من الأحياء
في كل مكان من يحتفظ بذاكرته القوية ، فيتحدث بما كان ،

ومعلوم أن أحاديث الندوات تعلن من الخبايا مالا تعلنه
الكتب المتداولة ، فالأديب الكبير يلزم الحيلة فيما يوقعه
باسمه متقدما به إلى الجمهور العريض ، أما ما يقوله عن
زملائه وأعيان عصره في مجلسه الضيق بالمقهى فيتسع
للنقد الجريء ! ومن هنا تتجسد الأهمية الكبيرة لتدوين ما
تردد من هذه الأحاديث ..

أدباء تصرعهم المخدرات

ليست هذه هي المرة الأولى التي يذهبُ مصر فيها وباء المخدرات ، فمنذ عهد الدولة الإخشيدية حين كانت زراعة الحشيش مباحة في الدولة ، ومصرُ تتعرض لهذا البلاء على فترات متباعدة ، وقاريء المقريري يقف على سلسلة من ضروب الكفاح المستمر لهذه السموم القاتلة ، وليس من هَمِّنا الآن أن نجلو صفحة من تاريخ النضال الشاق ، وإنما نمهدُ به لنذكر أن ما تعانيه البلاد الآن هو أشدُّ ضروب المعاناة في تاريخها الطويل ، إذ أصبحت هذه السموم في هذا العهد قريبةً من أيدي النشء الصغير ، وهذا ما لم يحدث من قبل ، إذ كان تعاطي هذه البلايا مقصوراً على الكبار وحدهم ، فتدفقُ المال في أيدي الجهلة جعلهم يسخون في منح التلاميذ من أبنائهم ما يفيض عن حاجاتهم ، فيفتحُ أمامهم باب الشر ، وهكذا وجدت المخدرات ميادين كثيرةً للفتك بالأرواح فتكاً بطيئاً عن طريق الإدمان ، بل هكذا ساعد الجهلة من الآباء على انتشار هذا الداء ، بالاتجار في السم القاتل تارة ، وبتهيئة الظروف لإدمان أبنائهم ، وتحطيم قواهم في عمر الزهر ! ولا ننكر أن الحشد الضخم من الأفلام الهابطة الداعية عملياً لانتشار هذه السموم قد جعل الفن السينمائي مسئولاً عن انحداره الشائن مهما اختلقت بواعث التبرير لهذا الإلحاح

المواصل في عرض المشاهد المنكرة دون حياء ! ومن
المؤسف أن نفرًا من كبار الفنانين شرقًا وغربًا وقديمًا
وحديثًا قد تورطوا في الإدمان القاتل ، ومنهم من أدرك سوء
مصيره ، وتحدث عن مأساته بما يقدم العبرة الناصحة ،
والموعظة الأمانة ، وسنختار من أدباء الغرب بعض من
كتبوا عن إدمانهم المزمن ، فهم بتجربتهم الصحيحة أقدر
على الصدق في وصف الداء إذ ينقلون عن أنفسهم دون
افتعال .

نبذة تاريخية

الذين قرأوا إلياذة الشاعر الإغريقي الكبير هوميروس
يعرفون أنه ذكر بها نبات الأفيون ، وهو مير لسان الشعب
اليوناني يتحدث عن أهوائه بما يبرز خفاياه ، وكذلك عرف
أبوقراط أبو الطب اليوناني أثر هذه المادة في التخدير ،
فأوصى بها في العلاجات الجسدية والنفسية ، إذ رآها تخذل
الداء تارة وتذهل المريض عن هواجسه الأليمة تارة
أخرى ، وطبيعي أن ينقل الرومان عن اليونان ما لديهم من
شر وخير ، إذ جعل أطباؤهم الأفيون مصدر راحة
للمريض ، ولعلهم كانوا معذورين بعض الشيء إذ لم
يجدوا من وسائل التخدير سواء ، وقد قيل إن طبيب
الإمبراطور نيرون ، وهو « اندروماكلوس » كان يحرص
على وصفه لنيرون حين تهيجُ انفعالاته ، ولعل جنونه

المتقطع كان من بواعث هذا الادمان ، وقد غلبت الخمرة على الأفيون في أحقاب تالية ، إذ أثرها الأطباء في التخدير على ما سواها ، حتى جاء القرن الثامن عشر فعدت السيطرة للأفيون ، واتسع الأمد لدراسته علمياً على وجهٍ مُقارب ، وفي مدى مائة عامٍ تجلّى للأطباء خطره الداهم ، فأصدر الطبيب الفرنسي مورودي تور سنة ١٨٤٥ كتابه (الحشيش والجنون) وهو خلاصة تجربة أليمةٍ شاهدها المؤلف لدى مرضاه الكثيرين ، إذ كان مديراً لمستشفى الأمراض العقلية ببباريس ، فادرك أن أكثر مرضاه من صرعى الأفيون ، وقد جازف بنفسه حين تناوله ليدرك أثره الجسمي والنفسي ، وهي مجازفةٌ دفعته إلى شئٍ حرب قاسيةٍ عليه أعلنها في كتابه المشار إليه ، وحقٌ له أن يُؤلف مستنكراً ، إذ انتشر الأفيون في فرنسا وانجلترا لعده على نحو مزعج ، وقد وقع في برائته أعلامٌ من رجال الأدب منهم توماس دي كنسي ، وشارل بودلير ، وتيوفيل جوييتيه ، وكلهم قد عاش في القرن التاسع عشر ، وله في الحديث عن المخدرات كلامٌ ذائعٍ نشير إلى بعضه الآن .

توماس دي كنسي

أصدر توماس دي كنسي كتابه (اعترافات أكل الأفيون) ليبرراً لنفسه وللناس عكوفه على الادمان القاتل ، فقد أحس إحساساً قوياً بأثر المخدر في إنهاك جسمه ، وتدهوره إلى

الهاوية في عجلةٍ مريعةٍ ، كما أحسَّ بنظرات اللوم ،
 وعبارات التهكم من عارفيه ، فأرادَ أن يجعل من اعترافاته
 وسيلةً مسترحمةً للدفاع عن المذنب لذلك نجده يسرف في
 الحديث عن لذّة الأفيون ضِغْفَ ما يتحدث عن عواقبه
 الوخيمة ، وهو انسياقٌ لا شعوريٌّ إلى التبرير أكثر منه
 اعترافاً بفداحة المصائب ، وقد بدأ اعترافاته ليقول لقارئه
 إنه لا محالة سيسأئل نفسه : كيف يستسلم العاقل
 لسلطان هذه العادة مع ما فيها من شقاءٍ وتعسٍ للنوع
 الانساني ، وكيف يُلقى بنفسه طائعا ، مختاراً في هاويتها
 حتى تُثقله بأوزار ليس للخلاص منها سبيل ؛ وفي الإجابة
 عن هذا التساؤل أخذ الكاتب يُسهب في تعداد مآسيه التي
 واجهته في مطلع شبابه ، وكيف انتمر به الأوصياء حتى
 حرموه ماله ، واضطروه إلى التشرّد ، ومن خلال ما ذكر
 الكاتب نعلم أنّه كان ذا موهبةٍ كبيرة ، وأنه أثقن اللغة
 الإغريقية في الثالثة عشرة من عمره اتقاناً جعله يصحح
 أخطاء مُدرسه ، ويعجب لجهله الشائن بمادة الدّرس !
 وقد كان يتناول الصحيفة الانجليزية ليقراها باليونانية
 فوراً دون أن يشعر صاحبه أنه يترجم ، ثم كره الدراسة
 التقليدية في المدرسة وأراد أن يكون حراً في مطالعته فسخط
 عليه أوصياؤه ، وتعرض لأنياب الفقر والجوع والتشرّد ،
 ومد يده للصّدقة والتسول ! ويقول إنه ذاق من مرارة
 الجوع ما لم يذقه إنسان إذ كان يتضورُ تضوراً لا ينقطع

وخزّه القاتل ببعض الفُتات حتى يرجع كما كان بل أشد ،
وبعد إسهاب مطيلٍ في شرح ضروب الفاقة التي عاناها ،
ذكر أنه أحسَّ بضرب مؤلم في ضرسه كاد ينزِعُ روحه
فخرج هائماً على وجهه ليدلّه أحد الناس على استعمال
الأفيون كي يهذيء ضربات الضرس ، وقد ذاقه لأول مرة ،
فجُرَّ به جنونا ، وعزَّ عليه أن يسلوّه ، وقد كتب توماس
صفحاتٍ مثيرةً تصوّر إحساسه بهذا المخدر ، صفحاتٍ
مُسرفة يسوقها تبريراً لانحداره ، يقول في بعض سطورها
مصوراً إحساسه به لأول مرة :

« يا للسماء ! ما هذا البعثُ الَّذِي حدث ، انتقلت مرةً
من أبعد الأغوار سُحْقاً إلى أرفع الدُرى ارتفاعاً ، شعرتُ
بتغيير كلي ، زالت آلامي كلّها دفعةً واحدة ، على أن رَوَّال
الآلم لم يكنُ بالأمر العظيم إذا قيس بغيره ، فقد فُتِحَتْ
أمامي أبواب الفردوس ، فنعمتُ بالحياة حتى خُيل إليّ أنني
قد تعاطيت سرَّ السعادة الَّذِي أضاع الفلاسفة أعمارهم في
البحث عنه ، أجل ، أستطيعُ الآن أن أشتري هذه السعادة
وأن أحمّلها في جيبِي « بيتي واحد ! » .

يقولُ هذا توماس ، وقد اعترف أنه غبَّ إيمانه لم يَعُدْ
يصلحُ لشيءٍ ، حتى أنه كان لا يستطيع أن يخطر سائلٌ من
ثلاثة أصدقائه إلا بعد جهد جهيد ! وقد قضى عمره
لم يؤلف شيئاً غير اعترافاته التي كتبها ارتجالاً وكأنه
يتحدث ، ويلحظ الناقد خللاً في سياقها ، إذ يستطرد كثيراً

إلى ما لا يمت إلى موضوعه ، ثم يكرّر ما قال ثانية وثالثة !
وهذا ليس بأسلوب كاتب مقتدر ذي مؤهبة ، بل ليست هذه
طاقة من كان يُخطيء أسألتته ويدلّهم على الصواب ، وهو
تلميذ ! والذين يتحدثون عن نشوة المخدرات ،
يستشهدون بفقرات مما كتب توماس ويردون كثيراً قوله
في مناجاة الأفيون :

« أيها الساحر العظيم ، ياذا القدرة التي لا تتلاشى ،
والقوة التي لا تقهر ، يا من تجلبُ العزاء لقلوب الأغنياء
والفقراء على السواء ، إذا انطلق لسانك بسحر بيانك
انتزع من القلوب الحقد والبغضاء وإذا ما جَلَبَت الأحلام
ليلة واحدة عادت إلى المجرم التعس ذكرى أيام الطفولة
بألعابها الهانئة فتغسلُ عن يده دم الجريمة » .

وهذه الأقوال التي تُنتزعُ انتزاعاً من اعتراف توماس ،
يجب أن يُضاف إليها ما قاله في عواقب هذا البلاء حين
يُخمدُ الحس ، ويُخبلُ العقل وبينك الجسم فيصبحُ
متعاطيه مشلولاً جسماً وعقلاً وإرادة ! كان عليهم أن
يستشهدوا بمثل قوله :

« إنني أحاول أن أصف أو أصور حالة الخمول التي
أصبحت فيها ، وهي صورة لكل يوم من أيام السنين التي
قضيتها تحت سحر هذا الوباء الخادع ، أحاول ذلك
فلا أستجمع إدراكاً يكفي لي كتابة ثلاثة أسطر ، بل
لا أستطيع أن أكتب رسالة قصيرة إلا بعد أشهر وأسابيع ،

فاتألم لمصيري لأن أكل الأفيون لا يعقد شعوره بألمه
 النفسي ، وانحدار أماله ، بل يتزايد هذا الشعور مع
 انحطاطه الجسمي والعقلي فيزيده سعيًا والتهابًا ؛ يشعر
 أن الواجب يدعوهُ إلى النهوض ، ولكنه لا يستطيع التحرك
 كرجل أصابه الشلل ، فلزم الفراش عاجزًا عن مغادرته ،
 إني عاجز عجز الرضيع في يدي مُرضعته ، أذرف الدموعَ
 وأقذفُ بالأهات دون جدوى ، ويزيدُ على هذا الرهق النفسي
 ما أحسُّه من ألم في التنفس ، وضيق في الصدر ، وفساد في
 التخيل ، إذ كان يُخيل إليّ أني كل ليلة أنزل ثم أنزل ثم أنزل
 إلى أغوار مظلمةٍ سحيقةٍ يتلو بعضها بعضًا ، وأشعر أن من
 المستحيل أن أُخرج منها فأزداد تعاسةً وأود الانتحار
 لأنجو .

هذا بعضُ ما ذكره توماس عن تجربةٍ صادقة ، اعترف
 بها تلقائيًا دون إلزام .

شارل بولدير

شارل بولدير صاحبُ ديوان (أزهير الشر) شاعرٌ
 اسمه أكبرُ من شعره ، فإن غرائب شذوذه وظواهر انحلاله
 دفعت أعلامًا كثيرةً إلى الاحتفاء بأدبه ، فكتبَتْ عنه
 الدراسات الكثيرة التي لم يحظَ أولو الجد بأمثالها ، وكأن
 الذين يعكفون على دراسة هؤلاء يُروحون عن أنفسهم إذ
 يعبرون عن عواطفهم الذاتية في ستار من التحليل الأدبي

المحايد ! ولا نَظْلُمُ الشاعر حين نذكرُ أنه شاعر الرذيلة ،
وقد كان صديقي الأستاذ ابراهيم المصري لا يعدلُ به
شاعراً آخر من أرباب اتجاهه ، وهو مع ذلك يقولُ عنه في
كتاب (الفكر والعالم) .

(والحياءُ في عُرف بودلير لا تبدو في مختلف ألوانها
الصارخة إلا في الرذيلة والشر ، فقد حُلِبَت الرذائل لبّه ،
يود أن يهبط إلى أعماقها السحيقة ، حيث تبدو الفطرة
الحيوانية مجردة من العرف الاجتماعي ، والواجبات
المفروضة ، شريعة متخبطة عارية من كل دثار ، فشعره
مفعم بالجنون الشهوي ، تتوارد فيه أبشع صور الدعارة ،
يختلط فيها الإلحاد والعبث والفوضى الخلقية
المحتاجة) .

ويكفي هذا لنقرر أن الرذائل تتتابع متلاحقة لدى
أصحابها ، فبودلير قد عشق النساء والسواقط منهن بنوع
خاص ، وعشق الخمر ، ثم قرأ كتاب (اعترافات أكل
الأفيون) لتوماس دي كنسي المشار إليه من قبل ، فجرّه إلى
هذا المخدر ، وكتب عنه كثيراً مما أوحاه تفكيره المنحدر ،
وصحب معه الحشيش أيضاً ، فكانت الخمر والأفيون
والحشيش حلقات في سلسلة تغلُّ الشاعر لتَهْوِي به إلى
الفناء السريع ، ولم يغب عنه أن يُغلف فكره الهابط بغلائل
ذات بريق يخدعُ بها قارئه حين قال عن الحشيش :
(إنَّ في الإنسان رغبةً مستأصلة لإدراك المثل العليا ،

الروح ويُطلقها من سجنها المادي ، العائق لها عن الوصول إلى هذه الأهداف ، كذلك السعادة هي الضالة المنشودة لبني الانسان ، وبما أنها ليست في متناول الجميع ، فهو يحاول ما أمكن أن يتوهمها ويصطنعها ، فقدح من مدام ، وشهقة من تبغ ، ومضغة من خشيش ، تجد بها الروح تخلصت وتبدلت .

يا عجباً ! يحاول الصوفيون إدراك المثل العليا والوصول الى الحقيقة فيتجردون من الشهوات ، ويُطيلون مناجاة الخالق في الخلوات ، ويخرجون من أموالهم للفقراء والمساكين عن رغبةٍ مخلصه ! وقلما يصلون بعد ذلك ! أما بودلير فيرى إدراك المثل العليا والوصول الى الحقيقة محصوراً في قدح من خمر . ومضغة من خشيش ، وشهقة من تبغ ! وهو تفكير لا يُستغرب من مدمن مخدرات !

تيوفيل جوتييه

هذا الأديب الفرنسي اللامع حبيبٌ لدى المثقفين من المصريين ، فقد سجل تاريخ مصر الفرعونية في أدبه شعرا ونثرا إذ تحدث عن مدينة طيبة القديمة في كتابه (قصة المومياء) كما نظم قصيدةً من أرقى قصائده على لسان المسلة المصرية القائمة بباريس ! ولكن داء القرن التاسع عشر أدركه حين وقع في أسر المخدرات ، وبلغ به الإدمان مبلغاً وصف تأثيره في كتاب خاص أسماه (نادي الحشاشين) وقد استطاع أن يرصد أوهامه الباطنية في

لحظات تخديره ، فأعلن أنه تخيل بعد تناول الحشيش أن جسده قد ذاب ذوبانا ، وصار شفافا ، وأن أهداب عينيه قد امتدت كأسلاك رفيعة من الذهب ، ثم أخذت تلتف حول كرات صغيرة من العاج أخذت تدور حول نفسها ، وقد انفجرت من حول الشاعر أنهار من الفضة ، شواطئها من الذهب ، وبعد أمم عاوده الصحو قليلا ثم أدركته السمادير ليرى نفسه بين جماعات من الطيور والفراشات وليسمع أغاريد جميلة لا عهد له بها ، كما رأى أكثر من خمسمائة ساعة دقاقة ترن في سمعه رنيناً يشبه الأهازيج ، وحين صحامة ثانية أدرك أن هذه المناظر الجميلة قد مرت عليه في أقل من ربع ساعة فقط ! عاد بها إلى الفتور والهمود .

لم تكن هذه الخيالات الموهومة وقفاً على توفيل جوتنيه وحده ، فأكثر المتعاطين يتوهمون ما لا يحصى من الأخيلة ، ولكن ما يعقب فترة الذهول يرجع بالنكد الأليم فيحتسي مرارته هذا الحالم السكران ، وقد نقل الدكتور يعقوب صروف في كتابه (فصول في التاريخ الطبيعى) وصفاً كتبته مُدمنة انجليزية أديبة عن عذابها النفسى الشاق أثناء الأوهام وعقب انتهائها ، إذ كانت تسمع أصواتا تخرق جسمها حادة كالسهم فتمزقه تمزيقاً ، وكانت الأرض تنشق تحتها لتهوى فيها صائحة مستغيثة ، وقد أومضت البروق الحمراء من كل الجهات أمامها ، وانطلق مدفع رهيب لم تسمع بأقوى من دويّه

المزعج طيلة حياتها ، وقد حُيل إليها أنه ينطلق متوجها إليها في وحشية ، كما تصورت أنها انفصلت عن جسدها ، وأنها رأت هذا الجسد مُلقًى طريقاً لا حراك به إذ من العجيب أنها بعد أن أفاقَت تحدثت مع من أخبرها بأن صوت المدفع المدوي لا يعدو أن يكون ترجمةً عن خفقان قلبها المتكرر في فزع !

هذا لونٌ من العذاب التعس يُضاف إلى ما نعلمه من العذاب الجسمي حين ينحلّ الجسد ، وتُرهكُ المفاصل وتُشلّ الإرادة ، وينعقد اللسان .

أوهام خاطئة

على أن بعض الشعراء يقعُ في روعهم أن المخدر اللعين يُساعد على صفاء القريحة ، وروعة التصوير فالشاعر الانجليزي (كولردج) وقد كان مؤمناً كبيراً زعم أنه ألهم معاني قصيدته (كبلخان) بعد أن تعاطى ما تيسر من الأفيون ، وهو لونٌ من التبرير المكشوف يتوجه به المدمن إلى لائميهِ من العقلاء ليخففوا من تانيبيه ، كما رأينا بين المخمورين من شعراء العربية من يحاول أن يبري نفسه من إثم الخمرة مدعياً أنها تُذهبُ الحزن ، وتجلو الهم ، ولئن صحَّ بعض ما يُقال عن مكابرة هُشّة تمحلا وتبريراً في هذا المجال ، فإن شاعر الحكمة أبا العلاء المعري قد عصف بهذا الخداع حين قال :

ايأتي دعي يجعل الخمر طلقه
فتحمل شطراً من همومي واحزاني
وهيهات لو حلت لما كنت شارباً
مخففة في الخلم كفة ميزاني

شكيب أرسلان شاعرا

« ١ »

أسف أبناء العروبة في كل موطن من مواطنها لموت شكيب أرسلان ، لقد قرأت نبأ رحيله دامعاً حزينا ، كأني أقرأ منعي صديق أثير تصلني به وشائج القرابة والصحبة ، إذ تتلمذت سنوات عديدة على أثار قلمه الفياض ، أدرس كتبه فأمتع ، وأقرأ مقالاته فأستزيد ، وأحفظ قصائده فأنعش ، كما أذكر مواقف المخلص في دنيا الجهاد المناضل فأتمنى أن يكون لدينا من يحتذونه إثارا وتضحية ، إذ كان في هذا المجال أمة واحدة .

وقد رأيت واجبا علي أن أشيد ببعض مزاياه ، فأخذت أسائل نفسي ماذا عسى أن أقول في هذا العلم الباذخ ، وقد كان جيشا يحارب في شتى الجبهات ، وإذا تركت الحقل السياسي لذوي الخبرة بمواهبه النضالية فعن أي ناحية أتحدث في أدبه ؟ أتحدث عنه مؤرخا باحثا ؟ أم صاحب مقال رنان يكون الأول دائما بين مقالات الصحف الكبرى ؟ أم ناقدا محللا يناقش روائع السابقين والخالفين بمنطق جزل ، وقول فصل ؟ أم شاعرا ذا ديوان ناضر تسيير أوابده ، وترن قوافيه !

ثم بدا لي أن أفتتح الحديث عن شعره ، لأن الذين تكلموا عنه بعد رحيله طيلة العام الماضي لم يتعرضوا لفنه

الموهوب بما يشير إلى مكانته الشعرية ، وكأني بجهاذه السياسي ، ونثره العلمي قد طغيا على جوانب إبداعه الأخرى ، فعزمت أن أتحدث عن شعره ليحفظ له أبناء الجيل الحاضر مكانه الواضح في سجل شعراء البعث إذ يقرنونه عن جدارة بشوقي وحافظ والكاظمي وأحمد محرم والكاشف ، وليدركوا فارق ما بينه وبين شعراء تخلّوا عن نصاعة البيان وقوة الفكرة ، ثم أنحوا على ذوي الأصالة هاجمين قادحين ! وكأنهم قد جاعوا إفكاً وزُوراً حين ترسموا نهج الفحول ، فوصلوا ما انقطع في فترات الضعف مبرزين مسعدين .

نشأ شكيب في أسرة عربية عريقة يتصل نسبها بالنعمان بن المنذر أمير الحيرة في عهدها الجاهلي ، فأوحى له هذا النسب التليد عزة واعتداداً ، وألزمه أن يحافظ على ما توجيهه النحائز العربية ، من حب للمروءة ، ومسعاة للمجد ، وذود عن الحياض ، وهيام بالشعر ، يسمعه العربي فتتهز أعطافه مرحاً ، ويرقص وجدانه نشوة ، لأنه يفصح عن ذات نفسه أصدق إفصاح ! وقد رأى الحياة طفلاً يستهل بعد مقدم أخيه (نسيب) بعام ونصف ، فنشأ الأخوان كالتوأمين ، دخلاً المدرسة معاً ، وتخرجاً معاً ، وبدأت مخايل شاعريتهما في سن مبكرة ، فهل سمعت أن شاعراً نشر قصائده في الصحف وهو في الرابعة عشرة من عمره قبل شكيب ؟ وهل سمعت أن شاعراً كان الأول في

مسابقة شعرية عامة وهو في السادسة عشرة من عمره قبل
نسب ؟ كان ذلك من الأخوين أثرا من آثار الوراثة العربية
التي غذتها البيئة الأدبية فأتت أكلها البهيج .

وقد أسعدهما الحظ بأستاذية الإمام محمد عبده في
بيروت ، إذ كان هذا المصلح الكبير في منفاه بالمدرسة
السلطانية فدلّهما على شعر محمود سامي البارودي ، وكان
الكثير منه مدوّنا بكتاب الوسيلة الأدبية للمرصفي ، فأكبا
على قصائده الحافلة حفظا واستظهارا ، ولا تسلم عما
يفعله الشاعر المعاصر في ناشئة جيله ، فهو يقرب إليهم
البعيد ، ويخلق في نفوسهم الرغبة الحافزة إلى تسنم
ذروته ، والارتقاء إلى أوجه . ومن هنا كان البارودي رحمه
الله نهرا صافيا فاض على شعراء بيروت كما فاض على شعراء
وادي النيل ، وما أثره في شوقي وحافظ ومحرم بمنكور !
على أن البارودي قد عارض شعراء الجاهلية وشعراء بني
العباس ، فقدّم نمطا من التراث العربي في أزهى عصوره
لكل ناشيء يتطلع ، وكان من حظ شكيب أن يولع بشعراء
العصر العباسي فيكب على دواوين المتنبي وأبي نواس
والبحثري والشريف ، وكلّهم قد عارضه البارودي وأشار
إلى مواقع قصائدهم محدّدا منوها ، أما نسب فقد هدته
معارضات البارودي لأمثال عنتره والنابغة إلى حياض
الشعر الجاهلي فعكف على استظهار المعلقات ، وجاء لفظه
جاهليا بدويا في مبتدأ نظمه ثم شاهد إقبال القراء على

المنحى السهل ، فرأى أن يعود إلى حياض الشعر العباسي
ليحتذيه ! ولا معابة في ذلك على ناشيء يترسم خطا سابقه
في أوائل الطريق ! لاسيما إذا كانت الفترة كلها فترة البعث
الأدبي لديباجة السابقين ، وقد جُمع شعر نسيب في ديوان
مستقل ، جمعه شكيب وقدمه وقام على طبعه معتزا
مباهيا ، فإذا أراد القاريء شاهدا منه يصور منحاه
الشعري فليستمع إلى حديثه العاطف عن فلاح بئس يجهد
يومه دون إنصاف إذ يقول نسيب عن ذلك المسكين :

يخد أديم الأرض خدّا كأنما
له قبل الغبراء ثأر مخلف
جبين بمرفض الصبيب مضمخ
وشعر بملتص الغبار مغلف
وجيد خفوق الأخدعين كأنما
تبينت من أوداجه الدم ينطف
إذا زلزلته سرعة الخطو أو شكت
أضالعه في زوره تتقصف
كان أزيز الخوف عند وجيئه
حسيس هشيم والندى يتوكتف
يساقط نثر الطين عنه إذا مشى

.....
كأنى به إذ فرق الترب والحصى
يفتش هل في باطن الأرض منصف

إذا استنجد الأمال عند اكتسابه

تبدي له ستر من القار مغدف

وربما كان شكيب قبل أن يشغله النثر أغزر من أخيه
شؤبوبا ، فقد والى قصائده على نحو لافت شاغل ، وقد
هيئت الأسماع لتلقي إنشاده منذ كان يافعا يتنقل في
حجرات الدرس ، فكان لا ينشر قصيدة في صحيفة إلا
أحدثت الشوق إلى أختها ، فتشجع إذ وجد انتباه قرائه
حافزا ملهما ، وما بلغ السابعة عشرة من سنه حتى جمع
ما نشره متفرقا في الصحف بديوان صغير ، أسماه
(الباكورة) جاعلاً إهداءه إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد
عبده ، متوددا إليه في تواضع ، معترفا بضالة الهدية إلى
جانب ما يليق أن يهدي إلى حكيم الإسلام في عصره ، وقد
قال في قصيدة الإهداء :

هي دون ما يهدي إليك وطالما

قبل الكبير هدية من صاغر

أهديتها لأكى تليق وإنما

مثلي على ما فاق ليس بقادر

لقد ظهرت الباكورة وتداولها الناس ، وتحدثت عنها
الأقلام في الصحف ، إذ دلت على شاعرية غضة وعطف
عليها الناقدون إذ رأوها محاكاة لأدب الفحول ، وهو
المطمح الأعلى حينئذ ! وإذا كانت هذه المحاكاة قد استترت

في أكثر من موضع فإنها قد جاءت صارخة في مواضع تعلن
عن أصلها دون نقاب فقد قال شكيب - مثلا - في بعض
مطالعه :

بقلبي ما تهمني العيون وتأرق
وللعين ما يلى الفؤاد ويرهق
وما كنت ممن يرهق العشق قلبه
ولكن من يسدري فنونك يعشق
وهذان من قول المتنبي :

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي
وللشوق ما لم يبق منى وما بقي
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه
ولكن من يبصر جفونك يعشق
والاتفاق واضح ! وهو مغفور لفتى ناشيء بهم أن
يطير .

واصل شكيب التفريد شاعراً ، وما كاد يفتتح العقد
الثالث من حياته حتى استوى أدبياً متمكناً ، وكان خيال
البارودي يراوحه ويغاديه ، والرجل بسرنديب في منفاه
لا يعلم شيئاً عن إعجاب تلميذه به ، ولكن شكيبا يكتب
المقالات في الأهرام ، ويزينها بأشعار البارودي مستشهداً ،
وتقع الأهرام في يد البارودي فيعرف أنه مذكور غير منسي ،

وتأخذه هزة الأديب الأريحي فيبدأ بالكتابة إلى شكيب
قائلا :

أشيت بذكرى بادئنا ومعقبا
وأمسكت لم أنبس ولم أتكلم
وماذاك ضنا بالوداد على امريء
حباني به لكن تهيت مقدمي

ولم يكن الشاعر الناشيء يتوقع أن يبدأ الرائد الكبير
بالمراسلة ، وأن تكون شعرا يُهدى إليه من زعيم كبير ذي
تاريخ سياسي ومجد أدبي ، وننصف البارودي إذ نتحدث
عن مروءته في هذا التشجيع ، إذ ألغى الفوارق الواضحة
بين أستاذ مكتمل وناشيء مبتديء ! ولعلّ منغاه السحيق
قد نال من نفسه حين انقطع حديث الناس عنه ، ورسائله
الكثيرة إلى أصدقائه بمصر لم تكن تجد الرد السريع دائما ،
وهو ما شكاه منه في حسرة في بعض ما بعث به إلى حسين
المرصفي وعبدالله فكري وغيرهما من ذوي الكلمة
المسموعة في البلاد . أما الأمير شكيب فقد حمد الظروف
التي واثقه بمراسلة أستاذه النازح ، فتدفقت خواطره
المشوقة في ردّ حار عاطفي ينبئ عن سعادته الغامرة .
ويصوّر هيئته الخاشعة أمام عظمة البارودي تصويرا حيا
نلمسه في قوله :

ألى كل يوم فيك شوق كأنما
طوى جانحا منى على نار ميسم

والقصيدة كلها تنحو هذا المنحى ، فورة عاطفة ، وقوة
ديباجة ، وصياغتها تدل على تمكّن بياني اعتمد فيه شكيب
على نفسه ، وانتزعه من ذات صدره ، وقد توالى الرسائل
أخذاً وردّاً بين الشاعرين حتى لكان شكيبا قد ملأ فراغا في
نفس البارودي كان في حاجة إلى من يشغله ، وقد عبّر
الشاعر الكبير عن صدق إحساسه ، وكأنه يحدث زميلا
قاسمه صداقة الزمن الممتد ، بل كأنه يحدث خدين شبابه
ورفيق رجولته حين قال مخاطبا إياه :

أنا أهواك فطرة ليس فيها
من مساع للنقض والابرام

جمعتنا الآداب قبل التلاقي
بنسيم الأرواح والأجسام

وإذا الحب لم يكن ذا دواع
كان أرسى قواعداً من شمام

وإذا كانت جرائد العصر قد اهتمت بنشر هذه

المراسلات ، فإن غنمها الراجح قد عاد على الشاعر الشاب بأجلز النفع ، فهو عند الناس صاحب البارودي ومطارحه ، وذلك ما ردّد ذكره بين المشاهير في دولة الشعر ، بل ما جعله يؤثر منحى البارودي في الصوغ البياني ، وما جعله يدافع عنه على مدى عمره السعيد ، وذلك إجمال يحتاج إلى تفصيل .

« ٢ »

كان الجو الأدبي في مبدأ هذا القرن بمصر يبشر بمستقبل زاهر للأدب ، فهناك مدرستان قويتان للنثر والشعر ، يتزعم الأولى محمد عبده ، ويقود الثانية محمود سامي البارودي وفي تلاميذ المدرستين أشبال فتية تتأهب للصيال ، وقد اتخذت من الصحافة حلبة للسباق ، فتركت وراءها دويّارنا وكسبت الصحافة والمجلات شهرة عالية بما تنشر من أدب ، أكثر مما كسبته من الحديث عن السياسة والاستعمار ، ولك أن تذكر أسماء شوقي والمنفلوطي والمويلحي وحافظ وزملائهم الكثيرين لتعرف مكانة الأدب والأدباء حين ذاك .

لهذا أثرى الأمير شكيب أرسلان صحافة مصر بنثره وشعره ، ولم يطق صبرا عن وادي النيل ، فرحل الى القاهرة والاسكندرية في زيارات متصلة ، واشتبك في حوار جدي حول اللغة والأدب والتاريخ ، وإذا كانت الصحافة

ذات اهتمام أكبر بالحوار الفكري فإن شكيبا قد أولى المقالات اهتماما لم يشأ أن يوليه للقصائد ! ولعل ظروف وقته كانت ذات حسم في ترجيح اتجاه على اتجاه ، وبخاصة إذا كان ذا رأي سياسي ينفج عنه ، وله معارضون مناوئون ، عى أن هيامه بالشعر لم يبارحه وإذا استترت دلائله حيناً فكما يستتر الجمر خلف طبقة غير سميكة من الرماد ، وكانت قريحته تفيض بمكنوناتها حين يطالع قصائد النظراء ، وقد يتعمد معارضة ما استحسّن من القصائد ، فلا بد أن يستعد ويحتشد ، وبخاصة إذا كان يعارض شوقياً ! وشوقي متفرغ للشعر لا يخلطه بسواه إلا فيما ندر ، ولكن شكيبا ينهل من كل معين ، وقد قرأ قصيدة شوقي الشهيرة .

رضى المسلمون والاسلام
 فرع عثمان دُم ، فذاك الدوام
 فعارضها مبدعاً بقصيدة مطلعها :

هل لسان أقواله : الالهام
 وبيان آياته الأحكام
 وأتى بمعان جيدة حازت رضاه ، إذ أشار إلى ذلك في كتابه عن شوقي ، على أنه اعترف بسبق صاحبه حين قال :

أوعارض فتى القريض فماعاً
 رضى ورد الحـمدائق القـلام

وقد كان الشعر السياسي والاجتماعي صاحب المقام الأول لدى الجمهور آنئذ ، وكان الشعراء يجتهدون ألا يفوتهم موقف يشغل الأذهان دون أن يعبروا عن خواطر الناس بما يبدعون ، ونزعة شكيب الاسلامية صارخة هاتفة لذلك كان صوته رنانا في الأحداث المفاجئة ، وكان اسمه يتألق مع كبار النظراء ، وهو في الاعتداء الإيطالي على ليبيا كان ذا صوت جهير ، لقد قال حافظ وشوقي ومطران قصائد شغلت الأنظار والأسماع والخواطر ، وهم الشعراء المرتقبون في كلّ مجال . وقد ترابطت أسماءهم في عقد لا ينقسم ، كما ترابطت أسماء الفرزدق وجريرو الأخطل في العصر الأموي ، ولكن شكيبا قال في الاعتداء الإيطالي ما جعله نظيرهؤلاء الأعلام ، وقد زادت حماسه فلم يكتب بالقول بل عجل إلى ساحة المقاتلة مع من أخذتهم حمية الاسلام من أمثال صالح حرب وعبد الحميد سعيد وعبد الرحمن عزام وعزيز المصري من رجالات مصر ، وحين انتقل إلى ساحة المعركة وجد الجنود يرددون قوله في الغزو الغاشم :

سلا هل لديهم من حديث لقادم
من الغرب يروى منه غلة هائم
وهل نظروا من نحو برقّة موهنا
فلاح لهم منها بريق الصوارم

تألق في ليالي ظلام وقسطل
فتشيء سحب الدمع من طرف شائم
مواطن إخوان تملأوا من الردى
كؤوسنا تساقوها بملء الحلاقم
تهيهم فيها العدو مهاجما
فجاء دبيب اللص في ليل قاتم
ولئن في إقدامه من إهابه
وهل يخدع الاسلام لين الأراقم
ومضى في القصيدة مرتفع النبرة ، يصف أرناب روما
متهمها ويطري أساد هاشم معجبا ، وأخذ يبدع الحكمة
السائرة والمثل الشرود محاكيا شوقي وأبا الطيب في مثل
قوله :

وما طال نوم السيف إلا تنبهت
عيون الدواهي منه عن جفن نائم
أما علاقته بمنافسيه من الشعراء ، فكانت علاقة الحب
الخالص ، لا يكاد يقرأ لأحدهم قصيدة إلا سارع الى
تقريظها في مقالة مشجّع ، كما يتحيل للاستشهاد بأبياتها في
مقالاته السياسية تنويها وتقديرا ، وحين كتب اليازجي
بعض ملاحظاته اللغوية على شعر شوقي كان شكيب أول
من تصدى لنقده ، واليازجي في عصره إمام متبوع وشكيب
شاب يتلمس منافذ الإبداع شعرا ومقالا وبحثا ، وكان

ما واجه به اليازجي موضع الارتياح من شوقي ، فقويت
بين الرجلين أواصر المحبة ، ودامت مودتهما أربعين عاما
حافلة بما يشتهي من الوفاء والصفاء ، حتى إذا مات
شوقي أصدر عنه صديقه كتابا حافلاً بأطيب الذكريات
وأجمع الآراء والتحليلات ، كما رثى أمير الشعراء بقصيدة
جمعت إلى صدق اللوعة وحرارة العاطفة براعة الوصف
وحسن التخيل ودقة التعبير ، وإذا دلت على عميق الحب
وخالص الوفاء فقد دلت من جهة مقابلة على تمكن
الشاعرية ، واكتمال الأداء ، ومن فرائدها الذائعة قول
الأمير :

رَقَّتْ لِنَغْمَتِهِ الْقُلُوبُ فَكَيْفَ مِمَّا
غَنَّى بِهَا رَقِصَتْ عَلَى نُبْرَاتِهِ
فَتَرَى الطَّبِيعَةَ قَبْلَ نَظَرْتِهِ لَهَا
غَيْرَ الطَّبِيعَةِ وَهِيَ فِي مَرَاتِهِ
وَالْحُسَّ يَشْرُقُ فِي الْعَيُونِ بِذَاتِهِ
وَهُنَا يَضِيءُ بِذَاتِهِ وَصَفَاتِهِ
لَوْ بَاتَ يَعْثُ بِالشَّرَابِ أَضَافَ مِنْ
كَاسَاتِهِ حَبِيبًا إِلَى كَسَاسَاتِهِ
أَوْ خَاضَ فِي ذِكْرِ الْعَزِيبِ تَشَابَهَتْ
أَعْطَافَ مُسْتَمْعِيهِ مَعَ بَنَاتِهِ
يَلْقَى عَلَى غُمَرَاتِ كُلِّ مَلَمَةٍ
قَوْلًا يَزِيلُ أَجَاجَهَا بِفِرَاتِهِ

فإذا تحدّث بالربيع ووشيه

أنساك بالتحبير وشى بناته

وكما وصفت هذه الأبيات شعر شوقي فقد دلّت على براعة شكيب التصويرية ! وقد كان صادقاً كلّ الصدق حين صدر عن نفسه دون مجاملة أو افتعال لأن مذهب شوقي الشعري كان موضع الإعجاب من نفس صاحبه ، بل كان مثله المحتذى بعد أن ودع البارودي الحياة ، وكلاّ الشعارين ينزع عن قوس واحدة في الهيام بالمشرب الفني لشعراء بني العباس .

نظم شكيب في أكثر فنون الشعر من غزل ومديح وسياسة واجتماع ، ولكنه كان سباقاً كلّ السبق في الرثاء والوصف ، وإبداعه في الرثاء يدل على وفاء متأصل ، ووداد نادر لصفوة الأصدقاء ، فإذا فجّعه الدهر بصفى أثير كان الشعر متنفسه الأول في الإفصاح عن كامن اللوعة وساخن الدمعة ، ومراثيه الأخوية أظهرت لقارئه أنبل العواطف الانسانية حين يحرص الصديق على حب الصديق ، وفي له نازحاً ومقيماً ، ولن تجد شعراً عاطفياً يبرز أحاسيس المودة كما أبرزها رثاء شكيب أرسلان لصديقه أمين فكري ! هذا الرثاء الذي تحدّر من أضفى الينابيع الانسانية شفافية ووجدانا ، وهز أوتار قارئه حين طالع هذه الخواطر النبيلة في مثل قوله عن صاحبه :

حملت له بين الضلوع أمانة
لو احتملتها الشّم ذابت تصدعا
وأصفيته مني إخاء لوائيه
أعار الليالي صفوها رُقن مشرعا
ومازلت أرعاه على البعد صاحباً
وقبلي لنجم الأفق من قد تطلعا
فإن يك هذا الأفق غيب بدره
فلا زهرت فيه الكواكب مطلعا
فكم من يد أضحت تدق بأختها
وكم شفة باتت تجاور أصبعها
أخلفت ثغرا بعد ثغرك باسمها
وطرفاً تمنى أن ينام فيهجعا
أناديك لا راجي الجواب فقد مضى
ويالهدف نفسي أن أقول فتسمعا
فلو صادحات الأيك يدرين من ثوى
لما بتن إلا في رثائك سجعاً

واللوعة في القصيدة وامثالها أوضح من أن يشار إليها
ببنان ! والشاعر في مرثي الأعلام من أصدقائه لا تشغله
هذه اللوعة عن حقيقة صاحبه ، فبعد أن يفصح عن
مشاعره الحزينة في صور عاطفية مؤثرة ينهد إلى سمات
الفقيد تحليلاً وتصويراً ، فيبرز سماته الفكرية ومواقفه
الحيوية إبرازاً حياً يساعد القارئ على أن يرى الصورة

الكاملة للمتحدث عنه ورثاء شكيب لصديقه المجاهد الكبير
الشيخ عبدالعزيز جاويش أصدق مثل لما نعينه ، إذ صور
الفجيرة الحارة بفقد مناضل ذاق شر الحياة دون خيرها ،
ومضغ المردون الحلو ، في رفعة رأس ، ونبالة هدف ، ثم
ثنى بالحديث عن تأثيره الأدبي كاتباً ثائراً فقال :

وإذا جررت على الطروس يراعة
بات الصرير براحتيك صليلا
تلك اليراعة وذ أكبر قائد
لو أنها في كفه ليصولا
تجواب الآفاق عن أصدائها
ويرتلون فصولها ترتيلا
لا فرق بين السامعين وقد وعوا
ما قلته والشاربين شمولا
تغدو أرق من النسيم فإن عدا
خطب غدوت الصارم المصقولا
ليث متى يزار لأمة أحمد
(ورد الفرات زهيره والنيلا)

هذا بعض ما يقال عن شعر الرثاء ! أما شعر الوصف
فلم يتخلف عن المرتبة الأولى في شيء ، وأحسن ما يكون
شكيب وصافاً مبدعاً حين يعمد إلى القصائد الطويلة
الشبيهة بالملاحم فإنه حينئذ يأتي بفرائد غالية من بدائع
الصور ، ونشير إلى قصيدتين رائعتين من هذا النمط

المختار ، إحداهما قصيدته عن (حطين) والأخرى
قصيدته عن (الأندلس) فإنه قد جرى حين قالهما في ميدان
يؤثره بنجواه ، ويمكك عليه مطارح هواه ! لقد استهل
قصيدته الشرقية بوصف نهر الأردن مصوراً تعاريجه
وتدفقه ، ثم خلص الى بحيرة طبرية فذكرنا بالمتنبي حين
وصفها من قبل ! ومهد بذلك للحديث عن الملحمة الرائعة
ملحمة صلاح الدين مع غرمائه المعتدين فتدفق الشاعر
حماسة وامتد نفسه في القصيدة حتى جاوزت المائة
والخمسين من الأبيات ، ومن قوله فيها واصفا بعض
المعارك :

كأنما قومنا وقد ثبتوا
شم حصون لها القنا جذر
كأنما قومنا وقد وثبوا
زعازع للحصون تهتصر
ذاق العدا من سلاف طعنهمو
كأسا بغير العنقود تختمر
ضراغم أجفلوا وقد نظروا
حمر المنايا كأنهم حمر
لم يجبنوا ساعة وإن خذلوا
وإنما الليث دونيه النممر
يوم تلاقى الجمعان وانتصف الميز
ان رهن انحرافه الظفر

عوقب بالأسر موقن بردى
وجل مُلكا مع العمى العور

أما قصيدته الغربية فأكثر شجى وأغزر دمعا ! لأنها
قصيدة الفجيعة لا قصيدة الانتصار ! ومع ما يحس
القاريء من لفح النار ، ولذع الذكرى فإنه يستمر في القراءة
لا ينقطع إلا ليرسل زفرة ، أو يسقط عبرة ! أي جرح كانت
هذه الأندلس في قلوب الخالفين ! لقد كانت كعبة الحضارة
الانسانية رحمة وعدلا وإخاء كما كانت مهبط الفن أدبا
وشعرا ومعمارا ! وكل ذلك تراءى ساطع الضوء ، قوي
اللمح في مرآة شكيب ، فإذا أردت شاهدا ناطقا ببعض هذه
الروائع فاستمع إلى ما قاله الشاعر عن الأعمدة الناهضة
بجامع قرطبة :

تراها صفوفًا قائمات كأنها
حدائق نُصّت من جمادٍ مشجر
من العمود الأسنى فكل يتيمة
لها نسب من مقطع متخير
نبث دونها زرق الفؤوس وأصبحت
لدى الفرى تهزا بالحديد المعصفر
ولكن لفضل الفن ألفت قيادها
فصال بها الصنّاع صولة عنتر
فبينما هي الصمّ الصلاد إذا انثنت
مقاطع جبن أو قوالب سكر

عرائس للتحريم فوق رءوسها
أكاليل درّ في قلاند جوهر

أما الحسرة الكاوية فتلذع في مثل قوله :

وكائنة لم يعرف الدهر أختها
ولا حدثت عن مثلها كتب مخبر
يكاد الذي يتلو غريب حديثها
يظنّ خيالا أو أحاديث مفتر
يقولون كانت أمة عربية
بأنسدلس رغد، وزهر منور
وكم قائد قرم، وجند مدبر
وكم سائس فحل وأمر مدبر
وكم بطل إن ثار نقع رأيتـه
يبيع بأسواق المنايا ويشتري
وما شئت من علم ورأي وحكمة
ودرس وتحقيق وقول محرر
نعم كان فيها من نزار ويعرب
جموع تحيل الأرض في يوم محشر
فراحت كأن لم تغن بالأمس وانقضى
لهم كل ركز غير ذكر معطر
ولما رأيت المسجد الجامع الذي
بقرطبة من فوق فوق التصور

عضضت على كفي بكل نواجذي
وقلت لعيني اليوم دورك فاهمري
تخيلته والذكر يتلى خلاله
نظير دويّ النحل من كل مصدر
فكم أزهرت فيه ألوف مصابح
وكم أوقدت أرطال عود وعنبر
إذا حضرت آثار قومي وإن خلوا
فإني منها في قبيل ومعشر
فأشعر أني في بلادي كأنما
تخاطبني الأرواح من كلّ مقبر

وإذا شعر شكيب أنه في بلاده وهو يشاهد آثار قومه في
الأندلس ، فقد شعر القاريء لقصيدته أنه يشاهد هذه
الآثار ولم يبرح مكانه لروعة ما أضفى عليها من سحر
البيان !

ولست بحاجة بعد هذه النماذج المختارة إلى أن أبين
مذهب شكيب الفني ! إذ يكفي أن نعرف أنه أحد النجباء في
مدرسة البعث وأن البارودي رائده الأثير ..

بين العقاد وأحمد أمين

يتجلى هدوء العقاد واعتداله الرزين في مجال النقاش الفكري إذا أنس من مجادله صدقا وأمانة ، ورأى فيه حرصا على الحقيقة بعيدا عن التزيد والاستعلاء ، هنا يعطي الأستاذ العقاد أنشهى ثماره الفكرية في رحابة صدر ، وسكون نفس ، وهنا يكون المثل المنشود في صحة البرهان ، واستقامة الدليل ، وقد كان الأستاذ أحمد أمين أحد الذين ساجلوا العقاد في أكثر من موضوع ، وأحمد أمين أحد الأوائل الفضلاء حقا ، فهو يحرص على الحقيقة متطلبا وجهها الصحيح دون انتظار لغلبة أو نصر ، ومتى كان المناقش من هذا الطراز الأمين فإنه يضطر مجادليه إلى الالتزام بنهجه مكبرين نزاهته الواضحة ، وإخلاصه الجلي ، ومن شمائل العقاد المعهودة في معاركه الفكرية ، أنه يتعالى ويعنف ويستبد بمن يشم منه رائحة الادعاء ، ومن يرى فيه - خطأ أو صوابا - أنه ينشد الجدل للجدل لا للحق وإيضاح الصواب ، هنا يركب العقاد الصعب في توهين مناقشه وتجريحه ، وهنا - والحق يقال - لا يكون العقاد في أفضل مواقفه الجدلية كما لا يكون غريمه أيضا وإن ضاهاه مكانة وشهرة في الموقف الأمثل ، ولك أن تضرب المثل لذلك بما قام بين الرافعي والعقاد من جدل تكررت مواقفه ، فقد كان الكاتبان الكبيران معًا من الحدة بحيث لم

يربحا شيئاً يضاف إلى مجدهما الأدبي في هذا المجال ، أما ما خصصنا به هذا البحث من عرض لبعض ما كان بين العقاد وأحمد أمين من سجال فكري متعدد ، فهو ما يعطي المثل المنشود لمن يرغب في متابعة الصيال العقلي بعيداً عن مساقط النزوات ، ومهاوي الأهواء ، ومن غرائب النفس البشرية أنها تهش للجدل المشتعل أكثر مما تهش للجدل الهادي . لذلك تعرض دارسو العقاد لمناقشاته مع الرافعي ومندور والزهاوي وأمين الخولي وأنصار شوقي دون أن يتعرضوا لمناقشاته مع ذوي الاتزان البصير ، وفي مقدمتهم الأستاذ أحمد أمين ، فإذا حاولت أن أتحدث عن نقاش الكاتبين الكريمين ، فلكي أبسط أمام القراء صفحات رائعة شغل عنها الدارسون بغيرها لا لشيء إلا أنها لم تثر الضجيج الصاخب ، أو تبعث الرعد المجلجل ! بل سارت هادئة صافية كما يسير النمير العذب في جدوله الرقيق .

كتب الأستاذ أحمد أمين مقالاً جيداً تحت عنوان (ندرة البطولة)^(١) ذكر فيه أن البطولة في العصر الحاضر أقل منها بكثير في العصور الماضية ، وإننا نتلفت في أيامنا هذه فلا نجد في الشعر أمثال بشار وأبي نواس وابن الرومي وابن المعتز وأبي العلاء ولا نجد في النثر أمثال الجاحظ وابن المقفع ولا في قيادة الحروب أمثال خالد بن الوليد

(١) مجلة الرسالة العدد ٢٠٠

وأبي عبيدة ولا في سياسة الأمم أمثال عمر بن الخطاب وعمر بن عبدالعزيز ، وحين فقدنا جمال الدين ومحمد عبده وشوقي وحافظ ابراهيم لم نجد منهم عوضا ، وقد كانت كل الظواهر تدل على أن الجيل الحاضر أحسن استعدادا من الجيل الماضي وما سبقه لأن يكثر فيه النابغون ، فقد كثرت الجامعات والمدارس والصحف ، وتعددت وسائل التربية والثقيف واتصل العالم بعضه ببعض ثقافيا وحضاريا واجتماعيا ، وكان ذلك كله مدعاة النبوغ المتعدد لا مدعاة العقم والإحمال ، ويترك الأستاذ أحمد أمين هذه الظاهرة إلى تحليلها التعليلي بما عهد عنه من تأمل واطمئنان فيرى أن المعاصرين قد علّأ مثلهم الأعلى فلم يعودوا يقنعون بمثل قريب ، وهم يضمنون بوصف النابغة إلا على من حاز أروع الصفات وإذن فالعظمة المعتادة لا تبهرهم كما بهرت السابقين ، ثم أننا اليوم قد شعرنا بأنفسنا ، ومن يشعر بقيمة نفسه لا يهون عليه أن يلقي الزمام لبطل يراه ذا مواهب أكثر وأرقى ، وقد كان للمشعوذين من قبل مكان القيادة ، وهيهات أن يصل مشعوذ الآن إلى خداع الجمهور إلا في النادر ، كما أن مقاييس البطولة إذا كانت قد تغيرت وأصبحت عند المحدثين خيرا منها لدى المتقدمين فإن بُعد الزمن بالقداامي قد خلع عليهم قداسة لا يجدها المعاصر ، فقد توالى صحف التاريخ على تمجيد البطل القديم وكل نال يزيد على

سابقه بما يفترض ويتخيل حتى كاد البطل يخرج عن إنسانيته إلى ما فوقها ، ولذلك نجد في المعاصرين من يفوق بعض الأقدمين بمراحل ثم لا يلحق به لدى الناس .

هذه خلاصة مركزة حاولت اختزالها بجهد كبير لتعطي فكرة الأستاذ واضحة دون تحيف ، وحديثه عن هذه الظاهرة مثل جيد لأحاديثه المختلفة عن ظواهر شتى أبدع شرحها والتمس تعليلها فجاء بخير كثير ، وقد دعا الكتاب في خاتمة مقاله الى أن يشاركوه تحليل هذه الظاهرة : فكان من نصيبه أن يبدأ العقاد السجال .

بدأ العقاد مقاله بتلخيص جيد لرأي الأستاذ أحمد أمين ثم هجم على مخالفته حين أعلن أنه يقف من رأيه موقف النقيض من النقيض إذ يرى أن العصر الحديث أحفل بالبطولة والنبوغ من أي عصر سبق ، وجاء العقاد بالجديد حقاً حين قال : (ان الوجه في المقارنة بين جيل وجيل أن نحصر الزمن وأن نحصر المزايا ، وأن نحصر العناصر التي تقوم عليها شهرة الأدباء أو الأجيال) (٢) .

ولتفصيل هذه القضية بسط العقاد مقاله ليذكر أن الذين يسألون : هل نجد في الشعر أمثال بشار وابن الرومي وأبي نواس وابن المعتز وأبي العلاء يحسبون الماضي كله عصراً واحداً يقابله العصر الذي نعيش فيه وحده ، وينسون أن الزمن الذي نشأ فيه بشار والمعري يمتد في

أواسط القرن الثاني للهجرة إلى أواسط القرن الخامس ، أي نحو ثلاثمائة سنة ، وينسون أن المكان الذي نشأوا فيه يمتد من العراق إلى الشام ، وينسون أن العصر الذي نعيش فيه لا يمتد إلى أكثر من خمسين سنة ، وإنما الوجه أن يحصروا أربعين أو خمسين سنة من العصر الحديث ثم يحصروا أربعين أو خمسين سنة من العصور القديمة ويعقدوا المقارنة بين الفترتين .

هذا منطق العقاد ، وهو منطق واضح السداد ، ولم يناقشه الأستاذ أحمد أمين في تحديد الزمن بالذات ، إذ سلم له هذه النظرة ، وأنا شخصيا مع إعجابي بدقة العقاد لا أرى أن تحديد الزمن يرجح ميزة العصر الحاضر على الماضي إذ قد تحدث فترة زمنية محددة تأتي بنوايا شتى لا تجود بهم عصور متطاولة ، فإذا كان الأستاذ أحمد أمين قد باعد الشقة حين جمع بين بشار وأبي العلاء ، وجمع بين عمر بن الخطاب وعمر بن عبدالعزيز فإني أحصرهما في نطاق الخمسين الذي يريده العقاد فأسأله عن العصر الأدبي الذي جمع أبا تمام والبحري وابن الرومي وابن المعتز ، وكلهم نوابغ أعلام في دنيا الشعرو عن العصر الذي جمع المثني بن حارثة وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح وكلهم نوابغ في القيادة الحربية ، وأولئك في بغداد وهؤلاء في الجزيرة العربية ، فما رأي العقاد إذن في فترات خصبة تجود

بالنوابع فجأة في زمن واحد ومكان واحد وقد ذكرت منهم من اعتمدت منزلته على الأصالة الحقيقية لا على الادعاء والإغراق !

ثم ذكر العقاد أن الذين يعجبون بالجاحظ أو الموصلي لا يسألون أنفسهم ما هو الكتاب الذي ألفه الجاحظ ويعجز عن تأليفه المعاصرون ، وما هو اللحن الذي أبدعه الموصلي ويعجز عن إبداعه المعاصرون ، كما ينسون أن يتقصوا عوامل الشهرة في القديم والحديث ، وإذا ذكروا أمجاد الاسكندر أو جنكيز خان فلماذا ينسون أن كل حرب لابد فيها من منتصر ومنهزم ، فإذا قامت الحرب فلا بد إذن من بطل ينتصر ؟ وأن الانتصار وحده ليس بشيء إذا لم ننظر إلى عوامله ودواعيه ، كما أن مبالغات الأقدمين قد خلعت ثوبا فضفاضاً على ما كان ومن كان ، وأكد العقاد رأيه بقوله :

(ليس في تاريخ بني الانسان منذ بدايته إلى يومنا هذا عصر يعرض لنا من عجائب الحوادث والأمم والأفراد أمثال ما يعرضه لنا العصر الذي نحن فيه) .

وقبل أن ننقل إلى تعقيب الأستاذ أحمد أمين نذكر أن قول العقاد أن كل حرب لابد فيها من منتصر ومنهزم موضع نظر ، فقد تنتهى الحرب دون انتصار واضح لفريق على فريق ، وإنما هي خسارة مشتركة حاول الفريقان إيقافها عند حد ، ورجع كل محارب إلى قومه وعوامل إخفاقه

تضارع عوامل نجاحه دون ترجيح ، والعقاد الكبير قاريء مستوعب ولن تفوته أمثال كثيرة لما نعينه ، كما أن حديثه عن المبالغات المعزوة للأبطال القدماء لم يفت صاحبه ، فقد نص عليه ، وأكدده فيما ساقه من التحليل فهو إذن ترداد يراد به التأكيد ، وحديث المبالغات لا يختص بقديم دون حديث ، فقد شاهدنا في عصرنا الراهن وزارات للدعاية في الشرق والغرب تقوم على تمجيد الزعماء ، واختراع البطولات الزائفة ، ورأينا كيف تشوّه الحقائق ، وكيف تسخر الأقلام المأجورة لتحيل الظلام إلى ضياء ، ثم جاء وقت تكشففت فيه الحقائق عن أناس كانوا في السماء فسقطوا إلى الهاوية ، وظلّ نفر من الساذجين يخدعون بما سبقت به الدعاية إذ لهم عقول لا يفكرون بها ولا يتاملون .

وقد أسرع الأستاذ أحمد أمين بالرد على ملاحظات العقاد ، وكانت درسا رقيقا حين شكره على هدوئه المتزن ، وقال إنه سعيد برّده المقنع ، فقد أبان جانبا من الموضوع وأوضحه أيما إيضاح ودعّمه بالبراهين والحجج ، وذلك انصاف ينتظر من قاض عادل كالاستاذ أحمد أمين ، ثم دعا الكاتب إلى أن يحتذي الكاتبون مقال العقاد في نقاشهم فقال (٣) .

(٣) مجلة الرسالة العدد ٢٠٦

(وحبذا لو اتخذ هذا المقال مثلاً للناقدين فيناقشون ما عرض من الأفكار في هدوء وجد ، وتفكير عميق ، وبأسلوب مهذب ، ولا يكون لهم غرض غير الوصول إلى الحق وتجليته) .

وإخال الأستاذ أحمد أمين بهذا التوجيه يدعو العقاد أول ما يدعو إلى أن يسير على منهجه الذي احتذاه في المقال ، وقد كسبه بهذا الثناء الحق ، وإخال أن اعنف المتناظرين حدة يجد في نفسه باعثاً على الإنصاف لو أنس من زميله تسامحاً نبيلاً ، وما أثار النقع القاتم إلا التطرف المتبادل ، فأين المقسطون ؟ .

ولقد أفلح الأستاذ أحمد أمين حين حدد دائرة الخلاف بينه وبين مناظره ، فذكر أن ما يريده من النبوغ أن يفوق النابغة أهل زمانه وحدهم لا أهل من تلوه من الأزمان ، فسيبويه قد برز في النحو لأنه فاق معاصريه فعجزوا أن يلحقوه ، وليس لأنه لا يوجد فيما تلاه من العصور من يفوقه ، فإذا أردنا أن نقارن عصراً بعصر ، في كثرة النبوغ وندرته فلانقارن معلومات بمعلومات ، يقول الأستاذ أحمد أمين لتوضيح هذه الفكرة :

(فإذا أردنا المقارنة بين العصر العباسي الأول - مثلاً - وبين عصرنا الحاضر في الأدب ، وازنا بين ابن المقفع والجاحظ وبشار وأبي نواس ، وبين الكتاب والشعراء العاديين في ذلك العصر ، وقسنا مسافة البعد بينهم ، ثم

فعلنا مثل ذلك في عصرنا الراهن فإن كانت مسافة البعد بين البارزين والعاديين في العصر العباسي أطول منها بين البارزين والعاديين في عصرنا حكمنا بأن البارزين في العصر العباسي «أنبغ» .

لقد ضيق الأستاذ أحمد أمين الدائرة بتحديد هذا ، وتقريرا للحق نذكر أن هذا التحديد لم يكن ملحوظا لديه في مقاله الأول ، ولكنه اهتدى إليه بعد تعقيب العقاد ، وقد لاحظ ذلك واعترف به حين ذكر أنه يخشى أن يكون في مقاله السابق لم يوضح هذا القصد ، وقد تسلسل مقاله فيما يجري هذا المجرى إذ حدد الإطار العام ليندرج فيه كل ما يعن من الجزئيات ، هذه الجزئيات التي نعني بتلخيصها ، لأن الأستاذ أحمد أمين والأستاذ العقاد معا من كتّاب المعاني الذين يؤثرون الإيجاز دون الإطناب فكيف لعمري نوجز الموجز ، وقد ختم الأستاذ أمين مقاله بأنه إذا كان طابع عصرنا الراهن هو الطابع المؤلف المعتاد لا طابع النابغة والبطل ، فلا يمكن الرد حينئذ بمزايا العصر الحاضر والعلم الحاضر لأن غنى العصر الحاضر بالمتعلمين والمتقنين قد سلبه النبوغ فكان عجيبا أن نرى الغنى علّة الفقر ، والتخمة سبب الجوع .

ولعل القاريء في اشتياق إلى أن يسمع رد العقاد ، وما كان مثل العقاد ليفوته الرد على دفاع صاحبه وقد أحكمه وأحاطه بالتحفظ المتريث ليبلغ مبلغ الاقناع من العقاد !

ولكن العقاد قد اقتنع بشيء ، وخالف في شيء ، اقتنع بأنه لا ينبغي أن نقيس علم السابقين إلى علم المحدثين فليست المقارنة بين مقدار ما نعلم ومقدار ما يعلمون ، وخالف في تقدير الملكات حيث رأى أنه لا موجب لديه لأن تكون ملكات النابغين في عصرنا أقل مما كانت في عصر الأقدمين .

ولتقرير هذه الوجهة ذكر العقاد ملاحظات كثيرة رجع فيها إلى دراسة النفس الإنسانية ، فبين أنها لا تقدس البطولة في عصر دون عصر فربما كان إجلال الإيطاليين لموسوليني الآن - كان ذلك قبل أن يندحر في الحرب العالمية الثانية - أكثر من إجلال السابقين لنوابغهم انجذابا لما يبذله من الدعاية والتزييف ، كما أن إهمال المعاصرين ليس وقفا على هذا الزمن حيث يقول المثل القديم (زامر الحي لا يطرب) وحيث يشكو الجاحظ من كساد ما يكتب فلا يروج إلا إذا نسب له كاتب سابق ، وقد ختم العقاد مقاله بفصل الخطاب حين قال (٤) .

(إننا نستطيع أن نقول مع الأستاذ الكبير :- إن النبوغ في عصرنا كثرة لا ندرة ، ولا نستطيع أن نقول معه أن المسافة بين النابغ وسواد الناس تقترب في العصر الحديث لأن ازدياد التعليم يزيد نصيب المتعلم من المعرفة ولا يخلق له فطرة أخرى ولا ملكة مطبوعة كذلك التي يخلق بها النابغون الممتازون) .

هذه جولة أولى بين الكاتبين الكبيرين ، وقد تركت مجالا فسيحا للنعقيب المتصل في مجلات العالم العربي ، كما كتب الأستاذ الكبير فتحي رضوان بالرسالة مقالا للفصل في حقائقها ، وتفصيل ذلك كله مما لا يندرج تحت عنوان هذا المقال .

أما الجولة الثانية فكانت حول إحدى العبقريات التي خصها العقاد بعظماء الإسلام ، وقد بدأها الأستاذ أحمد أمين حين تعرض للموازنة بين كتاب أبي بكر الصديق لهيكل وعبقرية عمر للعقاد فكتب مقالا نقديا ممتازا يدل على أن صاحب فجر الإسلام ليس مؤرخا للحياة العقلية فحسب ، ولكنه مؤرخ ناقد معا ، فبعد أن تحدث عن ما اتفق فيه هيكل والعقاد من السمات الأدبية في كتابة التاريخ ، تحدث عما اختلفا فيه فذكر عن هيكل أنه يلون طريقته بلون المؤرخ فيعرض للروايات المختلفة في الموضوع وما حكاها المؤرخون من الأنظار المختلفة ، ويدعوه ذلك إلى الإسهاب في بعض التفاصيل ، أما الأستاذ العقاد ، فيدرس الروايات المختلفة في السر ، يدرسها لنفسه لا للقاريء ، ويطمئن لرأي ثم يجلوه ويحتج له ولا يشرك القاريء معه في دراسته ، شأنه شأن الأديب ينظر إلى المنظر من طيارة ، ويصوره من طيارة ، والدكتور هيكل ينظر إليه من أرضه في أرضه فيلمسه ويجسه ويدور حوله وينفذ فيه ليراه في أوضاعه المختلفة ، ثم قال بعد مؤاخذات جوهريه للكاتبين

إن الدكتور هيكل لوّن كتابه بلون العلم فهو يصف الشجرة بجذورها وساقها وأغصانها وزهراتها ، وصبغ العقاد كتابه بصبغة الفنان لا يرى من شجرة الورد الجميلة إلا وردتها الجميلة ، ولهذا ذكر هيكل مراجعته لأن هذا عمل المؤرخ ، ولم يثبتها العقاد لأنه عمل الأديب^(٥) .

أشهد أن هذا التصوير النقدي جد موفق ، وقد طوى من المأخذ على عبقرية عمر مالا يفوت كاتباً حقيقياً كالعقاد ، ولكنه سكت عن الرد لاعتقاده أن أحمد أمين يقول ما يعتقد في أسلوب حريري دون رغبة في استعلاء يتشامخ به على صاحبه ، ثم أصدر العقاد عبقرية الإمام ، فتحدث عنها أحمد أمين^(٦) ليذكر ملاحظاته الجوهرية في وضوح ، وهي ملاحظات صائبة أفرد العقاد^(٧) مقالا رئيسيا للرد عليها ! وقام بتلخيصها في صدر الرسالة تلخيصا دقيقا ركزه العقاد في هذه النقاط حاكيا عن نفسه .

١ - إنني اعتمدت على بعض الروايات من غير كبير نقد ، كاعتمادي على رواية نهج البلاغة في وصف الخفاش والطواويس .

٢ - إنني اعتمدت على ما روى في حديث سوء عمرو بن العاص ، وهي رواية لم يقرأها الأستاذ الفاضل في الطبري ويذكرها المؤرخون الأثبات بصيغة التمرّض .

(٥) مجلة الثقافة العدد ٢١١ .

(٦) مجلة الثقافة العدد ٢٥٤ .

(٧) مجلة الرسالة العدد ٥٤٣ .

٣ - إن تقسيم الكلمة الذي نسب إلى الإمام في علم النحو أشبه بالتقسيم المنطقي اليوناني ، وهذا كله نابٍ عن طبيعة العصر .

٤ - كنت في العبقريات السابقة فنانا وقاضيا فمضيت في كتابي هذا على نهج أقرب إلى نهج المحامي والفنان .

هذا تلخيص العقاد لا يخرم مأخذاً مما ذكره الأستاذ أحمد أمين في مجلة الثقافة ، ولعل اهتمام العقاد بتفصيل الرد على هذه المأخذ في تدقيق وبراعة يدلنا على أن المأخذ قوية صائبة ، وذات أصالة توجب التلبث والتؤدة على من يحاول تفنيدها ، وقد لجأ العقاد إلى التخريج الذهني ، وهو أبرع من يتخذه سلاحاً بين الكاتبين ، وقد نسي أن حقائق التاريخ الثابتة لا يجدي معها تخريج رائع يبتكره ذهن وقاد ، فالعقاد يرى أن المقياس في هذه الأمور عنده (أن) يجزم بدليل قاطع أو أن ينفي بدليل قاطع ، وأما الترجيح فالمعول في قوته وضعفه على مشابهة القول المرجح للمعهود والمعقول ، فإن كان هذا القول مشابهاً لهما فلا ضرر من الأخذ به على أية حال ، كأن نعلم أن فلاناً رجل محسن ، فلا يضر بعد ذلك أن يقال أنه أحسن بدينار في يوم من الأيام وهو في ذلك اليوم نفسه لم يحسن بدينار ، أو يقال إن (فلاناً) لص معروف فلا ضرر أن يتهم بسرقة رجل بعينه ، وهو لم يسرق منه ، بل سرق من رجال آخرين^(٨) .

فما معنى هذا الذي يبتديء به العقاد ؟ معناه أننا لا

(٨) الرسالة العدد ٥٤٣ .

نملك الدليل اليقيني أولا في هذه المسائل لأن الجزم بها متعذر ، وما دامت المسألة مسألة ترجيح فقط فلا مانع من أن نرجح أن فلانا قد أحسن بشيء معين وإن لم يحسن به ، متى كانت طبيعته الإحسان ، ولا مانع من أن نرجح تهمة لص بسرقة شيء ما متى كانت طبيعته السرقة ، وإن لم يسرق هذا الشيء بعينه ؟ .

وبناء على ذلك فوصف علي للطاؤوس والخفاش غير مستغرب ، وإن لم نتيقن أنه قد قاله ، فهو عربي أصيل وقد اشتهر العرب بوصف الأحياء المتوحشة والإنسانية ، فإذا نسب إليه هذا القول فلا نجد حرجا في قبوله لأنه قادر عليه وعلى مثله !

وكذلك ما قيل عن صدور علي عن قتل عمرو بعد أن احتمى بسوءته ! هذا العمل غير مستغرب من أخلاق علي المعهودة لأنه كان لا يتبع موليا ولا ينظر إلى عورة ، وكان ينهي جنده أن يتبعوا الموليين ويهتكوا العورات ، وليس الطبري بالمرجع الوافي الذي تتبع كل ما كان ، فيكون إهماله الحادثة دليلا على نفيها .

أما مسألة النحو فالسريان كانوا أقرب إلى اللغة العربية وإلى الكوفة من اليونان ومذاكرة الإمام لعلمائهم أقرب من مذاكرته لعلماء اليونان فمن شاء أن ينفي الروايات المتواترة نفيًا قاطعًا فعليه بالدليل ، وقد سلم العقاد بأنه اتخذ موقف المحامي في عبقرية الإمام لأن جو الموضوع قد اقتضى الدفاع دون سواء .

هذه خلاصة ما دفع به العقد مأخذ أحمد أمين على عبقرية الإمام ، والعقد قد لجأ إلى القياس المطلق ، وهو مما يلجأ إليه الأصوليون ولكن التاريخ لا يعتمد على الترجيح ، فإذا اعتمدنا على الترجيح وحده فعلى الكاتب أن يذكر أنه يرجح دون إيقان ، والعقد لم يذكر ذلك في مقدمة عبقرية الإمام ، ولكنه ذكره في مجال الرد على ملاحظات أحمد أمين ، ويخيل إلي أن الذي يجمل في هذا الموقف هو تجنب المظنون المحتمل والاعتماد على الحقيقي الثابت ! فالإنسان إذا اشتهر بالإحسان وأردنا أن نستدل على إحسانه المشتهر ، فلنكتف بأمثلة يقينية مادامت موجودة ومتعددة حتى سببت اشتهار صاحبها بها ، وما حاجتنا إلى مثال تحوم حوله شبهة ما ، ولدينا ما لا يعتل عليه بوجه من الوجوه ، كذلك إذا اشتهر إنسان بالسرقة وأردنا أن نثبت له ما اشتهر به ، فالأقرب أن نأتي بسرقة مؤكدة لاليس فيها في مجال الاستشهاد ، أما أن نأتي بسرقة غير مؤكدة ، ونجعلها الدليل لأنها لا تخرج عن طبيعة السارق فهذا غير الأولى دون نزاع وإن ارتضاه مفكر جلد ممتاز كالعقد .

وفي حوار ثالث لم يكن العقد طرفاً أصيلاً من أطرافه ، بل سئل عنه فأجاب ، في هذا الحوار القائم بين الأستاذ أحمد أمين والأستاذ توفيق الحكيم على صفحات الرسالة والثقافة معا ، تعرض الأستاذ العقد لمناقشة الأستاذ أحمد أمين في بعض ما ارتآه ، ولباب الحوار لا يخرج عما عرف

بمذهب الفن للفن مقارنا بمذهب الفن للإصلاح إذ دعا الأستاذ أحمد أمين بالعدد (٢٧٥) من مجلة الثقافة إلى أن يتجه الأدباء إلى النظر في مجتمعهم كما ينظرون إلى أنفسهم ، وإلى أن يتعرف الأديب الحياة الجديدة للأمة العربية ويقودها ويجد في إصلاح عيوبها ، وإلى أن ينبع الأدب العربي من الوعي الاجتماعي كما ينبع من الوعي الفردي فيعمد إلى مجتمعاتنا المليئة بالشرور فيعالجها ويشرحها ، ويحلها ولا يقتصر على وصف ماكان ، بل لابد أن يفكر في ما ينبغي أن يكون ، ليكون الأديب داعية خير ، ورسول أمة ، ورأس هدف ، فرد عليه الأستاذ توفيق الحكيم بالعدد (٥٦٢) من مجلة الرسالة ليقول إن أحمد أمين يريد أن يستخدم الأدب للدعايات الاجتماعية والإعلان عن السلع التجارية ، والتأثير في الدعايات الانتخابية ، ومايجري هذا المجري ، وقد رد عليه الأستاذ أحمد أمين بأن هناك فرقا كبيرا بين الدعوة إلى أن تكون الحياة الاجتماعية والوعي الاجتماعي من مصادر الأدب وبين الدعوة إلى مادية الأدب وتسخيره للأغراض الوضيعة ، والنقاش مسجل في مجلتي الرسالة والثقافة ليستعرضه من يريد الاستقصاء ، وحسبنا أن نشير إلى جوهره لنعلن أن الأستاذ العقاد قد سئل عنه فأجاب بتلخيص لبعض ما قاله أحمد أمين حين حكم بأن الأدب العربي إلى الآن تغلب عليه النزعة الفردية لا النزعة

الاجتماعية فالغزل والمديح والعتاب والرثاء والفخر والهجاء ونحوها كلها في الأدب القديم نزعات فردية طغت على الأدب العربي ولونته اللون الذي نراه ، والأولى أن يتجه الأدب المعاصر إلى الوجهة الاجتماعية ، كما أشار العقاد إلى رأي الأستاذ الحكيم في أن استحياء أساطير اليونان والرومان وامريء القيس وشهرزاد هو النوع الأرقى في كل أدب لا في الماضي وحده ولا في الحاضر ، بل في الغد وبعد آلاف السنين وأن اليوم الذي يستخدم فيه الأدب للدعاية الاجتماعية لهو اليوم الذي ينقلب فيه الإنسان طفلاً .

وقد قال العقاد تعليقاً على كلام الأستاذين إن وجهة الأدب والأخلاق والشرعية جميعاً إنما تتقدم من الاجتماعية إلى الفردية لا من الفردية إلى الاجتماعية كما يؤخذ من كلام الأستاذ أحمد أمين . ولهذا - في رأي العقاد - كانت أغراض الأدب العربي فيما مضى هي الأغراض التي تعني القبيلة ولا تعني أفرادها ، فالفخر بالأنساب سنة من سنن القبائل البدوية ، والحماسة مطلب لا غنى عنه في حالة الصراع بين القبائل ، والمديح والهجاء سلاح للقبيلة يرتبط به العز والهوان ، وليس الغزل من المسائل الفردية التي تنفصل عن النوع والأمة والقبيلة ، وليس الرثاء مطلباً فردياً لأنهم قلما نظموا في غير السادة ، وهذا في الأدب جملة .

ومضى العقاد يؤيد أن أمل الإنسانية أكبر من أن يتعلق
بحاجة الطعام والكساء ، ويحبذ كلام الأستاذ الحكيم حين
شبه المجتمع الذي يستخدم الفن للرغيف بالطفل الذي
يضع الحلية في فمه لأنه لا يحسن أن يتملاها بنظره . وختم
التعليق بأنه لم يخطيء أحمد أمين في حرصه على المصالح
الاجتماعية لأنه مثله يحرص على هذه المصالح ، ولكن
الفنون ذات هدف أقوى من النفع المادي .

ويخيل إليّ أن الأستاذ العقاد لم يرجع إلى كلام أحمد أمين
في مصدره الأول لأنه لم ينكر الأدب الذاتي ولكن دعا إلى أن
يكون معه ادب اجتماعي ، وهذا ما لا يخالفه العقاد ، كما أن
الأستاذ العقاد قد أسرف في الحكم حين نص على أن الغزل في
الشعر ليس فردياً ولكنه يتصل بالنوع والأمة ! لأن اتصال
كل كلام بنوع قائله لا مربية فيه ، ولكن الذي يفتخر بقومه
ليحمس على القتال ليس كمن يتغزل في حبيبة يراها مهوى
قلبه ، ويجزع أن يشاركه إنسان ما عاطفته نحوها ! فالغزل
فردى لا محالة والثناء في أكثره فردي ، وثناء العظماء من
السادة في الجاهلية أقل مما روى عن مرثي الأحاب من
الأهل والأصدقاء ممن يخصصهم الشاعر بعاطفة خاصة ! ولا
أدري كيف جاز لدارس ممتاز كالعقاد أن يجعل الغزل في
اختصاصه شبيهاً بالفخر في شيوعه الشامل للأمة
والقبيلة ؟ وقد فطن بعض النقاد حين خصوا مرثي
العظماء بالتأبين ، وقصروا المرثي على من تجمعهم

الروابط العاطفية وحدها ! بل إن السياسي العظيم يموت
فيرثيه أخوه بقصيدة تتجلى فيها الفردية أكثر مما تجلى فيها
الاجتماعية الشائعة لأن صلة العاطفة الخالقة بالدم أقوى
من صلة الانتماء العام !

وقد رد الأستاذ أحمد أمين على تعقيب العقاد ، فذكر ما
ضيق شقة الخلاف إذ قال^(٩) إن الفردية التي يعنيها هي
الانانية والاثرة وأن الاجتماعية هي الغيرية والإيثار ،
وبهذا التحديد يتفق الأستاذان معه (أو يلزم أن يتفق
الأستاذان معه) على أن الرقي الأخلاقي والاجتماعي سائر
نحو الاجتماعية والفردية ! وإذا كانت المشكلة في جوهرها
هي مشكلة اتجاه الأدب إلى الفن وحده بعيداً عن الإصلاح
أم اتجاهه للفن والإصلاح معاً فقد حسم الأمر لدى
المختلفين جميعاً ، حين يوازنون بين قطعة فنية رائعة
تخدم هدفاً إصلاحياً ، وقطعة لا تنقل عنها جودة تقتصر على
الوصف الأدبي دون هدف ! على أن المدار في الفن على التأثير
المستشف لا على التقرير السارد ، وقد حصر الأستاذ أحمد
أمين المجال في أضيق نطاقه حين قال ببساطته الواضحة
(لعل نقطة الخلاف الحقيقية بين الأستاذ الحكيم وبينني
هو أنه يريد أن يقدر الفن بجماله فقط وأنا أريد أن أقدره
بجماله وأخلاقياته معاً)^(١٠) .

(٩) النفاذة العدد ٢٧٩ .

(١٠) النفاذة العدد ٢٧٩ .

وبعد : فهل أختتم هذا البحث دون أن أشير إلى هذا الترحيب الرائع الذي استقبل به العقاد كتاب (حياتي) للأستاذ أحمد أمين : لقد كتب عنه الأستاذ العقاد فصلاً تحليلياً خلص للثناء على غير ما اعتاد العقاد في أكثر ما يكتب حين يتخذ من أحد موضوعات الكتاب الذي يتحدث عنه مجالا لاختلاف وجهة النظر . وإيجاد الكفتين المتعادلتين من المؤاخذة والإطراء إذ قال عن حياة زميله الكبير^(١١) (إنها حياة مباركة جديرة بالتاريخ فقد تهيأ لها من تجارب عصرها ، ما لم يتهيأ لحياة الأكثرين من كتابنا وأدبائنا ، فعرف صاحبها نشأة المدرسة العصرية ، ونشأة المدرسة الفلسفية ، وتعلم على الشيوخ الأزهرين والشيوخ المطربشين ، وشيوخ دار العلوم ، واختبر التعليم والقضاء ، وشارك في أدب الغرب وأدب العرب ، وعاصر نهضة الاستقلال ونهضة التجديد ، وساح في البلاد الشرقية والأوربية ، وتقلب بين العسر واليسر والصحة والمرض ، ووعى من حقائق جيله ما يحفظ ويستفاد في المقابلة بين أجيال العصر الحديث .

وليس في وسع مؤلف بالبداهة أن يحصي وقائع حياته كلها ، في كتاب موجز أو مفصل ، وقد يكون الاكتفاء بالأهم من تلك الوقائع أعسر من التفصيل والتطويل ، ولكن زميلنا مؤلف حياتي قد سرد لنا تاريخاً نقرأه فيخيل إلينا أنه

(١١) بين الكتب والناس للعقاد ص ٣ .

متسلسل مطرد بغير فجوة في أثناؤه لأنه صنع بقلمه ما يصنع المصور القدير بريشته ، لمسة بارزة هنا ، ولمسة خفيفة هناك ، وخط عريض في ناحية وخط نحيل في ناحية أخرى ، وإذا بالصورة أمامك كاملة منسقة تحسبها جمعت ملامح الوجه كلها فلم تترك منها هدبا ولا شارة وإنما براعة التصوير التي تخرج لنا صورة كاملة غير محسوسة الفجوات من هذه الخطوط المتفرقات) .

هذا التشخيص الدقيق يعطي انطبعا جديدا للأستاذ العقاد نحو الأستاذ أحمد أمين إذ تعود في أكثر مناقشاته إياه أن يصفه بالعالم الفاضل فحسب ! أي أنه عالم باحث لا أديب فنان ! وهاهو ذا يتحدث عنه أديبا مصورا يجيد رسم الملامح وتنويع الظلال ، وملء الفجوات بما تترك من لوازم الإيحاء ! وهل يقدر على ذلك غير أديب كبير من طراز الأستاذ أحمد أمين .

سيد قطب بين العقاد والخولي

طالعت ما كتبه الأخ الدكتور عبدالعزيز الدسوقي بالعدد (٥١) من مجلة الثقافة ، ناقلا عن مجلة (الوحي) العمانية فقرا هامة من مقال للأستاذ عبد المنعم شemis قال فيه :

(كانت لسيد قطب مواقف حاسمة في مؤازرة العقاد ومساندته نسيها بعض المعاصرين ، لكن عباس محمود العقاد لم يساند سيد قطب ، ولم يؤازره ، وهذه حقيقة للتاريخ .

عندما لمع اسم سيد قطب كالشهاب الثاقب أغمض العقاد عينيه ، ولم يكتب حرفا واحدا ، يقول إن هذا النور يستحق أن يسطع ، لأن العقاد كان يعتقد أنه العبقري الأوحى ، ولا عبقري سواه ، وهذه طبيعة تكوينه ولا لوم عليه في ذلك) . ثم قال الأستاذ بعد كلام مشابه ، ما يفيد أن الأستاذ أمين الخولي قرأ كتاب التصوير الفني في القرآن للشهيد سيد قطب ، وأثنى عليه ووصفه بالعظمة ، فسارع الأستاذ عبد المنعم شemis إلى سيد قطب ، وأسمعه ما قال الأستاذ الخولي فأرسل الكتاب هدية إليه ، ثم قال الأستاذ شemis : أمين الخولي الذي لا يعجبه العجب ، ولا الصيام في رجب ، يقف مشدوها أمام كتاب (التصوير الفني للقرآن)

وعباس العقاد الذي نصب سيد قطب نفسه مدافعا عنه لا يعترف حتى بوجود هذا الكتاب .

واستطرد الأستاذ شمس يقول : (كانت دعوة أمين الخولي إلى التفسير النفسي للقرآن هي البداية ، أو هي الإشارة لمحاولة الفهم ، ولكن أمين الخولي لم يطبق نظريته ، بل كان يدعو دائما إلى نظريات ثم يطلب من تلاميذه تطبيقها لو استطاعوا إليها سبيلا ، أما سيد قطب فإنه لم يتلق النظرية من شيخنا أمين الخولي ، ولكنه صنع ما كنا نحلم به من فهم للفن القرآني عندما كتب كتابه (التصوير الفني في القرآن) ، وكان هذا الكتاب هو البداية الحقيقية للفهم الواسع الرحيب الذي كتبه سيد قطب في كتاب آخر من الكتب الباقية في المكتبة الإسلامية وهو (في ظلال القرآن) .

هذا بعض ما ذكره الأستاذ شمس ، وقد عقب عليه الدكتور عبدالعزيز الدسوقي قائلا : (نحن نلاحظ أن الأستاذ عبدالمنعم شمس اكتفى بنقل ما دار بينه وبين الأستاذ الخولي حول كتاب التصوير في القرآن ، ولم يقل لنا في أي مكان كتب أمين الخولي هذا الكلام الذي تحدث به شفويا إليه ، أو نشره ، وإذا كان الأمر قد اقتصر على الحديث الشفوي بينهما فإن المشكلة تبدأ من هنا ، فالأستاذ شمس لا شك يعرف المنهج العلمي للرواية ، وأسلوب تحقيقها ، وتظل شهادته يمكن أن نستأنس بها

إذا دعمها دليل آخر ، كأن يكون هناك شهود متعددون على هذه الرواية ، أو أن يكون الأستاذ الخولي قد أشار على نحو ما في دراساته أو مجلته (الأدب) إلى هذا الكتاب أو استشهد به أو نقل عنه شيئاً يدل على اعترافه به ، وما لم يكن هناك شيء من ذلك فستبقى مجرد خبر يحتمل الصدق والكذب وأنا شخصياً أصدق الأستاذ شemis في روايته ، ولكن يمكن أن يشك في روايته أحد تلاميذ العقاد ، ومع ذلك فمن يثبت للأستاذ شemis أن العقاد أزور عن سيد قطب ، فربما شجعه وأشد بعمله شفوياً ، كما فعل الشيخ الخولي) .

ولي بعد هذا النقل الوافي ، أن أدلى بدلوي في الدلاء ، فأعلن للأستاذ شemis أنني أشك في روايته لأسباب منها :

أولاً - حين ظهر كتاب (التصوير الفني في القرآن) في مارس سنة ١٩٤٥ ، تحدثت عنه السيدة الدكتورة بنت الشاطيء في جريدة الأهرام ، حيث كانت تقدم بعض ما تخرجه المطبعة العربية ناقدة أو مقرظة ، وجاء في حديثها ما اضطر الأستاذ سيد قطب إلى التعقيب عليه بمجلة الرسالة العدد (٦٢٠) بتاريخ ٢١ مايو ١٩٤٥ أي بعد أكثر من شهرين من ظهور الكتاب فقال ص ٥٢٩ ما نصه :

(وكتب كاتب - أو كاتبة - في جريدة الأهرام «أن هذا الكتاب محاولة للبحث في جمال القرآن سبقتها اتجاهات في الجامعة» وللكتاب على هذا النحو أسباب خاصة ليس من شأنى الحديث عنها ، كما أن وصف هذا العمل بأنه

(محاولة) مسألة داخلية في دائرة التقدير المتروكة للقراء ،
إنما يعنيني هنا الحقيقة التاريخية وهي انني بدأت هذا
البحث ، ونشرت فصولا منه بعنوان (التصوير الفني في
القرآن) في المقتطف عام ١٩٣٨م ثم أخرجته كتابا في هذا
العام ، فأين هي البحوث الجامعية في هذا الاتجاه ؟ إن كان
الغرض هو البحث في جمال القرآن ، فهذا بحث قديم قديم ،
وإن كان الغرض هو البحث على نحو خاص غير مسبوق ،
فالواقع ينطق بأن ماكتب في الأهرام لا يطابق الحقيقة) .
هذا مقالته الشهيد سيد قطب بعد أكثر من شهرين من
ظهور الكتاب ، والذين يعرفون لحن القول من الفهماء
يعلمون أن الأستاذ قطب ، كتب كاتب أو كاتبة ، معناه أن
الكاتب هو الأستاذ أمين الخولي وأن الكاتبة قد أملى عليها
ماكتبت !! فأين ذهبت وساطة الأستاذ شemis ؟ وكيف جاز
لسيد قطب وهو الغيور الصلب أن يسارع بإهداء كتابه لمن
يحاول أن يجعله تابعا لا متبوعا .

ثانيا - حين ظهر كتاب (دفاع عن البلاغة) للأستاذ أحمد
حسن الزيات ، وضافت به جماعة الأمناء فنقدته السيدة
بنت الشاطي نقدا هادما في مجلة الكتاب ورد عليها الزيات
يتهمها بأنها تنطق عن لسان غيرها وتأخذ كلام صاحبها
لتوقعه - وكل ذلك ثابت منشور بالجزء الثالث من مجلة
الكتاب يناير ١٩٤٦ والجزء الرابع فبراير سنة ١٩٤٦
أقول : حين قامت هذه الضجة كتب الأستاذ سيد قطب بحثا

عن (دفاع عن البلاغة) نشره في ثلاثة أعداد متوالية من مجلة الرسالة وأرقامها هي (٦٧٦) ، (٦٧٧) ، (٦٧٨) وفي أول عدد منها بتاريخ ١٧ يونيه سنة ١٩٤٦ قال الأستاذ قطب مانصه :

للمرة الأولى بعد كتابي (عبدالقاهر) في القرن الرابع الهجري تعرض قضية البلاغة على بساط البحث في هذا المحيط الشامل ، وتناقش بوصفها وحدة في بحث مستقل لا في صدد دراسة لكاتب أو كتاب ، ثم قال الشهيد رحمه الله في هامش المقال (يقال إن هذه القضية عرضت في كلية الآداب بالجامعة المصرية ، وأنا لا أدري كيف عرضت هناك ، ولا في أي محيط ، وأحسب أن الناس لا يدرون شيئاً عن هذه المحاولة الموضوعية) .

أفيجوز أن يتصافى قطب والخولي ، ثم ينكر قطب أنه لا يعلم شيئاً عن اتجاه أمين ؟ .

ثالثاً - حين تقدم الدكتور محمد أحمد خلف الله في منتصف سنة ١٩٤٧ برسالته عن (القصص الفني في القرآن) وكان الأستاذ الخولي مشرفاً عليها ، قامت ضجة كبيرة حولها ، وكتب الأستاذ الخولي يقول إنه متضامن مع مقدم الرسالة في كل حرف منها وإنه لا ينبغي الوقوف أمام حرية الفكر ، وظهرت جريدة الأخبار ، بمقال له تحت عنوان (هي حق وألقوا بي في النار) وكان ممن أسهموا في الجدل الأساتذة عباس العقاد وتوفيق الحكيم وأحمد أمين

وأحمد الشايب وعبد الفتاح بدوي ومحمد الخضر حسين ،
وكلهم كان يتكلم بموضوعية لا تتجاوز العلم إلى الذات ،
ماعدا الأستاذ سيد قطب فإنه نشر حينئذ بجريدة
السَّوَادِي مقالا ملتهبا جاوز فيه الموضوعية إلى أمور
شخصية نسبها للأستاذ الخولي ، وهي من الفداحة بحيث
أنكرها على الأستاذ قطب كل من قرأ المقال ، وهو لا ينسى من
ذاكرة من قرأه ، وأنا أدعو الأستاذ عبد المنعم إلى مراجعة ما
قال قطب في جريدة السَّوَادِي حين اشتعلت المعركة ،
ليعرف أنه لم يتأكد مما كتبه حين يرى التناقض الصريح
بين ما ذكر ، وما كان .

رابعا - أصدرت الدكتور بنت الشاطي كتابها (التفسير
البياني للقرآن) ، وكتبت مقدمته في يناير سنة ١٩٦٢
فأنكرت أن أحدا سبقها من الجامعيين إلى دراسة النص
القرآني ، ثم زادت فقالت (والأمر شبيه فيما قرأت
من مؤلفات حول القرآن لدارسين محدثين خارج نطاق
الجامعة ، فليس فيها محاولة أصيلة لبيان البلاغة
العربية إلا أن تكون كتاب الأستاذ مصطفى صادق الرافعي
رحمه الله عن الاعجاز) ، فالدكتورة تنكر وجود التصوير
الفني ومشاهد القيامة وما صدر من أجزاء الظلال حينئذ ،
وقد تعدت العشرين ، وهو إنكار لم يكن له آنذاك ما يبرره ،
لأن محنة الشهيد رضي الله عنه قد وقعت بعد ذلك بأكثر من
أربع سنوات ! وقد كان يصدر كتبه دون تحرج ، وأذكر أنني

تعرضت بعد المحنة إلى التفسير البياني المعاصر في كتاب (خطوات التفسير البياني) وخفت أن أذكر اسم سيد قطب صراحة فتصادر مراكز القوى نسخ الكتاب ، ولكني اجتهدت في أن أعلم القاريء بما لا أستطيع ذكره فقلت ص ٣٣٩ ما نصه :

(وكان عليّ أن ألم ببعض رسائل الماجستير والدكتوراه مما أخرجته المكتبة الحديثة لمن اتبعوا القول في بعض النواحي البيانية ، ولكن يمنع من هذا الإمام أن لدينا كتباً معروفة كشفت البيان القرآني على أكمل وجه وأبهاه ، ولكن يضيق المجال عن الحديث عنها ، وقد اختلس بعض الكاتبين كثيراً من حقائقها دون أن يشيروا إليها ، ولن يكون الحديث أميناً صادقاً عن التفسير البياني المعاصر إلا إذا عرف الأخذ والمأخوذ ورجع كل حق إلى صاحبه دون انتقاص ، فإلى مجال فسيح) .

هذه أربع نقاط تقف أمام ما حكاه الأستاذ عبد المنعم ، وبقي بعد ذلك أن نترك الوقائع التاريخية إلى البحث الفني في صميمه ، فنتساءل أكان عمل سيد قطب تطبيقاً لنظرية الأستاذ الخولي في التفسير الأدبي للقرآن أم أنه منها بمكان بعيد ! لقد كان على الأستاذ عبد المنعم - وهو الجامعي الأمين - أن يطبق نظرية أستاذه على ما كتبه الأستاذ سيد قطب ، ليطمئن على حكمه الأدبي ، وإذا كان قد أهمل ذلك فلا بد أن ندرس هذه الناحية في حيدة أمينة وله أن يعقب عليها بما يشاء .

لئن كان الأستاذ الخولي قد كرر الحديث عن صلة الأدب
 بنفسية قائلة ، وعن وجوب الاهتداء بدراسة علم النفس
 لإضاءة بعض الأسرار الأدبية ، فليس سابقا مبتكرا ، لأن
 العقاد والمازني وشكري ونعيمة وغيرهم قد اتبعوا القول
 في ذلك . والأستاذ طالب ناشيء في مدرسة القضاء الشرعي !
 فالاتجاه النفسي في الدراسات الأدبية المعاصرة لدينا في
 مصر قد سبق وجوده الأدبي في كلية الآداب بسنوات
 كثيرة ، وتلك ناحية هامة نقررها حين ننقل عن الخولي
 ما أراده بصدد هذه الدراسات ، وبالرجوع إلى ما كتبه
 تحت عنوان (المنهج الأدبي في التفسير) ص ٣٠٧ من
 كتابه (مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير
 والأدب) نجده يقرر أن هذا المنهج يقتضي أن نتناول القرآن
 موضوعا موضوعا لا قطعة قطعة ، وعلى هذا الأساس -
 كما يقول الأستاذ - يكون منهج التفسير الأدبي صنفين من
 الدراسة ، وهذان الصنفان هما (أ) دراسة ما حول القرآن
 (ب) دراسة في القرآن ، فدراسة ما حول القرآن تشمل ما دار
 حوله من بحوث تتعلق بالنزول والجمع والقراءة ، ثم
 تتجه إلى دراسة البيئة المادية والمعنوية التي ظهر فيها
 القرآن ، وكل ما يتصل بتلك الحياة المادية العربية وبكل
 ما يتصل بالبيئة المعنوية من تاريخ سحيق وتاريخ
 معروف ، ونظام الأسرة والقبيلة والحكومة إلى ما يتجه
 هذا الاتجاه ، أما دراسة القرآن نفسه فتبدأ بالنظر في

المفردات وتدرج دلالات الألفاظ وتفاوت هذا التدرج بفعل الظواهر النفسية والاجتماعية وعوامل الحضارة ، ثم ينتقل المفسر الأدبي من المفردات إلى المركبات) .

هذه هي خلاصة المنهج الأدبي للتفسير ، وقد أوجزتها الدكتورة الفاضلة بنت الشاطيء حين قالت في مقدمة (التفسير البياني للقرآن الكريم) ما نصه ص ١٤ من الطبعة الثانية .

(والأصل في منهج التفسير الأدبي كما تلقينته عن شياخي هو تناول الموضوعي الذي يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه ، فيجمع كل ما في القرآن عنه ، ويهتدي بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب ، بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذلك ، وهو منهج يختلف تماما عن الطريقة المعروفة في تفسير القرآن سورة سورة يؤخذ اللفظ أو الآية فيه مقتطعا من سياقه العام في القرآن كله مما لا سبيل معه الى الاهتداء إلى الدلالة القرآنية لألفاظه أو استجلاء ظواهره الأسلوبية وخصائصه البيانية) .

وإذن فهذا هو مذهب الدراسات الأدبية للقرآن كما حدده الأستاذ الخولي وحاولت الدكتورة الفاضلة بنت الشاطيء أن تطبقه ، فهل هو ما انتحاه الأستاذ سيد قطب في تفسيره وفي كتاب التصوير ؟ لننظر في غير عجلة متريثين .

إن كلام الأستاذ عبد المنعم شemis يوحى بأن صنيع الأستاذ سيد قطب في كتاب التصوير الفني قد جاء تطبيقا

لمذهب أستاذه ، وإذا كنا قد أجمالنا خصائص مذهب
الأستاذ الخولي ، فليقرأ الأستاذ شمس ما حكاه سيد قطب
عن مذهبه في التصوير الفني حين قال :

(التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ، فهو
يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة
النفسية ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ،
وعن النموذج الإنساني ، والطبيعة البشرية ، ثم يرتقي
بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو
الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ،
وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج
الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة
مرئية ، فأما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر ،
فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة ، وفيها الحركة فإذا
أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخيل ،
فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة ، وحتى
ينقلهم نقلا الى مسرح الحوادث الأول ، الذي وقعت فيه أو
ستقع ، حيث تتوالى المناظر ، وتتجدد الحركات وينسى
المستمع أن هذا كلام يتلى ، ومثل يضرب ، ويتخيل أنه
منظر يعرض ، وحادث يقع ، فهذه شخوص تروح على
المسرح وتغدو ، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات
المنبعثة من الموقف ، والمتساوقة مع الحوادث ، وهذه
كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتتم عن الأحاسيس المضمرة ،
انها الحياة وليست حكاية الحياة) .

وقد توالى فصول الكتاب لتحدث في هذا المجال عن
القصة القرآنية والمنطق الوجداني ، ومشاهد القيامة ،
والنماذج الإنسانية ، وتشخيص المعاني الذهنية لينتهي
المؤلف إلى أن (التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب
القرآن) .

فهل هذا المنحى ما عناه الأستاذ الخولي حتى جاء
الأستاذ قطب ليقوم بالتطبيق ؟ ليجب الأستاذ عبد المنعم
إذا شاء أن يتمسك بما قال !

وقد قام جدال خصب حي بين الأستاذ المؤمن عبد المنعم
خلاف والأستاذ سيد قطب حول اتجاه المؤلف في عده
التصوير أداة مفضلة في التعبير الفني ، إذ يرى الأستاذ
خلاف أن العقيدة تحتاج إلى اقناع ذهني لا إلى تصوير
فني ، وقد رد الأستاذ قطب بما يدل على أن الإقناع يأتي من
طريق التصوير فلا شطط ولا اختلاف ! والحوار في
صميمه قد أضاف جديداً إلى معطيات الأستاذ قطب ، حين
كتب تفسيره الرائع في ظلال القرآن ، حيث لم يجعل
اهتمامه خاصاً بالتصوير الفني وحده ، بل اتجه معه إلى
كتاب الله ليرى الوجود الإنساني في صفحته أكبر من
حقيقته ، وليحس التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما
يريدها الله ، وحركة هذا الكون كما أبدعه الله وليرى
الإنسان أكرم بكثير من كل تقدير عرفته البشرية ، وليعلن
أنه لا مجال في هذا الوجود للمصادفة العمياء ، ولا للقلّة

العارضة ، وأن المنهج القرآني موضوع للمدى الطويل الذي يعلمه خالق الإنسان ، لا يحده عمر فرد ، ولا تستحثه رغبة فان ، بل يسير هينا لينا مع الفطرة يقومها حيث تميل) .

هذا هو الجودي الذي رست عليه سفينة الداعية الشهيد ، وإذا أراد الأستاذ عبد المنعم شمس أن يصل إلى الغاية دون عناء من بحث موازن ممتد ، فليقرأ تفسير سورة من سور القرآن كما كتبتها الدكتورة بنت الشاطي متبعة منهج شيخها وداعية إليه ، ثم ليقرأ تفسير هذه السورة نفسها في ظلال القرآن ليجد نفسه مندفعاً إلى ترديد قول الشاعر القديم :

الشرق منزلنا ومنزلهم

غرب وأين الغرب والشرق !؟

فإذا تركنا الحديث عن الصلة المزعومة بين الأستاذين أمين الخولي وسيد قطب إلى الحديث عن الصلة الحقيقية بين الأستاذين عباس محمود العقاد وسيد قطب ، فإننا نعرف أن الأديب الناشئ سيد قطب الطالب بدار العلوم كان في نشأته الأولى موضع تقدير العقاد واحترافه ، وكان انتاجه الأدبي يظهر في احتفاء في الصحف الأدبية التي كان العقاد يشرف على تحريرها ، أو يسهم في ذيوها كالبلاغ الأسبوعي وروز اليوسف والجهاد ، وكان قطب من الاستعداد الطامح بحيث استطاع أن يهضم ما يؤلفه

العقاد من شعرونثر ، وأن يتجاوز الهضم الدقيق إلى التأثير
الفعلي في الانتاج الأدبي شعرا ونثرا كذلك ، ثم امتلا
بأسناذه امتلاء جعله يتحدث عن مذهبه الأدبي كاتباً
ومحاضراً ومؤلفاً ، وله مع العقاد إذ ذاك صحبة ثرية نافعة
عرفها الأدباء جميعاً ، ثم شاء الأستاذ سيد قطب أن يخوض
معركة طاحنة حول العقاد والرافعي على صفحات الرسالة
استغرقت أكثر شهور سنة ١٩٣٨ ، وكان معارضوه من
ذوي النباهة كاسماعيل مظهر ومحمد أحمد الغمراوي
وعلي الطنطاوي ومحمد سعيد العريان ومحمود محمد
شاكر كل هؤلاء جميعاً يقفون في وجه قطب وحده ! وكان له
من الجدة والاعتداد والشجاعة ما جذب إليه الأنظار في
قوة ! وكان قطب في هذه الآونة لا يرى في شعر العقاد أو
نثره موضعاً لغميزة ، فهو وحده زعيم الأدب في العالم
العربي ، ولا يمكن أن يقاس به أحد من معاصريه ، وشعره
هو الشعر ، ولا شعر غيره يرتفع إلى مستواه ، وماذا تقول
في أكثر من خمسة وعشرين مقالا تهتف بالعقاد في إعجاب ،
فهو يقول مثلاً في المقال السادس من العدد ٢٥٧ من مجلة
الرسالة ، السنة السادسة ١٩٣٨ :

« يخطيء الذين يحاولون أن يدرسوا العقاد ، وكل
محصولهم من الثقافة كتب لغوية درسوها وكتب أدبية
فهموها من آداب اللغة العربية ، فليس العقاد أديب لغة
وأديب أسلوب حتى تكفي اللغة ويكفي الأدب الخالص في

فهمه ، ولكن نتاج العقاد مجتمع ثقافات ودراسات قديمة وحديثة ، عربية وغير عربية ، مصهورة في بوتقة طبيعية ممتازة ، ونفس رحبة ، وذهن مشرق ، ومواهب تنتفع بالثقافة ، وتعلو على حدود الثقافات ، ولقد رقيت إلى محاولة استيعاب العقاد وأفلحت إلى مدى على درج من دراسات شخصية جمّة ، وليست دراسة الأدب العربي ولا اللغة العربية إلا أولى خطواتها ، دراسات تشمل كل ما نقل إلى اللغة العربية على وجه التقريب من الآداب الأفرنجية قصة ورواية وشعرا ، ومن المباحث النفسية الحديثة ، نظريات العقل الباطن والتحليل النفسي والمسلكية ، ومن المباحث الاجتماعية والمذاهب القديمة والحديثة ومن صاحب علم الأحياء بقدر ما استطعت ، وما نشر عن دارون ونظريته ومن مباحث الضوء في الطبيعة ، والتجارب الكيماوية ومما استطعت فهمه عن انشتين والنسبية ، وعن بناء الكون وتحليل الذرة وعلاقته بالإشعاع) .

هذا بعض ما أهّل به سيد قطب نفسه ليدرس العقاد ، وإذا كان العقاد جبار الثقافة دون منازع ، فانه قد أورث تلميذه شرفاً للمعرفة لا يحد ، وهو صادق حين يذكر هذه الفروع الدقيقة في اطلاعاته ، لأنه يزور أستاذه في مكتبته الخاصة ويرى سعة معارفه ، فلابد أن يجاريه ما استطاع ! وبإلها من همة !

ويقول في المقال الرابع عشر من العدد (٢٦٥) من مجلة الرسالة)

(ليس الحب الفنى ولا التعبير عنه من السهولة كما يتصورهما الكثيرون من ناشئة الشعراء ، ومقلدي النقاد ، إنما هو عمل عسير في الاستيعاب والتصوير ، وما قرأ لتسعين في المائة من الشعراء إلا ضحكات وابتسامات أو صرخات وأهات يحسبونها غاية ، لا تقل إنني أحب أو أتعذب وأتألم ثم تحسب نفسك شاعرا حتى تقول لنا انني أحب على لون خاص ، واستمتع بالحب بطريقة خاصة ، أو أتعذب وأتألم على لون من ألوان العذاب والآلام ولا تقل أنني أطلب الجمال وتسكت فلا بد أن تبين لنا ما نوع الجمال ؟ وما المعاني التي يشعها فيك هذا الجمال ، وماذا تفهم من الصلات بينه وبين غايات الحياة الكبرى ، والعقاد وحده في الشعر العربي كله هو الذي يقول لنا هذا في عمق ودقة وقصد ، وبأوضح وأصح ما يستطيع ، وأقول في الشعر العربي كله وأنا أعني ما أقول ، فما يوجد شاعر واحد يجتمع له في شعره العربي ما اجتمع للعقاد وتتوفر في نفسه هذه الأوتار المتعددة التي يوقع عليها الحب هذه النغمات كلها ، ويخرجها هكذا واضحة سليمة) .

والمبالغة واضحة لدى القاريء المنصف ، ولكن سيد قطب كان يعبر عن حقيقة يعتقد بها ، ولا يرى بها أدنى مبالغة ، ولورجع إلى ما كتب العقاد عن ابن الرومي لوجد

أستاذة يرى فيه من الخصائص الشعرية ما أنكره التلميذ حين سحب حكمه على الشعر العربي كله في القديم والحديث ، ولا نحب أن نستطرد إلى استشهادات أخرى يغنى بعضها عن بعضها ، بل نقول إن سيد قطب كان في هذه المرحلة يرى العقاد كل شيء وكفى .

ثم والى العقاد إصدار كتبه المتتالية ، فكان الأستاذ سيد قطب لا يترك منها مؤلفا - شهد الله - دون أن يخصه بالتحليل والشرح ، تحدث عن العبقريات وعن الصديقة بنت الصديق وعن عرائس وشياطين وعن شاعر الغزل وعن هذه الشجرة في مقالات نقدية كلها إطراء وتقدير ، غير إشارة عابرة في حديثه عن ديوان (أعاصير مغرب) توحى بما يشبه النقد المقتنع حين ذكر الأستاذ سيد قطب أن العقاد يعيش دائما في حالة صحو ، فهو يقول الشعر متيقظا دون تهويم ! وهذا كلام له خبيء لأنه يشير إلى تسلط الذهنية على شعر العقاد ، في كثير من أبوابه ، وقد سكت عنها العقاد دون تعقيب .

ثم جمع الأستاذ سيد قطب مقالاته فيما سماه (كتب وشخصيات) وكتب عنه الكثيرون في الرسالة والثقافة والكتاب والبلاغ والأهرام ، وكان قطب يحب أن يسمع رأي العقاد ، فلم يتح له ما أراد ، ولا شك أنه طوى الضلوع على مستكنة من الألم النفسي ، ثم أخرج كتاب التصوير الفني في القرآن وهو اكتشاف لا تأليف ، حيث وفق فيه إلى ابداع فني كاد به أن يصبح ذا نظرية أصيلة في فن النقد

الأدبي ، وانتظر أن يسمع رأي العقاد ، دون طائل ، أقول ذلك اعتماداً على شكوى صريحة جهر بها الأستاذ سيد قطب بعد سنوات بالعدد (٦٣٣) من مجلة الثقافة الصادرة بتاريخ ١٠/٩/١٩٥١م حيث قال تحت عنوان إلى أستاذنا الدكتور أحمد أمين :

(ودعوني أصارحكم بتجربتي الخاصة ، التي تركت في نفسي ذات يوم مرارة ، ومن أجل هذه المرارة لم أكتب عنها من قبل ، حتى صفت روعي منها ، وذهبت عني مرارتها ، وأصبحت مجرد ذكرى قد تنفع وتعظ ، لقد كنت مريداً بمعنى كلمة المريد لرجل من جيلكم تعرفونه عن يقين ، ولقد كنت صديقاً أو ودوداً مع الآخرين من جيلكم كذلك ، لقد كتبت عنكم جميعاً بلا استثناء شرحت آراءكم ، وعرضت كتبكم ، وحللت أعمالكم قدر ما أستطيع ، ثم جاء دوري ، جاء دوري في أن أنشر كتباً بعد أن كنت أنشر بحوثاً ومقالات وقصائد ، لقد جاء دوري في نشر الكتب متأخراً كثيراً ، لاني أثرت ألا أطلع المئذنة من غير سلم ، وأن أثريث في نشر كتب مسجلة حتى أحس شيئاً من النضج الحقيقي ، يسمح لي أن أظهر في أسواق الناشرين .. فماذا كان موقف أستاذي ؟ وماذا كان موقف جيلكم كله ، ماذا كان موقف جيل من الشيوخ لا من هذا الكتاب وحده - يريد التصوير الفني - بل من الكتب العشرة التي نشرتها حتى الآن ! أراجع كل ما خطته أقلام هذا الجيل كله عن عشرة

كتب فلا أعرأ إلا على حديث في الإزاعة لفقيد الأدب المرحوم
المازني ، وإلا إشارة كريمة للأستاذ توفيق الحكيم في أخبار
اليوم) .

وإذن فقد سكت العقاد ، وتألم قطب ، فما تعليل ذلك ؟
إن الأستاذ عبدالمنعم شميمس يذهب إلى أن الأستاذ العقاد
كان يرى أنه العبقرى الأوحد ولا عبقرى سواه ! لأن
الترجسية سيطرت عليه فاعتقد أنه العملاق ، ولذلك سكت
عن تقدير تلميذه سيد قطب !! ولو كان العقاد يرى أنه
العبقرى الأوحد ما تحدث بإفاضة عن كتب زملائه
الشيوخ من أمثال محمد حسين هيكل وعبدالقادر حمزة
والمازني وأحمد حسن الزيات وأحمد لطفي السيد حديث
المعجب المقدّر فضلا عن دونهم من شباب المتأدبين لعهد
ونحن نعد منهم ولا نستطيع أن نعدهم جميعا فسقطت
علة الأستاذ عبدالمنعم ، وبقي أن نبحث عن علة أخرى ،
وقد فكرت في هذا الموقف ما فكرت ، فبدأ لي أن من طبيعة
العقاد حين يتحدث عن علم من أعلام الأدب في الشرق
والغرب أن يخلط النقد بالتقريظ ، فلا بد أن يجد ملاحظة
يقولها مما تراه العين الفاحصة ذات المجهر الدقيق ، وهو
يعلم طبيعة تلميذه المتحفزة التي لا تصبر على نقد ، فأثر
السكوت كيلا يثور عليه تلميذه ، والحق أن في طبيعة قطب
كثيرا من طبيعة العقاد ، فكلاهما لا يستكين لتوهين ،
وما كان حبهما المشترك حينما طويلا من الدهر إلا لانفاقهما
في أكثر المواهب والخلال ، وأنا لا أدافع عن العقاد ، فقد

يعلم الله أنني أحب الشهيد سيد قطب لدرجة تقرب من
التقديس وحسبه أن بذل روحه فداء الحق وأنفة من
الطغيان ، ولكني أتخيل ما عسى أن يقف بمثل العقاد عن
الإشادة بمريده العبقري ! وهو مما يحسب عليه مهما
وجد المبرر الصريح .

ولا أعجب من شيء عجبي من ذكر النرجسية في هذا
السياق ! لقد كانت زلة من الأستاذ عبدالمنعم أغضبت جل
قرائه ، مهما نشر مقالته بعيدا عن مصر ، لأن العقاد أصبح
من مفاخر الناطقين بالضاد جميعا في الشرق والغرب ،
ويؤلم الكثرة الكاثرة منهم أن يعيبه كاتب ما بما ليس فيه ،
وإذا كان تلاميذ الأستاذ الخولي يستنكرون أن يذمه ناقد
متعجل ، فإن الذين يرون العقاد حلقة في سلسلة عباقرة
العربية من أمثال الجاحظ والمعري وابن خلدون وشوقي -
وما أكثرهم في القارئين - يرون أن الكاتب قد جانب
الصواب في تسرعه العجيب .

محمد عبده في مرآة عثمان أمين

كانت الفترة الثانية لتولية الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي مشيخة الأزهر الشريف هي فترة الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله .. إذ أن الحديث عنه في هذه الحقبة قد ازدهر وأينع وأثمر ، فالإمام المراغي يسير في الإصلاح الديني على نهجه ، والمقالات في الصحف اليومية ، والمجلات الأسبوعية ترسل الثناء الضافي على المفتي الراحل بعد أكثر من ثلاثين عاما على رحيله ، وطلاب الأزهر في الجامعات والمعاهد يقرءون تاريخ الأستاذ الإمام مبهورين بزعامته وإمامته ، ويرون في المراغي تلميذا ساهرا على تعاليمه ، والشيخ الأكبر لا يني يتحدث عن أستاذه الإمام في الإذاعة والأهرام والرسالة ومجلة الأزهر ، وفي خطبه التي يلقيها في شتى المناسبات ، بل إنه في حفلة تكريمه الكبرى التي أقامها الأزهر ابتهاجا بعودته ، وزخرت بصفوة الأمة من العلماء والأمراء والوزراء ورجال القلم ، قد خصص جانبا للإشادة بفضل الأستاذ الإمام حين قال فيما قال : (ومن الحق أيها السادة علينا ألا ننسى في هذه المناسبة والحديث حديث الأزهر والأزهريين - ذلك الكوكب الذي انبثق منه النور ، الذي نهدي به في حياة الأزهر العامة ، ويهتدي به علماء الأقطار الإسلامية في فهم روح الإسلام وتعاليمه ، ذلك الرجل لم تعرفه مصر إلا بعد أن

فقدته ، ولم تقدره قدره إلا بعد أن أمعن في التاريخ ، ذلك هو الأستاذ الإمام محمد عبده .. رحمه الله وطيب ثراه !
وقد مر على وفاته ثلاثون حولاً كاملة ، ومن الوفاء بعد مضي هذه السنين ونحن نتحدث عن الأزهر ، أن نجعل لذكراه المكان الأول في هذا الحفل ، فهو الإمام المجلى المتفوق ، وعين الماء الصافية التي نلجأ إليها إذا اشتد الظما ، والدوحة المباركة التي ناوى إلى ظلها إذا قوى لفح الهجير^(١) ، هذه الفترة المزهرة في إحياء ذكرى الأستاذ الإمام ، قد سبقتها فترة مظلمة جديبة ، ذكر فيها النبهاء والأدعياء وامتلات الصحف بأنباء الزعماء وغير الزعماء دون أن يتردد للأستاذ الإمام محمد عبده صدى يذكر . وهو إمام الجيل ، ومجدد الإسلام في عصره ، حتى أسف لهذا الإهمال الجاحد تلميذه البار الوفي الأستاذ الأكبر مصطفى عبدالرازق ، وسجل لومه الأسف في مقدمة رائعة كتبها لرسالة (الإسلام والتجديد في مصر) لتشارلز آدمس ، التي ترجمها الأستاذ عباس محمود ، ووكل تقديمها إلى الأستاذ مصطفى عبدالرازق فقال فيما قال^(٢) :

(في بعض سنوات الحرب ، شهدت في الجامعة المصرية ، قبل ضمها إلى وزارة المعارف حفلة جمعت جمهرة من شباب العلم ، وخطب فيها طائفة من كبار الأدباء ، وكبار

(١) مجلة الأزهر - المجلد السادس ٣٥٤ هـ - ٢٨٨ .

(٢) مقدمة عبدالرازق لكتاب (الإسلام والتجديد في مصر) (هـ) .

الأساتذة ، وكان يجري على السنة الخطباء ذكر أئمة النهضة الحديثة في مصر ، في فروعها المختلفة من سياسية ، واجتماعية ، وعلمية ، فتهتف الجموع ، ويبلغ حماس الشباب أقصاه ، حتى إذا جرى ذكر الشيخ محمد عبده ، خفت هنالك صوت الشباب ، وفترت حدة الهاتفين ، انصرفت يومئذ محزوناً حسيرا ، أكاد أتهم بقله الوفاء بلدا ينسى فيه فضل الشيخ محمد عبده بعد سنين ، ولكن عتبي على شبابنا كان ممزوجا برحمة ، لأنهم لم يعرفوا من أمر الرجل شيئا يغريهم بأن يحبوه وأن يقدروه قدره ، ولعل قصارى ماكان يعرف طلاب العلم في ذلك العهد من أمر الإمام انه كان شيخا مكروها هو و آراؤه من الشيوخ ، كما يكره الشيوخ المنار ، وصاحب المنار تلميذ الإمام ، ملأت هذه الخواطر نفسي ، ودفعتنى إلى الخطابة والكتابة في سيرة الشيخ محمد عبده وما يتصل بسيرته و آثاره ووجهته في الإصلاح .

عهدان مختلفان في موقفهما من الشيخ ، وقد قدر لجيلي الأزهري أن يبدأ أدراسته الدينية في مفتتح عهد المراغمي وأن يرى حديث الأستاذ الإمام على كل لسان ، وأن يقرأ المقالات عنه في صحف كثيرة ، ومجلات شتى ، يقرأها لأساتذة كبار كالعقاد والزيات ومنصور فهمي وعبدالله عفيفي وعبد الوهاب النجار و ابراهيم الهلباوي وأمين الخولي وأحمد أمين وعلي عبدالرازق وعلي سرور الزنكلوني ، غير أن

اسم عثمان أمين قد أخذ يقترب بالاستاذ الإمام في مقالات تتباعد وتتقارب ، حتى حسبنا أن الكاتب ممن عاصروا الإمام وشافهوه ، ثم علمنا أن عثمان أمين مدرس ناشيء بكلية الآداب ، وقد رجع وشيكا من بعثته العلمية بباريس بعد أن نال درجة الدكتوراه في بحث علمي أعده عن الأستاذ الإمام ! لقد انتظرنا أن ينال هذه الدرجة عن المصلح الكبير أزهري من أمثال الدكتور محمد البهي أو الدكتور عبد الله ماضي ممن ذهبوا في بعثة تحمل اسم الشيخ محمد عبده ! ولكن باحثا جامعيًا من كلية الآداب كان صاحب هذه الخطوة ؟ فكيف انجذب إلى دائرة الأستاذ الإمام ؟ !

لقد كان من حظ عثمان أمين أن يحظى بالتلمذة على يد الأستاذ مصطفى عبدالرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية بالجامعة وتلميذ الأستاذ الإمام بالأزهر ، وقد كان مصطفى عبدالرازق في خلقه الأمثل ، وسمته الأكمل ، وعلمه المتواضع وحيائه النبيل ، وجوده السخي من أكمل المظاهر الإنسانية في الوجود البشري ، وقد كان فيلسوفا بسلوكه قبل أن يكون فيلسوفا بعلمه ! فيلسوف أخلاق ومثل ، لا فيلسوف تعريفات وتجريدات ومحترزات ، ولو جاز لمصلح أن يبعث في هذا القرن على سمت بشري رائع ، ما تعدى سمت مصطفى عبدالرازق ! ومن خلق مصطفى العالم أن يتوارى خلف السابقين في كل ما يقرر ، فهو يطالعك بنصوص جيدة مستورة ، أحسن استخراجها

وتحليلها وتوجيهها ليعزوها إلى أصحابها ناسبا اليهم فضل ما تحتويه ، وكأنه لم يكابد رهقا في العثور عليها في أنأى المظان ، وفي إكتشاف ما يغيب من مطوياتها البعيدة ، وأولو العلم يعرفون عناء الرجل ، وإيثاره وزهده وتستره ، وأولو التسرع لا يدركون غوره البعيد فيظنونهم ناقلا فحسب ! هذا الأستاذ الملائكي كان دائم الاستشهاد بمحمد عبده علما وخلقاً ، وكفاحاً ونضالاً ، وفقها ف جذب تلاميذ الفلسفة بالجامعة إلى الأستاذ الإمام ، وكان في طليعة من تأثروا بمحمد عبده من تلاميذ مصطفى صاحبنا عثمان أمين ، وكان يعشق أستاذه مصطفى عشقا مثاليا ، وارتقى إحساسه بأستاذه فراه في صورة الأستاذ الإمام ، أو رأى الأستاذ الإمام في صورته ، والنتيجة واحدة :

ومن دلائل هذه العلاقة الأصيلية بين مصطفى والأستاذ عثمان التلميذ ، أن أول مقال كتبه عثمان أمين عن محمد عبده كان معارضة لرأي مصطفى عبدالرازق في علاقة الأستاذ الإمام باللورد كرومر ، إذ ذهب مصطفى عبدالرازق في مقال كتبه بمجلة الشباب (١٧ / ٢ / ١٩٣٦) تحت عنوان (أثر المرأة في حياة الشيخ محمد عبده) مذهبا غريبا حين ذكر أن صداقة الإمام للأميرة المثقفة نازلي فاضل قد ساعدت على مهادنته للإنجليز هذا ما ظننه الأستاذ مصطفى ودونه في مقاله - وكان عثمان بباريس لا يزال يعد لنيل الدكتوراه فكتب في مجلة الرسالة يقول إن عداوة الخديوي لمشروعات

الإصلاح الديني التي اقترحها الأستاذ الإمام ، وقيام طائفة من ذبول المعية في الأزهر بمهاجمة محمد عبده وتجريحه في صحيفة يومية أنشأها الخديوي خاصة بثلب الشيخ ، وتتابع الدسائس الخديوية لأحراجة ، كل ذلك قد دفع محمد عبده إلى طلب العون من كرومر ليستطيع تنفيذ برنامجه الإصلاحية ، وليست الأميرة نازلي فاضل ذات شأن ما في هذا الاتجاه ، يقول الأستاذ عثمان أمين بعد أن بسط هذه المشاكل بسطا كاشفا :

(نرى مما تقدم أن الشيخ محمد عبده لم يصادق الإنجليز عفوا ، ولا إرضاء لهواه ، بل ألجأته إلى ذلك الظروف ، كان يريد الإصلاح حقا ، ولم يكن بمقدوره أن يمضي في إصلاحه ، وأهل الجمود والتقليد يقيمون في وجهه العراقي ، ويحيكون من حوله الدسائس ، فكان طبيعيا إذن ، أن يلتمس موافقة الإنجليز ، وكان لهم حينئذ النفوذ الفعلي في البلاد (٣) .

وما قاله عثمان أمين في هذا المقال هو ما أكده الأستاذ عباس العقاد فيما بعد بمنطق نافذ لا يقبل اللجاج ، وما نظن إلا أن الأستاذ مصطفى عبدالرازق قد سعد بتعقيب تلميذه ، فقد ذهب إلى باريس ليحضر مناقشة رسالته عن الأستاذ الإمام وليعلن فرحته به في كتاب نشره الأستاذ

(٣) مجلة الرسالة العدد (١٩٠) ٢٢/٢/١٩٣٧ السنة الخامسة

عثمان أمين بالرسالة ثم أعاده في مقدمة كتابه (رائد الفكر المصري محمد عبده) .

قلت إن ازدهار الحديث عن محمد عبده في الصحف والمجلات قد جذب أنظار الشبيبة إليه بعد إغفاء ، وما أنكر أن السيد محمد رشيد رضا قد ألف ثلاثة أجزاء ضخام في تاريخ الأستاذ الإمام ، ولكنني أتحدث عن نفسي وعن هم في مثل دراستي المتبدئة بالأزهر إذ ذاك ، حين يرون ضخامة الأجزاء الثلاثة بخطها الضيق وأسلوبها الجاف وسردها الرتيب فيضيّقون بها متطلعين إلى مقالات عصرية مبنية ذات رونق واستهواء ، وإشراق وصفاء ، لقد كنت أخالني أمام جبل وعر ، يسد مهب الريح في كل وجهة - كما يقول ابن خفاجة - حين أهم بقراءة ما كتب السيد رشيد ، وإذا حاد عنه المراهقون من طلبة القسم الابتدائي بالأزهر ، فإن له النخبة المختارة من العصابة أولي القوة ، ولنقتنع نحن بمقالات الأدباء ، وفصول الدارسين .

عاد الدكتور عثمان أمين من باريس ليتحدث في مقالات متصلة عن الأستاذ الإمام ، وكانت مجلة الثقافة أفقه الفسيح الذي يجب أن يسطع فيه ، ولا أنكر أنه نشر بالرسالة والأزهر والأهرام والكتاب ومجلة الإذاعة وغيرها عن محمد عبده ولكن (الثقافة) قد فازت منه بأكبر نصيب ! فعلى صفحاتها اتسع له ميدان التحليل التاريخي لمواقف الأستاذ الإمام ، وعلى صفحاتها هوجم كتابه (محمد عبده)

الذي صدر في سلسلة أعلام الإسلام مهاجمة قاسية من الشهيد الأستاذ سيد قطب ، اعتصم ازاءها المؤلف بالصمت ، إذ طوى كشحا على مستكنه - كما يقول زهير - ولعل القاريء يستشرف ليعلم بعض ما كان .

كان الشهيد الأستاذ قطب ينحاز لمدرسة العقاد في كتابة التراجم الذاتية ، إذ يرى طريقة العقاد وحدها هي التي تضيء معالم الحياة في نفس المتحدث عنه ، فهي توقف القاريء على مفتاح الشخصية الذي يصل به إلى شتى الدروب والمنعرجات في الباطن العميق للإنسان ، وما الأخبار المدونة ، والحوادث اليومية المسجلة إلا وسيلة للاهتمام إلى هذا المفتاح السحري الذي يسلط الضوء على خوافي المسارب وغواشي المنعرجات ، فلا بد أن يكون كاتب الترجمة ذا طاقة إنسانية تساعد على فهم النفوس المختلفة ، وذا طاقة فنية تساعد على تصوير ما يفهمه من أمال المتحدث عنه وآلامه ومواجهه وأشواقه ، وهذا النمط من الكتابة لا يتهيأ إلا لأفذاذ رضي عنهم الشهيد الأستاذ سيد قطب كل الرضا ، وعمد إلى تهجين كل ترجمة لا تنحو هذا المنحى النفسي المصور وطبيعي أن يكون كتاب (محمد عبده) الذي كتبه الأستاذ عثمان أمين بمنأى عما يريد من مثل فنية في تراجم الأشخاص ، لقد تحدث الأستاذ سيد قطب عن كتاب عثمان أمين فقال :

(لقد جمع المؤلف طائفة صالحة في هذا الكتاب من أخبار

الأستاذ الإمام وأقوال بعض إخوانه وتلاميذه عنه ، وآراء بعض من عاصروهم أو قابلهم من الشرقيين والغربيين فيه ، تمد من يريد الكتابة عن محمد عبده بمادة صالحة للكتابة . ولم يكد يتجاوز هذا في كتاب عنوانه (محمد عبده) .

ونحن نعتقد مخلصين أن الإنسان ليس هو الحوادث والأخبار ، إنما هو استجاباته لهذه الحوادث ، ودلالة هذه الاستجابة على نفسيته وطبيعته ، وليست تعني أخبار إنسان كائنا من كان إلا بمقدار ما أعرف من هو هذا الكائن ، وإلا بمقدار ما أجد فيها مفتاح شخصيته وطبيعته نفسيته . وشيء من هذا لم يتعرض له مؤلف (محمد عبده) إلا لما ، إذ كان همه موجهها إلى جمع طائفة من أخبار نشأته ، تعليمه وأسفاره وأعماله ، ... ولا أريد أن أقلل من أهمية جمع هذه الأخبار والأقوال ، فهي المادة الضرورية للدراسة وجمعها هو الخطوة المبدئية ، ولكن الوقوف عند هذه الخطوة تقريبا لا يجعل هذا العمل بحثا ، ولا ترجمة ، ولا صورة حياة ولا بد من الخطوة التالية ، وهي تنسيق هذه الحقائق وتلويينها ، واستنطاق هذه الحوادث وتحليلها ، وتوجيهها جميعا لأحياء الشخصية المدروسة وكشف دخالها النفسية ، ومنحها العنوان المميز لها من بين الشخصيات) .

ويسير المقال النقدي على هذه الوتيرة المعارضة حتى ينتهي بقول الشهيد رحمه الله :

(إن موضوع محمد عبده لا يزال في حاجة إلى الدراسة على نحو جديد ، وإن كان الدكتور عثمان أمين يستحق الشكر لجمعه هذه المادة الخامة من المؤلفات المتفرقة ، والصحف الموزعة ، فقد هيا لمن يكتب عن محمد عبده جزءا قيما من مواد الدراسة ، ووضع لبنة في هذا العمل تذكّر له (٤) .

والحق أن سيد قطب رحمه الله كان ينشد مثلا فنيا أرفع ، هذا المثل في رأيي لا يصلح إلا للحديث عن بطل مشتهر قد عرفت سلفا كل مواقفه كمحمد رسول الله أو كعمر بن الخطاب أو كعلي بن أبي طالب فمهمة الكاتب حينئذ أن يتخذ من هذا المعروف طريقا لاكتشاف المجهول ، وقاريء عبقرية محمد للعقاد لا يفهمها على وجهها الصحيح إذا لم يكن قد أحاط بسيرته صلى الله عليه وسلم في كتاب إخباري كنور اليقين للخضري مثلا ، ثم جاء إلى كتاب العقاد ولديه خلفية عن المتحدث عنه ، أما عثمان أمين فيريد أن يقدم حياة محمد عبده لمن يعرفه بصورة عامة ولمن لا يعرف عنه شيئا ، فجهده هنا - في رأيي - ضروري ، هذا إلى أن لكل كاتب موهبته واهتمامه ، وسيأتي بزاد للقاريء يختلف لا محالة عن زاد غيره ، فتنوع الطعوم والمآكل ولكل طاعم أن يشبع مما يحب !! .

على أن حديث الشهيد سيد قطب عن كتاب عثمان أمين قد

وجد مَنْ يعارضه في أدب ودقة لينصف المؤلف من ناقده الصارم ، فقد قام الناقد الحصيف الأستاذ محمد عبدالغني حسن بالدفاع عن المؤلف دون أن يشير إلى الشهيد سيد قطب ، فقدم الكتاب بمجلة الرسالة تقديما طيبا ، ثم قال مدافعا :

(وليس كتاب محمد عبده عملا أدبيا يضع صاحبه في مرتبة الأدباء ، وأظن المؤلف لم يقصد إلى هذا من وراء كتابه ولا عناء ، ولكنه عالم مشغول بالفلسفة ، أراد أن يرسم للقراء صفحة واضحة من حياة رجل اشتغل بالحياة الفكرية الفلسفية فكان علما من أعلامها .

ومن هنا أخطأ الذين لاموا عثمان أمين على طريقته في كتابه ، ووجه الخطأ أن المؤلف استعرض تاريخ رجل كما كان ، لا كما يريد المؤلف أن يكون ، فهو يعرض الحوادث ويسوقها في تسلسل وحسن ربط ، وصحة عبارة وسلامة أسلوب ، وهذا قصارى المؤلف في تاريخ الرجال ، ومادام المؤلف قد بلغ بذلك العرض قصده من التعريف بحياة المترجم له ، فلا يعنينا أن نبحت عن (مفاتيح الشخصية) التي يتحدث عنها بعض النقاد في هذه الايام ، وما حاجة المؤلف الواضح أن يصطنع المفاتيح ، ويتكلف البحث عنها ، ويدعي لنفسه فضل العثور عليها مادامت الشخصية التي يتحدث عنها سهلة التناول ، واضحة

للقاريء ، لا يجد فيها عناء ولا نصيباً^(٥) .

وبعد أن دافع الأستاذ عبدالغني حسن عن صاحبه ، أخذ عليه عدّة مآخذ جيدة ، منها أنه لم يشر إلى المراجع التي وردت فيها أقوال من استشهد بهم ، وهو مأخذ تلافاه الدكتور عثمان أمين في كتابه التالي عن (محمد عبده رائد الفكر المصري) وقد يكون الدكتور عثمان مضطراً إلى اغفال هذه المراجع خضوعاً لمن أشرفوا على نشر السلسلة وقدروا لها حجماً محدوداً من الصفحات ، وبدوين المراجع في أسفل كل صحيفة قد يضطر الناشر إلى حذف بعض الفصول ، كما وقع لزميل فاضل قص علي حديثه في ألم .

وبعد أن أصدر عثمان أمين كتابه عن محمد عبده في سلسلة أعلام الإسلام سارع فنشر رسالة الدكتوراه عنه باللغة الفرنسية ، ومن لي بقراءتها ؟! وإذا كان فاقد الماء مضطراً إلى التيمم ، فقد قرأت ما كتب عنها بالعربية ، ووقفت طويلاً عند ما خطه الأستاذ يوسف كرم بمجلة الكتاب ، فأنا أعرف فيه دقة وحذراً وأمانة ، وقد قال عن الرسالة الجامعية فيما قال :

(إنها مستفيضة دسمة ، عالج فيها المؤلف مسائل دقيقة عسيرة بمقدرة فائقة تشهد بتضلعه من الفلسفة والكلام ، وقد كان موفقاً كل التوفيق في إبرازه لخاصيتين أساسيتين عند الشيخ ، هما أخذه بالنظر العقلي في جميع

(٥) مجلة الرسالة ، السنة الثالثة عشر العدد ٦٠٨ - ٢٦/٢/١٩٤٥ م .

مواقفه ، واقتصاره في هذا النظر على المفيد في العمل ، شأن المصلح يتعجل النتيجة ويحترق شوقا إليها ، غير أننا نرى أن المؤلف قد غلا بعض الغلو في التقريب بين وجهة الشيخ ، ووجهة أصحاب البرجماتزم ، وهو يقرب بينهما في مواضع كثيرة ، فإن هؤلاء يتهمون النظر العقلي في ذاته ، ويزعمونه عاجزا كل العجز عن إدراك الحقيقة ، فلا يأخذون إلا بالنتيجة العملية مجردة عن كل تدليل على حين كان الشيخ مقتنعا بضرورة النظر ، داعيا إليه ، مدافعا عنه ، وكل ما هنالك أنه كان يرى القصد في النظر ، والاقتصار على البين منه النافع للناس) .

أخذت مقالات عثمان أمين تتلاحق عن محمد عبده في شتى المجالات الأدبية والإسلامية ، فهو يكتب عن إصلاحه وفلسفته وصوفيته وأثره في التربية والأخلاق ، ثم جمع ما كتب في مؤلف مستقل ، ظهر تحت عنوان (الإمام محمد عبده رائد الفكر الحديث) وكنت قبل قراءتي إيّاه أظنّه صياغة جديدة لا تمت إلى هذه المقالات المنشورة إلا بالفكرة العامة ذات الغرض المتحد ، ولكنني وجدته جمعا لما نشر من قبل دون تنقيح ملموس ، وهي عجلة لا ضرورة لها من المؤلف حين يتطلب الموقف أن يميل إلى آرائه ببعض التعديل ، لاسيما والتكرار واضح في بعض الفصول ، وقليلون هم الذين يعتصمون بالصبر فيراجعون ويحذفون ويزيدون حتى ليتحوّل الكتاب في طبعته

الأخيرة كتابا جديدا إذا قرن بما كان ، ولعل الأستاذ محمد عبدالله عنان أحد هؤلاء الصابرين المناضلين ، فقد دأب على تنقيح ما يظهر من طبعات كتبه وفق ما يجد له من الآراء وما يتركه من الأفكار ، وأذكر أنني اضطررت إلى شراء الطبعة الأخيرة من كتابيه (مواقف حاسمة) (ومصر الإسلامية) مع أن الكتابين لديّ في طبعتيهما الأولى ، لما طرأ عليهما من تجديد كادا يتحولان به إلى شيء جديد ! ولكن الدكتور عثمان أمين قد نقل ما سبق أن نشر على أبعاد فوق في بعض التكرار ، وقد يعذر فيما كرر لأنه بالنسبة إلى الأستاذ الامام داعية مثابر ، والتكرار إحدى وسائل الدعاة .

على أنني وقفت على شيء لم أجد له تعليلا شافيا ، فقد نشر الدكتور فصلا تحت عنوان (الامام وإصلاح الأزهر) ووضع في هامشه مراجع طبعت سنة ١٩٤٩ ، وسنة ١٩٥٥ م ، مع أن هذا الفصل عينه قد نشر بمجلة الرسالة العدد (٤٠٦) بتاريخ ١٤ ابريل سنة ١٩٤١ أي قبل أن تطبع هذه المراجع الملحقه بنحو من عشر سنوات ؟ فإذا كان الرجل قد كتب ما كتب قبل ظهور هذه الكتب فلم عدّها من المراجع ، وأشار إليها في الهوامش مما يشعر القاريء أنه استمد حديثه منها ؟ أ يكون ما جاء في هذه الكتب قد وافق قوله - وهو كذلك لا محالة - فأحب أن يعدها من مراجعه !! لقد كنت أؤثر ألا يفعل ذلك ، بل يكتب ما يفيد

ظهور مراجع جديدة تلتقي معه في طريق واحد ! وهذا هو المنهج الصحيح .

بدأ الدكتور كتابه بمقدمة جيدة أعجبنى ما جاء فيها من قوله إنه تنحى قصدا عن مسلك نفر من المؤلفين ، يعرضون لآراء من يتحدثون عنه فلا يتركون منها موضوعا إلا وقد أوسعوه طعنا وتجريحا ، لأنه لا يرى نفعا في ذلك التجريح ، بل يحسب أن تاريخ فكر ما هو نفسه عبارة عن نقد ضمني للمذاهب الفكرية السابقة عليه فليس له أن يخصص صفحات في هذا البحث لنقد نظرات الإمام في الفلسفة أو الدين أو الاجتماع مكتفيا بتوضيح آرائه وحدها ! ومادام الرجل معجبا بصاحبه فله أن يكتفي بال تفسير دون الانتقاد ، ولسواه ألا يكتفي بما اكتفى به فكل مؤرخ منحاه الخاص .

وبعد ، فهل لي أن أشير إلى ملاحظات يسيرة لم أشأ السكوت عليها فيما قرأت من فصول هذا الكتاب فأقف عند هذه النقاط وقوف من يتساءل ، لا من يخطيء ، فقد يكون للدكتور ملحظ لا أدريه .

١ - أكد الدكتور عثمان أمين أن رسالة الإمام في الإصلاح الاجتماعي رسالة خلقية أولا قبل أن تكون دينية ، وقد كرر ذلك فيما كتبه تحت عنوان (الإصلاح الأخلاقي) ص ١٤١ مبتدئا بقوله :

(ذكر أغلب من كتبوا في سيرة محمد عبده أن أهم رسالة اضطلع بها ذلك الإمام هي الإصلاح الديني الاسلامي ،

وهذا الرأي حق ، ولكن إلى حدّ ما ، فإذا التمسنا الحقيقة في نشاط ذلك المصلح المصري وإذا تأملنا على الخصوص مدى تعاليمه ، وحاولنا أن نفهم روح الرجل وعقليته ، وأن نستشف ما وراء السطور فيما جرى به قلمه أدركنا حينئذ أن كل إصلاح خطر بباله إنما مداره دواع وأسباب خلقية) .

وقائل هذا الكلام يفهم - على ما خيل لي - أن الإصلاح الديني في الإسلام شيء والاصلاح الخلقي شيء آخر ، ولعله متأثر بما دعا إليه الفيلسوف الفرنسي (دوركايم) حين نادى بفصل الأخلاق عن الدين ومحاولة تعليلها تعليلا عقليا بحتا ، ولئن جاز هذا عند (دوركايم) لأمر لاحظها في دين أمته ، فإن الدين الاسلامي قد ارتكز على أسمى الأخلاق الإنسانية ، وجاء داعيا إليها ، بحيث لا يعقل أن تنفصل عنه في شيء ، فمحاولة إيجاد فرق ما بين مدلول الاصلاح الديني والاصلاح الخلقي في الإسلام محاولة تحتاج إلى تصحيح حاسم ، وقد كان محمد عبده ذا خلق رائع لأنه يستمد عناصر خلقه من دينه ، وما كان أغنى الدكتور عن تلمس فرق لا وجود له إلا أن يكون قد قاس الإسلام بسواه ، وكيف ؟

٢ - أصر الدكتور فيما كتبه تحت عنوان (محمد عبده الفيلسوف) ص ٥٥ على ما قاله في رسالته الجامعية من أن فلسفة محمد عبده بدأت تأخذ شيئا فشيئا طابعا

براجماتيقيا عمليا ، وكان الأستاذ يوسف كرم قد خالفه في ذلك فيما نشره بمجلة الكتاب ، وأبدى وجهة نظر صائبة ، فإذا كان الدكتور عثمان لم يوافق عليها ، فلم لم يفندوها ؟ وكيف كرر قوله دون دفع لما اعترض به عليه ؟ والاعتراض قائم يتطلب النقد ! وإذا كان محمد عبده قد التزم بالقرآن قولا وتطبيقا ، فلم لا يكون اتجاهه العملي من وحي القرآن الكريم ، وصدى لمنهجه العملي في النفع والتوجيه ! وإذا اتفق مع البرجماتية في اتجاهه العملي فهو اتفاق الطبائع الواقعية الصحيحة ! دون استهزاء واحتذاء .

٣ - ذكر الدكتور عثمان أمين في الباب الرابع أبرز من تأثروا بالإمام من تلاميذه فجعل قاسم أمين ممثلا للمدرسة الاجتماعية ، وسعد زغلول ممثلا للمدرسة السياسية ، والأحمدي الظواهري ممثلا للمدرسة الدينية ، ومصطفى عبدالرازق ممثلا للمدرسة الفلسفية ! وموضع النقد الصارخ هو تجاهل المراغي وإغفاله في الحديث عن المدرسة الدينية ، وهو أولى ممن ذكرهم جميعا بتمثيل الإمام في شتى اتجاهاته ، وإن الصغير قبل الكبير يعلم أن إصلاح الأزهر قد تم في عهد الظواهري تنفيذا للقانون الذي تقدم به المراغي في مشيخته الأولى سنة ١٩٢٨ ورأى القصر رفضه ، فبادر المراغي باستقالته وقامت العواصف تبعا لذلك فحاول القصر أن يهدئها ، ولم يكن أمامه غير تنفيذ قانون الإصلاح كما رسمه المراغي في مذكراته التي استقال بعد

موقف القصر منها ! فياليت شعري كيف يتصدى الدكتور عثمان أمين للحديث عن الإصلاح الأزهري وهو يغفل هذه البدائنه ، فيقول : « وفي سنة ١٩٣٠ وفي عهد مشيخة الظواهري أعيد تنظيم الأزهر فانشئت الكليات الأزهرية الثلاث وغيرها ... » وكل الناس يعلمون أن المراغي هو المفكر المصلح !! وإذا كانت روح الأستاذ الإمام محمد عبده قد ظهرت بوضوح في كل ما جاء في مذكرة المراغي فلماذا لا ينسب الفضل إلى ذويه ! أؤكد أنني لا أعترض على أن يخص المؤلف الشيخ الظواهري بحديث يوضح جهوده ، ولكن أعترض على أن ينسب إليه ما لسواه وأن يهمل أكبر تلاميذ الإمام ، وممن ؟ من أستاذ جامعي متخصص ؟

٤ - ذكر الأستاذ عثمان أمين ص ٢١٩ أسماء من تأثروا بمحمد عبده من المصلحين في سوريا فعدّ من بينهم الأستاذ محمد زاهد الكوثري ! ويا لله من هذا السهو الخطير ، فالأستاذ زاهد الكوثري تركي جركسي لا علاقة له بسوريا ، وقد تولى ، وكالة المشيخة الإسلامية العثمانية في عهد الخلافة ، وأغرب ما في الأمر أنه من كبار الساخطين على تجديد الإمام محمد عبده ، وقد دأب على نشر المقالات المهاجمة له حتى آخر يوم في حياته رحمه الله ! والسؤال المحير حقاً ؟ كيف كتب اسمه الدكتور عثمان دون أن يعلم عنه شيئاً ؟ لقد علق الكوثري على كتاب لابن الجوزي وطبع الكتاب بدمشق ، فأصبح الرجل سورياً لمجرد طبع

الكتاب ، كما يفهم من الهامش الذي ذكره الدكتور عثمان !!
ولكن كيف أصبح في رأيه من أنصاره وهو معارضة اللدود ؟
ومقالاته بين أيدينا ؟

لقد كان الدكتور عثمان أمين قوة عاملة في ميادين شتى ،
وقد ترك من الآثار العلمية والفلسفية ما يرفع قدره ،
ويجدد ذكره ، ثم انتقل إلى رحمة ربه في عهد تحفظ فيه
حقوق النابغين ، ففاضت الصحف برثائه ، ونشط
المنصفون إلى تقديره في مقالات عاقلة أمينة فكان أسعد حظا
ممن سبقوه في عهد قريب فلم تتحدث عنهم إلا نقود
عائلاتهم في صحيفة الوفيات حديثا تحسب قيمته المالية
بالحرف والكلمة والسطر ، ومن هؤلاء في مضمار الفلسفة
وحدها أبو العلا عفيفي ومحمد مصطفى حلمي ومحمد
غلاب ومن غابت عني أسماؤهم ، وعسى أن تكون الإشارة
إليهم داعية إلى انصافهم الأكيد ، فذلك واجب يقع على
تلاميذهم ، وهم كثيرون .

بين هيكل وشوقي

أذكر أنني قرأتُ مقالا طريفا للدكتور سعيد عبده - لا أدري زمانه ومكانه الآن - ولكنني أعلم فحواه ، فقد ذكر الدكتور فيما ذكر أنه قرأ في جريدة السياسة نقدا شديدا للهِجَة لقصيدة قالها شوقي ، وكان الناقد العنيف هو الدكتور طه حسين ، فكتب الدكتور سعيد عبده ردًا على طه ، وذهب به إلى الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير السياسة ، فقرأه مبتسما ، ثم قال لصاحبه ، إنه لا يستطيع أن ينشر النقد ، لأن طه حسين عنيف صعب لا يقبل أن يعارضه أحد على صفحات السياسة ، وتصادف أن قابل الدكتور سعيد أمير الشعراء ، فعلم بما كان من امتناع الدكتور هيكل عن النشر ، فغضب ، وطلب المقال من سعيد ، واتجه به إلى الدكتور هيكل ثائرا ، فحاول استرضاءه ، ووعدته أن ينشر المقال ! إذ أن شوقي كان يخص السياسة ببعض قصائده ، فتلقى رواجاً تحسد عليه ، فإذا امتنع عن النشر بها فذلك عقاب يؤلم ويسيء ، لاسيما إذا كانت الخطوة لجريدة منافسة تنشر الشوقيات فتجد الرواج ، وقد نُشر المقال فعلاً ، ومعه تعقيب للدكتور طه ، إذ لا يجوز أن يكون في جريدة السياسة نقدٌ له دون أن

يشفع بما يعصف به ، ومهما يكن من شيء فقد استطاع
الأديب الناشئ أن يهاجم الأسد في غابه المنيع .

دهاء شوقي

وبعض الناس يظنون أن صداقة شوقي للدكتور هيكल
هي التي جعلته يؤثر السياسة بفرائده الشعرية ، والحق
أنه اضطرَّ الى ذلك اضطراراً ، إذ أن من الجرائد اليومية
كالأهرام ما هو أكثر رواجاً من جريدة الأحرار
الدستوريين ، ولكن السياسة كانت تثقل على شوقي
بنقذات جارحة لبعض أنصار المذهب الحديث ، فأراد أن
يطفيء من حدتها بالتقرب إلى رئيس تحريرها ! وهذا
ما فطن إليه الأستاذ العقاد حين تساءل كيف يُعرِّي شوقي
هيكلا في ولده بقصيدة رنانة ! ولا يُعرِّي أمين الرافعي في
ولده !! وكيف نظم قصيدةً في مدح أحمد حافظ عوض
بمناسبة كتاب ألفه دون أن يهتم بكتب أخرى تفوق ما كتب
صاحب كوكب الشرق ؟!

يقول العقاد^(١) : « إن شوقي ما برح يحتال على
الصحف اليومية منذ سنة ليستكتها ، أو ليسير بها في زفة
التكريم والتلهيل ! لقد كرم صاحب كوكب الشرق في داره ،
ثم مات لمحرر السياسة (يقصد الدكتور هيكل) ولذُفرثاه
بقصيدة ، فهل لمحبة كان ذلك ، أو لحزن أو لصدق في
العزاء ؟ كلا !

(١) الصحافة السياسية . للأستاذ أنور الجندي ، ص (٥٢٧) .

لو كان مثل شوقي يخلص العزاء لإنسان ، لعزى الأستاذ أمين الرافعي في ولده الفقيد ، وهو الذي كان يلزمه في جريدة الأخبار ، والأستاذ الرافعي أحق بالعزاء لأنه رجل نكب في ماله وفي جسمه وولده ، وأشرف على الشيخوخة ، ولكن شوقي هذا ، لا يفهم ذلك المعنى من معاني الصداقة والوفاء ، شوقي يعرف أن الأخبار قد احتجبت بعد الذبوع ، وأن السياسة لا تزال تظهر ، ويقرأها القارئون فمحررها إذن يُعزّي بشعره ، ومحرر الأخبار لا يستحق العزاء .

قصيدة شوقي في ولد هيكل

جعل شوقي عنوان قصيدته (البنون والحياة الدنيا) وقد افتتحها بوصف اللوعة التي تنتقد في الضلوع ، والدمعة التي تطرد في الخدود ، وقال للوالد والوالدة الثاكليْن إنهما ليسا وحيدين في مصابهما ، إذ لم يُعاف قبلهما والدّولا ولد ، وقد سار الذاهبون فما علم أحد أشقوا أم سعدوا ؟ وانتقل إلى الحديث عن معزة الأبناء فذكر أنهم دمنوا وحياتنا ، ولا تلذّ مثلهم مهجة ولا كبد ، وهم فتنة إذا صلحوا ، محنة إذا فسدوا ، شاغل إذا مرضوا ، فاجع ، إذا فقدوا ، جرحهم لا يلمه الضماد ، ولا يجدي به العزاء ، ثم فرغ للدكتور هيكل فذكر أنه ليث المعركة ، وصاحب القلم الصارم كالسيف ، وهو الناقد الأريب ، ومثله لا يجهل

مشيئة القدر ، وسلطانه على الحياة ... هذا بعض ما قاله
شوقي حين هتف بصاحبه .

قـل لهيـكـل كـلـمـا
مـن ورائـها رشـد
لـم يشـب مـهـذبـها
بـاطـل ولا فـنـد !
قـد عـجـبـت مـن قـلـم
ثـاـكـل وبنـجـرد
أنت لـيـث مـعـركـة
وـهـو صـارم فـرد
والسـيـوف نـخـوتـها
فـي السـوـطـيس تـتـقـد
أنت نـبـاقـد أرب
والأديـب يـنـتـقـد
مـاتـقـول فـي قـدر
بعض سـنـه الأبد
وـهـو فـي الحـيـاة عـلى
كـل خـطـوة رصـد
يـنـزل الـرـجـال عـلى
حـكـمـه وإن جـحـدوا
القـضاء مـعـضـة
لـم يـحـلـها أحـد

وتمضي القصيدة على سننها الهاديء ، وفي بحرهما القصير ، وموضع الصنعة فيها واضح ، فهي لا تصدر عن لوعة يحسها الشاعر ، ولكن عن عقل حكيم ، درس الأيام مذبذبة ومقبلة ، فمال إلى العزاء ودعا إلى الصبر ثاكلا وثاكلة يتلمسان السلوى فلا يجدان .

مقدمة الشوقيات

وحين جمع شوقي الجزء الأول من ديوانه ، طلب إلى الدكتور محمد حسين هيكل أن يكتب مقدمته ، ولم يتردد هيكل في تلبية طلبه ، بل لعلّه سرّ وابتهج ، لأن ديوان شوقي مقروء مهما اختلفت وجهات النقد في تقديره ، وستطبع الشوقيات على توالي العصور ومصدرة بهذه المقدمة فمن الذي تتاح له فرصة الذبوع الأدبي المتميز ثم يرفضها ! وليس معنى ذلك أن هيكل يحتاج إلى شوقي كي يبقى اسمه ذائعا على توالي العصور ، فإن لهيكل من الآثار الأدبية الرفيعة ما يتيح لاسمه معنى البقاء الأدبي ، ولكنّ الشوقيات ستكون أشد التماعا فيما يأتي من الأجيال من أي أثر معاصر ! فشوقي هو شوقي ! وقد كتب الله لشعره أن يجلجل ويرن وتتجاوب به الأجيال ! إن شوقي كالمقنبي ، وقد عاش بسببه أناس كانوا نجوم عصر واحد فحسب ، ولكنّ ما قاموا نحو شعره من شرح أو نقد أو جمع قد جعل لهم بقاء متجدداً ! إن نحوياً كالعكبري قد تردّد صيته في دنيا

الأدب بسبب المتنبي ، ولولاه لظلّ خافت الصدى فلا يذكر
 إلّا بكتبه النحوية فحسب ، وهيهات ، أن تنتشر انتشار
 ديوان المتنبي ، فكم مرّة طُبع شرح العكبري لديوانه
 مقيسا بكتابه (إملأ ما منّ به الرحمن في إعراب القرآن)
 مثلا!! إن الدكتور زكي مبارك يذكر في مجلة الرسالة أن
 شوقي دعاه إلى كتابة مقدمة ثانية للشوقيات ، وأنه اعتذر
 فلامه الدكتور طه حسين ! كما سيأتي تفصيل ذلك .

ماذا قال زكي مبارك ؟

يقول زكي مبارك^(١) « كانت الصلة قوية بيني وبين
 شوقي سنة ١٩٢٥ ، وكان شرع في طبع الشوقيات فشاء
 لطفه وكرمه أن يدعوني لكتابة المقدمة بعبارة لا زال أذكر
 نصها بالحرف : سيكتب الدكتور هيكمل مقدمة تاريخية ،
 وستكتب أنت مقدمة أدبية » وبعد أيام تَلَطَّف فاهدى إليّ
 ما طبع من الجزء الأول مصححا بخطه الجميل لأكتب
 ما أريد ، ورجعت إلى نفسي فتذكرت أن المقدمات يلتزم فيها
 الترفق ، وذلك ما يجمل بكتاب مشغول بالنقد الأدبي مع
 شاعر لا يزال في الميدان ، وأسرعت فكتبت إليه خطابا قلت
 فيه : إني لا أستطيع كتابة المقدمة التي ينتظرها أمير
 الشعراء لأنني أخشى أن أقول كلاما يصدني عن نقده إن
 رأيت في أشعاره المقبلة ما يوجب الانتقاد ، وهو - بارك الله

(١) مجلة الرسالة : العدد (٤٤٣) ٢٩/١٢/١٩٤١ م .

في عمره - لا يكف عن مساورة الشعر في صباح أو مساء .
وفي عصرية اليوم الذي كتبت فيه ذلك الخطاب قابلت
الدكتور طه حسين وأخبرته بما وقع فغضب أشد
الغضب ، وقال : ليتك استشرتني قبل أن تصنع
ما صنعت ! ألا تعرف أنك أضعت على نفسك فرصة من
فرص التشريف ! لو طلب شوقي مني ما طلب منك - وأنا
خصمه - لاستجبت بلا تردد فشوقي في رأيي هو أعظم
شاعر عرفته العربية بعد المتنبي .

هذا ما قاله مبارك ، وأنا أسجله لا لكي أصدقه ، بل
لأخذ منه دلالة كبرى على أهمية المقدمة الأدبية لديوان
كالشوقيات ، أما أني لا أصدق ما قال الدكتور زكي فلأنني
أستبعد أن يطلب شوقي منه سنة ١٩٢٥ وهو لا يزال في
دوره الأدبي الأول أن يكتب مقدمة ديوانه ، كما أستبعد أن
يطلب المقدمة - جدلاً - ثم يرفض الأديب الطامح الشاب !!
أما ما ذكره من خوفه أن يترفق بالشاعر فهو أعجب وأغرب
لأن زكي مبارك قد ترفق بشوقي كثيرا كثيرا فيما كتبه عنه في
الموازنات الشعرية بينه وبين من عارضهم من كبار
الشعراء أمثال البحتري وابن زيدون وأبي نواس
والبوصيري ، وقد قال في مناسبة ما ، إنه قبض من شوقي
ثمن هذا الترفق مالا كان في أشد الاحتياج إليه !! فلم يخلف
الترفق هنا ؟ أمّا المضحك كثيرا فهو قول زكي مبارك إن
الدكتور طه حسين قد غضب أشد الغضب لأن زكيا رفض

كتابة المقدمة ! والدكتور طه لا يغضب إلا لنفسه فحسب !
وقد أسقط تلميذه أكثر من مرة في امتحان اللسانيات ، فكيف
يشتد غضبه ، بل كيف يغضب مجرد الغضب ! أنا
لا أستكثر على زكي أن يكون مقدما لشوقي بالنظرة إلى غده ،
ولكني أستكثر أن يقدمه سنة ١٩٢٥ وهو في خطواته الأولى
نحو الابداع .

عودة الى مقدمة هيكل

لقد كتب الدكتور هيكل مقدمة الشوقيات ، فبدأها
بمقدمة سياسية اجتماعية تصور الحالة المصرية منذ قدوم
الحملة الفرنسية إلى مصر حتى بزغ نجم شوقي ، ثم
تعرض إلى نشأة الشاعر الأدبية والسياسية بما هو ذائع
مشتهر حتى خلص إلى الحكم على شعره ، فذكر أن قاريء
شوقي يحس أمام ديوانه أنه يقرأ لرجلين مختلفين جد
الاختلاف لا صلة بين أحدهما والآخر إلا أن كليهما شاعر
مطبوع يصل من الشعر إلى عليا سماواته ، وأن كليهما
مصري يبلغ حبه مصر حدَّ الاعتزاز والفخر ، أما فيما
سوى هذا فأحد الرجلين غير الرجل الآخر ، أحدهما مؤمن
عامر النفس بالإيمان يقدر أخوة المسلمين ، ويجعل من
دولة الخلافة قدسا تفيض عليه شئونه وحوادثه وحي
الشعروإلهامه ، حكيم يرى الحكمة ملاك الحياة وقوامها ،
محافظ في اللغة يرى العربية تتسع لكل صورة ولكل

معنى ، ولكل فكرة ، ولكل خيال ، والآخر رجل دنيا يرى
المتاع بالحياة ونعيمها خير أمال الحياة وغاياتها ،
متسامح تسع نفسه الإنسانية ، وتسع معها الوجود كله ،
ساخر من الناس وأمانيتهم مجدد في اللغة لفظا ومعنى ،
وهذا الازدواج ظاهر في شعر شوقي من أول شبابه إلى هذا
الوقت الحاضر .

ثم قال هيك ما ملخصه : ولا تقل ان الازدواج النفسي
شأن الشعراء ، فأبو نواس قد مدح الخمر مبالغاً ، ثم دعا
إلى الحكمة الزاهدة مستغفراً ، فأبو نواس ليس مزدوجاً ،
بل صاحب نفس واحدة تدفعها الملذات فتهيم في واديهما
واصفة فنونها المخزية ، ثم يدركها الندم فتصرخ صرخات
التوبة والاستغفار ، ولكن شوقيا يقدم صورتين من صور
الحياة تقوم كل منهما مستقلة كأنما صاحبها غير الآخر
فشوقي حين قال :

رمضان ولي هاتها ياساقي
مشتاقـة تسعى إلى مشتاق

غير شوقي حين قال :

ولد الهدى فالكائنات ضياء
وفم الزمان تبسم وثناء

وهذان الروحان تتجاوران في نفس شوقي وتصدران
عنها ، ثم يتساءل كيف جمع شوقي هذا الازدواج ، فكان

شاعر الحضارة الاسلامية بإيمانها وشاعر الحياة الغربية بقلقها ؟ ويجب على تساؤله بأن شوقي كان شاباً نشأ في باريس يستجيب إلى رسالة الحياة ، ثم قدّر عليه أن يتصل بأمير البلاد فحتم عليه ذلك أن يكون المعبر عن آمال المسلمين ومشاعرهم فاجتمع في نفسه في أول حياته ميله للحياة وحبّه إياها ، وحرصه على المتاع بها مع إيمان المسلمين جميعاً ، وحرصهم على وحدتهم وعلى كيانهم بإزاء الأمم الغربية التي كانت تنظر إليهم بعين صليبية بحتة ، وكانت هذه الناحية التي تمثلتها نفسه من ظروف الحياة ، ومن البيئة المحيطة به أكثر استيحاء لشعره من الناحية الأولى التي هي طبيعة نفسه ، فكان بذلك كالرجل القوي الذي يرى وطنه في خطر فيصبح جندياً بأسلاً ويتفوق في كل مواقف الحرب حتى يصير قائداً ، ولو أن وطنه لم يكن في خطر لرأيتّه صديق النعمة ، السعيد بها غاية السعادة^(١) .

هذا لباب ما قاله هيكل ، وهو كلام يتسع للأخذ والرد ، والدفع والجذب ، وقد دفعه كثير من النقاد بما يكاد يعصف به ، ومن هؤلاء الدكتور طه حسين .

نقد الدكتور طه حسين

ذكر الدكتور طه أنه قرأ مقدمة هيكل فلم يظفر فيها

(١) مقدمة الشوقيات (ملخصة من صفحات : هـ . و . ز . ح . ط) .

بمذهب شوقي في الشعر ، وذلك لأن أمير الشعراء ليس له عقيدة شعرية حتى يفصح عنها هيكل ، والخرج في رأي الدكتور طه ظاهر في المقدمة كلها ، وإن شئت فقل إن المجاملة ظاهرة ، إذ استغرق هيكل جزءا ليس بالقصير ليقول إن شخصية الشاعر ثنائية مزدوجة فهو مؤمن ، وهو محب للذائد الحياة ، أو قل زاهد ومستمتع معا ، ولكنه أعرض عن شيء كان جديرا ألا يغفله في منطلق طه حسين ، أعرض عن الصناعة الشعرية التي تظهر للشعراء شخصيات مختلفة ولاسيما في أدبنا الحديث الذي لا يمثل نفس الأديب لأنه ليس طبيعيا ، وإنما يمثل تكلفه ورغبته في إرضاء القراء ، فهؤلاء الشعراء الذين ينظمون في الحكم والأخلاق إنما يريدون أن يتأثروا المتنبى أو أبا العلاء فشخصيتهم هذه الزاهدة الحكيمة مصنوعة تتكلف ، كما أنهم حين يتغنون بالخمير ويتهاكون على وصفها إنما يتأثرون أبا نواس والأخطل فشخصيتهم هذه المأجنة مصنوعة ، وهم حين يمدحون الرسول يريدون أن يتأثروا البوصيري فشخصيتهم هذه مصنوعة ، فهم لا يسلكون طريقا من الشعر إلا مقلدين مقتادين ، ومن هنا كان من الحق على مؤرخ الآداب ألا يغلو في اتخاذ ما يصدر عن هؤلاء الشعراء من الشعر مرآة لنفوسهم دون أن يقدر تأثير التكلف وتملق الجمهور والأفراد .

فازدواج الشخصية الذي يلمح هيكلا في رأي الدكتور

طه لا يدل في حقيقته إلا على أن أمير الشعراء يقلد المؤمنين
والمستمعين كما يقلد غيرهم من أصحاب الشعر^(١) .

تعقيب كاشف

والحق أن التقليد الذي عناه الدكتور طه ويسمى أحيانا
بالمعارضة لا يدل على التكلف في كل موضع ، فإذا أراد شاعر
كشوقي أن يمدح الرسول مثلا ، واختار لنفسه أن يسابق
البوصيري في هذا المجال ، فإن إخلاصه الواضح لنبيه هو
الذي دفعه إلى المعارضة ، وقد وجد لديه ما يقوله مفصحا
عن ذات نفسه ، والمعارضة في هذا المجال لا تنفي الصدق
للتعبير عن عواطف النفس ، أما التكلف فهو أن يصف
الشاعر شيئا لا يحسنه ولا يعنيه لأن شاعرا سابقا قد
وصفه ، ولا نظن شوقيا لم يحسن بلوعة الفراق حين قال
سينيته الأندلسية معارضا البحرى حتى نقول إنه تكلف
المعارضة تكلفا ليقرن بالشاعر العباسي ، كما لا نظن أنه
افتعل عواطفه في الحنين إلى مصر من الأندلس ليقال أنه
عارض ابن زيدون !! فالمنطق الصائب في تقدير المعارضات
أن نبحث عن ناحية الصدق لدى المعارض ، فإذا كان القائل
ذا باعث حافز فلا يهمنا إذن أن يجيء الشعر على وزن سابق
أو لا يجيء ! قد يكون في بعض المعارضات افتعال كاذب لأن
صاحبها أراد السبق دون صدق فني ، وليس كل معارضات

(١) حافظ وشوقي ص ١٤ للدكتور طه حسين ط ١٩٧٣ م .

شوقي من هذا الطراز ، فالدكتور طه في رأيه قد امتد بالحكم إلى جميع المعارضات ، وكان حقه أن يبحث عن دافع المعارضة النفسي ، وأن ينظر إلى صلة الموضوع وانتمائه إلى نفس القائل ، وهنا يتبين الانفعال من الافتعال !

أما أن هيكلاً قد جامل شوقي في بعض ما قال فذلك ما لا شك فيه لأن لهيكل آراء فيما ينبغي أن يكون عليه الشعر المعاصر ، قد لا تجد تطبيقها الدقيق في كثير مما قال شوقي ! وهو في مقام التقديم لم يستطع أن يشير إلى ذلك ، ولكنه في مجال آخر أخذ الشعراء بالقصور - ومن بينهم شوقي - لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى العصر وظلّوا دائرين في حلبة السابقين ، لقد كرر هذه المعاني في كتابه النقدي (ثورة الأدب) إذ حكم بأن الشعر المعاصر لم يسبق النثر المعاصر إلى الخطوات التي سبق بها النثر ، وعرض لما يقال عن أسباب ذلك من جمود الشعر عن أوزان العرب ومعانيهم وقوافيهم ، وعجزه عن مجازاة الهزات الشعرية التي تجول بالنفس المثقفة بثقافة العصر إلا في أبيات تتخلل القصيدة أحياناً دون أن يتصل مجرى الإبداع .

يقول الدكتور هيكلاً : « وليس القصد من الشعر في رأينا هو هذه الأبيات الفذة ، وليس هو محاكاة الأقدمين ، وإنما القصد من الشعر إبراز فكرة أو صورة أو إحساس أو عاطفة يفيض بها القلب في صيغة متسقة من اللفظ تخاطب

النفس ، وتصل إلى أعماقها من غير حاجة إلى كلفة أو مشقة ، ثم ترتفع بها وترتفع ، أو تهبط وتهبط ، وأنت مندفع معها ، منساق وراءها ، متلذذ باندفاعك وانسياقك ، تلذذك بصوت المغني ، أو نغمة الموسيقي ، وكما يسبقك المغني إلى القرار أو السمو الذي تنساق إليه نفسك طائعة مختارة ، يجب أن يسبقك الشاعر في فيض الحس أو الشهوة أو العاطفة ، وأن يشعر من ذلك اضعاف ما تشعر به لو كنت وحدك ، وكلما بلغ الشاعر من ذلك مدى بعيدا ، وكلما استوت له من ذلك النفوس جميعا ، اقترب من ذروة مجد الشعر وغزر له فيضه^(١) .

عدد السياسة الأسبوعية

حين اجتمعت الكلمة على مبايعة شوقي بإمارة الشعر رأى الدكتور محمد حسين هيكل أن تخرج مجلة السياسة الأسبوعية عددا خاصا بشوقي يتيح الفرصة لكبار الباحثين أن يسجلوا آراءهم الفنية في أمير الشعر بهذه المناسبة .

يقول الدكتور زكي مبارك^(٢) : « كانت (السياسة الأسبوعية) في تلك الأيام توجه التيار الأدبي في مصر ، وفي

(١) ثورة الادب ص ٥٣ ، وهناك آراء صائبة لهيكل في حقيقة الشعر وجوهره أفرادها زميلنا الأستاذ الدكتور ابراهيم عوضين بحثا ضافيا بالعدد الثاني من مجلة اللغة العربية بالمنصورة . ما بين ص ٥ ، ص ٣٨ فالتراجع .
(٢) (٣) الرسالة العدد (٤٤٣) ٢٩/١٢/١٩٤١ م .

سائر البلاد العربية ، وكان اصدار عدد خاص عن شاعر من مثل تلك المجلة يعد تزكية أدبية تفوق الوصف ولكن شوقي لم يرتح كل الارتياح إلى ذلك العدد الخاص ، فقد ظهرت فيه عبارات تغض كثيرا أو قليلا من مقام أمير الشعراء .

وقد أشار الدكتور مبارك إلى أن شوقي رأى من حقه أن ينظر في محتويات العدد الخاص به فأشار بحذف مقالات كان منها مقال زكي مبارك نفسه لأنه استكبر عليه فلم يكتب مقدمة الشوقيات !! وأنا والله في حيرة من هذا القول ، لأن المعروف أن شوقي قد غضب على هيكل وأوحى لنفر من الكتاب بمهاجمته المتصلة لأمر ذكرت في عدد الاحتفال ! فكيف يتأتى غضب شوقي مع قيامه بالمشورة وإسهامه بالرأي فيما ينشر ويُهمل ؟ وإذا كان قد أشار بإهمال مقال زكي مبارك فاستجيب له ، فلم لم يشر بإهمال مقالات خصومه الكبار فيستجاب له أيضا !! إن المعروف عن هيكل أنه ذو عزة وكرامة ، وما كان لمثله أن يعنو لشوقي إذا استباح لنفسه أن يقدم مقالا ويؤخر سواء ، وأين هو إذن !!

الحق اني لا أفهم ذلك كله ، وبخاصة إذا كان الدكتور مبارك قد واصل القول فقال (٣) :

« غضب شوقي على ذلك العدد من (السياسة الأسبوعية) وكان شوقي إذا غضب غضب معه ألف مرتزق من أدعياء الأدب ، فمضى أولئك المرتزقة يقولون في الدكتور

هيكّل ما تسمح بنشره الوريقات المتسمة زورًا بوسم الجرائد والمجلات ، فكتب الدكتور هيكّل في (السياسة الأسبوعية) مقاله المأثور (أخلاق شاعر الأخلاق) وهو مقال فصل فيه ما كان بينه وبين شوقي ، وتوعّده توعدًا أليما ، فقد نصّ على أن شوقي لن يظفر مرة ثانية بمثل ذلك الاحتفال .

وجدير بالذكر أن الدكتور هيكّل قد أصدر عددا من السياسة الأسبوعية خاصا بحافظ إبراهيم ، ولكن بعد أن لحق شاعر النيل بربه ، فحفظ للشاعرين الكبيرين مكانهما فيما أشرف عليه من أعداد ! وهكذا كان الرجل الكبير ناقدا مؤرخا وكاتبا منصفًا ، ومفكرًا ذا مروءة وشمم واستعلاء رحمه الله .

ولقد ذكرتك

أكثر الكتب المدرسية تختار لشاعر الأقطار العربية خليل مطران قصيدة المساء في مجال التدايل على عبقريته والإشادة بتجديده ، والقصيدة رائعة حقا ، ولكن كثرة الاستشهاد بها دون نظائرها الرائعات مما يسيء إلى الاساتذة المؤلفين إذ أولعوا بالترديد المتكرر حين ينقل السابق عن اللاحق ، وأخال أكثر هؤلاء الأفاضل حين يتحدثون عن الشعراء لا يرجعون إلى دواوينهم المشتهرة ، بل يتذكرون ما حفظوه أيام الدراسة فينقلونه من الذاكرة في غير عناء ، وربما تفضلوا بنقل الشرح

المحفوظ أيضا ! وهو داء يتطلب العلاج .
أقول ذلك لأن أكثر الأدباء يحفظون قصيدة المساء من
عهد الدراسة ، وهي قصيدة تجمع بين وصف الألم
الجسمي والألم النفسي أو قل إنها تصف ألما جسميا سببه
ألم نفسي ، وقد عناهما الشاعر الكبير حين قال :

يا للضعيفين استبدا بي وما
في الظلم مثل تحكم الضعفاء
قلب أذا بته الصبابة والجوى
وغلاللة رثت من الأدواء
والروح بينهما نسيم تنهد
في حالي التصويب والصعداء
والعقل كالمصباح يغشى نوره
كدري ويضعفه نضوب دمائي

وبعد أن توجه الشاعر العاشق بالخطاب الى حبيبته
ليحدث عن عمره اللذين وهبها إياها ، عمر الفتى الفاني
بجسمه وعمر الأدب الباقي على الزمن مخلدا حديثها
العاطر ، أخذ يصفها الوصف الحي الذي تمتزج فيه
الأحاسيس الرفيعة بما يوميء إليها من مظاهر الكون ، ثم
انتقل الى تشريح خوالجه الدفينة حين تفرد عن الناس
بصبابته وكابته شاكيا إلى البحر اضطراب خواطره فيرد
عليه بالريح الهائجة العصفوف ، ثاويا على صخر أصم
يتمنى لو يرزق قلبا في مثل قسوته ، وتغلغل بنظره الفلسفي

إلى الغروب وما به من عبرة للمستهام ، إذ كان نزعا للنهار
وصرعة للشمس بين ماتم الأضواء ، وطمسا لليقين ،
وبعثا للشك ، ومحو الوجود إلى مدى محدود حتى يكون
البعث الجديد في الصباح ، والقصيدة على عمقها الدقيق
من أوائل ما نظم الشاعر في الجزء الأول من ديوانه وقد
ختمها بقوله المبدع :

ولقد ذكرتك والنهار مودع
والقلب بين مهابة ورجاء
وخواطري تبدو تجاه نواظري
كلمى كدامية السحاب ازائي
والدمع من جفني يسيل مشعشا
بسنى الشعاع الغارب المترائي
والشمس في شفق يسيل نضارة
فوق العقيق على ذرى سوداء
مرت خلال غمامتين تحذرا
وتقطرت كالدمعة الحمراء
فكان آخر دمعة للكون قد
مزجت بآخر أدمعي لراثي
وكأنني أنست يومي زائلا
فرأيت في المرأة كيف مسائي
وكان لنا زميل يحفظ المأثورات من الشعر ، ويضم
النظائر الى النظائر ، فأخذ حين جلسنا نقدارس هذه

المقطوعة الساحرة ابتداء من قول الخليل (ولقد ذكرتك)
أخذ ينشد أبياتا كثيرة من محفوظاته الغزيرة ابتدأت بقول
الشاعر (ولقد ذكرتك) فأوقفنا على خوالج عاطفية ذات
وهج ، إذ من الطبيعي أن يذكر الشاعر من يحب ، يذكرها في
سروره المغتبط وفي ألمه المبرح ، وإذا كان السرور لا يكتمل
إلا بالقرب ، فكل مشهد جميل من مشاهد الطبيعة يدفع
الشاعر العاشق إلى أن يحرص على اللقاء في إطاره البهيج
المونق ، فإذا لم يتح له كما يريد ، هتف من أعماقه بمثل
ما هتف به القائل :

ولما نزلنا منزلا طله الندى
أنيقا وبستانا من النور حاليا
أجد لنا طيب المكان وحسنه
منى فتمنينا ، فكنت الأمانينا

فقد نزل الشاعر العاشق منزلا أنيقا في بستان ناضر
الزهر ، وشاهد من حسن المكان ما جعله يتمنى أن يكون مع
حبيبته لتصبح جمالا ناطقا يضاف إلى الجمال الصامت !
هذا في أوقات البهجة ، وهي نادرة في حياة العاطفيين التي
تفوق بالآلم ، وتعج بالحرمان ، ولهذا كانت أكثر ذكريات
هؤلاء نائحة شاكية ، وكان أكثر ما بديء منها بقول الشاعر
(ولقد ذكرتك) مما يصور لواعج الوجد الدفين .

أذكر أنني نشرت منذ أكثر من عشرين عاما قصيدة أقول
فيها :

ولقد ذكرتك والمشارط في
كف الطيب تذيقني الويلا
ويداه مرعشتان أرعدتا
خوفا فحير خوفه الأهلا
ودمي تساقط من يديه ، وعن
يمناه أمي زلزلت هولا
وأبي يتمم بالبدعاء ولا
ينفك يسأل ربه المولى
وأخي وأختي ساهمان أسي
وكلاهما يصلي الذي يصلي
ويقول قومي : ماتراح به
فأقول : مشتاق إلى ليلى

وال تجربة صادقة ، لم أزد عن أن عبرت عنها كما كانت !
إذ أغنت واقعتها الصريحة عن كل إضافة يرفدها الخيال ،
ولكن صاحبنا الذي روى الكثير من محفوظه الأدبي ، قال
في ابتسام ينبيء عن نقده المستتر : إن خاطري قد اتفق مع
خاطر حفني ناصف حين قال :

ولقد ذكرتك والطبيب بجانبي
والجسم فوق فراشه مطروح
وجفون عيني بالملاقط فتحت
وبها المفاضغ تغدي وتروح

والخيط يجذب في الجفون بإبرة جذبنا تكاد تفيض منه الروح

واتفاق خاطر في منطقه الخاص قد يوحى بالسرقة ، أو
الاحتذاء المقلد ، إذا عمد الناقد لتلطيف المأخذ ، مع أن
تصوير التجارب المتشابهة لا يمت إلى الاحتذاء بسبب ، إذ
لكل شاعر منحاة في التصوير والتعبير ، فنحن في هاتين
المقطوعتين نرى اتفاقا في الإطار الخارجي لا في الصورة
الداخلية ، فصاحب المقطوعة الأولى كان يجري عملية
جراحية في جسمه ، وكان طبيبه مرتعشا يتخوف العاقبة في
وجل ، ودمه متقاطرا يتساقط من مبضعه ، فجعل الأم
والأب والأخوة يتضرعون إلى الله في إشفاق تارة ، ويلوذون
بالوجوم تارة أخرى ، أما الشاعر الثاني فمكان الجرح في
عينه حيث سلطت الآلة الجراحية على جفنيه تمزيقا
وكشطا ، وتعاقبت شكات الإبرة بخيطها الممتد رتقا
والتئاما ، فلكل منهما إذن جوه الخاص ، وتجربته
الشخصية ، ذات الحس الصادق ، والمعاناة الاليمة ، على
أن المسألة بعد ليست مسألة جزئيات ، تختلف في إطار
متفق ، لأننا نرى أنه لو اتحدت هذه الجزئيات كما اتحد
الإطار ما كان ذلك مدعاة نقص يلحق المتأخر ، ويصمه
بالتقليد ، إذ أن الأمر موقوف على الصدق الفني في تصوير
التجربة - حقيقية أو متخيلة - مهما كانت متحدة الوقائع
والأحداث ، إذ من الممكن أن يمر كلا الشاعرين بعملية

جراحية متفقة ، وأن يحيط بهما من الملابس ما لا يفترق
لدى أحدهما في شيء ، ثم يعبر كلاهما عن نفسه تعبيراً حياً
لا يسمح لأحد بالقول بالناثر ، فلكل شاعر نبضه وتصويره
وموسيقاه ، وإذا كان توارد الخواطر حقيقة نفسية ماثلة
فلماذا نجعله أداة انتقاص تشين المجيد وتوقفه ظلماً
موقف الاتهام ! إن الظريف المضحك أن عشرات الكتب
لدينا قد وضحت مسألة السرقات الشعرية في النقد القديم
والنقد الحديث بما يكشف الالتباس ، ولكننا بعد هذه
الكتب المتعددة ندور في حلقات مفرغة ونتناول ما درس من
القضايا وكأنه شيء جديد ؟ أفلا يرجع هؤلاء المندفعون إلى
القول بالتقليد أو السطو إلى ما قاله المتخصصون ؟

على أن مما يمنع الظن الراجح بالسرقة في التجارب
المماثلة أن نرجع إلى الحقيقة الانسانية الناهضة بإزاء كل
تجربة ، هذه الحقيقة التي تعلن - في موضوع تذكر
الحبيبة - إن فترات الهول على اختلاف بواعثها ، تجعل
صاحب المأساة يفكر في أماله الضائعة وأحلامه العازبة ،
فالمريض في ساعة الهول إذا كان عاشقاً ملتماحاً فإن تذكره
الحبيب ضرورة حية من ضرورات كيانه الإنساني ، لأن
حبه أقوى وأكد من سواه ، وتذكره في المحنة القاسية
صرخة هائلة من نفس تعاني من لهيب البعد ما تعانيه من
مبضع الجراح ، وتعدد هذه الصرخات الصادقة لا يدل على
الاحتذاء ولكن يدل على تماثل الإحساس .

نعرف أن عبدالله بن الدمينه شاعر عاشق ، وقد سجن في قضية قتل نسبت إليه ، وكانت البراءة أبعد ما يتوقع وقد سيق الى السجن ، وكبل بالأغلال الثقيلة ، وأخذ السجنان يضرب على يديه بالحديد تعذيبا وإجعا ، وعيون الشامتين تراه قريرة هائلة فتزيده ألما وحرقة ، ولكنه مع ذلك يتذكر صاحبه ويهفو إليها فإذا ما تركه السجنان وقتا قصيرا جاشت خواطره فنقل عن إحساسه الصادق قوله مخاطبا حبيبته :

ذكرتك والحداد يضرب قيده
على الساق من عوجاء باد كعوبها
فقلت لراعي السجن والسجن جامع
قبائل من شتى ، وشتى ذنوبها
ألا ليت شعري هل ازورن نسوة
مضرجة بالزعفران جيوبها
وهل ألقين بالسدر من أيمن الحمى
مصححة الأجسام مرضى قلوبها
بهن من الداء الذي أنا عارف
ولا يعسرف الأدوية إلا طبييها
عليهن مات القلب موتا وجانبت
بهن نوى غب ، أشب شعوبها

فالسجن والقيد وعذاب الحداد مما لم يحل دون تذكاري
الحبيب ! وقصة قيس مع أهله شاهد آخر ، فقد سلب

المجنون عقله فما يرجع إليه في فترات قليلة ، وعزَّ على
 أقاربه أن يفقدوه هكذا دون جدوى ، فاحتالوا عليه في
 بعض أوقات صحوه حتى أقنعوه بأن الله قادر على شفاؤه ،
 وما عليه إلا أن يحج البيت العتيق ويطوف بالكعبة
 ويدعو الله مع الضارعين ! وقد سارقيس مع أبيه ورأى
 الموكب الحاشد يعج بالتلبية والتكبير والتهليل ، فدعاه
 أن يتوب عن كل شيء إلا عن حب ليلاه ! لقد فرها رباً منها إلى
 ربه ، فحين أزفت ساعة الدعاء تذكرها فاستثنى حبها من
 أن يتوب عنه ، وحفظله رواية الشعر قوله :

ذكرتك والحجيج له ضجيج
 بمكة والقلوب لها وجيب
 فقلت ونحن في بلد حرام
 به لله أخلصت القلوب
 أتوب إليك يا رحمن مما
 جنيت فقد تكاثرت الذنوب
 فأما عن هوى ليلى وتركي
 زيارتها فإني لا أتوب
 وبعض المتشككين ينكر قول قيس هذا ، ويزعمه من
 افتعال الرواة ، ولكن ما ينكره هذا المتشكك إحساس
 بشري شائع إن لم يقع من قيس فقد وقع من سواه ، ألم يقل
 كثير عزة ؟ :

أناديك ماحج الحجيح وكبرت
بفيفا غزال رفقة وأهلت

ثم ألم يقل عمر بن أبي ربيعة ؟

نظرت إليها بالمحصب من منى
ولي نظر لولا التحرج عارم

بل ألم يقل الشاعر الفقيه المتشدد عروة بن أذينة ؟

ولهن بالبيت العتيق لبانة
والبيت يعسرفهن لـو يتكلم
لو كان حيا قبلهن ظعائنا
حيا الحطيم وجوههن وزمزم

ثم ألم يقل قيس نفسه مرة أخرى ؟

ولم أر ليلي بعد موقف ساعة
مع الركب اذ ترمي جمار المحصب
وييدي الحصى منها إذا قذفت به
من البرد أطراف البنان المخضب

على ضوء هذا الفهم يمكننا أن نشير إلى وقائع مماثلة في
عالم التذكر لنرى كيف نتجه العواطف الصادقة في مواقف
الخطر وجهة المعشوق تتساعل عنه في لهفة ، وتطرب الى
ذكراه في حنين ، وقد كان عنتره العبسي من أشهر من عبروا
عن هذه الحالة إذ قال في معلقته الذائعة :

ولقد ذكرتكم والرماح نواهل
مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها
لمعت كبسارق ثغـمرك المتبسم

إذ أن المعركة ذات الرماح والسيوف لا تقل خطرا عن
العملية الجراحية ذات المباحض والمشارط ، وقد اتجه
عنتره إلى حبيبته ساعة الهول ، ولكنه سمح لخياله أن
يشنط في التصوير حين زعم أنه كان يود تقبيل السيوف
حين ذكره بريقها الساطع بثغر حبيبته ، مع أن تذكر الثغر
ومحاولة التقبيل في هذا الموقف بعيد بعيد ، فالشاعر
العاشق يذكر حبيبته في موقف الهول لمعنى إنساني لا للذة
حسية ، وإذا كانت خطورة المعركة قد استجاشت ذكرى
عبلة في نفس عنتره ، فكم من مخاطر استجاشت ذكريات
الأبناء والآباء والأخوة في وقت الضيق دون أن تكون هذه
الذكرى مقصورة على الحبيبة وحدها !! ومن أصحاب
الشعور الراقى من يتذكر عدوه في ساعة الضيق إذا كان قد
كابد ما كابد من الهول ، ولا أدري أية قصة قراءتها في الزمن
البعيد تدل على هذا المغزى حيث صاح البطل في لحظاته
الأخيرة حين فاجأه ألم السيف الهاوي على جسده : أكذا
أحس غريمي ما أحسّه من الكرب حينما فرحت بمصرعه !
يالنا الله ! كلنا نتعادي على الفتات ولا نعقل ولا نفيق !!
على أن ذكر الحبيبة هو الأسبق دائما ، ولا أعني أنها

مفضلة على الابن ، بل أعني أنها غالباً تكون في الحياة قبل أن يولد الابن فتتفرد بالحب والهيام ، ولابن رشيق القيرواني موقف مماثل لموقف عنتره إذ ركب السفينة في بحر هائج مضطرب ، وقد أخذت الريح تعصف والمطر يهمني ، وصراخ الراكبين يرتفع ، وهنا تلوح الحبيبة في ذهن الشاعر فيناجيا قائلاً :

ولقد ذكرتكَ في السفينة والردى
متوقع متلاطم الأمواج
والجو يهطل والرياح عواصف
والليل مسود الجوانب داج

والامتحان ! ما أشق الامتحان على الطالب الجامعي في سنته الأخيرة ! كان معنا زميل ينظر إلى الاسئلة دون أن يجيب ، فحدث أصحابه أن خصام صاحبه قد كدر مزاجه ومحاذاكرته فما تذكر شيئاً ، ولو كان الطالب شاعراً لسجل ذلك في مقطوعة ولكن هل كل الأحبة شعراء ؟

ولا أجد ختاماً أروع وأشجى وأوقع مما قرأته للشاعر البلجيكي (مورييس ماترلنك) حين قال على لسان فتاتين ، إحداهما مخطوبة تحتضر ، والأخرى شقيقة تتألم :

- الشقيقة : ماذا أقول لو عاد يوماً ؟

- المحتضرة : قولي له : انتظرتُه حتى قضى عليّ الانتظار .
- الشقيقة : وإذا استوضحني كيف جدت بالنفس الأخير .

- المحتضرة : قولي له : لقد تبسّمت كيلا يبكي إذا علم أنني
جزعت .

فموريس ماترلنك يجعل الحبيبة المحتضرة لا تكتفي
بذكر حبيبها ساعة النزاع فقط ، بل تجبر نفسها على
الابتسام ليعرف حبيبها ، أنها ودعت الدنيا سعيدة
مبتسمة فلا يجزع ! أي سمو هذا ؟

لقد طال بنا التطواف استحياء لقصيدة مطران
وما ظننت حين البدء أنني سأجمع هذه الشوارد ، وكان
قدماء المؤلفين يرحبون بهذا الاستطراء ؟ فهل يتقبله
القاريء الحديث ؟

مصطفى عبدالرازق

الكاتب الموهوب

لدي بحوث تجمعت عناصرها ، واتضحت نتائجها ، ولكنني أرجي صياغتها حتى تحين مناسبة حافزة ، وموضوع مصطفى عبدالرازق الكاتب الموهوب مثل لما أعنيه من هذه البحوث ، فقد قرأت من أمد بعيد ما جمعه الأستاذ الكبير علي عبدالرازق تحت عنوان (من آثار مصطفى عبدالرازق) فهالني أن أعلم عن الشيخ الأكبر روائع ساحرة كنت أجهلها كل الجهل ، وهالني أن يكون أكثر لداتي الأدباء ممن لم يقرأوا الجريدة أو السفور أو السياسة اليومية في سنواتها الأولى يجهلون ما أجهل ، فصممت على أن أتحدث عن الكاتب الأديب ليقدره حق قدره من يعرف مصطفى العالم البَحَّاة الضليع ، ومضت الأيام دون أن أجد المناسبة الدافعة ، حتى سنحت عرضاً في كلمة أخيرة كتبها الأستاذ الكبير مصطفى أمين تحت عنوان (فكرة) في جريدة الأخبار (١٩٧٩ / ٢ / ٥ م) إذ تحدث عن الأديب الناقد المسرحي الراحل الأستاذ محمد علي حماد رحمه الله ، فقال ما نصه :

(هذا الجيل لم يعرف حماد عندما كان الناقد المسرحي لجريدة البلاغ في عهد النقاد المسرحيين العظام أيام كان عباس العقاد يكتب في الصفحة الأولى عن موسيقى سيد

درويش ، وتوفيق دياب يكتب في الصفحة الأولى نقدا لروايات يوسف وهبي ، والشيخ مصطفى عبدالرازق يكتب وصفا لحفلة أم كلثوم ، وفكري أباطة يكتب عن سلطنة الطرب ، وطه حسين ينقد فرقة الكوميدي فرانسيز في الأوبرا) .

قرأت ما كتبه الأستاذ مصطفى أمين فعرفت أن قراء اليوم لا يجهلون العقاد وتوفيق دياب وفكري وطه ، ولكنهم إن عرفوا أن مصطفى عبدالرازق كان باحثا عالما يدرس الفلسفة في كلية الآداب ، ثم ولي الوزارة فمشيخة الأزهر الشريف ، فلن يعرفوا أن الأستاذ الأكبر كان أديبا من الطراز الأول ، كما كان ناقدًا فنيا يتحدث عن الفنون بأنواعها المختلفة ، وقد وصف إحدى حفلات أم كلثوم هذا الوصف البديع الذي أشار إليه الكاتب الكبير الأستاذ مصطفى أمين ، وكانت كوكب الشرق حينئذ في مستقبل عهدها الفني ، تقف بين والدها وأساتذتها من المعتمدين لتؤدي دورها المطرب ، ولتدفع الأستاذ مصطفى عبدالرازق إلى أن يصف حفلها هذا الوصف البديع فيقول :

« وكلما ذكرت الشيوخ ذكرت أم كلثوم أميرة الغناء في وادي النيل ، فإن لها هي أيضا شيوخا يحفون بها في عمائمهم المرفوعة ، وأكمامهم المهفهفة ، وقفاطينهم الحريرية الزاهية اللامعة ، وجبيهم الطويلة الواسعة ، عن اليمين شيخان ، وعن اليسار شيخان ، حول فتاة

معتدلة القوام ، لا يشتكى منها قصر ولا طول ، ولا يشتكى غلظ فيها ولا نحول ، تنظر بعينين فيهما شباب وذكاء ، وفيهما نزوة الدعابة ودلال الحسنة ، وفي وجه ليست تفاصيله كلها جميلة ، ولكن لجملة روعة الجمال ، تحت ذلك العقل البدوي مكفكفا على جبينها بطراز مذهب ، ومرخي وراء ظهرها منه هدايا الدمقس المقتل ، في ثياب حشمة تميل إلى السواد ، وفي مظهر بساطة ، كان على سجيته يوم إذ كانت الفتاة القروية حديثة عهد بسداجة الريف ، ثم أصبح تأنقا حضريا مقدرًا تقديرا .

تظهر أم كلثوم باديء الأمر رزينة ساكنة وتشدو بصوتها الحلو شدوا لبنا ، من غير أن يتحرك طرف من اطرافها ، إلا هزة لطيفة ، تنبض بها رجلها اليسرى أحيانا ، ثم ينبعث الطرب في هيكلها كله ، فتنهض قائمة ، وترسل النغمات متعالية ، تذهب في الأفاق هتافا مرددا أو تتراجع رويدا رويدا حتى تتلاشى حنينا خافتا ، وتهزها أريحية الشباب والطرب ، فتساير النغمات في حركتها ، مندفعة بوثبات الشعور وراء مذاهب الفن ، وتتلوى عن يمينها وشمالها أعناق الشيوخ وباليات شعري ما لام كلثوم والشيوخ ؟

أم كلثوم نعمة من نعم الدنيا ، فما بالها تأبى إلا أن تتجلى على الناس في مظهر الآخرة (١) .

(١١) ، (١ب) من انوار مصطفى عبدالرازق ص ٤٤٤ نقلا عن جريدة السياسة ١٩٢٥/١٢/٣ م .

هذا بعض ما قال الكاتب الفنان عن حفل أم كلثوم ،
واللفتة الأخيرة بارعة ، وإن كان الشيخ الفاضل مصطفى
عبد الرزاق قد تناسى أن الفن الغنائي بُدِئ على أيدي أمثاله
من الشيوخ وأن سلامة حجازي وسيد درويش وهما علما
الغناء في مفتح هذا القرن يذكر كلاهما بلقب الشيخ ؟
فكيف لا تظهر أم كلثوم مع الشيوخ ! ومع هذا التبرير
الذي أتكلفه تكلفا لأنني شيخ أيضا ، وإن كانت العمامة
مستترة كالفاعل الذي يعود إلى لفظ سابق ، مع هذا التبرير
المتكلف ، فالفكاهة في قول الكاتب رائعة بارعة ذات أبعاد .

هذا المقال الحي النابض الذي ختمه الكاتب الموهوب
بوصف لحفلة أم كلثوم بدِئ بوصف ساحر كتبه الأستاذ
مصطفى عبد الرزاق متحدثا عن أحد وزراء المالية لعهد
فقال عنه :

« كان وزير المالية يومئذ شيخا - وإن لم يكن معصما -
هو شيخ في صورته ومعناه ، بل هو كبير الشيوخ ، أخضر
الجلدة مغبر اللون ، ضخم الوجه مفرطحه ، ذو ملامح
مبهمة لا يعرف ابتسامها من عبوسها ، وفي عينيه تكسر
كأنما هو حياء أو تقى ، ولكنه يبعث في النفس معنى غير
الحياء ، وغير التقى ، وفي أنفه انبطاح ، وفي فمه انفراج
بين شفتين كظلتين ، سفلاهما مسترخية ، والأخرى
نائية ، تنهض من فوق كاهله عرتمة مترجرجة ، وتندلى فوق

عنقه عرثمة مترجرجة تتشابه إذا نظرت إليه من خلف ، أو نظرت إليه من أمام (ب) .

هذا الوصف الفكاهي المصور -رباه - ألا يقف جنباً الى جنب ما وصف به الأستاذ عبدالعزيز البشري أحمد زيور ومحجوب ثابت وأحمد مظلوم وإبراهيم وجيه ومحمد نافع في المرأة ! لقد جنى البحث العلمي على مصطفى فحوّله إلى دراسة مادة لا تحتاج إلى موهبة خارقة ونأى به عن أفق لا يتالق في سمائه غير العباقرة الأفذاذ ؟ فماذا كان يغنم الأدب الفكاهي المصور لو تأخى فيه قلم عبدالرازق مع قلم صاحب المرأة في جريدة السياسة ، وكيف ينسى المتحدثون عن مصطفى عبدالرازق أن أعظم معيزاته الفكرية أنه أديب موهوب .

أجل لقد نسى جيلنا ذلك ، لأننا أخذنا نتفتح على انداء الثقافة حين كان الكاتب الكبير يوالي إصدار مؤلفاته العلمية الرصينة ، فأخذنا نقرأ الإعلانات عن كتاب (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) وكتاب (الإمام الشافعي) وكتاب (الوحي والدين والإسلام) وكتاب (فيلسوف العرب والمعلم الثاني) وكتاب (محمد عبده) وكلها تنحو المنحى العلمي الدقيق ، بل ان طريقة الأستاذ مصطفى عبدالرازق في بحوثه العلمية قد أثر فيها طابعه الخلقى الرفيع ، إذ كانت النصوص القديمة ذات اعتبار قوي في بنائه التأليفي ، فلم يكن يسمح لنفسه أن يعبر عن

أفكار غيره بأسلوبه ، كما تجاوز هذه الدقة الرصينة إلى دقة أروع منها وأعمق ، فهو يقرأ في الموضوع الواحد نصوصا متضاربة ، فلا يتباهى بعرضها للقارئ محاولا تنفيذ ما يظهر بطلانه ، وترجيح ما تدل القرائن على ترجيحه ، بل انه يفعل ذلك بينه وبين نفسه ، فيستعرض النصوص المتضاربة ، ويوازن بينها موازنة صامتة لا يحسها قارئه في شيء حتى إذا رجح لديه بطلان الباطل تركه دون مباحاة بسرد ما يراه من أدلة البطلان ، واتجه الى النصوص الصحيحة لديه يسوقها في ولاء ومتابعة للحدث عن رأيه إذ كانت موضع اختياره وموافقته ، والقارئ السطحي يظن المسألة مسألة نصوص تتوالى ، ولكن الذين يغوصون مغاص الكاتب في بحوثه المثالية ، يعرفون ما كابده جمعا وموازنة وترجيحا واختيارا ، وقد تحدث عن هذا الاتجاه من تناولوا الأستاذ الأكبر بالتحليل العلمي كالأستاذ عباس محمود العقاد^(٢) وكالدكتور أحمد أمين^(٣) حيث أخذ عليه الكاتبان الكبيران في رفق أقرب إلى الموافقة تستره وراء النص ، ولكل وجهة هو موليا ، أما الدكتور محمد مندور فقد تحدث عن هذه الناحية ببعض البسط حين قال في نقد كتاب (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) .

(منهج المؤلف في الدراسة هو المنهج التاريخي وهو

(٢) مجلة الكتاب : السنة الثانية ابريل ١٩٤٧ .

(٣) فيض خاطر ج ٧ ص ٣١٦ طه أوى .

بذلك يحل في سياق دراسته أنواعا لا تحصى من المشاكل التي يتخبط فيها الباحثون عندما يختارون مناهج أخرى ، كالمقارنة بعد التقرير ، وإنك لتتابع المؤلف فتستطيع أن تستخلص الأصل من تفكير العرب والمستعار ، وتميز بين ما أخذ وما أضيف ، بل أنك لتماشي العقل كله في حرارة عمله ومجهود خلقه ، وهذا كسب ليس بالقليل ، وإن يكن هناك مأخذ على المؤلف فقد فطن إليه هو نفسه ، حين اعتذر عن كثرة إيراد النصوص بأن كتابه هو مجموعة الدراسات التي ألقاها على طلبته بالجامعة ، وقد حرص على أن يتركها في صيغتها الأولى بما تحوي من نصوص يحتاجها الطلبة ليتمرسوا بفهمها والتدقيق في كشف معناها ولكنها شئشئ قديمة ، فقد تلقيت عليه العلم ، وكان منهجه هو هو في أخذنا بقراءة النصوص والتدقيق فيها ، ولكننا كنا نجد عندئذ فيه من رحابة الصدر ما يمكننا من حمله على الوقوف معنا ، فلا نخادر نصّا في أثناء الدراسة حتى نقتله فهما ، وأما في الكتابة فقد كنا نفضل لو تناول هو الحديث مجملا الرأي ، موضحا غامضه ، ولكننا عندئذ ربما نطالبه بما يصعب على طبعه لا على عقله حتى لأذكر كلمة صادقة للأستاذ أحمد الشايب هي قوله (ان الدكتور طه حسين يقف أمام النصوص والأستاذ مصطفى عبدالرازق يقف خلفها ، أما الأستاذ أحمد أمين فيقف إلى جوارها) (٤) .

(٤) مجلة الثقافة : العدد ٣١٢ - ١٩/١٢/١٩٤٤ م .

لقد أصاب الدكتور مندور حين قال « ولكننا نطالبه بما يصعب على طبعه لا على عقله » لأن التزام النصوص لدى الأستاذ مصطفى عبدالرازق موقف خلقي يرجع إلى فضيلة من فضائله النفسية حين يعرض ما وافق عليه من الآراء الصحيحة معزواً إلى قائله بعبارة التي قالها ، ولا يصعب على عقله أن يلخص أو يبسط مسترسلاً في الحديث بقلمه المطاوع المسماح ، وما تركه في مضمار النثر الفني من مقالاته التي نخصها ببعض الحديث ينبغي بأن الرجل كاتب مكين ، كاتب له منحاه الأدبي ، واتجاهه الأسلوبى ، ومثله إذا تعاطى تلخيص أقوال السابقين أو شرحها لا يعوزه أن يسترسل كما يسترسل سواه ، ولكن الطبع الأصيل حاجز يحول .

ومهما اجتهد الباحث المتعمق في اخفاء قدرته البيانية في فصوله العلمية الدقيقة ، فإن هذه المقدرة القوية لا تستطيع أن تنكر حقيقتها في مناسبات التقديم والتعقيب على رغم ما تجده من كبت متعمد يوحى به الطبع الأصيل ، وأذكر أن هذه المقدرة وشتت عن نفسها وشاية تامة حين قال الكاتب في مفتتح حديثه عن نشأة (محمد عبده) (نشأ محمد عبده كما ننشأ نحن الفلاحين حفاة عراة الرعوس ، نجري في الأزقة ، ونسبح في البرك والترع ، ونلعب بالتراب والأحجار ، لا يعني أحد بتلقيننا في طفولتنا شيئاً من مبادئ الفهم والذوق ولكننا ننبت كالنبات البري يتغذى

بما يصل إليه من مواد الغذاء ، ويثمر شوكه وأزهاره
ولا يربي في أنفسنا إلا الشعور بتهيب الوالدين وإجلالهما
واحترامهما) .

ليت شعري أي عبارة في الدنيا تفي حق الوفاء بالتعليق
على هذا الكلام النادر الساحر !! مصطفى عبدالرازق باشا
نجل حسن عبدالرازق باشا ، وسليل أسرة من أعظم الأسر
المصرية في الصعيد جاها ومروءة وعلماء ومالا ، يقول إن
محمد عبده نشأ كما نشأ هو ! حافي القدم عاري الرأس
يجري في الأزقة ويلعب بالتراب وينبت كالنبات البري
يتغذى بما يصل إليه من مواد الغذاء ويسبح في البرك
والترع ! لقد أراد الرجل أن يتحدث عن نشأة أبناء الشعب
الحقيقيين من الأزهرين - وهو أزهرى التعليم - نشأ بين
لداته فتأثر بمشاعرهم وتعاطف مع أحاسيسهم ثم غلبه
هذا التأثير النبيل فعذ نفسه واحدا منهم مادام يشعر
بشعورهم ! هكذا صور الرجل نشأته الشعورية على حين
 نجد من زملائنا وأساتذتنا من نشأ النشأة التي تحدث عنها
الأستاذ النبيل ، ثم جعل يتنكر لها ، ويتلمس كل وسيلة
للتبرؤ منها والزبابة عليها وهو منها في الصميم الصميم أو
مكان الكليتين من الطحال كما قال الشاعر القديم ! ولم يكن
هذا الشعور الذي سجله الأستاذ الأكبر خطوة عابرة
سنحت فمرت ، ولكنه شعور عميق متأصل تحدث عنه
الأستاذ مثنى وثلاث ورباع في شتى مقالاته المتناثرة في

الصحف ، كأن يقول (٥) من وجهة راضية .

« إنا نحن الفلاحين أبناء الفلاحين نبتنا في المزارع وحول جداول المياه نستنشق الهواء طليقا لا يحبس شيء ، ونستقبل الشمس سافرة ليس من دونها حجاب ، ونرى حيث سرنا أهلا وعشيرة إذا مرض أحدهم عدناه ، وإذا مات شيعناه ، وإذا مسّه ضرر مسنا وإذا غضب قمنا معه غضابا لا نسأله على ما قال برهانا .

وكلما دخلت المدائن تمثلت المناصب ، وما تستلزمه من مداينة الرؤساء وقلة الصراحة والمرونة في الرأي والعقيدة كأن أهل المدن كلهم موظفون تحدد آمالهم وأعمالهم دائرة ضيقة ، أما هذه الأرض البدوية فأهلها يعيشون في سعة من الأمل والعمل ، أيتها الأرض المباركة حيا الله رحابك الخصبة فقد كانت أطيب معهد لعهد الطفولة ، وأن أكبر آمالنا أن نعيش فيك إلى جانب قومنا الفلاحين سعداء بحرّيتنا ، سعداء بأخلاقنا وعصبيتنا !!

أو يقول من وجهة ناقدة (٦) ..

« لست بحمد الله من الأعيان ولكني منذ جئت الريف أعيش عيشة الأعيان الريفيين ، أطعم طعامهم غليظا تنوء المعدة منه بحمل ثقيل ، وأنام نوما سباتا مستغرقا تضيع به أشرف ساعات العمل ثم أقطع ما بين ذلك من الوقت في

(٥) من آثار مصطفى عبدالرازق ص ٢١٥ نقلا عن السفور ١٨/٢/١٩١٦ م .

(٦) من آثار مصطفى عبدالرازق ص ١٧٩ نقلا عن السفور ١١/٩/١٩١٥ م .

مجالس محشودة تقوم في المساحات وأمام المنازل إلا أن يشدّ الريح ويشق احتماله فناوى إلى الحجرات .

مللت هذه الحياة المتشابهة العاطلة ، وأصبحت أشفق من أثرها في إخماد عواطفى ومداركى ، كما أثرت في بنيتى التى كنت التمس لها قوة ونشاطا في هذا الهواء النقي ، وهذا السكون المريح ، فلم تكسبه إلا ضخامة وإن كانت أعطتني مظهر الذوات ، فقد شوّهت سحتني ومسختني مسخا .

ندعو لأغنيائنا أهل البيوت والوجاهة بالبركة في نفوسهم وأعمالهم ، فإننا نخاف كل الخوف من مظاهر الضعف التى تلوح على عائلاتنا الكبيرة ، عائلات الريف التى كانت بالأمس ذات مجد ونبل ، تجمع إلى الاعتزاز بالعصبية والرزق الوفير جاء التماسك الأخلاقي والصلابة على تقاليد ممتازة أظهرها النجدة والكرم وإباء الضيم .

إلى آخر ما ينحو هذا المنحى مما تناثر في فصول آثاره الرائعات !

ليس القول وحده مقياس السمو الخلقي لدى الإنسان ، فكأن من فلاسفة رسموا المثل العليا للخلق الإنساني في أرفع معانيه ثم هبطوا بأعمالهم إلى حضيض القتل والسفاحين ، وما كانت آراؤهم الخلقية غير ستار خادع ضاعف مثالبهم لدى الناس ، وشوّه من روائع المعاني التى محصوها للقارئ أتم تمحيص ، إنما المقياس الحقيقي

للداعية الخلقية أن يتقيد بما قال ، بحيث تصبح حياته العملية تطبيقاً أميناً لأرائه النظرية ، ومن هنا كان سلوك مصطفى عبدالرازق الإنساني متماثلاً كل التماثل مع ما يؤكد من حقائق الخلق الأمثل ، أذكر أن الأستاذ الدكتور أحمد أمين قد ذكر في إحدى أمسيات الخميس بلجنة التأليف والترجمة أن الأستاذ مصطفى رحمه الله قد رجاه أحد الثقلاء في أمر خاص به ، وصادف أن جاء أحد تلاميذه المخلصين فرجاه في أمر مماثل ، فبدأ الأستاذ مصطفى بالسعي الدائب كي يحقق رجاء هذا الثقيل أولاً ، وكان الدكتور أحمد أمين يعلم موقعه الجاني من نفس الأستاذ الأكبر ، فسأله عن سرعة تحقيق رجائه مع الالتئاد في تحقيق رغبة التلميذ الصديق ، فابتسم الأستاذ ابتسامة صافية وقال في هدوئه الحبيب إن فلانا كما ذكرت ، وموقعه الثقيل من نفسي هو الذي دفعني لإنهاء مسألته ، لأنني حينئذ أقوم بواجب خلقي تفرضه الرجولة دون أن يتصل بأدنى سبب من شعوري الخاص ، أما تلميذي العزيز فأنا أشعر من حبي إياه أن مسألته مسألتي ، فإذا سعيت له سعيت لنفسي فلا مجال لفضل لدي في مسعاتي إليه ، لذلك بدأت بالأول كي أقوم بواجب لا يتصل بشعوري الخاص !! وهذا ما قاله الدكتور أحمد أمين عن صديقه وإنه لصديق صدوق .

أما ما قرأناه من نواذر المروءة الرازقية فأكثر من أن نخصه بإيضاح ! وقد قال القائلون إنه تابع أستاذه محمد

عبده في أريحيته النادرة إذ خصص مراتب شهرية دائمة
لأناس من الفقراء لا يسألون الناس إلحافاً ، وهذا غير
مستبعد فلنكتف بالإشارة إليه ، ذاكرين من خوارقه هذه
الطرف الثالث .

١ - مات خادم مسن من اللائذين ببیت عبدالرازق ، فخرج
أهل الخادم يشيعونه إلى مقره الأخير ، ودهش الناس إذ
رأوا صاحب المعالي مصطفى عبدالرازق باشا وزير الأوقاف
حينئذ باكياً في مقدمة المشيعين على طول المسير في صحراء
الإمام الشافعي دون أن يكتفي ببعض الخطوات ، فكان
سيره النبيل وبكاؤه في جنازة الفقيد موضع عجب
وإعجاب معاً ، إذ تحدث عنهما كل من شاهدهما كأمرين
مستغربين وسجلهما الشاعر الأستاذ محمد جاد الرب
بقصيدة نشرها بمجلة الرسالة الغراء ، قال فيها (٧) :

يامصطفى إن المكارم لم تنزل
فيكم ومنكم تسمد جمالها
إن (المعالي) عند قوم رتبة
وأراك تشرح للورى أعمالها
إشرح مناهجها على طلابها
وأضرب لنا يامصطفى أمثالها
تمشي تشيع خادماً مستعبداً
مستشعراً عند المنون جلالها

(٧) مجلة الرسالة العدد ٤٠٣ - ١٩٤١/٣/٢٤م

وتسير حولك زمرة من جنسه
ألفوا المذلة واكتسوا أسماؤها
أنسا ما عجبت ، لأنني أدري بكم
لكن رأيت الناس قالوا : يالها
إن قلت ما أديت إلا واجبا
قلنا ، فمن في مثل فضلك قالها
علم ، فإنك صرت خير معلم
إن المكسارم أصبحت يرثي لها

٢ - قال الأستاذ الكبير محمد عرفة رحمه الله عضو هيئة
كبار العلماء بمجلة الأزهر^(٨) من مقال ضاف : وأبرز صفة في
الأستاذ الأكبر الحياء والتواضع ، فهو يكرم النفس
الإنسانية في أي مظهر من مظاهرها سواء أظهرت في مسك
غني أم مسالخ فقير ، يكرمها بحبائه فيخجل أن تقع منه على
ما يكره ، ويحترس منه أن يبدو ما يسوء ، وأنه ليجد في
ذلك رياضة صعبة ، فتحس منه بأخذ نفسه بالاحتراس
والتشدد ، فهو جمّ النواضع نبيل كريم ، فما أنسى لا أنسى
يوم زرته في وزارة الأوقاف يوم كان وزيراً لها ، فدخلت عليه
امرأة مستنة شاكية ، فقام على قدميه عند دخولها ، واستمع
شكايتها من وقوف ، ولم يجلس حتى انصرفت ، فزاده ذلك
في نفسي أجلاً ، وكان هذا التواضع مع كرم منبته ، وعلو
بيته ، وشرف منصبه ، أزين له في عيني من كرسي الوزارة .

(٨) مجلة الأزهر السنة ١٧ من ١١٥ العدد الرابع .

وقلت في نفسي : الله هذه النفس التي تتواضع للمستضعفين ، ولا تذلل للمتجبرين .

٣ - قال الدكتور محمد يوسف موسى رحمه الله عن نفسه في سياق من يتحدث عن غيره^(٩) « حالت الحرب الماضية بين بعض الأزهريين وبين المضي في دراساته الفلسفية بباريس ، فرأى أن يستأنف هذه الدراسة مع الأستاذ مصطفى عبدالرازق ، وقد تفضل بتحديد أيام يجتمع فيها مع الطالب تمهيدا لكتابة رسالته الجامعية ، وفي بعض الأيام دخل أستاذ بكلية الآداب فسال الأخ الأزهرى : هل تستطيع معرفة اللغات اليونانية واللاتينية والانجليزية والالمانية ؟ فقال : لا ، إذ اقتصر على اللغة الفرنسية ، فأجاب السائل : كيف إذن تستطيع دراسة الفلسفة الإسلامية ؟ وهنا قال الأستاذ مصطفى عبدالرازق : إذا كان صديقنا لا يستطيع دراسة الفلسفة الإسلامية لأنه لا يعرف من اللغات غير الفرنسية ، فكيف أستطيع أنا أن اكون أستاذ الفلسفة الإسلامية بالجامعة مع أني لا أعرف إلا الفرنسية مثله تماما ،^(١٠) .

فوجيء المعترض بتواضع أستاذه وحلمه وهدوئه فأخذ يعتذرو ويتطلب مخلصا .

لم نبعد عن مصطفى عبدالرازق الكاتب الموهوب حين ألمعنا إلى بعض فضائله الخلقية ، لأن آثاره الأدبية كانت

(٩) مجلة الكتاب : المجلد الحادي عشر . مارس سنة ١٩٥٢ م .

(١٠) من آثار مصطفى عبدالرازق ص ٣٦٧ نقلا عن السفور ١٠/٨/١٩٧ .

صدى هذه الفضائل ، فكل خاطرة خطها في مقالاته كانت تصور عاطفة نبيلة تختلج في صدره ، وأنبئ هذه العواطف ما اتجه إلى إبراز الضعف الإنساني الذي لا حيلة فيه لإنسان بعيد الآمال ضعيف الإمكان ، ان الكاتب في مضمار البيان يريد أن يجيد التعبير عن انطباعاته المتوالية في وضوح وإشراق ، ولكنه حين يخلص إلى يراعه مسطرا هذه الانطباعات يجد ما كتبه في الورق لا يدل دلالة مطابقة لما اختلج في صدره من نوازع ، فيتعاضمه أن يلمس قصورا لا يستطيع تلافيه ! لا شك أن كثيرا من الأدباء قد أحسوا قصورهم البالغ عن تصوير ما جاش في نفوسهم من الأحاسيس ولكن القليل منهم من وجد في نفسه الجرأة على تصوير هذا التصور كما عبّر عنه مصطفى عبدالرازق حين قال :

« ولم أسترح منذ زمان راحة تغير مجاري الذهن فتنعشه قليلا ، من أجل هذا تعبت قوة التفكير مني ، فأصبحت حركة المعقولات تمر بها وتؤمها متناقلة بمقدار ما يسرع الألم والهمود ، كأن خطرات الأفكار تمر من الذهن بجرح دام فهي تمسه مسّا وجيعا .

تبطيء عن المعاني إذا نادتها الذاكرة فهي إذا حضرت أبطأ الذهن في تحليلها وتركيبها ثم يبطيء العقل في استخراج نتائجها ، وقد ذهبت لذاذة الفهم فما أجد بشاشة لفهم جديد ، وإن هو إلا السأم من فرط التشابه بين ما تدور

حول أذهاننا من صنوف التصويرات والتصديقات ، ولو استطعت لأوقفت كل حركة للذهن ، وسددت باب المعقولات عني ، وأسلمت للشعور قيادي ، أجيب مذايه وأتبع هاديه !

تطلب عقولنا التنويع والتجديد ، ويعنتها أن تُسجن في حظيرة ضيقة ، وما هي فترة الجهد تلك التي تنتاب أذهاننا ، فإن أهل النشاط العقلي منا ، وهم نزر ، لا يشقون لتوسطي أهل النشاط من الأمم الأخرى غبارا ، ولكنها ضجرة المكظوم الذي يريد متنفسا « (١١) .

فماذا يرى القاريء في هذا الاعتراف ؟ يخيل إليّ - علم الله - أن الكاتب الكبير يعني غيره قبل أن يعني نفسه ، لأن له في البيان الرفيع سمات أصيلة يتطلب تحقيقها فيما ينشره زملاؤه المعاصرون ، وقد عرّ عليه أن يجد أكثر المنتسبين إلى صناعة البيان لا يجيدون الحديث عن أنفسهم قدر ما يجيدون الديباجة القوية ، واللفظ المرن ، وهي فترة من فترات عهد الانتقال كانت ميدان شدّ وجذب بين الكتاب والناقدين ، ولعل الأستاذ مصطفى عبدالرازق شاء أن ينقد نفسه ليقوم سواء ، ومثله في حياته النبيل أقرب الى هذا المنحى في التصويب ، إذ أنه من النفر القلائل الذين فهموا رسالة القلم ، وتحدثوا عنها في خطرات كثيرة ، وقد أطلالوا الوقوف حول مزية البيان وصلته

(١١) من آثار مصطفى عبدالرازق ص ٣٥٠ نقلا عن السفور ٧ يونية ١٩١٧ م .

بالجمال ، ورجعوا إلى أقوال القدامى والمحدثين في الشرق والغرب ، فإذا أراد القاريء أن نطلعه على أنموذج مما عنيناه في هذا الصدد فإننا ننقل له بعض ما كتبه الأستاذ تحت عنوان (البيان والجمال) حيث قال : « الجمال لا ينتهي عند حدّ لأنه كمال تتفاوت مراتبه إلى درجة الكمال المطلق ، التي يعجز الناس تصورها ، ويصعقهم تجليها ، أما البيان فهو الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي وبمقدار ما في معاني الكون من التفاوت تختلف وجوه الدلالة عليها اختلافا لا منتهي لمذاهبه ، فكلاهما يرجع إلى مدركه في الذوق ، وفي كليهما اتصال بالحسّ الظاهر إلى جانب الاتصال الكبير بالحسّ الباطني ، وعند التمهّص فالحق أن البيان جمال ، ولما كان الجمال لا نهاية له ، فالبيان لا نهاية له » (١٢) .

هذا التحليل الفلسفي الدقيق يدل على أن صاحبه يطلب من الكاتب قدرة فائقة ترقى به نحو الكمال الأمثل في أوجه الرفيع ، ولن تنجح الأمثلة المنشودة لهذا الكمال الأمثل ، فالكاتب متطلع دائما إلى مستوى أرفع ، وكلما جاد براعه بأثر ملهم تخيله دون ما يريد ، واشتاق إلى أن يزيد ، فكيف احتراسه من هوى يتجدد ولا يتبدد !!

والحق أن نظرة الفيلسوف قد ساعدت على تهوين المسألة لدى الكاتب ، فأصبح بعد التجارب المتعددة يقنع

(١٢) من آثار مصطفى عبدالرازق ص ٢٨ عن جريدة السياسة ٩/٩/١٩٢٥ م .

بما يجيء على قصوره ، ويرى الأدب يؤدي دوره الطبيعي في المستويات المتماثلة وإن عجز عن التحليق الصاعد فحسبه ألا يسف إلى الحضيض الأسن ، ومن هنا راح الكاتب يتحدث عن نفسه في فكاهة ضاحكة تنتزع البسمة من فم الحزين ، وله في هذا المجال قدرة ساحرة لا أدري كيف استطاع إسكاتها حين انتقل إلى الجامعة وترك الكتابة في الصحف السيارة فخر الأدب العربي كاتباً من طراز المازني والبشري معا ، وهما عملاقا السخرية الأدبية بين المعاصرين ، بل إن عبدالرازق يمتاز عنهما بميله إلى الإيجاز دون الاسترسال ، ومن شأن صاحب السخرية الموجزة أن تكون طلقاته النارية عاجلة قوية الإصابة حتى ولو أطلقها على نفسه ، وإلى القاريء مثل مما نعنیه :

تحدث مصطفى عن رحلته في (اكس ليان) إلى بحيرة (اني) فذكر رعونة سائق السيارة ، واصله ، وعيته ثم قال (استوى صاحبنا السواق على عرشه ، وسار ينتهب الأرض انتهابا في طرق صاعدة هابطة ملتوية ، وكانت المناظر اللذيذة تمر بنا ، ونحن عنها في شغل بما يساورنا من خوف هذه العجلة ، وأقبلنا على فج منبسط يشق مروجاً وقرى ، فإذا فلاح وديع يقود عربة محملة يجرها حصان ، وبجانب الرجل كلبه الأمين يسايره لا يتقدم عنه ، ولا يتأخر تحسبهم جميعاً يتناجون لما ترى من تدانيهم وتبادل العطف بينهم .

داس السواق الكلب بسيارته ! فتركه جثة هامدة ، ومر
كمر البرق ، ونحن ننظر الى الفلاح واقفا بحصانه الى
جانب الأشلاء الممزقة جامدا لا يستطيع تكلم ولا حراكا
ولو صورته مصورا لشهدت الثكل شخصا ماثلا .

وتصايح السيدات جزعا ، فكان صياحهن تعزية
يحملها النسيم الى ذلك المحزون الواقف هناك محتاجا الى
العزاء سار الركب ولأبد أن يتحدث السمار ، فسمعت سيدة
تقول لصويحياتها ، لم يكن مقرونا باليمن طالع هذه
النزهة !! قالت الأخرى : ألا يكون معنا قسيس من حيث
لا ندري ؟

وجعلت السيدات يتفحصن أوجه الرجال متضاحكات .
قال الشيخ (الكاتب المعمم) هنالك تذكرت قول شاعر
الأزهر .

الشيخ والقيس قسيـــــان
وإن تشأ فقل هما شيخان

فتصيب عرقا ، واخذت الوي وجهي ، وأحرف
ملاحه ، وأصد عن تلك النظرات اللاعبة مخافة أن يصبح
لعبها جدا (١٣) فهل رأى القاريء نادرة أوجع من هذه
النادرة يصيب بها الكاتب نفسه ، وهو بعيد بعيد عن
النحس ، لم يقربه منه إلا تذكر بيت من الرجز قاله الشيخ

(١٣) من إثار مصطفى عبدالرازق ص ٤٦١ عن جريدة السياسة ١٩٢٦ / ٢ / ٧ .

ابراهيم سليمان شاعر الأزهر في ثورة سنة ١٩١٩ حين اتحد المسلمون والأقباط تحت زعامة سعد زغلول وخطب القمص سرجيوس في الأزهر وخطب الشيخ علي سرور الزنكلوني في الكنيسة ، وخاب فال الانجليز في الفرقة ، فنظم الشيخ ابراهيم أرجوزته ، وجعل الشيخ قسيسا ، وسكن البيت حيناً من الدهر حتى بحثت السيدة عن قسيس بين الراكبين فلم تجد !! ولكن مصطفى تذكر البيت فاتهم نفسه متوجعا !! أرأيت أعجب من هذه النادرة !!

هذه النادرة العجيبة تذكرني بأخت لها ، حين ثار طلبة دار العلوم على العمامة ، وطلبوا الطربوش ، فكتب الأستاذ عبدالرازق عدة مقالات قال في إحداها (١٤) .
(هل أتاك حديث اخواننا طلاب دار العلوم إذ أجمعوا أمرهم أن يخرجوا من سعة القفاطين والجبب ، إلى ضيق البنطولانات والجاككات والياقات ، يتوج جبهتهم طربوش اسطوانى يموج زره حرا كلما خطر النسيم ، مكان تلك الطرابيش الكروية المضلعة التي تغيب العمامة زرها فلا يستطيع حراكا) .

كما اتجه الكاتب إلى نفسه بالملامة الرشيقة حين تحدث عن رحلته في الباخرة من أوروبا إلى مصر مع نفر من الشباب المتطلع ، صادقهم وصادقوه طوال الطريق فوق الأمواج ،

(١٤) من آثار مصطفى عبدالرازق ص ٤١٤ ، عن جريدة السياسة .
١٩٢٤/١٠/٢٧ م .

وهم يعلمون أنه مدني مثلهم حتى فوجئوا بما عبّر عنه الشيخ حين قال :

(كان معي في حجرة الباخرة ثلاثة من الشبان ، فيهم ظرف وأدب ، وكنا على تفاوت السن اخوانا عى سرر متقابلين ، فلما فتحوا عيونهم على شيخ يرفل في أزر مبعثرة ، وذبول مجررة ، وأكمام منشرة ، ولغائف تهفو بها الريح ، أنكروا في الصباح من عرفوا في المساء ، واستوحش الشباب الجديد من مظاهر الشيخوخة والقدم ، وشعرت أنا نفسي ، كأنني خرجت من جيل إلى جيل^(١٥) .

إن الذي يتندر على نفسه بهذه البساطة المفرطة ، لابد أن يتندر على غيره ، وأعتقد أن حياء الكاتب قد دفعه إلى كظم كثير من براعته الساخرة رعاية لحقوق الزمالة أو الصداقة أو الأستاذية ، أو توقيرا لجلال الشيب ، ورصانة السن ، ولكن توقيعه المستعار (الشيخ الفزاري) حيناً و (م) حيناً آخر قد شفع له في معابثة عالم كبير رمز له في المرة الأولى بالحرفين الأولين من اسمه ، وصرح باسمه في المرة الثانية ! هذا العالم الكبير هو فضيلة الأستاذ الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي العالم الإسلامي في عصره ، وللشيخ بخيت رحمه الله دين وعلم هما مصدر تجلته وإكباره ، ولعل من مواقفه البارزة رفضه مبلغا كبيرا من

(١٥) من آثار مصطفى عبدالرازق . ص ١١٢ . . نقلا عن الجريدة ١٩١٤م .

المال يجاوز عشرة آلاف من الجنيهات حين أصدر فتوى شرعية استحق بها أحد الأثرياء مقدارا كبيرا من الميراث ، فهرع الوارث إلى الشيخ الكبير يكافئه بالمبلغ الضخم على فتواه ، فنهزه الشيخ قائلا : العلم في الإسلام لا يباع ! كما أن من مواقفه الذائعة فتواه الجريئة في مقاطعة لجنة ملنر ، وعدم الاتصال بها مما أخرج الانجليز حرجا ضاقت به الصدور ، وقد أبرق له سعد باشا زغلول من منفاه مكبرا معترزا بأكبر فقيه في الإسلام ! أمهد بذلك كله كيلا يتأثر قاريء بدعابة الكاتب فيظن الرجل الكبير على غير شيء من العلم ، ولكن مصطفى وازن الشيخ بخيت بالأستاذ الإمام محمد عبده فشالت كفته إذ لا يوازن نابغة بعبقري ، قال الكاتب :

(ذكر لي أن الشيخ (م.ب) سيقرا بعد العصر في مسجد سيدنا الحسين كتاب المنار في أصول فقه الحنفية ، وبالغ أصحابي في الثناء على الشيخ حتى وضعوه في صف الشيخ محمد عبده وللاستاذ بين أهل الأزهر شهرة يمدّها تاريخ حافل ، ذهبت عصر اليوم الى جامع الحسين ، وجلست قريبا من مجلس المدرس الذي أقبل محاطا بطائفة من الطلاب منهم من يحمل نعليه ، ومنهم من يحمل المحفظة ، وآخرون يسировون في عرض الموكب تكميلا للأبهة ، وكان الأستاذ لابسا قفطانا أصفر فاقعا لونه ، فيه خطوط سوداء ، ويحيط بصدره الضيق نطاق من حرير أزرق مطرز

بأعلام مخضرة ، من فوق ذلك جبة تضرب إلى لون الدم ، ويرتدي بدفية من صوف برتقالي لامع .

كانت الساعة ٩ عربي فما برح العالم التحرير يردد هذه الجملة التحميدية بحثا وتحقيقا (أحمد الله أولا وثانيا) حتى أذن مؤذن المغرب ، ولما أفاض باطلاته وترديد الحمد.. في تطريق الاحتمالات ، وتوجيه الاعتراضات ، قلت يا سيدنا الشيخ ألا يجوز أن يكون مراد المصنف هو التلويع إلى البيت المشهور .

لك الحمد أما ما نحب فلانرى
ونبصر ما لانشتهى فلك الحمد

فلوى الشيخ عنقه ، ووجم مفكرا ثم أجاب : هذا الاحتمال غير وجيه ، لأن الحمد في المتن مطلق وهو في الشعر مقيد (١٦) .

والنقد هادف لا محالة ، والتوجيه التربوي سديدا ! ولكن أين حياء التلميذ من جلال أستاذه ! إنها الفكاهة تحكمت فقهرت واستقرت بالتوقيع المستعار ؟

والمعابثة الثانية كانت بجريدة السياسة حين أخرج الشيخ بخيت كتابه الحافل في نقد كتاب (الاسلام وأصول الحكم) للأستاذ علي عبدالرازق فأراد مصطفى أن ينصر شقيقه بدعابة ساخرة قال في مطلعها ، وكان الوقت من أيام رمضان .

(١٦) من آثار مصطفى عبدالرازق ص ٤٧٤ نقلا عن السياسة ١٩٢٦/٣/٣٠ م .

(إذا كان للصيام أثر في إنبال الصائمين وجسومهم فإن له أثرا أيضا في تفكيرهم وما يقولون وما يكتبون ، فإذا نظرنا في كتاب (حقيقة الإسلام وأصول الحكم) من تأليف الأستاذ العلامة الكبير صاحب الفضيلة الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية سابقا . عرفت في أكثر ما يحوي ذلك السفر الضخم علامات صوم على الأقل ، ولكن الكتاب نشر قبيل شهر رمضان ، فلعل الشيخ بخيت يكون ممن يصومون الأشهر الثلاثة من حيث لا ندري ، بل إن كثيرين ممن شهدوا ملامح الأستاذ ، وألما بكتبه ، واستمعوا لقوله يرون أنه يصوم الدهر) (١٧) .

هذه الفكاهة الضاحكة برق في غيم متكاثف لأن صفحات الشجى في آثار الكاتب الكبير متعددة متنوعة ، وقد حرت عند الاختيار فيما أخذ واترك ، لأن المستوى الفني متفق يمنع التفاضل ، فإذا كان لابد من الاستشهاد بشيء أختتم به المقال فهو ما أنقله كيفما اتفق دون ترشيح وانتخاب إذ يقول الرجل الرزين :

(أرى من الحزن معنى من معاني الإحساس اللطيف الذاهب في أعماق النفس حيث لا يبلغ السرور ، أرى الحزن كمالا ، لأنه يصرف النفس عن المظاهر الملهبة الطائشة إلى العواطف الرزينة المحكمة .

الحزن غشبية من الشعور بالألم تسير في العصب

(١٧) من آثار مصطفى عبد الرزاق ص ٣٤٠ نقلا عن السفور ١٩١٧/٥ م .

الحساس بنوع من الحذر مريح على ما فيه من لذعات
موجعة ، وأهل الحزن أولئك الذين خلصت قلوبهم من كل
شوب لأنها محصت بنار الجوى فعادت جوهرًا مصفى .

الحزن ادخل في باب العواطف من السرور ، ومظاهره
أغنى بمعاني الجمال من مظاهر هذا ، وإذا أعجبك الفم
اللطيف بساما تلمح ثناياه الغر من بين شفتين غضبتين
كأنهما وردة فتق الربيع عنها غلافها سحرا ، فإين ذلك من
عينين ساجيتين في نظراتهما الرهيبة المشتعلة مزيج من
حنان وعذاب ؟ الحزن شغل الروح ، فالذين لا يعرفون
الحزن أرواحهم هواء) .

حيا الله روح هذا الإنسان الأمثل ، وضاعف له من مظاهر
البهجة في فردوسه الناضر ما ينسيه ما كابد من غصص
مريرة دفعته إلى أن يتحدث عن أساء الدنيوي فيجيد
ويعمتع ويفيد .

البارودي بين التجديد والتقليد

لا نريد أن نخص حياة البارودي بالشرح والتحليل فترجماته ذائعة مشتهرة في متناول الدارسين ولكننا نشير منها إلى ما يدل على تكوينه الشعري وتأثيره الوجداني حيث أن الشاعر كان فاتحة نهضة مباركة في عالم الأدب ودراسة وسائل نبوغه مما يعين على تصور جهده الأدبي ويحدد أطاره الفني أكمل تحديد .

نشأ البارودي في أسرة ثرية مترفة ، ولئن مات والده وهو صغير فقد ترك له ثروة واقية وحسباً أصيلاً فتح أمامه المدارس الخاصة بأنجال العلية في عصره ، فدخل المدرسة الحربية التي أسست في عهد محمد علي وكان ذا يقظة متطلعة في نشأته فتفتحت عيناه على كل جديد وأرهف سمعه لدراسة كل ما يلقي عليه وكأنى به وقد ظن أنه بعد تخرجه سيتدرج في مراتب الجيش مرتبة بعد مرتبة فيبلغ عن طريقه ما بلغ أبأؤه وأجداده ، ولكن ظنه قد تبدد حين أوصدت المدرسة الحربية عند تولية عباس الأول فاضطر الناشئ المتطلع إلى أن يلزم بيته على غيظ أليم .

كانت هذه العزلة المفاجئة نعمة على الأدب العربي إذ رأى الشاعر أن يشغل أوقات فراغه في مطالعة كتب التاريخ وصفحات الأدب فاكب على التاريخ الإسلامي يقرأ صفحاته ويدرس أعلامه ، وكان يميل بنوع خاص إلى ذوي المجادة

الحربية من أمثال علي بن أبي طالب والمثنى بن حارثة وخالد وطارق ، ثم اتجه وجهة الدواوين الشعرية فعكف على روائع البحري وأبي تمام والمتنبي والشريف ومهيار وأبي العلاء عكوفاً دفعه إلى الهيام بالجزالة البيانية والصياغة التعبيرية ، وكان في نفسه طرب للشعر وهيام بالموسيقى فأمدته هذه الروائع بما يرضي كلفه ويشبع هيامه ، ومن ثمّ فقد جعل الشعر القديم شغله الشاغل وهمه الدائم ، فاتسعت ميادين اطلاعه لتشمل تراث الجاهليين والأمويين ، وكان له طبع قوي فعمل على محاكاة ما يقرأ وأخذ ينظم ما يشبه قراءاته مقلداً محاكياً في ابتداءاته لذلك تجد كثيراً من قصائده قد كتبت تحت عنوان « وقال يروض الشعر » ومعنى هذا أنه كان يشعر بطرب يدفعه للقول تقليداً أو اتباعاً دون أن يحدد هدفاً خاصاً لغرض معين ، بل يتبع سنن العرب في قصيدة تبدأ بالغزل وتمضي إلى الفخر متحدثاً عن أريحية ماجدة وهمامة كريمة وممثلة بحوافل البيان من تشبيه رائع واستعارة منتقاة ، وما زال يرتاض القول حتى استقام له مذهب خاص ينحو منحى الجزالة البيانية في أرقى عصور العربية ، والهيام بمحاكاتها محاكاة لا يكون التقليد وحده باعثها دون شعور نفسي بمعانيها ، بل تكون مشاعره الصادقة دافعة إل القول في سياق جزل يحكي الديباجة العباسية ، فهي محاكاة الشاعر المطبوع ذي الاتجاه الهادف الذي يجد في نفسه ما يحتاج منه دون تصيد وافتعال .

هذا الاتجاه إلى الأدب العربي في أرقى عصوره وأصفي منابعه قد جعل البارودي مجددا في عصره ، لأن شعراء عهده كانوا أسرى البديع المتكلف والمحسنات الزائفة ، ولم تكن لديهم همم عالية تدفعهم إلى السبق في مضمار الأصالة الواعية ، بل كان أكثرهم يفتعل النظم ارتصادا لجناس أو تورية أو طباق ، وإن جواده ليكبو به إذا امتد به جبل القول فينبهر انبهارا عاجزا ، وقد استمتع البارودي لا محالة إلى شعراء عصره أو متشاعرية إذا أردنا الدقة الواعية ، فنفر منهم نفورا تراه في ابتعاده عن مذهبهم المنحدر ، واتجاهه الصريح إلى زعماء الشعر في أخصب عصوره ، فهم أساتذته وموجهوه لذلك كانت رسالته التجديدية هي بعث الشعر العربي والقفز به إلى عهود الفصاحة الرائعة ، وهي رسالة لها دورها الخطير في تقوية الاتجاه الشعري والنهوض به من كبواته المنحدرة ، وقد كانت محاكاة الشاعر لأئمة البيان من هؤلاء موضع إجلال الدارسين من مؤرخي الأدب العربي ، لأنها ارتقاء بالشعر من مستوى إلى مستوى ، ولأنها تعفية على عهد بائد وإقدام على نهج طريف .

وقد دأب بعض المؤرخين علي عد البارودي قديما في كل ما قاله إذ أن مهمته في تقديرهم هي النهوض البياني بالشعر والصعود بالقصائد إلى مستوى الصياغة العباسية دون تجديد وراء ذلك ، وهذا ظلم من ناحيتين

مختلفتين ، لأن البارودي كما التزم بعض الأغراض القديمة لدوافع ذاتية صادقة نتجته وجهة هذه الأغراض اتجاهها ينبع من صميم ميوله الشخصية فقد افتتح القول في أغراض جديدة أوحى بها طبيعة العصر ولغة الحياة ، وهو في الأغراض القديمة والجديدة معا ذو براعة مبتكرة تدل على شخصية نابضة تتأثر وتؤثر أبلغ ما يكون التأثير والتأثير ، هذا من ناحية ، أما الناحية الثانية فهي أن الصياغة التقليدية التي ارتضاها البارودي شكل قديم يحمل مضمونا جديدا في أكثر مراميه ، فإذا راض القول متأثرا بقصيدة للنابغة أو المتنبي أو البحتري أو أبي نواس أو الشريف أو البوصيري ممن عارضهم الشاعر معارضة واضحة ينبىء عنها الوزن والقافية والمقدمة الغزلية فإن وراء هذا الشكل الخارجي مضمونا جديدا يعبر عن أحاسيس جديدة ليست انتهابا لخواطر سابقه بل مباراة أدبية يسير فيها فارسان لكل أهدافه وقوته ووثوبه وإن اتحد الميدان الذي يتباريان فيه .

أجل لقد عارض البارودي فحول الشعراء من السابقين ، فظن بعض الكاتبيين أن المعارضة نظم لا يخرج عن المحاكاة والتقليد ، وهو ظن قد تورط فيه الدكتور أحمد زكي أبو شادي حين قال في الجزء الثاني من مجلة أدبي : « ليس تعدم معارضة الشعر من الفن الصحيح في شيء ، بل هو محض صناعة والشعر عاطفة فكرية عميقة الجذور

قبل كل شيء لا بهرج زائف سطحي ، وقد نقرأ عن بعض الشعراء الممتازين انه حاول محاكاة شاعر آخر بقصيدة معينة ، ولكن الحقيقة أنه تأثر بموسيقاه أو بموضوع القصيدة فأثار ذلك نفسه الشاعرة مثال ذلك معارضات البارودي للشعراء المتقدمين ومعارضة كيتس لسبنسر .

وهذا الكلام متضارب ينقض بعضه بعضا ، لأن الشاعر الذي يتأثر بموسيقى القصيدة غير الشاعر الذي يتأثر بموضوعها ، فالأول ذو تأثر شكلي لا يتجاوز السطح ولا يدفع من الخواطر ما يفسح له مجال القول ، أما الذي يتأثر بالموضوع فقد شارك الشاعر الأول إحساسه أولا ثم زاد عليه بإحساسات جديدة تولدت في أعماقه من تأملاته الخاصة للقصيدة ، وحينئذ يتسنى له أن يقول في معارضته كل جديد طريف ! ومن هنا كانت المعارضات الشعرية ذات وزن راجح لدى الدارسين ، ومادمنافي محيط البارودي فإننا نضرب المثل بما قاله عن هجرة الرسول ومقامه في غار ثور معارضا البوصيري في برده الشهيرة إذ أتى في ذلك بما لم يأت به معارض من أمثال شوقي وعبدالمطلب وغيرهما ، ولو كانت المعارضة مجرد تأثر شكلي لكانت المدائح النبوية التي اتجهت وجهة البوصيري نسخا متشابهة وهي كذلك عند بعض الناظرين ممن لم يرزقوا روعة الشعر وحيوية الفن وسطوع خاطر ، بل حاولوا النظم مقلدين ، أما أمثال البارودي

وشوقي فقد صدروا عن طبع دافق وغزارة منهلة ولمح نفاذ
واقرا إن شئت قول البارودي في حماسة الغار :

فما استقر به حتى تبوأه
من الحمائم زوج بسارع الرنم
إفان ما جمع المقدار بينهما
إلا لسر بصدر الفجار منكم
كلاهما ديدبان فوق مرباة
يسرعى المسالك عن بعد ولم ينم
إن حن هذا غراما أو دعا طربا
باسم الهديل أجابت تلك بالنغم
يخالها من يراها وهي نائمة
في وكرها كرة ملساء من آدم
إن رفرفت سكنت ظلا وإن هبطت
روت غليل الصدى من حائر شبم
مرقومة الجيد من مسك وغالية
مخضوبة الساق والكفين بالعنم
كأنما شرعت في قانيء سرب
من أدمعي ففدت محمرة القدم
وسجف العنكبوت الغار محتفيا
بخيمة حاكها من أبدع الخيم
قد شد أطرافها فاستحكمت ورست
بالأرض لكنها قامت بلا دعم

كانها سابري حاكه لبق
بأرض سابور في بحبوحة العجم

اقرأ هذه الأبيات ثم قل لي : هل كانت هذه الصورة
الرائعة مجرد محاكاة ؟ أم أن لكل معارض صولاته
الظافرات ؟

فإذا تركنا المعارضات البارودية بعد أن عرفنا منزلتها
من التجديد الذاتي ، فإننا نجد للبارودي في مضمار الابتكار
الفني أغراضا لم يسبقه إليها سابق في عصره فقد تقدم
شعراء النهضة الحديثة حين تحدث عن الآثار المصرية
بقصيدته الرائعة :

سل الجيزة الفيحاء عن هرمي مصر
لعلك تدري غيب ما لم تكن تدري

وهو سبق غفل عنه من زعم أن شوقي أول من تحدث عن
الآثار ، وقد فخر الدكتور زكي مبارك في كتاب (الموازنة بين
الشعراء) بأنه اكتشف أن أول من تحدث عن الآثار
المصرية هو اسماعيل صبري في قصيدته التي مطلعها :

لا القوم قومي ولا الأعوان أعواني
إذا ونى يوم تمجيد العلا واني

وهانذا أقول له : إن البارودي هو الشاعر السابق ،
فإذا تركنا شعر الآثار إلى الشعر السياسي ، فإننا نجد

البارودي رائد هذا المجال إذ كان أول من تحدث عن الحروب التركية الروسية بإفاضة وإشباع ، كما هاجم المحتلين من الانجليز هجوماً كان أول صيحة سياسية في الشعر المعاصر ، وإذا حفل الأدب القديم بوصف المعارك الحربية الماضية ، فإن وصف البارودي لحروب عصره كان جديداً بالنسبة لقراء الشعر من معاصريه ، فقد وصف جنود الأعداء كلهم من همج البلغار وأوزاع الروس وعصب التتار وصفاً ناطقاً يقوم مقام الصورة المعبرة ويغني عن شريط سينمائي يعرض هؤلاء الذين يقول عنهم :

تجمعت البلغار والروم بينها
وزاحمها التاتار فهي حشود
إذا راطنوا بعضاً سمعت لبعضهم
هديرًا تكاد الأرض منه تميد
قباح النواصي والوجوه كأنهم
لغير أبي هذا الأنعام جنود
سواسية ليسوا بنسل قبيلة
فتعرف آباء لهم وجدود
لهم صور ليست وجوها وإنما
تناط إليها أعين وخذود
يخورون حولي كالعجول وبعضهم
يهجن لحن القول حين يجيد

أما الناحية الاجتماعية فكان المظنون أن البارودي
بنشأته المترفة وبعده عن شغب الدهماء وضجة الرعاع
ينأى عن وصف ما يمثل هذا الشغب الأرعن ، ولكن الشاعر
فنان دقيق يتيقظ لخوافي مجتمعه ويعرف مناحي الشذوذ
في تكوينه فغالى بصيحات خلقية تدعو إلى إعلاء النفس
وارتفاع السلوك وتهيب بأبناء العروبة والإسلام أن
يكونوا موضع الأريحية والبسالة فيستجيّبوا لداعي
الكرم ويلبوا هوائف المجد والعزة والفتوة ، وكل ما قاله في
هذا المنحى الرفيع جديد يحمل طابع الطرافة ويفتح
الطريق لتلاميذه التاليين ، ومن أطرف ملاحظاته
الاجتماعية حديثه عن جارة مزعجة ذات أولاد لا يسأمون
الضجيج في منتصف الليل ، بل يهيجون هيجات يفرع لها
الناس من رقادهم وتتألب لها طوائف الحيوانات حتى
يصير الشارع معركة ذات عجاج وصيال وذلك تلخيص
شائه لما عناه الشاعر الكبير حين قال :

إلى الله أشكو طول ليلى جارة
تبئت إلى وقت الصباح بأعوال
لها صبيّة لا بارك الله فيهمو
قباح النواصي لا ينمن على حال
صوارخ لا يهدأن إلا مع الضحى
من الشر في بيت من الخير محال

كأنهم مما تنازعن أكلب
طرقن على حين المساء برنبال
فهجن جميعا هيجة فزعت لها
كلاب القرى ما بين سهل وأجبال
فلم يبق من كلب عقور وكلبة
من الحي إلا جاء بالعالم والخال
وفزعت الانعام والخيول فانبرت
تجاوب بعضها في رغاء وتصهال
فقامت رجال الحي تحسب أنها
أصيبت بجيش ذي غوارب ذبال
فمن حامل رمحا ومن قابض عصا
ومن فزع يتلو الكتاب بإهلال
ومن صبية ريعت هناك ونسوة
هوانم دون الباب يهتفن بالوالي

فهذه قطعة قوية من الشعر الاجتماعي الدقيق الذي
يصف تجربة ذاتية أرقت الشاعر واضننته فأوحت له برائق
التصوير وجيد التعبير. وبهذه الطرائف وأمثالها برز
البارودي مجددا في الموضوع والصياغة ، ولولا أنه
تعرض في الثلث الأخير من حياته لبلاء النفي وشقاء المرض
وقسوة الحرمان ثم بالرمد القاسي على نوره الهادي لرأينا
شعره الأسر يقفز قفزات متوالية تتجاوز طور التمهيد إلى

ما بعده من أطوار النمو والازدهار مما تحقق كثير منه على أيدي تلاميذه التاليين .

والغزل فن شعري إذ لا يكاد يخلو شاعر من عاطفة تدفعه إلى الافتنان فيه تنفيسا عما يحس ، وقد قال البارودي ما نعزوه دائما إلى التقليد والمحاكاة ناسين أن فروقا شتى بين مطالع ومطالع ، فإذا كان الكثيرون يبتدئون القصائد بالغزل فلن يكونوا جميعا ممن يتبعون سننا يرتضيه الناس ، بل أن فيهم من وجد السانحة تتسع للتعبير عن خوالجه فتم له أن يعبر عن ذاته في أصالة واضحة ! وليت شعري ما سرّ هذا الضرام الذي تتوقد به بعض مطالع الشريف الرضي إن لم يكن أوارا ينبىء عن مكنون الجمرطي الصدر ، وكذلك نجد في كثير من مطالع البارودي دون أن ننكر ما نلحظه في بعضها الآخر من محاكاة اضطر إليها الشاعر المبتديء إذ لا مفر من التقليد لشاعر يعتبر مدرس نفسه وتلميذ ما يقرأ دون أن يهتدي بأستاذ يراوجه ويغاديه ، على أن في الديوان مقطوعات طريفة استقلت بالغرض العاطفي دون أن تزحمها أغراض أخرى وهي لا شك وليدة تجربة حقيقية أحسها الشاعر حين قال :

قالت وقد سمعت شعري فأعجبها
اني أخاف على هذا الغلام أبي

أراه يهتف باسمي غير مكترث
ولو كني لم يدع للظن من سبب
فكيف أصنع إن ذاعت مقالته
مابين قومي وهم من سادة العرب
فنازعتها فتاة من صواحبها
قولا يؤلف بين المساء واللهب
قالت دعيه يصوغ القول في جمل
من الهوى فهو آيات من الأدب
وما عليك وفي الأسماء مشترك
إن قال في الشعر ياليلي ولم يعب
وحسبه منك ذاء لو تضمنه
قلب الحمامة ماغنت على العزب
فاستأنست ثم قالت وهي باسمه
إن كان ما قلت حقا فهو في تعب
يا حسنه من حديث شف باطنه
عن رقعة ألبستي حلة الطرب
ولهذه المقطوعة نظائر أخرى نأمل أن تجد من يخصصها
بالتحليل الأدبي منقبا عن معدنها الصحيح .

نقولا يوسف بين ولز وطاغور

رجعت إلى مصر بعد غيبة قصيرة فسالت عن صديقي الأستاذ نقولا يوسف فعرفت أنه قد غادر الدنيا ..
فعجبت كل العجب أن يصمت إخوانه الأدباء وأصدقائه الكتاب عن نعيه ، وفيهم من يملك القلم المسهب والصحيفة الذائعة ، وماكان الفقيد النبيل لهم إلا أخا أصيل الود ، عريق الوفاء ينزلون عليه في الإسكندرية صيفا فيجدون الانيس الملائف ، والصديق البازل ، والجليس المذهب ، يتحسس مطالبهم ليقضيها على عجل ويتلمس رغباتهم تلمسا حتى لتقع في اليد قبل أن ينطق بها اللسان ! أهكذا يسكت عن نقولا أحباؤه وكانوا يرأسلونه بالشوق ويقابلونه بالعناق ، ويودعون بالدمع ! كما شهدت ورأيت .

كان نقولا إنسانا مثاليا ، وقد اتسعت إنسانيته لتشمل ما على الأرض ، ومن عليها جميعا ، وقد كان أدبه الرائع المتنوع فيض هذه الإنسانية النبيلة يصدر عنها صافيا رائقا شفافا لا تعلوه كدرة ، وقد بحث وألف ، وكتب المقال وعالج القصة ، وحلل التاريخ وترك من الآثار ما يضعه في الصف الأول من ذوي الفكر ، لو روعيت الكفاءة لذات الكفاءة ، وهو في كل ما نوع من فنون أدبه يحقق إنسانيته الأصيلة ويدعو إلى ما يشرف هذه الإنسانية من خلال

الرحمة والتسامح والحب ! مع العدو قبل الصديق ، أجل مع العدو قبل الصديق ، إذ ابتلى بنفر من الوصوليين يتسولون منه أدبه تسوُّلاً ، فيمنحهم عن عطف ، ثم تتكاثر شواغله فيهمل حيناً مع البسمة المعتذرة ، والوعد المرتقب ، ولكنه يكابد شتى صنوف الغدر ممن يلاحقونه بالاتهامات المزورة ، ويتعقبونه بالشكايات المجهولة ، أنا لوزارة التربية أيام كان يعمل بها ، وأنا لمباحث الدولة افتراء دون صدق ، وتارة للضرائب ادعاء دون كسب ، فإذا اطلعت على هذه المهرقات ، وحاولت أن تسليه ببعض ما يهون عليه ، نظر إليك مبتسماً ، وقال ملاطفاً : (دنيا يا أستاذ) .

كان من حظ نقولا أن اهتدى إلى رسالته الإنسانية في مقتبل شبابه ، فقد شعرو وهو طالب بمدرسة المعلمين العليا أن للقلم مهمة خطيرة وأن الأديب الحق ليس من يزخرف القول في كل اتجاه ، بل من تسيطر عليه فكرة هادية يسعى لتحقيقها ، وكانت الفكرة التي ملأت خاطر الأديب الناشئ ، وتغلغلت في أعماقه ، هي فكرة الوحدة العالمية التي تجعل الكوكب الأرضي دولة واحدة فينجو العالم من أهوال الحرب ، وكوارث التدمير ، ولعل الحرب العالمية الأولى بفظائعها الشاملة وأهوالها الممتدة قد دفعت تفكير الطالب الناشئ إلى الخلاص من مثيلاتها ، ثم قرأ عن مبادئ ولسن ما أوقد عزيمته ، فأخذ يبحث عن يشاركه

همومه الإنسانية ، وأدركه هربرت جورج ويلز الإنجليزي ورابندراناث طاغور الهندي بمثله المنشود ، فعكف على آثار الأديب الغربي مقارنة بتأملات الشاعر الشرقي ، وانطلق يدعو إلى الإنسانية الشاملة فيما يرسل من نغمات ، وقد امتد به الأجل حتى جاوز السبعين وهو لا يفقا ينادي بإنسانيته العالمية لم يترك خطه المثالي يوما ، وإن كرر وأعاد وأجفل وفصل شأن الدعاة الملحنين ، وإذا كان في الكاتبيين من يحسبون الأدب كتابة دون هدف فهم يقرعون ويلخصون وربما كتبوا في يوم واحد مقالا عن الحسن البصري ومقالا عن راسبوتين ، بلهجة واحدة ، إذا كان في الأدباء من يأكل على كل مائدة ويكرع من كل قدح فإن نقولا يوسف منهم بمناى بعيد .

لم أنس حديثه لي عن رؤيته الشخصية لطاغور دما ولحما يتكلم ! فقد قال نقولا عن نفسه إنه زار إنجلترا وسويسرا وفرنسا واليونان وتركيا سائحا يتعلم ، وقد حاول أن يزورولز في رحلته البريطانية فلم يوفق ، ثم رجع إلى القاهرة ليرى الجرائد تتحدث عن زيارة طاغور لمصر ، فعلم أن الله أراد أن يعوضه خيرا ، وإذا كانت الدنيا لا تمنح كل شيء ، فقد ضنت بولز لتجود بطاغور ، ولو اختار بينهما دون جمع لاختار طاغور ، لقد ساعده الحظ فعلا حين قدم له رؤية من يختار ، وإذا كانت باخرة الشاعر الهندي في طريقها إلى الإسكندرية فلا بد أن يكون في استقبال

الفيلسوف الشاعر ! ولم يكن وحده ، إذ أن الإسكندرية كلها خرجت تستقبل طاغور ، وقد نهض من عليه القوم من يهيء له القصر الفخم ، والاستقبال الحار ، والاحتفال الحاشد ، فإذا كان اليوم التالي للزيارة فقد امتلأ مسرح الحمراء بالثغر بمئات المثقفين ، ليستمعوا إلى محاضرة طاغور عن فلسفة الهند ، يقول نقولا : «وكانما تحول الملهي إلى معبد يقوم بطقوسه كاهن عظيم وقد من أغوار التاريخ وقد أضفت عليه لحيته المسترسلة البيضاء ، وشعره الكث الأبيض ، وقوامه المعتدل المديد ، وعباءته الشرقية بلونها البني منزلة ومكانة ، وأخذ الرجل يتحدث والجمهور طرب فخور ، والأديب الشاب يرصد كل حركة ويسجل كل حرف ويجمع كل احساسه في عينه ليرى وأذنه ليسمع ، ثم قذف بنفسه بين المتزاحمين بعد انتهاء المحاضرة ليصافح الشاعر ، ويعانقه ، وليندم على أن الزمن قد سار دون أن يتجمد فيظل طاغور واقفا متكلماً ! ثم علم أن القاهرة تنأهب للإحتفال بشاعر الهند ، وأن أمير شعراء مصر قد أعد الاستقبال ، وهيا الحفل ، ووجه الدعوات ، فسرعان ما حمله القطار إلى القاهرة ليجد الصحف والناس جميعا يتحدثون عن طاغور ، وقد إتجه إلى جريدة السياسة الأسبوعية التي كان يكتب فيها ليجد من محرريها من يستطيع أن يقدم له بطاقة دعوة من شوقي ، ليكون في كرمه ابن هانيء مع المحتفلين ، ولكن أصدقاءه لم يستطيعوا أن يجدوا لأنفسهم ما يشتهي ويشتهون لأن شوقي قد إتجه إلى

القمم وترك السفوح ! قال نقولا : فرأيت أن أترامى على الأستاذ محمد توفيق دياب إذ أعرف مكانته لدى شوقي حتى ترك لي بطاقته ، وقال إنه سيتصرف ، وكانت الكرمة الشوقية ليلة طاغور بدعا من البدع إذ هيا شوقي لها أجمل مظهر يمكن أن تتلألأ فيه ، ومن العجيبه التي يجب أن تسجل حقا أن مجلس النواب المصري أرجأ اجتماعه ساعتين ليتمكن رئيسه الزعيم سعد زغلول مع الصفوة من الوزراء وأعضاء المجلس من مشاهدة احتفال طاغور ، وأداء واجب تكريمه ، وقد حضر سعد وعدلي ومحمد محمود وثروت ليحيطوا بالشاعر الضيف ممثلين لشعب يحب الأدب ويهتف به ، ويرحب بأعلامه في كل قطر ، وقام الأستاذ توفيق دياب ليلقي كلمة شوقي في تحية الشاعر ! وأراد نقولا أن يقذف بنفسه بين المتزاحمين ليصافح الشاعر ويعانقه مجددا مشهد الأسكندرية فما استطاع ، إذ وجد طاغور محاطا بذوي الهيبة والنفوذ في مجلس لا يسمح بالتطفل ولكنه خرج بعد انتهاء الحفلة سعيدا باسماء يحمد الله أن رأى وسمع وادخر لنفسه مكنونا ثريا من أنضر الذكريات ! ومع مَنْ ؟ مع طاغور !

لقد جمع نقولا يوسف صفوة مقالاته الشابه في كتاب (الحياة الجديدة) ليقدم آراءه الإنسانية في بحوث مُركزة تحت عنوانات محددة مثل : مبادئ جديدة لعصر جديد ، فن الحياة ، الإنسانية بين الحرب والسلام ، في الوحدة

العالمية ، مستقبل العالم في نظر العلم ، طوبى عصرية ،
فلسفة التشاؤم ، وكلها تدور في فلك خاص هادف وقد يلحظ
الدارس بها بعض التكرار في البحوث وتلك طبيعة المقالات
الصحفية التي تجمع بعد تفرقها في المجالات ، وبخاصة إذا
كانت تدور حول فكرة إصلاحية يحتاج صاحبها إلى بسطها
وشرحها ، مضطرا إلى ترداد ما أسلف ليفرغ لقارئه كل ما
يريد ، مفترضا أنه يقرأ مقالته دون تنبع لما سبقه من
المقالات ، وكنت أفضل لهؤلاء الدعاة حين يريدون جمع
آثارهم أن يقوموا بمراجعة تهذيبية تعوق التكرار ، وهذا
حق يحول دونه أن كثيرا من المقالات تضيف الجديد إلى
القديم وفي محاولة تهذيبها جهد جاهد يدخر إلى كتابات
أخرى ، وقد يغتفر التكرار إذا جاءت المعاني في صور
جديدة ، وقد أحسن مؤلفه حين بدأه بموضوع (مبادئ
جديدة لعصر جديد) حيث اشتمل على خلاصة ما يريد
الكاتب أن يبسطه فيما يجيء من الفصول ومن أبرز ما جاء في
هذا المقال اللافت قول صاحبه :

(يجب ان نتفاعل بمصير البشرية ونعتقد أنها تجتاز
محنا ، وتجارب لتتقدم ، وأننا نسير إلى الأمام على
الرغم مما نخوضه من أحوال ومستنقعات ، ودليلنا على
ذلك ما بلغناه اليوم من تقدم في العلوم والاكتشافات ،
والمبادئ بالنسبة إلى العصور السالفة) ..

ونحن لا نستطيع هدم الماضي الذي يعيش فينا ، كما لا

نستطيع ان نسبق عصرنا كثيرا ، ونعيش في المستقبل الذي نتخيل احيانا بعض صوره ، وقد يكون التغني بالماضي جميلا من بعض النواحي إلا أن التغني بمجد المستقبل اكثر نفعا ، فالذين ينادون اليوم مثلا بامجاد الإمبراطورية الرومانية - يقصد الفاشست - ويحلمون بعودة سطوتها وسلطانها لا يجارون الحاضر الجديد المتطور ، ولا يتطلعون إلى مستقبل جديد يقول بتوحيد الشعوب وتعاونها على أساس الحرية والمساواة حتى تستطيع تحقيق مبادئ العالمية الجديدة ، والذين يتغنون بأبهة الغزوات وامجاد الحروب والفتوحات ، ويعجبون بالقوة المسلحة هم الذين لم تخلص نفوسهم من شوائب الهمجية القديمة ، ولا يدينون بالولاء للعالم ، ولا بد ان يسمو المستقبل القريب او البعيد بهذه الغرائز الوحشية الموروثة التي تتلذذ بمراى الدماء وتخريب البلاد ويومذاك نخجل من ذكر الحروب ، ونحتقر أسماء الفاتحين والغزاة ، ونحن إزاء هذه المبادئ نخدم وطنين لهما علينا حقوق وواجبات ، إذ لكل منا وطنان ، وطن اصغر محصور بين حدود جغرافية معينة ، ووطن اعظم يشمل الكون كله ، هو تراث الإنسانية كلها ، الذي يجعل من البشر جميعا اخوة مرتبطين المصالح .

هذه فقرات تلخص فكرة الموضوع ، وتلقي ضوءا على اتجاه الكتاب في مجموعه ، وبذور هذه الأفكار قد جمعها

نقولاً من دعوات (ولز) العالمية إذ عكف على قراءة ما وقع في يده من آثاره ، وكان يستعير بعض كتبه ليقوم بتصويرها ، ثم يوالي تلخيصها في مقالات متفرقة ، ومن أحسن ما كتبه في ذلك مقاله في الحياة الجديدة ص ٦٢ عن كتاب ولز (يوتوبيا عصرية) وقد كتبه الأديب الإنجليزي سنة ١٩٠٥ وكان يومئذ رجلاً في الأربعين من عمره ، ويقول نقولاً أنه حينئذ لم يصل إلى ما بلغه من النضوج فيما تلا ذلك من أعماله ، ولكنه حدد اتجاهه الإصلاحى بما وضع في كتابه من أفكار ، وقد مهد المحلل بحديث عن سابقى هــجـ ولز ، ممن تحدثوا عن المدنيات الفاضلة فالتّم بأفلاطون والفارابى وتوماس مور لينتهى إلى قوله ص ٦٣ :

(وليس هنا مجال الحديث عن تلك الطوبىيات التى سبقت طوبى ولز أو التى جاءت بعدها مما صورّه الأدباء كل وفق مزاجه ومبادئه ، ولكننا نذكر أن يوطوبيا ولز تفضلها جميعاً لأنها لا تنطبق على مدينة واحدة تهرب بفضائلها من شرور العالم وتعتزل عزلة الراهب عن سائر إخوته من الناس ، بل هى طوبى الإنسانية جمعاء إذ نسيت الحزازات والفوارق المذهبية واللغوية متعاونة كلها على التقدم العلمى والانتفاع بثمار الحضارة والثقافة) .

ثم اخذ الأستاذ نقولاً يوسف يستعرض الكتاب مسلطاً أشعة التحليل على جوانب من إتجاهاته ليختم حديثه بقوله :

«هذه الصورة التي رسمتها مخيلة ولز لعالم متمدن راق تحملنا على التأمل في حياتنا الجديدة الحاضرة لنوازن بينها وبين ذلك العالم الطوبي السعيد ، ومع أن الله قد أسكننا سيارة جميلة ملأى بالصور الطبيعية الفاتنة التي تتجدد مع فصول السنة ، وهيا لنا فيها كل أسباب الحياة الرغيدة ، ومنحنا عقولا تميز بين الحق والباطل ، وبصائر تفرق بين الجميل والقبيح ، وميزنا عن كل مخلوقاته الجميلة بذلك القبس من النور الإلهي الذي يسطع في نفوسنا ، ويعيننا على التطور والارتقاء ، مع هذا كله فقد تألفنا على تشويه هذا العالم الجميل ، وملئه بالنقائص والفوضى ، فهذه الدنيا التي نسكنها طوبى في ذاتها ، ولكن الإنسان هو الذي عمى عنها ، فأضاعها ثم أضاع العمر في البحث عنها فليبدأ كل منا بإصلاح نفسه ليسمو بها ، وببيئته ليرقيها ، وليملأ قلبه بالولاء للعالم ومحبة الإنسانية كلها وبالرغبة الصادقة في رقيها» .

وقد يدهش القاريء حين يعلم أن تشبع نقولا لآراء ولز هذه ، قد جلب عليه التعب الشاق في مهنته التعليمية ، وصادف من كبار المسؤولين في وزارة المعارف لعهد خلا في الثلاثينات محاسبة وجزاء ، فقد كان الأستاذ نقولا أستاذا للغة الانجليزية في المدرسة الثانوية بالإسكندرية ، ثم غاب أستاذ التاريخ ، قرأت المدرسة أن تنتدب الأستاذ نقولا لتدريس شذرات من تاريخ أوروبا في صف واحد ، فهو كاتب

واسع الثقافة ، وخريج المعلمين العليا ، ولا بد أن يقدر على إفادة الطلاب ، وأذعن الأستاذ نقولا فرحا فخورا بتقديره وتزكيته ، وأخذ يراجع المنهج فإذا به أمشاج مضطربة يزدحم بها الكتاب المقرر عن حركات وحروب وثورات في بروسيا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا ، وكل حركة تستدعي في رأيه عاما كاملا ، وازدحام أذهان الطلبة بأسماء الزعماء والأماكن والمواقع ، دون تحليل مما يفسد وظيفة المادة ويجعل دراسة التاريخ تكديسا لمعلومات لا جدوى منها ، فاجتهد الأستاذ أن يذلل العسير ما استطاع ، وقام في رأيه أن يبعث بمذكرة نقدية إلى المسؤولين في وزارة المعارف يرسم فيها خطة لتدريس التاريخ ، وكان متشعبا كل التشعب بمحاضرة لويلز عن تدريس التاريخ ، وطريقته التي يجب أن تتبع ، إذ أن الكاتب الإنجليزي ينكر أن يجمع المؤرخ بين تواريخ الأمم المختلفة ، ويضمها ضمّا في كتاب واحد ، لتصبح تاريخ العالم ، ولكن الواجب أن يؤرخ الباحث للإنسانية من الأزل إلى الحاضر تاريخا إنسانيا ، فيبدأ بحالة الإنسان الأول مبينا كيف اهتدى إلى حضارته حين وفق إلى السكنى العائلية وإلى الزراعة وإلى التفاهم اللّغوي ، على أن تكون الابواب مرتبة وفق ظهور المواد الدافعة إلى التقدم الحضاري ، فظهور الحديد مثلا وأثره في إنشاء الآلات الصلبة في الحرث والتشييد والعمارة وفي وسائل الحروب مما يحتاج إلى تاريخ يفيد

البشرية أكثر مما تفيدها دراسة تواريخ الإسكندر وقبصر
وجنكيز خان ونابليون ، ثم يأخذ في دراسة المكتشفات
المتتابعة للتطور البشري ، فالكشاف الذهب والألمنيوم
في القديم واختراع البواخر والقطارات والطائرات في
الحديث مما يصور التقدم التاريخي للبشرية بحيث لا يقرن
به تاريخها في ظلال حروب الإسكندر ونابليون وأمثالهما
ممن يسميهم الكاتب بالسفاحين ، ثم إن هذا التاريخ يجب
أن يشمل فصولا للطواعين ، والأوبئة والزلازل ، والبراكين
وآثرها في انعكاس التقدم البشري ، كما على المؤرخ أن
يدرس الخرافات والأساطير والأوهام جوار الحقائق
والمسلّمات ، ليرصد أثر ذلك كله في إطار الإنسانية على نهج
التقدم العمراني !! هذا هو التاريخ الحقيقي للإنسانية كما
يراه ويلز ، وكما دعا إليه في عدة محاضرات قصرها على
المشتغلين بكتابة التاريخ ، وقد قرأ الأستاذ نقولا هذه
المحاضرات قبل أن يعهد إليه بتدريس تاريخ أوروبا
فاستشعر ضيقا بالمنهج المصري ، وأعدّ مذكرة مركزة بما
يراه ، مرسلا بها إلى المسؤولين في وزارة المعارف ، وكان
ينتظر المراجعة فالتقدير ، وقد جاءه خطاب الأستاذ م. ع. ا.
الوكيل المساعد لوزارة المعارف حينئذ مستدعيا ، فظن
الخير ، وعجل بالتلبية فرحا كمن يدعى إلى عرس حافل
يكون بدره المتألق !

وَيَا لحسرة نفسه حين وجد السيد الوكيل غاضبا
ساخطا يرميه بالجنون والهوس ، ثم يدعوهُ إلى الكفّ عن
الكتابة في السياسة الأسبوعية التي تعطل عمله المدرسي
لأن صاحب بالين كذاب ويسارع الوكيل بنقله معاقبا من
الإسكندرية إلى أسيوط ! يحكي لك الأستاذ نقولا ذلك كله ،
ثم يقول وهو يشعل السجارة مبتسما ويقدمها إليك (لا
تتأثري يا سيدي إنها الدنيا ! ما نصنع !؟) .

ويخيل لي أن ما يقصده ويلز هو الاقتصار على تاريخ
الحضارة الإنسانية وحدها وهو ما توفرت بعض الهيئات
العلمية في أوروبا وأمريكا على تدوينه ، وقد ترجمت إلى
اللغة العربية (قصة الحضارة) بأجزائها المتعددة كمثال
واضح لبعض ما يريد ! ومحاولة استبدال التاريخ المدرسي
وإحلال غيره محله ، تحتاج إلى نضوج لم يكتمل بعد ،
ولكن هذا شيء ، ومعاقبة أستاذ ناهض مجدد يدرس وينقد
ويقترح شيء آخر ، بل أن هذا العمل في صميمه جراءة
وافقتات وعدوان !

أن أن أعود إلى طاغور فقد كدت أنساه ، وما كان الحديث
عن عالمية ويلز إلا تمهيدا للحديث عن عالمية طاغور فكلاهما
إنساني النزعة ، مفتوح المذاهب ، واسع المحيط ، وقد
خصّه الأستاذ نقولا في الحياة الجديدة بحديث يعلن قربهِ
من صاحبه في منحاه وإن اختلفت نكهة طاغور الصوفية عن
صرامة ويلز المادية فإن هذا الاختلاف لا يتجاوز القشر إلى

اللباب ، وإليك بعض ما قال المؤلف عن طاغور ص ٢٤١ :
(هو يبشر بالحب العام ، ويرى أول واجبات الإنسان أن
يحب أخاه ، وأن يحب العالم كله ، فيعيش الجميع في
الإخاء عيشة روحية يغمرها الفرح ، فالحياة النبيلة
عنده ، هي تلك التي يعيش فيها المرء لأجل الآخرين ،
فالفرح الحقيقي هو تلك العظمة الصادرة عن ارتباط
الإنسان بالمجموع وصلته بالكون واندماجه في الإيمان
والطبيعة ، وهو يرى الدنيا كلها وطنه الجميل ، وهو لا
يزهد في مسراتها البريئة ، ولا يترفع عن التمتع بثمار
الحضارة البشرية ، ويرى الخير أصيلا في الدنيا أما الشر
فعارض متم ، ويرى الله قوة محبوبة تحنو على الكون
وتشمله بعطفها وحنانها فيناجي الهه كثيرا .

ثم يقول نقولا ص ٢٤٢ : لقد تحدث طاغور شخصيا مع
ويلز زعيم العالمية في هذا العصر . فكان مما ذكره له أنه
يعتقد أن وحدة الحضارة الإنسانية يمكن إيجادها بطريق
أمثل إذا نحن عملنا على أن نصل بين حضارات العالم بروح
الزمالة والتعاون وقد مضى زمن اللغة التي تعيش في
مساحة لا تزيد على خمسة أميال ، ثم أن المواصلات
السريعة تعمل لإيجاد لغة عامة ، ولكن الأرجح أن هذه
اللغة لن تطرد اللغات الوطنية ، إنه مما يؤسفنا أن نعتقد
في أية أمة أو سلالة أنها ممتازة عن غيرها وأن بها عناصر
التفوق ، وكأنها قد رزقت رعاية الهية في نظام الخليقة) ،
وحديث طاغور عن الوحدة الإنسانية ليس حديث العابر

المتعجل ، ولكنه حديث المفكر الذي أطل التفكير ، وأذكر أنه عقد الموازنات بين الأروبي والهندي فرأى الحضارة الأوربية نشأت بين جدران صناعية أقامها الإنسان ليحمي نفسه من شر أخيه الإنسان ، وقد عاقت هذه الجدران نفوس ساكنيها أن تمتزج وأن تتحاب وأن ترى تشابها بين الميول والطباع ، فشب الغربي أنانيا ، يحافظ على أرضه المحدودة ويتوجس الشر من هجوم أخيه ، ويقيم الخطوط الحربية والحصون والقلاع ليعتصم بها إذا داهمه الاعتداء وهو مع توجسه من الناس وخوفه من العدوان ، يتربص الفرصة بمجاوريه ويهم أن يداهمهم لو وجد السبيل الميسر ، ولذلك كانت الحضارة الغربية مادية صناعية تعتمد على أدوات الفناء والإبادة والتدمير ، وقد وجدت صناعة الحرب سوقها الرائجة بحثا عن السلاح ، فامتلات المصانع ونفقت الأسواق ، وتكدست الأموال ، وتبع ذلك تحرش القوي بالضعيف ، واندلاع أكبر حربين عالميتين في مدى قريب ، أما الإنسان الهندي فغير ذلك لقد عاش منذ القدم في غابات فسيحة غنية بشتى الثمار والمحصولات فلم يجد أدنى مشقة في العثور على رغائبه ، وتيسر له بأقل الجهود أن يتخذ المساكن في ظلال الأشجار التي تسقط عليه الثمر دون مجهود وحول الغدران المائية التي تسعفه بالري دون تعب ، وقد اتسعت الغابات في عينه فلم يفكر في أن يستحوذ عليها وأن يخشى اعتداء مجاوريه على ما يملك ، فالأرض واسعة والثمر كثير ، والنفوس قانعة راضية ! هنا كانت الحقيقة المطمئنة إذا

قنعت النفس قنعت جيرانها ، ورات في ثمار الطبيعة مصدر
راحة فعشقتها وهامت بها . وعدت الشجر والنهر والبدر
والشمس مكملات لسعادتها ، فهي ذات خير وعطف
وإحسان وإذن فهي ذات حق في العيش والازدهار ، وبينها
وبين الانسان وحدة متماسكة هي وحدة التعايش ، بها
أمن الهندي وبهذا اطمأن فأسلم الزمام .

لقد كان آخر لقاء لي مع نقولا يوسف - وتلك مصادفة
نادرة - حافلا بالحديث عن طاغور والموت ، إذ رأيته
بالقاهرة على غير انتظار ، فأسرع يعانقني وكان يعلم عمق
الجرح النافر في قلبي ، وكرر لي رسائل المواساة مشكورا ،
ثم أصر على أن أقضي اليوم معه ، فأخذ يحدثني عن حقيقة
الموت كما يفهمها نقلا عن طاغور

أخي الأستاذ نقولا في عالمه الرحيب :

اتذكر ليلة من ليالي الصيف بالإسكندرية ، وقد
اندفعت - في كازينو كليوباترة الناهض فوق الماء في
منعطف البحر الأبيض - تتحدث عن أستاذك الحبيب
عبدالرحمن شكري ، وكنت أصغي في استمتاع ، ثم هب
نسيم «منعش» رطب ، فيه مذاق الماء العذب ، فابتسمت في
هدوء وقلت : هذه النسمة الرقيقة تحمل روح عبدالرحمن
شكري لا محالة ! إنها روح شاعر أطلّ من عليائه يسلم على
تلميذه !! هاأنذا الآن يا أخي أكتب عنك هذه السطور ،
وها أنذا أستروح نسمة رقيقة عذبة كتلك التي كانت !
أقول إنها روحك أنت أطلت من عليائها لتقرأ ما أكتب !!
ليس ذلك بعزيز .

ذكريات عن عبدالكريم جرمانوس

وجاء الدور على أستاذي وصديقي عبدالكريم جرمانوس ، وحتم أن يجيء .

لقد صحب الدنيا أمدا طويلا يقرب من قرن ، ولكن أصدقاءه التاعوا عليه كما لو كان غادر هذه الحياة في زهو الشباب ! لأن الراحل العزيز كان حركة لا تهدم ، فهو دائم الارتحال والتنقل دائم البحث والتأليف . دائم المراسلة والاستفسار ، يجلس كل يوم إلى مكتبه في بودابست ليراسل أصدقاءه في شتى ممالك العالم فيكتب الرسالة الأولى بالعربية والثانية بالفارسية والثالثة بالتركية والرابعة بالأردية والخامسة بالإنجليزية والسادسة بالألمانية والسابعة بالفرنسية إلى غير مالا أعلم عما يعرف ، وفي كل رسالة تساؤل عن معضلة علمية أو جواب عن مشكلة أدبية ، أو بسط لمشروع أدبي أو بشارة بانتهاء تأليف منهجي ، فإذا اقتضت الرسالة على الشوق والسؤال فللعاطفة الدافقة في صدره صور خالصة وأحاسيس نبيلة لا تصدر إلا من شاعر ملهم ، وكنت حين أقرأ هذه الصورة الخالصة أسائل نفسي ماذا يكون جرمانوس لو ترك هموم البحث العلمي وتفرغ لرصد العواطف ، وتصوير الأحاسيس ! إن كتابه (الله أكبر) الذي وصف فيه رحلته

من الأزهر بمصر إلى مكة كي يحج ويزور ليرتفع إلى قمم
البلاغة الصادقة ذات النبض الحي والإيحاء الملهم ،
والتصوير المعبر ، والرمز اللافت ! ولو قدر للرجل أن
يصور رحلاته جميعها إلى شتى بقاع الأرض بهذا الأسلوب
الشاعر لكان نسيج وحده ، ولكن الاشتغال بدقائق المسائل
العلمية ، والاختفاء في سراديب الطلاسم اللغوية قد كاد
يستر هذا الجانب من إبداع الرجل الكبير ، والذين سعدوا
بحديثه المسترسل في مجالسه الهادئة أدركوا قوة الشاعرية
في سبحاته الملهمة ، ورقة الجمال في بديهته الحاضرة وفورة
الشباب في شيخوخته القوية ، حتى ليتساءل محدثه
دهشا : أهذا الرجل النشط المتوثب في سن التسعين ؟
وكيف ؟

إنني اتساءل الآن - شهد الله - أحقا قد ارتحل هذا الذي
حمل أقوى دواعي الحياة من مرح وتفاؤل وأمل وإيمان
ونشاط ؟؟ وإذا كان قد رحل بعد حياته العامرة المعمورة
أفيجوز لي أن أسترسل في الحسرة عليه كأني لا أعلم أن
الموت نهاية كل حي ثم يلوح لي طيف الشريف الرضي - وهو
من أقرب الشعراء إلى نفسي - إذ أجده يبكي صديقه الكاتب
المعمر أبا اسحاق الصابي بقصائد حارة ملتبهة وكان قد
تخطى التسعين بسنوات ، بكاه أولا بقصيدته الرنانة :

أعلمت من حملوا على الأعواد
أعلمت كيف خبا ضياء النادي ؟

فصرخ فيها صراخ المتفجع على أعز أمل وأحب منال ،
واعتقد الناس أنه أفرغ شحنته الثائرة في قصيدته
النائجة ، ولكنه عاود الرثاء ثانية وثالثة ، وكان في رثائه
شجى ضارع لا يقال إلا في حبيب مترف عاجله الحمام في
طراوة الصبا وزهو الشباب وأنه ليتساءل متحسرا .

هل ابن هلال منذ أودى كعهدنا
هلالا على ضوء المطالع باقيا
وتلك البنان المورقات من الندى
نواضب ماء أم بواق كما هيا
خلا بعدك الوادي الذي كنت أنسه
فأصبح تعروه النواذب واديا
رثيتك كي أسلوبك فازدبت لوعة
لأن المراثي لا تسد المرازيا
وأعلم أن ليس البكاء بنافع
عليك ولكني أمني الأمانيا
وما بنا أن نتحدث عن الصابي والشريف ، فلنعد إلى
عبد الكريم جرمانوس .

أجمل ما في حياة جرمانوس أنه واضح الصفحات ،
وضيء الملامح ، باهر الطلعة ، لقد تحدث عن أسرار نفسه
فيما كتب قليلا وفيما راسل به أصدقاءه وحادثهم فيه كثيرا
كثيرا ، وليتني أستطيع أن أجمع كل ما راسلني به أو
أستعيد كل ما تحدث فيه إذن لكتبت ما يفيد القاريء

ويجديه ، وإذا فات الاستقصاء فلا أقل من تذكر بعض الخواطر ، ليدل القليل على الكثير .

كانت اللغة التركية أول لغة إسلامية حذقها جرمانوس في شبابه الغض ، وقد أجادها إجادة أعلمته برجال الإسلام وأدبائه وعلمائه من ناحية وأرته شريعة الإسلام إعتقاداً وعملاً من ناحية ثانية فاستشعر حبا لما يقرأ وإعجابا بما ألم .. وخبر . ثم رأى الفارسية والعربية تملآن اللغة التركية بكثير من الألفاظ فشمر عن ساعد الجد ودرس الفارسية أولا حتى حذقها ودفعته الفارسية إلى العربية فأحضر معاجمها ليعرفها بنفسه ، فأخذ يفك الطلاسم ، ويحل المعميات مستعينا بجهد الخاص حتى استطاع أن يقرأ ويكتب بها ! ثم ذهب إلى الهند أستاذاً بإحدى جامعاتها فرأى من أساذنتها من أوقفه على أسرار الفارسية والعربية معا ، وقرأ من المصادر الوثيقة عن الإسلام ما حببه إلى نفسه . فأعلن إسلامه بالهند في جامع (دلهي) بعد أن تقدم إلى المنبر يوم الجمعة ليخطب الناس متحدثا عن دوافع إسلامه وليؤمهم في الصلاة بالمسجد الجامع بعد الخطبة وليعلن أن اسمه (عبد الكريم) وقد حظي بصداقة كبار المفكرين في الهند ، زاره طاغور وأهداه مؤلفاته . واختصه محمد إقبال بوذه ، ونظم فيه مقطوعة من شعره ، وجالسه كثيرا في منزله ، وفي مجموعات جرمانوس صور شتى لمنزل .. إقبال وحديقته ومجلسهما معا ، وقد تفضل

جرمانوس فأهداني صورة إقبال التي منحها إياه مع نموذج من خط الشاعر الكبير ، وبإلهام من ذخيرة ذات رقد وإلهام ! ومن الذي لا يشمخ معتزا نياها حين يحتفظ بنموذج شعري كتبه يراع إقبال : إنه حظ سعيد .

و حين عاد إلى بودابست من الهند صمم على أن يدرس الأدب العربي دراسة داخلية تعتمد على النصوص القديمة والحديثة لأدباء العرب وشعرائهم ، وقد بذل جهده في الإلمام بأبجدية اللغة العربية ، حتى استطاع أن يكتب بها ويقرأ ، ولم يكن يعتقد أنه أحرز نصرا كبيرا في غاياته إذ تصور أن البلاد العربية تنطق الفصحى بمهارة لا يتقنها مجرى مثله مهمادرس وحفظ ، وخشي على نفسه أن يأتي إلى مصر فلا يجد من يفهمه فهما مقاربا ! ثم بدا له أن يشد الرحال إلى الأزهر طالبا ينشد التعمق والاستبحار ، وكانت أول مفاجأة له (حين غادر الباخرة إلى ميناء الإسكندرية) أن تكلم باللغة الفصيحة في إدارة الجوازات فوجد الناس يضحكون منه ويردون عليه بالعامية ، ولو كان لدينا وعي إنساني لأكبرنا همة مجري أوربي ينطق باللغة الفصيحة كما تعلمها في الكتاب ولبذلنا قصارى الجهد في تذليل ما يعترضه من العقبات . بدل أن نتخذ من حديثه فكاهة نتندر بها ! وقد صدم الرجل صدمة عنيفة لهول ما شاهد ، فما كان يستقر في أحد فنادق الإسكندرية حتى خطر رسالة تحمل أمله النفسي إلى زوجته في بودابست ومما قاله في هذه الرسالة إنه

كان يخشى أن يصبح أضحوكة في مصر لأنه لا يتقن اللغة العربية فصار أضحوكة لأن أهلها لا ينطقون بها ويريدونه أن يتحدث بالعامية فإذا حاول النطق الفصح وجد الضحك والتندر والاستخفاف ! أذكر أن الدكتور قد حدثني بذلك ثم أضاف إليه حادثاً مشابهاً فحواه أن أديبا عراقيا يسمى أحمد البرباع أرسل إليه قصة بالعامية ليبيدي رأيه فيها ، فحاول الدكتور جرمانوس أن يقرأها فلم يفهم حرفاً واحداً ، فلجأ إلى صديق مصري قديم يقيم في بودابست كي يساعده على كشف ألفاظها فأقر بعجزه لأن الرواية تبعد بعداً تاماً عن عامية مصر ! فلم يئأس جرمانوس وذهب إلى السفير العراقي في المجر كي يتولى الترجمة من العامية العراقية إلى العربية الفصيحة ، ويتساءل الدكتور بعد ذلك ما فائدة التأليف بالعامية إذا كان مما يفصم العلاقات الثقافية بين أبناء الضاد ؟ وأيهما خير للكاتب أن يقرأه أبناء العرب جميعاً أم أن يقرأه أبناء دولته وحدهم ؟! وهو تسأول جر إلى حديث طويل لي مع الدكتور جرمانوس ذكر فيه أن المبشرين من ذوي الاستشراق قد عملوا على توهين العلاقات بين الدول العربية حين دعوا إلى إحياء اللغات المحلية واتخاذها أداة لأدب إقليمي يقتصر تداوله على الدولة الواحدة دون أن يتجاوز الحدود المصطنعة إلى بلد آخر ، كما ذكر الدكتور الفاضل أنه اختلف مع أستاذه جولد زيهر حين رآه مصرّاً على الدعوة إلى العامية الإقليمية ، ولم

يمنعه اعترافه بفضل أستاذه الكبير عليه أن يجهر بمخالفته كما كاتب جرمانونس كثيرا ممن يدعون إلى التقاطع الإقليمي حين يحبذون انتشار العاميات في الدول العربية مبينا لهم خطأ ما يحاولون . وفي هؤلاء من رد على جرمانونس ومن أهمل رسائله : والحق أن المسألة من الوضوح بحيث لا تحتل اللجاج ، ولكن الهوى يعمي ويصم !

جاء جرمانونس إلى القاهرة سنة ١٩٣٤ ، فالتحق بالأزهر ووصفه وصفا بديعا في كتاب «الله أكبر» مقارنا حلقاته العلمية في الجامع الفسيح بما يعلم من حلقات البصرة والكوفة وبغداد والأندلس في عهود الازدهار الحضاري للإسلام ! وقد وجد من أدباء مصر من قاسموه الودّ وحفظوا له مكانة الباحث الدارس المتطلع ! لقد زار المازني والعقاد وأحمد أمين وطه حسين وأحمد حسن الزيات ولطفي السيد ومنصور فهمي ، وحظى بمعاونتهم وحمل مؤلفاتهم المهداة إليه مقرونة بالاطراء والثناء ! ولكن صداقته العريقة قد امتدت جذورها في قلوب الشباب من أمثال محمود تيمور ومحمد أمين حسونه وإبراهيم المصري ومحمد عبدالله عنان ونقولا يوسف ومحمد شوقي أمين ومحمود الشرقاوي ، وإذا حدثك جرمانونس عن هذه الحقبة المباركة من حياته المصرية فإنه لا يغفل رجلين كبيرين هما الدكتور محمد حسين هيكل والأستاذ عبدالوهاب النجار ، أما

الدكتور محمد حسين هيكل فقد أقام له إحتفالا عاما بإدارة السياسة الأسبوعية حضره نخبة من اهل الأدب ، وألقيت فيه القصائد والكلمات ، ثم أسعده باحتفال خاص في منزله إذ دعاه إلى الغداء والعشاء ، وقضى معه يوما طيبا وليلة سعيدة جرى الحديث فيهما عن الأدب العربي والتاريخ الإسلامي ، ثم كان الدكتور جرمانوس بعد ذلك باعثا حافزا للدكتور محمد حسين هيكل كي يزور منزل الوحي مؤديا فريضة الحج ، إذ كتب الدكتور محمد حسين هيكل في مقدمة كتابه أن صعبا تكاءدته وأن مشقات السفر إلى أرض البيت الحرام قد تجسمت لعينه فكادت تثنيه عن نيته الدافعة إلى زيارة منزل الوحي ، ولكنه في بعض أرقه الساهد ذات ليلة ، أدار مفتاح المذيع فهداه إلى محطة المجر يسمع متكلمة فصيحاً يتحدث عن رحلته إلى الحج فيصف مشاهد الطواف والسعي والوقوف ورمي الجمار بأجمل أسلوب ، والطف تعبير ! كان الحديث حديث جرمانوس بصوته وأسلوبه فأخذ الدكتور هيكل يقلب كفيه متعجبا ومتسائلا : كيف يتحمل مجري بعيد أعباء الزيارة ويعجز عنها مصري قريب : ثم قطع الشك باليقين فعزم على السفر ، وأنشأ في منزل الوحي فكان من أروع ما كتبه الأدباء في موضوعه إن لم يكن الأروع السابق .

أما الأستاذ عبدالوهاب النجار فقد كان وكيل جمعية الشبان المسلمين ، فأسعده أن يرى جرمانوس يدرس العربية ويؤلف في تاريخ الإسلام ، ففتح أبواب الجمعية

لاستقباله محاضراً ومطالِعاً في مكتبتها ، ثم عرّفه بصفوة من رجالها الممتازين ، وفيهم عبدالحميد سعيد ، ومحمد الخضر حسين ، ومحمد أحمد الغمراوي ، وبجي الدريديري ، وأحمد ابراهيم ، وكلهم علم في بابهِ كما عمل الخضر على ترضية الأستاذ محمد الأحمدى الظواهري شيخ الأزهر حينئذ عنه ، حيث ذهب وشاة السوء إلى الشيخ الأكبر يزعمون أن جرمانوس متعصب ومثله لا يجوز أن يدخل الأزهر ويتعلم فيه ، كما لا يجوز أن ينتسب إلى كلية اللغة العربية ليتلقى بها الدراسة المتخصصة ، وقد صدّق الشيخ ما قيل وأوحى بحرمان جرمانوس من حلقات العلم لولا وساطة الشيخ النجار . وأكبر معونة قدمها الشيخ لجرمانوس هي هذه الرسائل المتعددة التي كتبها لتلاميذه في الشرق العربي كي يحتفوا بمقدمه حين غادر مصر إلى مكة ، إذ كانت هذه الرسائل كما قال عبد الكريم عصا سحرية ذلت كل عسير وبسببها وجد الزائر الكريم أكبر استقبال من عارفي الشيخ النجار فكان موضع التجلّة والتبجيل .

لقد كتب الأستاذ محمود تيمور فصلاً بديعاً عن عبد الكريم جرمانوس بمجلة قافلة الزيت (ذو القعدة سنة ١٣٨٩هـ) تحت عنوان (عاشق العروبة والإسلام عبد الكريم جرمانوس) تحدث فيه عن رحلته إلى الحج وعن مقامه بالأزهر وطوافه بالقاهرة وعن شذور من نشأته الأولى . نقتطف منه قوله :

«وفي أثناء وجوده في القاهرة ، كانت أوقاته المفضلة هي التي يؤم فيها بيوت الله ثم يجول في حي الحسين ليلا ليستروح منه الصفاء والهدوء ويتنسم فيه روح الإيمان ويظل في تطوافه ملتحقا بعباته العربية الفضفاضة ، حتى إذا تعالى صوت المؤذن للصلاة في وقت السحر وقف متخشعا يترشف بأذن عاشق ولهان ذلك الأذان الحلو النغم فيسري في جسده سريان رحيق علوي من روضات الجنان ، وإني لمعترف بأن قصتي التي سميتها «المستعين بالله» ووصفت بها أحد من شغفوا بالشرق وأهله كان استيحاؤها في الجملة من صديقنا هذا عاشق الشرق والإسلام ، ولقد حدثني أنه كان يشتد به حنينه وهو في موطنه (بودابست) على ضفاف الدانوب ، إلى معالم إسلامية فيفتقد حينئذ من المناظر حوله ما يشفي به وجدده ولا يملك إلا أن يهرع لزيارة ضريح المسلم التركي (جول بابا) أو بالأحرى (أبو الورد) .

لقد بدأ حياته محباً للموسيقى عازفا على الكمان ، وحسب أنه يعدّ نفسه ليكون فنانا في عالم الأنغام والألحان ، على أن هواه للموسيقى أرفه من حسّه وأذكي من خياله فصاحب ذلك كفاحه الدراسي ، فجمع بين العلم والأدب ، بين الطاعة لنداء العقل والانجذاب إلى هتاف الروح بين الارتباط بالواقعية الكادحة والتطلع إلى الرومانسية الحاملة ، إنه حقا رجل دنيا ودين ، إذا قصد

المسجد ليؤدي فريضة الصلاة اندمج فيها اندماج ناسك متبقل ، وإذا تحدث إليك في علم وأدب وتاريخ انتفضت فيه شخصية محاضر متزن وقور ولكنك مع ذلك إن جاذبته حديث المفاكهة والمطايبة رفع معك ستار الكلفة وكان منك على خير ما تحب أن يكون» .

إن ذكريات جرمانوس القاهرية لم تجمع بعد في كتاب ، وإنما نجدها متناثرة فيما وعته حافظات أصدقائه الكثيرين ، لقد سمعت كثيرا منها من الدكتور نفسه ومن الأستاذة شوقي أمين ، نقولا يوسف ، ومحمود الشرقاوي ، وأظن أن أصدقاءه الكثيرين يلمون بها ويتنسّمون ريحها الطيب حين يتناقلون حديثه الحبيب ولعل أخي الأستاذ وديع فلسطين يحتفظ في ذاكرته أولا وفي رسائل جرمانوس الكثيرة إليه بطرائف نادرة منها فأنا أعلم أن المراسلات بين الصديقين العزيزين لم تكد تنقطع ، وأذكر أنني كتبت مقالا عن جرمانوس بمجلة الحج ومقالا آخر بمجلة الدعوة وكلتاهما لا تصدران بمصر فلم تقعا بين يدي وكنت مشوقا أن أرسلهما إلى عبد الكريم ثم كان من المصادفات السارة أن يكتب إليّ شاكرا ومقدرا ماجاء بالمقالين ، وأذكر أن الصديق العزيز وديع فلسطين قد تلطف فأرسل المقالين متتابعين إليه في بودابست ، كما أذكر أن البريد الأدبي لمجلة الأديب قد حفل ببعض هذه الرسائل الودیعة ، ومن أطرفها ما ذكره الدكتور جرمانوس من

ذكرياته الأزهرية حين قال في رسالة نشرت بعدد مايو ١٩٧٠
من مجلة الأديب بعد مقدمة طريفة لا تهمنا الآن :

«لي قصة مع الحذاء ترجع إلى أيام التلمذة بالأزهر ، إذ
كان الكتاب الذي أدرس فيه الشريعة مطبوعا على ورق
منهافت وكان الضوء في القاعة ضعيفا فضاع جهد
جرمانوس عبثا في مطالعة الكتاب ، ولكن زميلا له يدعى
الشيخ عثمان رأف به وقدم له نسخة جديدة من الكتاب
قائما بالنسخة القديمة المهلهلة ، لأنه قد حفظ الكتاب
واستظهره ولم تعد به حاجة إلى معاناة قضاياء قال
جرمانوس : فقبلت منه هذه الهدية لاسيما وقد كان متفوقا
في الدرس بعلمه الغزير وفهمه العميق ، ولكن الشيخ
عثمان كان فقيرا عاثر الحظ في الحياة ، وكانت مظاهر الفقر
بادية على ملبسه ، عبقرية في حذائه ، ولدى خروجنا إلى
الدرس توجه الشيخ إلى حذائه البالي لينتعله فسبقته إلى
هناك ، وانتعلت حذاءه ، وتركت له حذائي الجديد وجرت
بيننا معركة وكلانا يقول للآخر مستحيل ، مستحيل ، قلت
لن أقبل الكتاب إلا إذا قبلت الحذاء ثم غادرت الباب متعجلا
وركبت الترام فأخذ الناس - ومنهم إبراهيم المازني
ينظرون إلى حذائي العبقرى في هلهلته ، وحدجني المازني
بنظرته قائلا ما خطبك ، وصاح الآخرون لابد أنه تركي ،
ولم يتركني المازني حتى علم بقصة الحذاء » .

وبمناسبة رسائل الدكتور جرمانوس إلى أصدقائه أذكر

أن أدبه البالغ كان يحتم عليه أن يرد على كل رسالة تصل إليه من القارات الخمس فإذا أهداه مؤلف ناشيء كتاباً أكتب عليه وبادر بتشجيعه فخطله رسالة تظهر التقريظ المشجع وتتغاضى عن النقد الواجب ، وأكثر هؤلاء يغفلون عن معدن الرجل النفيس ويتجاهلون تشجيعه فيحسبون أنهم على شيء ويسارعون بنشر رسائله في شتى الأماكن وفيهم من يجاهد لطبع الكتاب طبعة ثانية ويضع رسالة جرمانوس في فاتحة الكتاب ، ويشاء له تواضعه العظيم أن يزعم أن الكتاب قد لاقى اهتمام القمم البارزة في دوائر الاستشراق ، وأنه يكتفي برسالة جرمانوس ، ولا أريد أن أذكر اسم قصاص ناشيء لا يكاد ينشر قصة في مجلة حتى يبعث بنسخة سريعة إلى جرمانوس ، وحتى يطالب بالرد إن أبطأ ذات مرة ، فإذا جاءه فاخر به ونشره لدى إنسان مثالي آخر ، يفتح باب البريد في مجلته لهذه الرسائل ، وهو الآخر كجرمانوس حيي نبيل : وهكذا ينتهز الأدعياء براءة الوادعين في بودابست وبيروت .

لم أتحدث عما أبدع فيه جرمانوس حين وصف رحلته إلى مكة المكرمة وقيامه بشعائر الحج والعمرة ، وما كتب مؤلفه الرائع (الله أكبر) إلا ليفيخ في تحليل مشاعره المؤمنة حين وطئت قدماه ساحة البيت الحرام ، وكنت طالعت فصولاً منها نشرها الدكتور تباعا بالسنة الرابعة من مجلة الرسالة ، لأن الكتاب بأكمله قد كتب بالمجرية وترجم إلى

الإنجليزية وحرمت العربية من أصل أمين له ، وما فصول
مجلة الرسالة إلا جزء من كل ، وقد يفيد التلخيص حين
نوجز المعارف العلمية ، أما حين يتحدث أديب فنان عن
مشاعره المؤمنة في مواقف عزيزة يعتبرها أعظم المواقف
جلالاً لدى نفسه ، وموضع تحقيق الآمال الهاجسة في
أعماقه فإن التلخيص هنا بتر وتشويه ، وقد كفانا
جرمانوس أن نتحيف حديثه العاطفي بإخلال حين استعاد
التجربة مرة ثانية ، فقام بنشر فصل أدبي رائع بعدد ذي
الحجة سنة ١٣٩٠ هـ من مجلة قافلة الزيت تحت عنوان
(ذكريات من الحج) مزج فيه أحداث حياته السابقة عن
الرحلة بما تلاها من مشاهدة الأماكن المقدسة في مكة مزجا
أزاح الفواصل بين أمد وأمد وجعل التيار العاطفي يتخذ
مجرأه من عهد الصبا إلى زمان الكهولة مترقراقا صافيا ؟ ولا
أدري لماذا يكثر الكاتبون من الاستشهاد بالقصائد
الشعرية في تأهب واحتفال ، فإذا وقع لهم أثر نثري حاولوا
اقتضابه وكأنهم يريدون التخلص من عبء ثقل ، إننا
نخالف هذا المنحى حين ندع جرمانوس يتحدث عن بعض
مشاعره حين أم ساحة البيت الحرام فقال في رهبة
وخشوع :

«في مطلع الفجر أيقظني صوت المؤذن «الله أكبر» فنهضت
من نومي ، وسمعت حركة رفاقي في الغرفة إذ قاموا يتهياون
للصلاة وسمعت انصباب الماء على سواعدهم مشفوعا
بأدعيتهم وتسابيحهم ، فانبسطت نفسي بهذه الأصوات

العذبة ، وتوضأت وصليت ركعتين ، ثم رغب إلينا المطوف أن نذهب للطواف قبل ازدهام الناس ، فوصلنا إلى الكعبة المقدسة ، وفي تلك الدقيقة انفتح أمامي منظر سماوي ، إذ شاهدت هذه البنية العظيمة تكسوها شقق الديباج ، وحولها من النساء والرجال أمواج ، والأصوات مرتفعة إلى الله بالدعاء والاسترحام (الله أكبر) كلمة كانت هي الرباط الذي ينتظمنا جميعا ، ويوحى إلي شعورا يخلقني خلقا جديدا فتحوّلت من إنسان دنيوي إلى مؤمن مفكر يستشعر عظمة الله ورخص الحياة فوقفت لحظة أفكر وأقول في نفسي : ليست هذه أول مرة أرى فيها هذا البيت المشرف المشرق ، كم وصف قرائته على صفحات الكتب ، وكم صورة رأيته لهذا البيت وكم مرة استعرضت تاريخه منذ سجد آدم لربه الخالق ، وكم مرة قرأت مقاييسه ، طوله وعرضه وارتفاعه ، ولكن الواقع أن كل ما قرأته لم يكن يمت بصلة إلى تلك الكعبة الحقيقية التي أشهدها في هذه اللحظة السعيدة .. ورفعت يدي نحو السماء وكررت الدعاء ، واخذت استعرض أفواج الحجاج الطائفين ، هؤلاء اهل جاوة تقدموا وعيونهم تمتليء عبرة وهؤلاء قوم تتاريون شقوا طريقهم بعضلاتهم القوية وأولئك الصينيون تبدو عيونهم مثل اللوز وقد أظهرت ملامحهم براءة الطفولة وطهارتها ، ووراءهم الأفغان بلحاهم الطويلة ولونهم المعروف وقد جروا حول المطاف كأنهم غزاة في ميدانهم ، وخلفهم الهنود يكررون دعاء المطوف مكبرين صابرين

وهناك النساء في أكسيتهن البيض سفرات يزدحمن في (غير) محاذرة ولا يحتجن إلى كبير محافظة ، فليس في هذه الساعة رجال ونساء ولكن هنا أرواح مؤمنة تستوهب من الله الرحمة والغفران .

ويمضي الحديث الرقيق من الطواف مستعرضا شتى المناسك في واقعية مبدعة وإخلاص أمين .. وأخيرا ماذا أريد أن أقول عن صديقي وأستاذي جرمانوس ؟! أقول إنه قد مات وغاب فلاذرف عليه الدموع ؟! إنه نفسه لا يرى أنه قد مات وإنما انتقل من مكان إلى مكان فحسب ! لقد نشرت له مجلة الأديب (أبريل سنة ١٩٧٤م) رسالة إلى بعض أصدقائه يقول فيها : «قال الصوفيون إن الحياة حلم والموت يقظته والمسلمون لا يهابون الموت أو يخافونه .. يقولون عن المؤمن (توفي) لأنه يذهب إلى ربه . يذهب إلى جنة الله ليأخذ ثواب حياته ، ويكسب نتيجة ما قدمه من عمل . لماذا إذن يبكي المسلمون وينعون أمواتهم بصيحات الألم في علو صوت ؟ لماذا لا يطمئنون ويهدءون للمصير؟» . ولهذا القول مذاق خاص بعد رحيل قائله يختلف في حسي عن مذاقه حين قرأته في حياته اليقينية بفحواه ، وإيماني الثابت بمضمونه .

وإني لأكرره مثنى وثلاث ورباع ! على معرفتي به ، والله عز وجل ذو رحمة تسع الناس ، فليرحم عبدالكريم وقد نزل في جواره ضيفا تسبقه صفحات جهاده الشاق في عمره المديد .

من إصدارات النادي الأدبي الثقافي بجدة

- ١ - قم الاولب « شعر » للاستاذ محمد حسن عواد - نفذ .
- ٢ - الساحر العظيم « شعر » للاستاذ محمد حسن عواد - نفذ .
- ٣ - عكاظ الجديدة « شعر » للاستاذ محمد عواد - نفذ .
- ٤ - الشاطيء والسراة « شعر » للاستاذ محمود عارف - ضم الى مجموعة الشعاعر الشعرية .
- ٥ - من شعر الثورة الفلسطينية « شعر » للاستاذ احمد يوسف الريمائى - نفذ .
- ٦ - ائنين وحنين « شعر شعبي » للاستاذ منصور بن سلطان - طبع .
- ٧ - محرر الرقيق « سليمان بن عبدالمكك دراسة للاستاذ محمد حسن عواد - نفذ .
- ٨ - من وحى الرسالة الخالدة « اسلاميات » محمد علي قدس - طبع .
- ٩ - المنتجع الفسيح « اداب وعلوم » للاستاذ محمد حسن عواد - نفذ .
- ١٠ - طبيب العائلة : د حسن يوسف نصيف - نفذ .
- ١١ - مذكرات طالب (ط ٣) د حسن يوسف نصيف - نفذ .
- ١٢ - شمعة على الدرب « نثر » للدكتور عارف قياصة - طبع .
- ١٣ - اطياف العذارى « شعر » للشاعر الاستاذ مطلق الذيابى - طبع .
- ١٤ - كبوات اليراع . تصويبات لغوية « للشيخ ابى تراب الظاهرى - طبع .
- ١٥ - عندما يورق الصخر شعر - للاستاذ ياسر فتوى - طبع .
- ١٦ - ورد وشوك « مطالعات » للاستاذ حسن عبدالله القرشي - طبع .
- ١٧ - في معترك الحياة مجموعة آراء - للاستاذ عبدالفتاح ابومدين - طبع .
- ١٨ - المجموعة الشعرية للاستاذ محمد ابراهيم جدع - طبعت .

- ١٩ - الوجيز في المبادئ السياسية في الإسلام - نظرات اسلامية - للاستاذ سعد أبو جيب - طبع .
- ٢٠ - اوهام الكتاب تعقيبات مختلفة - للشيخ ابي تراب الظاهري - طبع .
- ٢١ - علي احمد باكنير حياته وشعره الوطني والاسلامي - دراسة للدكتور احمد السومحي - طبع .
- ٢٢ - نغم والم - شعر الشريف منصور بن سلطان - طبع .
- ٢٣ - الكلب والحضارة - قصص من البيئة - للاستاذ عاشق الهذال - طبع .
- ٢٤ - شواهد القرآن - للشيخ ابي تراب الظاهري - طبع .
- ٢٥ - التشكيل الصوتي في اللغة العربية - للدكتور سلمان العاني - طبع .
- ٢٦ - اريد عمر رائعا - شعر - للشاعر عبدالله جبر - طبع .
- ٢٧ - ترانيم الليل - المجموعة الشعرية الكاملة - للشاعر الاستاذ محمود عارف - طبع .
- ٢٨ - حروف على افق الاصيل - شعر - للاستاذ حمد الزيد - طبع .
- ٢٩ - من ادب جنوب الجزيرة - دراسة - للاستاذ محمد بن احمد عيسى العقيلي - طبع .
- ٣٠ - غناء الشادي - شعر - للشاعر الاستاذ مطلق الذيابي - طبع .
- ٣١ - الذيابي تاريخ وذكريات إعداد الشريف منصور بن سلطان - طبع .
- ٣٢ - محاضرات النادي القسم الاول - طبع .
- ٣٣ - محاضرات النادي القسم الثاني - طبع .
- ٣٤ - محاضرات النادي القسم الثالث - طبع .
- ٣٥ - المتنبي - شاعر مكارم الاخلاق - للاستاذ احمد بن محمد الشامي - طبع .
- ٣٦ - هموم صغيرة - اقاصيص - للاستاذ محمد علي قدس - طبع .
- ٣٧ - امواج واثباح - دراسات ادبية - للاستاذ عبدالفتاح أبو مدين - طبع (الطبعة الثانية)
- ٣٨ - الخطيئة والتكفير - من البنيوية الى التشريرية - للاستاذ الدكتور عبدالله الغدامي - طبع .

- ٣٩ - التجديد في الشعر الحديث - دراسة أدبية للدكتور يوسف عز الدين - طبع .
- ٤٠ - التراث الثقافي للأجناس البشرية في إفريقيا .. دراسة علمية للدكتور عبد العليم عبد الرحمن جعفر - طبع .
- ٤١ - فلسفة المجاز .. دراسة لغوية للدكتور لطفي عبد البديع - طبع .
- ٤٢ - بكيتك نواة الفال ، سجببتك جسد الوجد - شعر عبدالله عبد الرحمن الزيد - طبع .
- ٤٣ - مصادر الأدب النسائي في العالم العربي الحديث للدكتور جوزيف زيدان - طبع .
- ٤٤ - احبك رغم احزاني شعر الدكتور فوزي عيسى - طبع .
- ٤٥ - أبو تمام - دراسة - للاستاذ سعيد السريحي - طبع .
- ٤٦ - العبقرية العربية دراسة لغوية للدكتور / لطفي عبد البديع - طبع .
- ٤٧ - أحاديث - الدكتور - محمد سعيد العوضى - طبع - طبعة ثانية .
- ٤٨ - اغتيال القمر الفلسطيني للاستاذ / أحمد مفلح - طبع .
- ٤٩ - التضاريس - شعر - للاستاذ محمد التبيتي - طبع .
- ٥٠ - ٤ صفر - للاستاذة رجاء عالم - طبع .
- ٥١ - علم اجتماع اللغة - ترجمة عن الانجليزية - الدكتور أبو بكر باقادر - طبع .
- ٥٢ - اقضية وقضاة في الاسلام - للدكتور / كمال محمد عيسى - طبع .
- ٥٣ - علم الاسلوب - للدكتور صلاح فضل - طبع .
- ٥٤ - دليل كتاب النادي - طبع .
- ٥٥ - علي دمر - شعر للاستاذ علي دمر - طبع .
- ٥٦ - احبك .. ولكن - مجموعة قصص قصيرة - للاستاذة مريم محمد الغامدي - طبع .
- ٥٧ - مدخل إلى الشعر العربي الحديث - الدكتور نذير العظمة - طبع .
- ٥٨ - محاضرات النادي - الجزء الرابع - طبع .
- ٥٩ - محاضرات النادي - الجزء الخامس - طبع .
- ٦٠ - محاضرات النادي - الجزء السادس - طبع .

- ٦١ - محاضرات النادي - الجزء السابع - طبع .
- ٦٢ - اللغة بين البلاغة والاسلوبية - الدكتور مصطفى ناصف - طبع .
- ٦٣ - جزر فرسان - العقيد متقاعد صالح بن محمد بن مشيلح الحربى - طبع .
- ٦٤ - شواهد القرآن - الجزء الثانى - للشيخ ابي تراب الظاهرى - طبع .
- ٦٥ - الفكر السيکولوجى المعاصر - للدكتور حمد المرزوقى - طبع .
- ٦٦ - مذهب هالى - للدكتور محمد عبده يمانى - طبع .
- ٦٧ - مورفولوجيا الحكاية الخرافية - الدكتور ابو بكر باقادر - طبع .
- ٦٨ - طه حسين والتراث - مصطفى ناصف - طبع .
- ٦٩ - ذاكرة الاسئلة النوارس - عبدالله الخشرى - طبع .
- ٧٠ - قراءة جديدة لتراثنا النقدى المجلد الاول - المجلد الاخر - طبع .





طابت بمطابع دار البلاد - جدة

ت : ٣٣٣-٦٧٠٠ ص . ب : ٧٦١٤ جدة ٢١٤٧٢

● « ليس القول وحده مقياس السمو الخلقي لدى الإنسان ، فكأين من فلاسفة رسموا المثل العليا للخلق الإنساني في أرفع معانيه ، ثم هبطوا بأعمالهم إلى حضيض القتلة والسفاحين ، وما كانت أراؤهم الخلقية غير ستار خادع ، ضاعف مثالبهم لدى الناس ، وشوّه من روائع المعاني .. التي مَحَصوها للقارئ أن تمحيص ، إنما المقياس الحقيقي للداعية الخلقي .. أن يتقيد بما قال ، بحيث تصبح حياته العملية تطبيقاً أميناً لأرائه النظرية . »